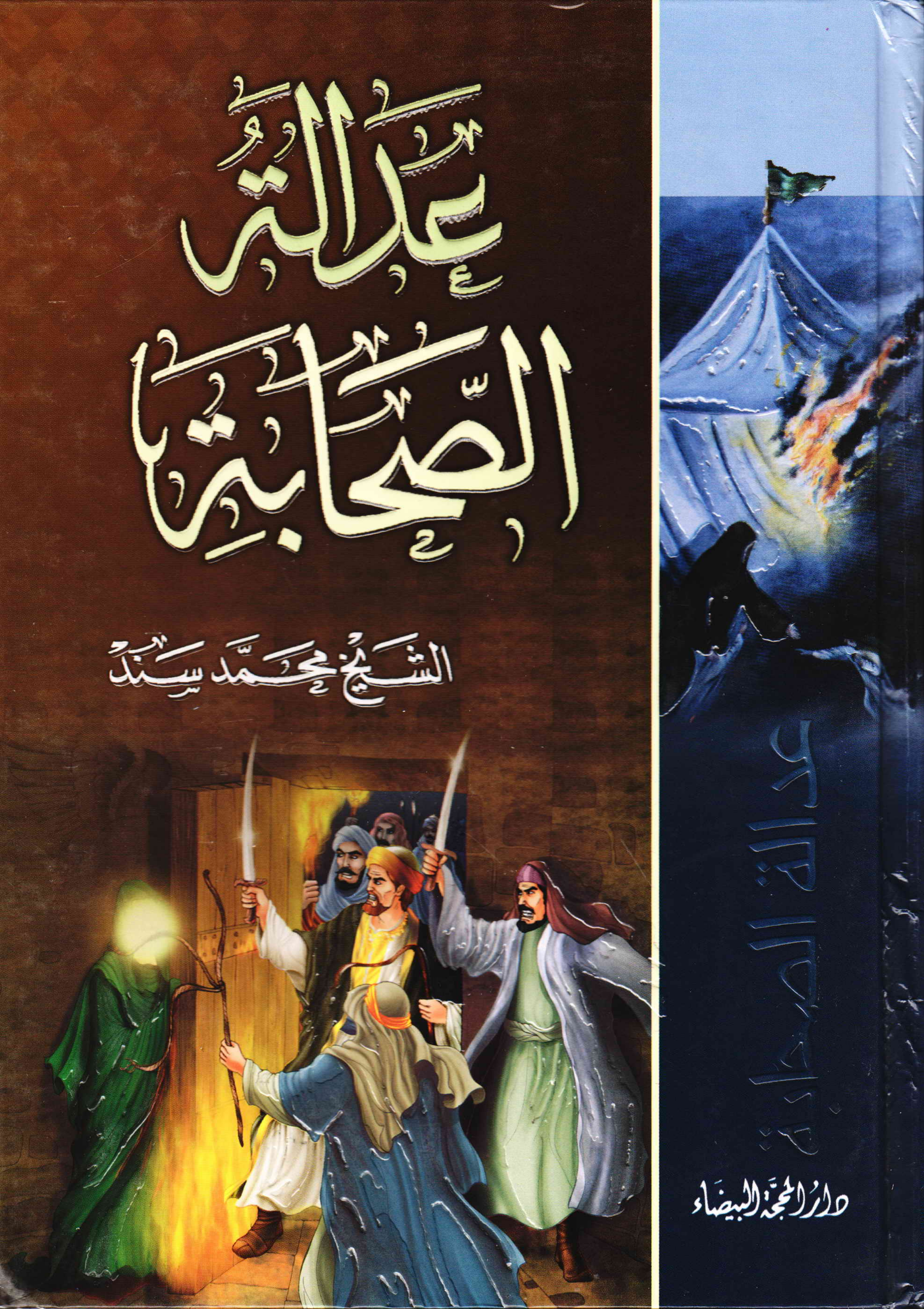


عدالة الصحابة
الشيخ محمد سند
عدالة الصحابة
دار المحجة البيضاء


عدالة الصحابة

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com



الشيخ محمد سند

دار المحجة البيضاء

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمّد، وعلىٰ آله الطيّبين الطاهرين.

وبعد:

فالكلام يقع في عدّة مفردات، منها: مؤدّىٰ العدالة المقصودة، ومنها: دائرة الصحابة المتّصفين بذلك، ومنها: ثمرة القول بذلك، وهي: حجّيّة أقوالهم وأفعالهم، ووجوب الاعتقاد بفضيلتهم وموالاتهم.

فإنّ تحرير المقصود من كلّ مفردة أمر بالغ الأهمّية؛ كي يتّضح أنّ الأدلّة المعتمدة لكلّ قول هل هي مثبتة له؛ أم إنّ هناك تباين بين الدليل والمدّعىٰ؟

فمثلاً يقع الترديد في المراد من العدالة التي تسند ويوصف بها الصحابة أو بعضهم، فإنّها تستعمل بمعنىً يمانع إمكان صدور الخطأ أو المعصية منه، ولا شكّ أنّ هذا المعنىٰ يساوق العصمة!

وكذلك يقع الترديد في المراد من الصحابة، هل هم الّذين اتّفقوا علىٰ بيعة أبي بكر، وكان هواهم ورأيهم علىٰ ذلك؛ أم إنّه يشمل من خالف بيعته ولم يبايعه إلىٰ نهاية المطاف؟

فهل دائرة البحث هي في الصحابة والصحبة؟! أم هي في شرعية بيعة السقيفة؟!!

وكذا الترديد في معنىٰ الحجّية لقول الصحابي وفعله، هل هي بمعنىٰ حجّية قوله كراوٍ من الرواة وأخبار الآحاد، وكذا فعله من جهة كونه أحد المتشرّعة، الكاشف فعله عن الحكم المتلقّىٰ من الشارع، فلا موضوعية لقوله وفعله في نفسه؟..

أم إنّ حجّية قوله وفعله من باب حجّية اجتهاده، ورأيه كمجتهد قد يصيب وقد يخطئ؟!

وإنّه هل يحدّد اجتهاده بموازين الاجتهاد، أم لا ينضبط رأيه بقيود الأدلّة والموازين؟!

أم إنّ حجّية قوله وفعله ـ ولو لبعض الصحابة ـ هي من باب التفويض له في حقّ التشريع، وإنّه مشرّع يخصّص إطلاق وعموم الكتاب والسُنّة، وقد ينسخ السُنّة ويحكم بكون ما يراه من حكم يؤخذ به بمنزلة السُنّة النبويّة في ما لم يأت به الكتاب والسُنّة، وعلىٰ ذلك فلا تصدق علىٰ مخالفته ومباينته للكتاب والسُنّة أنّها مخالفة، وأنّها ردّ لهما، بل هي نسخ أو تقييد وتخصيص لهما؟!

والمتصفّح لكلمات القوم يلوح له تراوحها بين هذه الاحتمالات، وتقلّبها بين هذه الوجوه، وإليك بعض الكلمات المتعلّقة بالبحث:

قال الشريف المرتضىٰ في كتابه **الذريعة إلىٰ أُصول الشريعة** عند ردّه للتصويب، وتخطئة الصحابة بعضهم لبعض، قال: «واعلم أنّنا أسقطنا بهذا الكلام الذي بيّنّاه إلزام المخالفين لنا في خطأ الصحابة أن يكون موجباً للبراءة بذِكر الكبير والصغير الذي هو مذهبهم دون مذهبنا فكأنّنا قلنا لهم: ما ألزمتمونا إيّاه لا يلزمنا علىٰ مذاهبكم في أنّ الصغائر تقع محبطة من غير أن يستحقّ بها الذمّ وقطع الولاية، وإذا أردنا أن نجيب بما يستمرّ علىٰ

أُصولنا ومذاهبنا، فلا يجوز أن نستعير ما ليس هو من أُصولنا.

والجواب الصحيح عن هذه المسألة أنّ الحقّ فـي واحـد مـن هـذه المسائل المذكورة، ومن كان عليه ومهتدياً إليه من جملة الصحابة كانوا أقلّ عدداً وأضعف قوّة وبطشاً ممّن كان علىٰ خلافه ممّا هو خـطأ، وإنّـما لم يُظهِر النكير عليهم والبراءة منهم تقية وخوفاً ونكولاً وضعفاً.

فأمّا تعلّقهم بولاية بعضهم بعضاً مع المخالفة في المذهب، وأنّ ذلك يدلّ علىٰ التصويب، فليس علىٰ ما ظنّوه، وذلك أنّه لم يولّ أحد منهم والياً لا شـريحاً ولا زيـداً ولا غـيرهمـا إلّا علىٰ أن يحكمـوا بكـتاب الله وسُـنّة نبـيّه صلى الله عليه وآله وسلم، وما أجمع عليه المسلمون، ولا يتجاوز الحقّ في الحـوادث ولا يتعدّاه»[1].

قال ابـن السـبكي في **جمع الجـوامع**: «الصحابي من اجتمع مـؤمناً بمحمّـد صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يرو ولم يُطِل، بخلاف التابعي مع الصحابي، وقيل: يُشترطان، وقيل: أحدهما، وقيل: الغزو أو سنة.... والأكثر علىٰ عـدالة الصحابة، وقيل: كغيرهم، وقيل: إلىٰ قـتل عـثمان، وقـيل: إلّا مـن قـاتل عليّـاً»[2].

وشرح ابن المحلّىٰ ـ المتن ـ القول الثاني: «فيبحث عن العدالة فيهم، في الرواية والشهادة، إلّا مَن يكون ظاهر العدالة أو مقطوعها، كالشيخين».

وشرح القول الثالث: «يبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن بينهم من حينئذ وفيهم الممسك عن خوضها».

وشرح القول الرابع: «فهم فسّاق؛ لخروجهم علىٰ الإمام الحقّ، وردّ

---

(١) الذريعة إلىٰ أُصول الشريعة ٢ / ٧٦٧ ـ ٧٦٩.

(٢) حاشية العلّامة البناني علىٰ شرح ابن المحلّىٰ علىٰ متن جمع الجوامع ٢ / ١٦٧.

بأنّهم مجتهدون في قتالهم له فلا يأثمون وإن أخطأوا، بل يؤجرون كما سيأتي في العقائد».

وقال ابن السبكي: «قول الصحابي على صحابي غير حجّة وفاقاً، وكذا على غيره، قال الشيخ الإمام: إلّا في الحكم التعبّدي، وفي تقليده قولان لارتفاع الثقة بمذهبه إذ لم يدوّن، وقيل: حجّة في القياس، فإن اختلف صحابيّان فكدليلين، وقيل: دونه، وفي تخصيصه العموم قولان، وقيل: إن انتشر، وقيل: إن خالف القياس، وقيل: إن انضمّ إليه قياس تقريب، وقيل: قول الشيخين فقط، وقيل: الخلفاء الأربعة، وعن الشافعي إلاّ عليّاً»[١].

وقال في مسألة الاجتهاد في عصر النبيّ ﷺ: «والأصحّ أنّ الاجتهاد جائز في عصره... وثالثها: بإذنه صريحاً، قيل: أو غير صريح، ورابعها: للبعيد، وخامسها: للولاة، وأنّه وقع... وثالثها[٢]: لم يقع للحاضر، ورابعها: الوقف»[٣].

وشرح ابن المحلّى ذلك: «وقيل: لا للقدرة على اليقين في الحكم بتلقّيه منه، واعترض بأنّه لو كان عنده وحي في ذلك لبلّغه للناس، وقد بنى ابن السبكي وغيره من علماء العامّة على جواز الاجتهاد في عصره ﷺ بمعنى إبداء الرأي وإن لم يرد نصّ من الكتاب والسُنّة في القول المزبور على معتقدهم في النبيّ ﷺ والنبوّة، فقد قدم ابن السبكي وغيره على ذلك بقوله: والصحيح جواز تجزّؤ الاجتهاد، وجواز الاجتهاد للنبيّ ﷺ

---

(١) حاشية العلّامة البناني على شرح ابن المحلّى على متن جمع الجوامع ٢ / ٣٥٤.
(٢) هذا التعداد بلحاظ وقوع الاجتهاد، والتعداد السابق بلحاظ حكم الاجتهاد.
(٣) حاشية العلّامة البناني على شرح ابن المحلّى على متن جمع الجوامع ٢ / ٣٨٧.

ووقوعه، وثالثها في الآراء والحروب فقط، والصواب أنّ اجتهاده ﷺ لا يخطئ».

وشرح ابن المحلّىٰ ذلك: «لقوله تعالىٰ: ﴿ **ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرىٰ حتّىٰ يثخن في الأرض** ﴾[1] ﴿ **عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم** ﴾[2].. عوتب علىٰ استبقاء أسرىٰ بدر بالفداء، وعلىٰ الإذن لمن ظهر نفاقه في التخلّف عن غزوة تبوك، ولا يكون العتاب في ما صدر عن وحي، فيكون عن اجتهاد.

وقيل: يمتنع له، لقدرته علىٰ اليقين بالتلقّي من الوحي بأن ينتظره، والقادر علىٰ اليقين في الحكم لا يجوز له الاجتهاد جزماً.

وردّ بأنّ إنزال الوحي ليس في قدرته».

وشرح أنّ اجتهاده ﷺ لا يخطئ «تنزيهاً لمنصب النبوّة عن الخطأ في الاجتهاد.

وقيل: قد يخطئ ولكن ينبّه عليه سريعاً؛ لِما تقدّم في الآيتين؛ ولبشاعة هذا القول عبّر المصنّف بالصواب».

والمعروف لدىٰ مفسّري العامّة ومحدّثيهم أنّ الوحي نزل في موارد بتخطئة النبيّ ﷺ وتصويب رأي عمر ـ والعياذ بالله تعالىٰ! ـ منها ما جرىٰ في أسرىٰ بدر ـ.

وقد رووا في أحاديثهم أنّه قال ﷺ: لو كان من بعدي نبيٌّ لكان عمر.

ومرادهم من اجتهاده ﷺ اعتماده علىٰ الظنّ والرأي ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٦٧.

(٢) سورة التوبة ٩: ٤٣.

وقال ابن السبكي: «ونعتقد أنّ خير الأُمّة بعد نبيّها محمّد ﷺ: أبو بكر خليفته، فعمر، فعثمان، فعليّ، أُمراء المؤمنين... ونمسك عمّا جرىٰ بين الصحابة، ونرىٰ الكلّ مأجورين»[1].

وشرحه ابن المحلّىٰ: «ونمسك عمّا جرىٰ بين الصحابة من المنازعات والمحاربات، التي قُتل بسببها كثير منهم، فتلك دماء طهّر الله منها أيدينا فلا نلوّث بها ألسنتنا، ونرىٰ الكلّ مأجورين في ذلك؛ لأنّه مبنيّ علىٰ الاجتهاد في مسألة ظنّية، فيها أجران علىٰ اجتهاده وإصابته، وللمخطئ أجر علىٰ اجتهاده».

وقال التفتازاني[2]: «يجب تعظيم الصحابة والكفّ عن مطاعنهم، وحمل ما يوجب بظاهره الطعن فيهم علىٰ محامل وتأويلات، سيّما للمهاجرين والأنصار وأهل بيعة الرضوان، ومن شهد بدراً وأُحداً والحديبية، فقال: انعقد علىٰ علوّ شأنهم الإجماع، وشهد بذلك الآيات الصراح، والأخبار الصحاح، وتفاصيلها في كتب الحديث والسير والمناقب، ولقد أمر النبيّ ﷺ بتعظيمهم وكفّ اللسان عن الطعن فيهم، حيث قال: أكرموا أصحابي فإنّهم خياركم...

وتوقّف عليّ عليه السلام في بيعة أبي بكر كان للحزن والكآبة، وعدم الفراغ للنظر والاجتهاد؛ وعن نصرة عثمان بعدم رضاه، لا برضاه، ولهذا قال: والله ما قتلت عثمان، ولا مالأت عليه؛ وتوقّف في قبول البيعة إعظاماً للحادثة، وإنكاراً، وعن قصاص القتلة لشوكتهم، أو لأنّهم عنده بغاة، والباغي لا يؤاخذ بما أتلف من الدم والمال عند البعض.

---

(١) حاشية العلّامة البناني علىٰ شرح ابن المحلّىٰ علىٰ متن جمع الجوامع ٢/٤٢٢.

(٢) شرح المقاصد ـ للتفتازاني ـ ٥/٣٠٣.

قد استقرّت آراء المحقّقين من علماء الديـن عـلىٰ أنّ البـحث عـن أحوال الصحابة وما جرىٰ بينهم من الموافقة والمخالفة ليس مـن العـقائد الدينية، والقواعد الكلامية، وليس له نفع في الدين، بل ربّما يضرّ باليقين، إلّا أنّهم ذكروا نبذاً من ذلك لأمرين:

أحدهما: صون الأذهان السليمة عن التـدنّس بـالعقائد الرديّـة التـي توقعها حكايات بعض الروافض ورواياتهم.

ثانيها: ابتناء بعض الأحكام الفقهية في باب البغاة عليها، إذ ليس في ذلك نصوص يرجع إليها».

وقال في شرح المتن ـ من توقّف عليّ عليه‌السلام عـن نـصرة عـثمان ـ: «وكذا طلحة والزبير؛ إلّا أنّ من حـضر مـن وجـوه المـهاجرين والأنـصار أقسموا عليه وناشدوه الله في حفظ بقيّة الأُمّة وصيانة دار الهجرة، إذ قتلة عثمان قصدوا الاستيلاء علىٰ المدينة، والفتك بأهلها، وكانوا جهلة لا سابقة لهم في الإسلام، ولا علم لهم بأمر الدين، ولا صحبة مع الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، فقبل البيعة».

وقال: إنّ امتناع جماعة من الصحابة، كسعد بن أبي وقّاص، وسعيد ابن زيـد، وأُسـامة بن زيـد، وعبـدالله بن عمر، وغيـرهم، عــن نـصـرة عليّ عليه‌السلام والخروج معه إلىٰ الحروب لم يكن عن نزاع منهم في إمامتـه، ولا عن إباء عمّا وجب عليهم من طاعته؛ بل لأنّه تركهم وآختيارهم من غير إلزام عــلىٰ الخــروج إلىٰ الحـروب، فـاختاروا ذلك بـناءً عـلىٰ أحـاديث رووها...

وأمّا في حرب الجمل وحرب صفّين وحرب الخوارج، فـالمصيب عليٌّ، لِما ثبت له من الإمامة وظهر من التفاوت، لا كـلتا الطـائفتين عـلىٰ

ما هو رأي المصوّبة، ولا إحداهما من غير تعيين على ما هو رأي بعض المعتزلة، والمخالفون بغاة لخروجهم على الإمام الحقّ لشبهة؛ لا فسقة أو كفرة على ما يزعم الشيعة جهلاً بالفرق بين المخالفة والمحاربة بالتأويل وبدونه؛ ولهذا نهىٰ عليٌّ عن لعن أهل الشام وقال: إخواننا بغوا علينا. وقد صحّ رجوع أصحاب الجمل. على أنّ منّا من يقول: إنّ الحرب لم تقع عن عزيمة، وإنّ قصد عائشة لم يكن إلّا إصلاح ذات البين».

وقال: «قاتل عليّ عليه السلام ثلاث فرق من المسلمين على ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: إنّك تقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين:

فالناكثون: هم الّذين نكثوا العهد والبيعة، وخرجوا إلى البصرة، مقدّمهم طلحة والزبير، وقاتلوا عليّاً عليه السلام بعسكر مقدّمهم عائشة في هودج على جمل، أخذ بخطامه كعب بن مسعود، فسمّي ذلك الحرب حرب الجمل.

والمارقون: هم الّذين نزعوا اليد عن طاعة عليّ عليه السلام بعدما بايعوه...

والقاسطون: معاوية وأتباعه الّذين اجتمعوا عليه، وعدلوا عن طريق الحقّ الذي هو بيعة عليّ عليه السلام والدخول تحت طاعته، ذهاباً إلى أنّه مالأ على قتل عثمان حيث ترك معاونته، وجعل قتلته خواصّه وبطانته...

والذي اتّفق عليه أهل الحقّ أنّ المصيب في جميع ذلك عليّ عليه السلام لِما ثبت من إمامته ببيعة أهل الحلّ والعقد، وظهر من تفاوت إمّا بينه وبين المخالفين، سيّما معاوية وأحزابه، وتكاثر من الأخبار في كون الحقّ معه، وما وقع عليه الاتّفاق ـ حتّىٰ من الأعداء ـ إلى أنّه أفضل زمانه، وأنّه لا أحقّ بالإمامة منه.

والمخالفون بغاة؛ لخروجهم على الإمام الحقّ بشبهة، هي تركه

القصاص من قتلة عثمان، ولقوله ﷺ لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية» وقد قتل يوم صفّين على يد أهل الشام، ولقول عليّ رضي الله عنه: إخواننا بغوا علينا؛ وليسوا كفّاراً ولا فسقة ولا ظلمة؛ لِما لهم من التأويل.

وإنْ كان باطلاً، فغاية الأمر أنّهم أخطأوا في الاجتهاد؛ وذلك لا يوجب التفسيق، فضلاً عن التكفير؛ ولهذا منع عليّ رضي الله عنه أصحابه من لعن أهل الشام، وقال: إخواننا بغوا علينا.

كيف؟! وقد صحّ ندم طلحة والزبير، وانصراف الزبير عن الحرب، واشتهر ندم عائشة.

والمحقّون من أصحابنا على أنّ حرب الجمل كانت فلتة من غير قصد من الفريقين، بل كانت تهييجاً من قتلة عثمان، حيث صاروا فرقتين، واختلطوا بالعسكرين، وأقاموا الحرب خوفاً من القصاص؛ وقصد عائشة لم يكن إلّا إصلاح الطائفتين، وتسكين الفتنة، فوقعت في الحرب.

وما ذهب إليه الشيعة من أنّ محاربي عليٍّ كفرة، ومخالفوه فسقة، تمسّكاً بقوله ﷺ: «حربك يا عليّ حربي»، وبأنّ الطاعة واجبة، وترك الواجب فسق، فمن اجتراءاتهم وجهالاتهم، حيث لم يفرّقوا بين ما يكون بتأويل واجتهاد، وبين ما لا يكون.

نعم، لو قلنا بكفر الخوارج بناء على تكفيرهم عليّاً رضي الله عنه لم يبعد، لكنّه بحث آخر.

فإن قيل: لا كلام في أنّ عليّاً أعلم وأفضل، وفي باب الاجتهاد أكمل.

لكن من أين لكم أنّ اجتهاده في هذه المسألة، وحكمه بعدم القصاص على الباغي، أو باشتراط زوال المنعة، صواب؛ واجتهاد القائلين

بالوجوب خطأ ؛ ليصحّ له مقاتلتهم ؟!

وهل هذا إلّا كما إذا خرج طائفة على الإمام ، وطلبوا منه الاقتصاص ممّن قتل مسلماً بالمثقل ؟!

قلنا : ليس قطعنا بخطئهم في الاجتهاد عائداً إلىٰ حكم المسألة نفسه ، بل إلىٰ اعتقادهم أنّ عليّاً عليه السلام يعرف القتلة بأعيانهم ، ويقدر علىٰ الاقتصاص منهم . . . وبهذا يظهر فساد ما ذهب إليه عمرو بن عبيدة وواصل بن عطاء ، من أنّ المصيب إحدىٰ الطائفتين ولا نعلمه علىٰ التعيين .

وكذا ما ذهب إليه البعض ، من أنّ كلتا الطائفين علىٰ الصواب بناءً علىٰ تصويب كلّ مجتهد ؛ وذلك لأنّ الخلاف إنّما هو فيما إذا كان كلّ منهما مجتهداً في الدين علىٰ الشرائط المذكورة في الاجتهاد ، لا في كلّ من يتخيّل شبهة واهية ، ويتأوّل تأويلاً فاسداً .

ولهذا ذهب الأكثرون إلىٰ أنّ أوّل من بغىٰ في الإسلام معاوية ؛ لأنّ قتلة عثمان لم يكونوا بغاة ، بل ظلمة وعتاة ؛ لعدم الاعتداد بشبهتهم ، ولأنّهم بعد كشف الشبهة أصرّوا إصراراً واستكبروا استكباراً»[(١)] .

وقال : «فإن قيل : يزعمون أنّ الوقيعة في الصحابة بالطعن واللعن والتفسيق والتضليل بدعة وضلالة ، وخروج عن مذهب الحقّ ؛ والصحابة أنفسهم كانوا يتقاتلون بالسنان ، ويتقاولون باللسان بما يكره ، وذلك وقيعة .

قلنا : مقاولتهم ومخاشنتهم في الكلام كانت محض نسبة إلىٰ الخطأ ، وتقرير علىٰ قلّة التأمّل ، وقصد إلىٰ الرجوع إلىٰ الحقّ ؛ ومقاتلتهم كانت لارتفاع التباين ، والعود إلىٰ الألفة والاجتماع بعدما لم يكن طريق سواه .

---

(١) شرح المقاصد ٥ / ٣٠٤ ـ ٣٠٩ .

وبالجملة: فلم يقصدوا إلّا الخير والصلاح في الدين.

وأمّا اليوم، فلا معنىً لبسط اللسان فيهم إلّا التهاون بنقلة الدين، الباذلين أنفسهم وأموالهم في نصرته».

ثمّ قال: «وأمّا بعدهم فقد جلّ المصاب، وعظم الواقع، واتسع الخرق على الراقع، إلّا أنّ السلف بالغوا في مجانبة طريق الضلال خوفاً من العاقبة، ونظراً للمآل.

يعني أنّ ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور في كتب التواريخ، والمذكور على ألسنة الثقات، يدلّ بظاهره على أنّ بعضهم قد حاد عن طريق الحقّ، وبلغ حدّ الظلم والفسق؛ وكان الباعث له الحقد والعناد، والحسد واللداد، وطلب الملك والرئاسة والميل إلى اللذّات والشهوات؛ إذ ليس كلّ صحابي معصوماً، ولا كلّ من لقي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالخير موسوماً.

إلّا أنّ العلماء لحسن ظنّهم بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق، وذهبوا إلى أنّهم محفوظون عمّا يوجب التضليل والتفسيق، صوناً لعقائد المسلمين عن الزيغ والضلالة في حقّ كبار الصحابة، سيّما المهاجرين منهم والأنصار، والمبشّرين بالثواب في دار القرار.

وأمّا ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء، ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، إذ تكاد تشهد به الجماد والعجماء، ويبكي له من في الأرض والسماء، وتنهدّ منه الجبال وتنشقّ الصخور، ويبقى سوء عمله على كرّ الشهور ومرّ الدهور، فلعنة الله على من باشر، أو رضي، أو سعى، ولعذاب الآخرة أشدّ

وأبقىٰ .

فإن قيل : فمن علماء المذهب من لم يجوّز اللعن علىٰ يزيد ، مع علمهم بأنّه يستحقّ ما يربو علىٰ ذلك ويزيد .

قلنا : تحامياً عن أن يرتقىٰ إلىٰ الأعلىٰ فالأعلىٰ ، كما هو شعار الروافض علىٰ ما يروىٰ في أدعيتهم ، ويجري في أنديتهم .

فرأىٰ المعتنون بأمر الدين إلجام العوامّ بالكلّية طريقاً إلىٰ الاقتصاد في الاعتقاد ، وبحيث لا تزلّ الأقدام عن السواء ، ولا تضلّ الأفهام بالأهواء ؛ وإلّا فمن يخفىٰ عليه الجواز والاستحقاق ؟ ! وكيف لا يقع عليهما الاتّفاق ؟ !

وهذا هو السرّ في ما نقل عن السلف من المبالغة في مجانبة أهل الضلال ، وسدّ طريقٍ لا يؤمَن أن يجرّ إلىٰ الغواية في المآل ، مع علمهم بحقيقة الحال وجليّة المقال ؛ وقد انكشف لنا ذلك حين اضطربت الأحوال ، وآشرأبّت الأهوال »[1] .

تحليل مفاد هذه المقولة والمسألة

أقول :

لقد أطلنا في نقل عيّنتين ممّا ذكره ابن السبكي في كتابه في أُصول الفقه ، والتفتازاني في **شرح المقاصد** في علم الكلام ؛ لأنّهما نموذجان لكلمات أكثرهم في كتب أُصول الفقه وعلم الكلام والحديث ، كالذي ذكره النووي في شرحه علىٰ صحيح مسلم في باب فضائل الصحابة ، أو ابن

(١) شرح المقاصد ٥ / ٣١٠ ـ ٣١١ .

حجر العسقلاني فـي **شرحـه للبخاري** فـي تـلك الأبـواب ، أو الإيـجي والجرجاني في **شرح المواقف** ، وما يذكروه فـي كـتب الرجـال والتـراجـم والتواريخ ، وكتب التفسير .

وكلماتهم كما ترىٰ تتراوح بين البحث في عـدالة الصـحابي ، وبـين عصمتـه عن الخطأ والباطل والضلال ، وإن كانت العصمة عند العامّة ـ في النبيّ ﷺ والأنبياء ـ هي في حدود تبليغ الأحكام والديـن ، لا مـطلقاً ، فكذلك ما يثبتوه للصحابة !

كما إنّ البحث عن دائرة الصحابة تتراوح بين أقوال لديهم ، من كون الصحابي كلّ من أدرك النبيّ ﷺ وآمن ، أو حدّث عنه ، أو نصره وآزره وبقي مـعه مـدّة طـويلة ، أو الثـلّة التـي أعـدّت لبيعة السـقيفة ، لا مـطلق المهاجرين والأنصار ، أو هم خصوص الثلاثة أو الأربعة من الخلفاء .

والظاهر أنّ محور الدائرة هم الثلاثة ، وأمّا الدوائر الأوسع المـحيطة فالحديث عنها يتبع الثلاثة ، كي لا يتصاعد الحـديث والطـعن عـليهم إلىٰ الطعن علىٰ الثلاثة .

كما أنّ الغاية من البحث ـ أي المفردة الثالثة المقدّرة في هذا البحث ـ هي حجّية أقوالهم وأفعالهم وسيرتهم وسُـنّتهم ، فقد يتراءىٰ أنّه من بـاب كاشفيّته عن قول النبيّ ﷺ ، ولكن من تجويزهم لاجتهاد الصحابي في حياته ﷺ ، أو قبال النصّ القرآني أو النبوي بالتأوّل ، أو أنّ قول أو فعل الصحابي يخصّص إطلاق الكتاب وإطلاق السُـنّة ، أو أنّ للصحابي الاجتهاد إن لم يكن نصّ يقتضي أنّ حجّـيّته ليست من باب الرواية ، بل من باب مَن له التشريع المفوّض له .

وأظهر ممّا تقدّم في ذلك ، تعليلهم لحجّية سُـنّة خصوص الشيخين

بالحديث الذي نسبوه إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»(١) ، وما ينسبونه إليه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : «خير أُمّتي أبو بكر ، ثمّ عمر» و «ما ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يتقدّم عليه عنده»(٢) .

وما ينسبونه إليه صلى الله عليه وآله وسلم : «لو كان بعدي نبيّ لكان عمر» . .

فإنّ هذا النمط من الاستدلال يعطي تفويض التشريع لهما وإمامتهما في الدين ـ كما أسموا الثلاثة أئمّة الدين ـ لا لصحبتهما للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والرواية عنه كراوين ، ولا كمجتهدين كبقية المجتهدين في الفتيا ، بل كإمامين يسنّان ويشرّعان في الدين ، ويحتذىٰ بهما إلىٰ يوم القيامة .

فحجّية قولهما وفعلهما وسيرتهما ـ علىٰ ذلك ـ ليس من باب حجّية الإخبار كما في الرواة ، ولا من باب حجّية فتوىٰ المفتي أو المجتهد غير الملزمة لبقية المجتهدين ، بل اجتهادهما ـ علىٰ ذلك ـ كاجتهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي قالوا بتجويزه علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اللازم اتّباعه علىٰ كلّ الأمّة ، المجتهدين منهم والعوّام .

ولذلك يستدلّ علماء العامّة كما قال التفتازاني وغيره : «وأمّا السُنّة فقوله عليه السلام : اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» دخل في الخطاب عليّ رضي الله عنه فيكون مأموراً بالاقتداء ، ولا يؤمر الأفضل ولا المساوي بالاقتداء ، سيّما عند الشيعة»(٣) .

مع أنّهم يختلفون في حجّية اجتهاد صحابي علىٰ صحابي آخر ،

---

(١) رواه الترمذي في المناقب ، وآبن ماجة في المقدّمة ، وآبن حنبل في مسنده .

(٢) ويشهد لوضع هذه الأحاديث تأمير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاته لأسامة بن زيد علىٰ الجيش الذي فيه أبو بكر وعمر ، وغير ذلك من الوقائع .

(٣) شرح المقاصد ٥ / ٢٩٢ .

ولذلك يعدّونهما وعثمان أئمّة في الدين، لا صحابة كبقية الصحابة.

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ حيثية وجهة الصحبة للنبيّ ﷺ غاية ما توجب ـ علىٰ تقدير عدم الموانع المضادّة ـ: الشرف والفضيلة والرواية عنه، وكذلك البيعة والشورىٰ ـ علىٰ ما يقرّر في قول العامّة ـ غاية ما توجب: تولّي الأمر وولاية الأُمور التنفيذية، لا التفويض في التشريع، ولا العصمة من الزلل والخطل، ولا صلاحية السنّ في الدين سُنناً تخلد إلىٰ يوم القيامة.

فهذا النمط من الدعوىٰ في الشيخين، أو في الثلاثة، هو صياغة للإمامة بالنصّ، ولكون الإمامة عهد من الله ورسوله، فسيتبيّن أنّ العامّة ملجَأون فطرياً، وباضطرار الحجّة المنطقية العقلية، إلىٰ تنظير الإمامة المنصوصة، وإنّها عهد إلٰهي ونبويّ، غاية الأمر أنّهم يطبّقونه علىٰ الثلاثة، ومنضمّاً إلىٰ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كإمام رابع، وبعضهم يضيف الحسن ابن عليّ عليه السلام، وبعضهم يوسّع الدائرة إلىٰ روّاد العلماء في علم وعلوم الدين، وإنّ اجتهاداتهم لا تردّ!

بيان تردّد العامّة في معنىٰ المسألة:

فالحكم بفضائل الصحابة وفضيلة الصحبة عنوان فضفاض عائم يتردّد بين أن تعطىٰ الحجّية له كإمام منصوص عليه بالاتّباع له، وإنّ له تفويض التشريع فيما لا نصّ له، أو غير ذلك، أو الحجّية له كمجتهد يجوز عليه الخطأ، أو كحجّية راوٍ بجانب الحظوة بشرف الصحبة، مع فرض الوفاء بعهدتها من دون تبديل ونكث.

قال ابن السبكي في **جمع الجوامع** وشارحه ابن المحلّىٰ في مسألة الإجماع: وهو اتّفاق مجتهدو الأُمّة بعد وفاة محمّد ﷺ في عصر علىٰ

أيّ أمرٍ كان، فعُلم اختصاصه بالمجتهدين... وعدم انعقاده في حياة النبيّ ﷺ، وأنّ التابعي المجتهد معتبر معهم ـ فإن نشأ بعد فعلىٰ الخلاف في انقراض العصر..

وإنّ إجماع كلّ من أهل المدينة النبوية، وأهل البيت النبوي، وهم: فاطمة وعليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم، والخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، والشيخين أبي بكر وعمر، وأهل الحرمين مكّة والمدينة... وهو الصحيح في الكلّ...

وقيل: إنّه في ما قبل الأخيرة من الستّ حجّة..

أمّا في الأولىٰ: فلحديث الصحيحين: «إنّما المدينة كالكير، تنفي خبثها، وينصع طيبها»، والخطأ خبثٌ، فيكون منفياً عن أهلها.

وأُجيب بصدوره منهم بلا شكّ، لانتفاء عصمتهم، فيحمل الحديث علىٰ أنّها في نفسها فاضلة مباركة.

وأمّا في الثانية: فلقوله تعالىٰ: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾[1]، والخطأ رجس، فيكون منفياً عنهم، وهم من تقدّم، لِما روىٰ الترمذي عن عمر بن أبي سلمة، أنّه لمّا نزلت هذه الآية لفّ النبيّ ﷺ عليهم كساء، وقال: «هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي، اللّهمّ أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[2].

وروىٰ مسلم عن عائشة، قالت: خرج النبيّ ﷺ غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن عليّ فأدخله، ثمّ جاء الحسين فأدخله معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ جاء عليّ فأدخله، ثمّ قال:

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٣.

(٢) سنن الترمذي

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[1].

وأُجيب: بمنع أنّ الخطأ رجس، والرجس قيل: العذاب، وقيل: الإثم، وقيل: كلّ مستقذَر ومستنكَر.

وأمّا في الثالثة: فلقوله ﷺ: «عليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ» رواه الترمذي وغيره، وصحّحه وقال: «الخلافة من بعده ثلاثون، ثمّ تكون مُلكاً» أي: تصير.

أخرجه أبو حاتم وأحمد في **المناقب**، وكانت مدّة الأربعة هذه المدّة إلّا ستّة أشهر مدّة الحسن بن عليّ، فقد حثّ علىٰ اتّباعهم، فينتفي عنهم الخطأ.

وأُجيب بمنع انتفائه.

وأمّا في الرابعة: فلقوله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، رواه الترمذي وغيره وحسّنه.

أمر بالاقتداء بهما، فينتفي عنهما الخطأ.

وأجيب بمنع انتفائه»[2].

وعلّق البناني علىٰ قوله: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»: أخذ من هذا علم الخلفاء في الحديث قبله، ففيه ما ليس في الذي قبله.

واستفيد منه أيضاً كون سيّدنا الحسن خليفة، لتكميله الستّة الأشهر الباقية من الثلاثين، ومن ثمّ قالوا: إنّه آخر الخلفاء الراشدين بنصّ

---

(١) صحيح مسلم

(٢) حاشية العلّامة البناني علىٰ شرح الجلال ـ لابن المحلّىٰ ـ علىٰ متن جمع الجوامع ـ لابن السبكي ـ ٢ / ١٧٩ ـ ١٨٠.

جدّه ﷺ ، ولّي الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعة أهل الكوفة ، فأقام فيها ستّة أشهر وأيّاماً ثمّ خلع نفسه عليه السلام وسلّم الأمر لسيّدنا معاوية صوناً لدماء المسلمين ، وذلك مصداق قول جدّه ﷺ : «إنّ ابني هذا سيّد ، ولعلّ الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» .

قال الشهاب : «وقضية اعتبار موافقة سيّدنا الحسن للأربعة» ، وعلّق البناني على قوله : «الثالثة .. والرابعة» : وأُجيب بمنع انتفائه .

لقائل أن يقول : لو اقتصر في الاستدلال في الأُولىٰ علىٰ قوله : «فقد حثّ علىٰ اتّباعهم» وذلك يستلزم أنّ قولهم حجّة ، وإلّا لم يصحّ اتّباعهم ، وفي الثانية علىٰ قوله : «أمر بالاقتداء بهما» فدلّ علىٰ أنّ قوله حجّة ، وإلّا لم يصحّ الاقتداء بهما ؛ لتمّ الاستدلال ولم يلاقه هذا الجواب ، فأيّ حاجة إلىٰ اعتبار انتفاء الخطأ في الاستدلال حتّىٰ توجّه هذا الجواب ؟!»[1] .

وعلّق الشربيني علىٰ قول ابن المحلّىٰ ـ الذي تقدّم التعليق السابق عليه ـ : «أي : لأنّ الحثّ علىٰ اتّباعهم لا يستلزم أنّ قولهم حجّة ؛ لأنّ قوله ﷺ : عليكم بسُنّتي ... ، و : اقتدوا باللذين ... إنّما يدلّان علىٰ أهليّة الأربعة والاثنين لتقليد المقلّد لهم ، لا علىٰ حجّية قولهم علىٰ المجتهد ..

ولأنّه لو كان قولهم حجّة لَما جاز الأخذ بقول كلّ صحابي خالفهم ، وإنّه جائز لقوله ﷺ : أصحابي كالنجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم ؛ ولقوله ﷺ : خذوا شطر دينكم عن الحميراء[2] ، فوجب الحمل علىٰ تقليد المقلّد جمعاً بين الأدلّة .

---

(١) حاشية العلّامة البناني علىٰ شرح ابن المحلّىٰ علىٰ متن جمع الجوامع ٢ / ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) مع أن تحريضها علىٰ قتل عثمان وخروجها علىٰ عليّ عليه السلام ثابت ومقرّر عندهم .

كذا في العضد وحاشيته السعدية، فاندفع ما في الحاشية هنا»[١].

أقـول:

مـن البيّن الجلي أنّ حجّية قول الأوّل والثاني، أو بـضميمة الثـالث عندهم ـ بحسب هذه المداولة ـ مردّدة في كلماتهم علىٰ الاحتمالات الثلاثة السابقة، وأنّ ما ذكره البناني من عدم الحاجة في الحـجّية لاعـتبار انـتفاء الخطأ ناشئ من الغفلة عن اختلاف سنخ الحجّية بـين الإمـام المـنصوص عليه، المعصوم من الخطأ، وأنّ إمامته كعهد من الله ورسوله المشار إليه في قـوله تـعالىٰ: ﴿ **لا يـنال عـهدي الظـالمين** ﴾[٢]، وبـين الحـجّية لفـتوىٰ المجتهد، التي هي علىٰ نمطين عندهم أيضاً..

فتارة لا يخطئ وإن كان مدركه ظنّياً، كما تقدّم نقله قولهم بذلك الذي ذهبوا إليه في حقّ النبيّ ﷺ ـ والعياذ بالله ـ.

وأُخرىٰ أنّ المجتهد يخطئ، وبناءً علىٰ التخطئة فلا يلزم حجّية قوله مطلقاً، كما أنّها لا تشمل المجتهد الآخر.

وإذا انفتح باب الخطأ علىٰ الثلاثة فلا عصمة في البين، ويمكن تطرّق المخالفة العلمية أو العملية للأحكام الواقعية.

كما إنّه علىٰ فرض كون أقوالهم من باب الاجتهاد، فلا بُـدّ من أن تنضبط بموازين الاجتهاد، لا أن يكون مطلق إبداء الرأي أمام النصّ اجتهاداً بذريعة باب التأويل والتأوّل، فهناك حدّ فاصل بين الاجتهاد وبين مخالفة

---

(١) تعليق (تقرير) الشربيني علىٰ شرح ابن المحلّىٰ علىٰ متن جمع الجوامع ٢ / ١٨٠.
(٢) سورة البقرة ٢ : ١٢٤.

الكتاب والسُّنّة ؛ وبين إبداء الرأي وبين الردّ علىٰ الرسول ؛ وبين الاجتهاد علىٰ الموازين وإن أخطأ وبين الشقاق مع الله ورسوله .

ثمّ إنّه يعزّز هذا الترديد عند العامّة ما اشترطه عبد الرحمٰن بن عوف علىٰ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام يوم الشورىٰ ، قال التفتازاني[1] : «ثمّ جعلوا الاختيار إلىٰ عبد الرحمٰن بن عوف ، فأخذ بيد عليّ رضي‌الله‌عنه وقال : تبايعني علىٰ كتاب الله وسُنّة رسول الله وسيرة الشيخين ، فقال : علىٰ كتاب الله وسُنّة رسول الله وأجتهد برأيي . ثمّ قال مثل ذلك لعثمان فأجابه إلىٰ ما دعاه ، وكرّر عليهما ثلاث مرّات ، فأجابا بالجواب الأوّل ، فبايع عثمان . . .

وقول عليّ رضي‌الله‌عنه : (وأجتهد برأيي) ليس خلافاً منه في إمامة الشيخين ، بل ذهاباً إلىٰ أنّه لا يجوز للمجتهد تقليد مجتهد آخر ، بل عليه اتّباع اجتهاده ، وكان من مذهب عثمان وعبد الرحمٰن أنّه يجوز إذا كان الآخر أعلم وأبصر بوجوه المقاييس» .

أقول :

لو سلم تأويل التفتازاني لإباء عليّ عليه‌السلام لسيرة الشيخين ، وأنّه من باب عدم حجّية اجتهادهما ، إلّا أنّه أسقط حجّية سيرتهما مطلقاً ، ولم يحتمل فيها أنّها من باب الرواية لاحتمال اطّلاعهما علىٰ قول أو فعل للنبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لم يطّلع عليه غيرهما .

وبعبارة أُخرىٰ : مدّعىٰ العامّة في حجّية قولهما وسيرتهما يتردّد لديهم كما قدّمنا بين ذلك ، فالإعراض عن سيرتهما يعني إسقاط لكلّ وجوه

---

(١) شرح المقاصد ٥ / ٢٨٨ .

الحجّية المدّعاة في سيرة الشيخين، ولا يفوت الباحث تذكّر امتناع عليّ عليه السلام عن بيعة أبي بكر مع موقفه يوم الشورىٰ هذا.

ثمّ إنّ هذا التوجيه من التفتازاني يناقض ما قدّمنا نقله عنه، من دخول عليّ عليه السلام في الخطاب المنسوب إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، وأنّه مأموراً بالاقتداء بهما[1].

فإذا كان حجّية قولهما من باب الاجتهاد، فكيف يجعل الأمر بالاقتداء بهما دالّ علىٰ إمامتهما للناس؟! بل اللازم أن يكون الأمر المزبور ـ علىٰ تقدير صدق النسبة ـ محمول علىٰ حجّية فتوىٰ المجتهد، لا علىٰ كونه عهد من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ إمامتهما.

وإذا حمله علىٰ الإمامة، فكيف يخالف عليّ عليه السلام ذلك؟! فيدلّ إسقاطه لحجّية قولهما علىٰ وضع هذا الحديث، وتدليس نسبته إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ونحو هذا الحديث بقية الأحاديث المدّعاة من هذا النمط.

الخدشة في أدلّة المسألة عند العامّة:

ويشهد للوضع ـ لجملة هذه الأحاديث ـ أنّه لو قُدّر صدورها فكيف لم يحتجّ بها أصحاب بيعة السقيفة علىٰ عليّ عليه السلام وجماعته الّذين امتنعوا من البيعة؟!

كما لم يحتجّ بها عبد الرحمٰن بن عوف علىٰ عليّ عليه السلام يوم الشورىٰ عندما أبىٰ عليّ عليه السلام من اتباع سيرة الشيخين، وأبىٰ مشارطة عبد الرحمٰن ابن عوف علىٰ ذلك؟!

---

(١) شرح المقاصد ٥/٢٩٢.

وأحسب أنّ سبب وقوع التفتازاني وأمثاله في مثل هذه التوجيهات المتدافعة، إمّا إلىٰ إبهام تباين معاني الحجّية لديهم وعدم تفرّقتهم بين الإمامة في الدين كعهد من الله ورسوله، وبين حجّية فتوىٰ المجتهد، وبين حجّية إخبار الراوي..

ويومئ إلىٰ هذا الاحتمال ذهابهم إلىٰ اجتهاد الرسول الأكرم ﷺ في الدين والحكم ـ مع أنّه سيأتي بطلان هذه المزعمة بشهادة الآيات القرآنية ـ، فإنّه ـ كما سيتّضح ـ يؤول إلىٰ نقص في معرفة حقيقة النبوّة والرسالة..

وإمّا إلىٰ تورّطهم في شباك مثل هذه الأحاديث الآحاد في قبال الشواهد التاريخية القطعية والأحاديث المتواترة الأُخرىٰ، مضافاً إلىٰ الدأب علىٰ الجري علىٰ معتقد الآباء!

والمهمّ: التنبيه علىٰ عدم تلاءُم تعليلاتهم المختلفة لحجّية قول الشيخين، أو الثلاثة، ولا تفسيراتهم، لمخالفاتهم لأوامر النبيّ ﷺ، سواء في حياته أو بعدها، إذ كونهما ذَوا امتيازات للإمامة العهدية الإلٰهيّة، لا يلتئم مع تعليلهم أنّهما مجتهدان بحسب ما توصّل إليه، وأنّ لهما التأوّل في خطابات القرآن والسُنّة، وأنّ فعلهما وقولهما حجّة لأنّه يكشف عن اطّلاعهم علىٰ قول أو فعل للنبيّ ﷺ لم نطّلع عليه ولم يصل إلينا.

ثمّ إنّه كيف يجمعون بين مسألة حجّية قول الصحابة وفعلهم، وبين مسألة حرمة التفتيش عن أحوال الصحابة والفتن التي وقعت بينهم والمقاتلة وترك الخوض فيها؟!

فإنّ هذه الحرمة وهذا المنع يتدافع مع الحجّية من جهات عديدة، ويتناقض ويتقاطع معها بأيّ معنىً كان من معاني الحجّية بُني عليه!

ولتبيين هذا التدافع، تأمّل الاعتقاد برسالة النبيّ الخاتم ﷺ وقوله تعالىٰ: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾[1] فإنّه قد جهد المسلمون جهدهم في استقصاء أفعاله وأقواله، وسيرته وغزواته، وحركاته وسكناته، وصلحه وحربه، ومودّته مع مَن، وعدائه مع مَن، ورحِمِه وأهله وعشيرته ووُلده وزوجاته، واحتجاجاته، وصفاته، وكلّ صغيرة وكبيرة مرتبطة بوجوده الشريف ﷺ.. كلّ ذلك لتقام الحجّة في أقواله وأفعاله، وتبلغ مسامع المكلّفين، ويأخذوا بهدي شريعته، وإلّا فكيف تبلغ الحجّة مع انقطاع الخبر وإبهام الحال؟!

فالحال في حجّية أقوال وأفعال الصحابة وسيرتهم لا بُدّ في تحقّقها من دراسة سيرتهم وحياتهم وأقوالهم، لا سيّما وأنّ ما جرىٰ من الفتن بينهم واقع في المسائل الدينية وما يرتبط بالشرع، سواء في المسائل الفرعية أو الأُصولية المرتبطة بالإمامة والحكم وحفظ الدين وإحراز السُنّة النبوّية وتفسير الكتاب، وبدعية بعض الأفعال من رأس أو ركنيّتها في الدين، والإقامة علىٰ العديد من السنن المقترحة وجعلها معالماً للدين.

ولقد كان الاختلاف بينهم والتضليل إلىٰ حدّ المقاتلة، وهي تعني استباحة كلّ طرف دم الطرف الآخر، فكلّ طرف يرىٰ الطرف الآخر مقيم علىٰ أمر وحال يبيح معه دمه، فإذا كان زعم العامّة أنّه لا بُدّ من ترك الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة، حفظاً لحرمة الصحابة وتعظيماً وتجليلاً لصحبتهم، فهذا الخطب أَوْلىٰ الناس بمراعاته ـ في ما بينهم ـ الصحابةُ أنفسهم، لا الانتهاء إلىٰ نقيض ذلك من استباحة دم الطرف الآخر.

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

فليس إلّا أنّ الخطب جليل، أَحبط في نظر الطرف الأوّل ما للطرف الآخر من أعمال وسابقة، وآنتفت حرمته إلىٰ استباحة دمه!

فمع كلّ ذلك، كيف يسوغ لنا الاحتجاج بأقوال وأفعال كلّ من المصيب والخاطئ، والمحقّ والمبطل، والهادي والضالّ، والمستقيم الموفي لِما عاهد عليه الله ورسوله، والمبدّل الناكث لِما عاهد؟!

وهل هذا إلّا جمع بين المتناقضين، وقلّة الحرج في الدين، وتهوين لأمر الدين؟!

وقول التفتازاني وغيره المتقدّم: «إنّ مقاتلتهم كانت لارتفاع التباين والعود إلىٰ الأُلفة والاجتماع بعدما لم يكن طريق سواه. وبالجملة: فلم يقصدوا إلّا الخير والصلاح في الدين. وأمّا اليوم، فلا معنىٰ لبسط اللسان فيهم إلّا التهاون بنقلة الدين، الباذلين أنفسهم وأموالهم في نصرته».

نعم، كانت لارتفاع التباين والعود إلىٰ... ولكنّها تقتضي مدافعة الطرف الآخر ولو بإراقة دمه وآستباحته، لإقامته علىٰ المنكَر والباطل؛ فهذا يبرهن علىٰ المباينة في سيرتهم وأقوالهم ودعوتهم.

وعلىٰ تقدير وجود قصد الصلاح في الدين في كلّ من الطرفين، فهذا لا يبرّر اتّباع الطرف المقيم علىٰ المنكَر والباطل، ومجرّد حسن النية ـ علىٰ تقدير التسليم به ـ لا يدلّل علىٰ سلامة النهج، ولا يرفع التباين بين السيرتين والقولين ـ وقد أقرّ بذلك ـ، فكيف يتّصف بالحجّية كِلا الطرفين المتباينَين وهو ممتنع؛ فلا بُدّ من الفحص عن المحقّ الهادي إلىٰ سواء السبيل، قال تعالىٰ **﴿أفمن يهدي إلىٰ الحقّ أحقّ أن يُتّبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يهدىٰ فما لكم كيف تحكمون﴾**[1].

---

(١) سورة يونس ١٠: ٣٥.

وبعبارة أُخرىٰ : إنّ حجّية أقوال وأفعال الصحابة أو الثلّة منهم ، إمّا أن تكون من باب الإمامة المنصوصة من الله ورسوله ، ومن الواضح أنّه مع التباين بينهم لا يمكن أن يكون كِلا الطرفين منصوص عليه بالإمامة . .

وإمّا من باب حجّية قول المجتهد وفتواه ، لكونه من أهل الخبرة ، فمن الواضح أيضاً أنّه مع الاختلاف والتقاطع لا بُدّ من اتّباع الأعلم والواجد للشرائط المؤهّلة ـ وبنحو الوفور التامّ ـ دون غيره . .

وإمّا من باب حجّية المخبر في أخباره ، أي حجّية رواية الراوي الثقة ، وهذا أيضاً يوجب علينا إحراز صفة الوثاقة والعدالة عند أحد المتنازعين ، لا سيّما وأنّ النزاع مستفحل شديد قد وصل إلىٰ استباحة الدم .

الأحاديث النافية للمسألة :

ثمّ إنّه يكفي الباحث نظرة في كتاب الفتن من الصحاح لديهم ، كي يصل إلىٰ هذه النتيجة من لزوم التمحيص والفحص عن الطرف المحقّ ـ في الصحابة ـ من الطرف المبطل . .

* فقد روىٰ البخاري في الباب الأوّل من كتاب الفتن ، عن أبي وائل ، قال : قال عبدالله : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «أنا فرطكم علىٰ الحوض ، وليرفعنّ معي رجال منكم ، ثمّ ليختلجنّ دوني ، فأقول : يا ربّ ! أصحابي ؟ ! فيقال : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1] .

فهذا دالّ علىٰ إحداث من بعض الصحابة بعده ، وظاهر الحديث أنّ هؤلاء الصحابة ممّن كانوا قد استمعوا خطبة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لاستعماله كاف الخطاب .

---

(١) صحيح البخاري ٨ / ٢١٤ ح ١٥٧ ، وآنظر : فتح الباري ١١ / ٥٦٦ ح ٦٥٧٦ .

* وروىٰ البخاري عن سهل بن سعد، أنّه قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: إني فرطكم علىٰ الحوض، من مرّ عليَّ شرب، ومن شرب منه لم يظمأ أبداً، ليردنّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثمّ يحال بيني وبينهم»، وزاد أبو سعيد الخدري: «فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي»[1].

وهذا الحديث ـ أيضاً ـ دالّ علىٰ تبديل بعض الصحابة بعده صلى الله عليه وآله وسلم، وظاهر الحديث هو كون صحبة هؤلاء الصحابة ـ المعنيّين بالحديث ـ كانت وثيقة به صلى الله عليه وآله وسلم، ومعرفته وطيدة بهم، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أعرفهم ويعرفوني».

أقول:

كيف تلتئم هذه الأحاديث مع ما يزعمونه من حديث «أصحابي كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم»؟! إلّا أن يكون في الحديث سقط أُسقِط!!

* ويروي في الباب الثاني عن عبدالله، قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها...».. الحديث[2].

وهذا الحديث يدلّ علىٰ وقوع أثرة وحرص علىٰ طلب الدنيا، وكذا وقوع الأُمور المنكَرة بعده صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالىٰ: **﴿وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرّسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضُرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**[3].

(١) صحيح البخاري ٨/٢١٦ ح ١٦٤، وآنظر: فتح الباري ١١/٥٦٧ ح ٦٥٨٣.
(٢) صحيح البخاري ٩/٨٤ ح ٤، وآنظر: فتح الباري ١٣/٥ ح ٧٠٥٢.
(٣) سورة آل عمران ٣: ١٤٤.

وستأتي الإشارة في سورة الفتح إلىٰ ذلك، في من بايع بيعة الرضوان.

* وروىٰ في الباب السادس، أنّ أُمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من الليل وهو يقول: لا إله إلّا الله، ماذا أُنزل الليلة من الفتنة؟! ماذا أُنزل من الخزائن؟! مَن يوقظ صواحب الحُجُرات ـ يريد أزواجه ـ؟! كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة!»[1].

ففي شرح ابن حجر العسقلاني علىٰ الحديث قال: قال ابن بطّال: «قرن النبيّ ﷺ نزول الخزائن بالفتنة إشارة إلىٰ أنّها تسبّب عنها، وإلىٰ أنّ القصد في الأمر خير من الإكثار وأسلم من الفتنة...»[2].

أي أنّ الفتوح في الخزائن تنشأ عنه فتنة المال، بأن يتنافس فيه فيقع القتال بسببه، وأن يبخل به فيمنع الحقّ، أو يبطر صاحبه فيسرف، فأراد النبيّ ﷺ تحذير أزواجه من ذلك كلّه.

أقول:

وستأتي الإشارة في سورة الأنفال وغيرها إلىٰ أنّ غرض وغاية جمع من الصحابة في غزوات النبيّ ﷺ هو عَرَض الحياة الدنيا ومتاعها من الغنائم، فضلاً عن الفتوحات التي وقعت بعده، ويكفيك لإثبات ذلك رصد ما ترك العديد من الصحابة من أموال وثروات طائلة عند موتهم.

* وروىٰ في الباب الثامن قول النبيّ ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

---

(١) صحيح البخاري ٧/٢٧٩ ح ٦٢.

(٢) فتح الباري ١٠/٣٧٢ ح ٥٨٤٤.

(٣) صحيح البخاري ٦/١٤ ذح ٣٩٥ و ح ٣٩٧، آنظر: فتح الباري ٨/١٣٥ ح ٤٤٠٥

* وروىٰ في الباب الثامن عشر عن أبي بكرة، قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل، بعدما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأُقاتل معهم، قال: لمّا بلغ رسول الله ﷺ أنّ أهل فارس قد ملّكوا عليهم بنت كسرىٰ، قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[1].

* وروىٰ عن الأسدي، قال: «لمّا سار طلحة والزبير وعائشة إلىٰ البصرة بعث عليٌّ عمّار بن ياسر وحسن بن عليّ فقدما علينا الكوفة، فصعد المنبر، فكان الحسن بن عليّ فوق المنبر في أعلاه، وقام عمّار أسفل من الحسن، فاجتمعنا إليه، فسمعت عمّاراً يقول: إنّ عائشة قد سارت إلىٰ البصرة، ووالله إنّها لزوجة نبيّكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكنّ الله تبارك وتعالىٰ ابتلاكم ليعلم إيّاه تطيعون أم هي؟!»[2].

أقول:

وستأتي الإشارة في سورة الأحزاب إلىٰ أمر نساء النبيّ ﷺ بالقرّ في البيوت.

* وروىٰ في الباب الواحد والعشرين عن حذيفة بن اليمان، قال: «إنّ المنافقين اليوم شرّ منهم علىٰ عهد النبيّ ﷺ، كانوا يومئذ يسرّون واليوم يجهرون»[3].

وج ١٢/ ٢٣٥ ح ٦٨٦٩.

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٧ ح ٤١٧ وج ٩/ ١٠٠ ح ٤٧، وانظر: فتح الباري ٨/ ١٦٠ ح ٤٤٢٥ وج ١٣/ ٦٧ ح ٧٠٩٩.

(٢) صحيح البخاري ٩/ ١٠٠ ح ٤٨، وانظر: فتح الباري ١٣/ ٦٧ ح ٧١٠٠.

(٣) صحيح البخاري ٩/ ١٠٤ ح ٥٧، وانظر: فتح الباري ١٣/ ٨٦ ح ٧١١٣.

فيا ترىٰ إلىٰ من يشير حذيفة ؟! وما هو السبب في حرّية الأجـواء السياسية للمنافقين بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّىٰ صـاروا يـجهرون آمـنين عـلىٰ أنفسهم بينما كانوا في زمانه صلى الله عليه وآله وسلم متستّرين خائفين ؟!

* وروىٰ مسلم في صحيحه ، في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، عن قيس ، قال : قلت لعمّار : أرأيتم صنيعكم هذا الذي صـنعتم فـي أمـر عليّ ، أرأياً رأيتموه أو شيئاً عهده إليكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟! فقال : ما عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً لم يعهده إلىٰ الناس كافّة ، ولكن حذيفة أخبرني عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : في أصحابي اثنا عشر مـنافقاً ، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتّىٰ يلج الجمل في سمّ الخياط ، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة ؛ وأربعة لم أحفظ»[1] .

وعمّار رضي الله عنه يشير هنا إلىٰ أنّ النصوص من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في عليّ عليه السلام ليست خفيّة ، خاصّة عندنا ـ أي الصحابة ـ ، بل هي منتشرة عند الناس ، من حديث الغدير وغيره ، وكان سبب تولّيه لعليّ عليه السلام من بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، من يوم السقيفة إلىٰ يوم قتل عثمان ـ فقد صُنّف عمّار في مَن دبّر ذلك ، كما ذكرت ذلك كتب التواريخ ـ ، إلىٰ يوم الجمل وصفّين .

وصريح الحديث الذي يرويه عمّار عن حذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، أنّ في خاصة الصحابة اثني عشر منافقاً لا يـدخلون الجـنّة ، وأنّ عـمّاراً رأىٰ هؤلاء الاثني عشر في من ناوأ وعادىٰ عليّاً عليه السلام .

ثمّ إنّ هذا الحديث صريح في أنّ ما أتىٰ به الصحابة الّذين تولّوا عليّـاً وناصروه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّىٰ استشهاده عليه السلام كان بتصريح ونصّ من

---

(١) صحيح مسلم ٨/١٢٢ .

النبيّ ﷺ ، وبنفاق مناوئيه وأعدائه ، ولم يكن باجتهاد رأي رأوه كما يقول بذلك علماء العامّة في حكمهم بعدالة الصحابة الّذين ناوؤا الإمام عليّاً عليه السلام .

وقد روىٰ مسلم هذا الحديث بطريق آخر فلاحظ(١) .

* وروىٰ عن أبي الطفيل ، قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أُنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ! قال : كنّا نُخبَر أنّهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأُشهد بالله أنّ اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعَذَر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ، ولا علمنا بما أراد القوم ؛ وقد كان في حرّة فمشىٰ فقال : «إنّ الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد» فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ(٢) .

والمراد بالعقبة عقبة علىٰ طريق تبوك التي اجتمعت تلك العدّة للغدر والفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وقد أشار الله تعالىٰ إليها في سورة التوبة ، ومن الملاحظ أنّ السائل من تلك العدّة التي تقطن المدينة دار الهجرة ، وأنّهم لم يكونوا ظاهري النفاق عند الجميع ، ولاحظ كتب التاريخ في معرفة السائل الذي سأل حذيفة عن تلك العدّة .

* وروىٰ مسلم ـ بعد باب خصال المنافق ـ باباً في أنّ حبّ الأنصار وعليّ عليه السلام من علامات الإيمان وبغضهم من علامات النفاق ؛ فعن زرّ ، قال : قال عليّ : «**والذي فلق الحبّة وبَرَأَ النَسَمة إنّه لَعهدُ النبيّ**

---

(١) صحيح مسلم ٨ / ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٢٣ .

الأُمّيّ ﷺ إليَّ أن لا يُحبّني إلّا مؤمن ، ولا يُبغضني إلّا منافق »[١] .

الوجه العقلي لعدالة الصحابة :

ثمّ إنّه من الغريب تمسّك التفتازاني بوجه عقلي نقلي لعدالة جميع الصحابة ! وهو أنّهم نقلة الدين ؛ ومراده أنّه لولا ذلك لبطل نقل الشريعة ، وهذا غير لازم لنفيها عن المبطل خاصّة دون المحقّ .

هذا ، مع أنّ التفتازاني نفسه ذكر حديث الثقلين آخذاً به ، قال : «إنّه ﷺ قرنهم بكتاب الله في كون التمسّك بهما منقذاً من الضلالة ، ولا معنىٰ للتمسّك بالكتاب إلّا الأخذ بما فيه من العلم والهداية ، فكذا في العترة»[٢] .

فإذا كانت العترة عدل الكتاب في التمسّك بهما كشرط للنجاة من الضلالة ، فأيّ بطلان للشريعة وراء ذلك ؟! وهل يُخلط الحابل بالنابل وتؤخذ الشريعة عمّن لا حظّ له في الإيمان والعلم ؟! بل الاعتماد في الدين علىٰ كلّ من هبّ ودبّ اعتمادٌ علىٰ غير ركن وثيق !

هذا ، ومن المسائل التي تصبّ في هذا البحث وترتبط به بنحوٍ ما هو إصرار أكثر العامّة علىٰ مشروعية إمامة المتغلّب بالقهر والبغي علىٰ رؤوس المسلمين ! وأنّه لا مانع من إمامة الفاسق والجاهل !

ويتردّد الناظر الباحث هل لهذا القول في الإمامة صلة بإمامة الأوائل من الصحابة وقول عمر بن الخطّاب : «إنّما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمّت ، ألا وإنّها كانت كذلك ، ولكنّ الله وقىٰ شرّها... من بايع رجلاً من غير

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٦١ .
(٢) شرح المقاصد ٥ / ٣٣ .

مشورة من المسلمين فلا يُبايَع هو ولا الذي بايعه تغِرّة أن يُقتلا...

فكثر اللغط وآرتفعت الأصوات حتّىٰ فَرِقْتُ من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر... خشينا إن فارَقْنا القومَ ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإمّا بايعناهم علىٰ ما لا نرضىٰ، وإمّا نخالفهم فيكون فسادٌ، فمن بايع رجلاً علىٰ غير مشورة من المسلمين فلا يُتابَع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يُقتلا».

هكذا نصّ عبارته في **صحيح البخاري**[١].

وصدر الحديث هذا هو الذي رواه عن ابن عبّاس، قال: كنت أُقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمٰن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنىً وهو عند عمر بن الخطّاب في آخر حجّة حجّها، إذ رجع إليَّ عبد الرحمٰن فقال: لو رأيتَ رجلاً أتىٰ أميرَ المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين! هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلّا فلتة فتمّت.

فغضب عمر، ثمّ قال: إنّي إن شاء الله لَقائم العشيّة في الناس فمحذّرهم هؤلاء الّذين يريدون أن يغصبوهم أُمورهم.

قال عبد الرحمٰن: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإنّ الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم...

قال ابن عبّاس: فقدمنا المدينة... فلم أَنْشَبْ أن خرج عمر بن الخطّاب، فلمّا رأيته مقبلاً قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولَنّ العشيّة مقالة لم يقلها منذ استُخلِف...

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٣٠٠ ـ ٣٠٤ ح ٢٥ باب «رجم الحبلىٰ من الزنا إذا أحصنت» من كتاب المحاربين من أهل الكفر والردّة.

فجلس عمر على المنبر... ثمّ قال:... ثمّ إنّه بلغني أنّ قائلاً منكم يقول: والله لو مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترّنّ امرؤ أن يقول: إنّما كانت بيعة أبي بكر فلتة...».

فإنّ مسلسل الرواية يصرّح أنّ قائلاً قال بعزمه على أن يبايع بيعة الفلتة، وأنّ عمر غضب، لأنّ هذه البيعة، بيعة الفلتة ـ البغتة والفجأة والنهزة والخلسة والاغترار والمبادرة ـ، لا يقرّها هو، فغضب لأُمور المسلمين، وأنّه يريد تحذيرهم من هؤلاء الغاصبين! وأنّ ما وقع من بيعة أبي بكر كانت كذلك، وكانت ذات شرّ وقى اللهُ المسلمين شرّها، وأنّها من غير مشورة من المسلمين، إذ كان حينها لغط وآختلاف في الآراء عند مداولة أمر الإمامة والخلافة والبيعة بينهم، وأنّ المرتكب لها يستحقّ القتل، وأنّ مباغتته ببيعة الأوّل كانت مدافعةً للآخرين!

هكذا يرسم لنا عمر صورة إمامة أبي بكر.

وعلى أيّة حال، فإنّ مثل هذه الإمامة على تقدير مشروعيّتها ـ بمنطق العسكر والقوّة، لا بمنطق الدين والعقل ـ، فإنّها لا توجب كون صاحبها لا يزلّ ولا يخطأ، وتتبّع سُنّته قائمةً إلى يوم القيامة، ويكون له حظّ المشرّع في الدين.

والحاصل: إنّ تحرير العامّة لمسألة عدالة الصحابة، ومسألة حرمة الخوض في الفتن التي جرت بينهم، ومسألة الإمامة وما يرتبط بها من مسائل أُخرى، يجدها الباحث الناظر مضطربة الوجوه، متردّدة بين الإمامة كعهد من الله ورسوله إلى رجل لا يزلّ ولا يخطأ، وبين كونه مجتهداً كبقية المجتهدين، أو أنّ حجّيّة قوله وفِعله كراوٍ من رواة الأخبار، وأنّ إقامة البحث عن مسألة عدالة الصحابة ليست كما يفيده عنوان البحث، بل هو

حول فئة خاصّة من الصحابة هم الّذين عقدوا البيعة لأبي بكر، وأنّ البحث إنّما هو لضرب سياج وحواجز دون التنقيب والبحث عن أحوال وصفات وممارسات تلك الفئة، وأنّ ما عقدوه من مباحث ومسائل الإمامة هو الآخر في هذا الاتجاه!

وممّا يشهد بتدافع تحرير المسائل عندهم، هو أنّهم يستدلّون على الإمامة بأدلّة مفادها لزوم عصمة الإمام، مع أنّهم يجيّرونها للإمامة العقدية بالبيعة السياسية، ومثال ذلك الحديث النبوي: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»، فإنّ مفاد الحديث وجوب معرفة الإمام في كلّ زمان، وواضح أنّه واجب اعتقادي كوجوب معرفة النبيّ ﷺ والإذعان برسالته.

ويزيد ذلك وضوحاً أنّه جعل فاقد تلك المعرفة ميتته ميتة كفر، وفي الحديث كناية ولطيفة، وهو أنّه جعل كفره عند موته كفر من لم يدخل الإسلام، لا كفر من دخل الإسلام وآرتدّ عنه.

ومن البيّن في بداهة الشرع والعقل أنّ من تجعل معرفته بهذا الشأن ـ الإمامة ـ لا يمكن أن يكون من يزلّ ويخطل، أو يجهل ويضلّ، بل لا بُدّ أن يكون مقامه في الدين يتلو مقام النبيّ ﷺ، معصوماً مطهّراً أذهب الله عنه الرجس وطهّره تطهيراً، وغير ذلك من الأمثلة.

كما إنّه يلاحظ في نظم الأدلة والوجوه في تلك المسائل عندهم، التكديس الركامي من دون تمحيص لمؤدّى كلّ دليل أو وجه، ومن دون مقايسته بأدلّة الطرف الآخر، فتراهم مثلاً يتمسّكون بحجّيّة سُنّة الشيخين بأحاديث آحاد قد تكون حسنة الإسناد عندهم، بينما لا يقابلونها مع الأحاديث المتواترة بطرقهم، كحديث الثقلين، وحديث المنزلة، والغدير،

وغيرها..

فانظر مثلاً إلىٰ التفتازاني في **شرح المقاصد** عندما يستعرض وجوه وأدلّة إمامة عليّ عليه السلام فهو يقرّ بجملة فضائله، إلّا أنّه يحكم ويكيل القول عشوائيّاً بأنّ فضائل الشيخين أوْلىٰ، مع أنّه هو نفسه حكىٰ عن إمام الحرمين أنّ روايات الفضائل في الأربعة متعارضة والترجيح ظنّي، ومع أنّ اللازم هو التعمّق في موازنة كلّ وجه من الوجوه، ومدىٰ مؤدّاه، ومقابلته مع الوجه الثاني في الطرف الآخر، سواء من حيث قوّة السند والدلالة، أو علوّ وشموخ المعنىٰ ومسلّمية المصداق المراد بين الفريقين، عن غيره من الأحاديث.

والأهمّ هو تحليل الفضيلة التي هي عبارة عن كمالٍ ما؛ فإنّه عنوان مجمل عامّ لا بُدّ من تقرير حدّه هل ينطبق علىٰ العصمة أو علىٰ عمل خاصّ معيّن دون أن يحدث صفة كمالية دائمة في الشخص، أو علىٰ غير ذلك ممّا يتناسب مع صفات الراوي ونحوه.

والغريب من التفتازاني في الكتاب المزبور، مع أنّه يتذمّر من معاوية ويزيد وبني أُميّة وما فعلوه من ظلم بذرّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، إلّا أنّه يقرّر إمامة المتغلّب الباغي القاهر للمسلمين بسيفه وسطوته!

ولا تنقضي الغرائب بسبب تدافع المباني، وتردّد تحرير المسائل لديهم بنحو مجمل، لا توزن فيه مرتبة الحجّة وسنخها ونوعها ومداها.

ثمّ إنّا قد تعرّضنا في تضاعيف تصوير فرض مسألة عدالة الصحابة لأدلّة العامّة من السُنّة أو الوجوه الأُخرىٰ والردّ عليها إجمالاً، والمهمّ بعد ذلك هو التعرّض لِما استدلّوا به علىٰ ذلك من الآيات القرآنية:

● **الآية الأُولىٰ**: قوله تعالىٰ: ﴿**السابقون الأوّلون من المهاجرين**

والأنصار والّذين اتّبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾[١].

● الآية الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿ للفقراء المهاجرين الّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أُولئك همُ الصادقون * والّذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم . . . ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأُولئك همُ المفلحون * والّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للّذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم ﴾[٢].

● الآية الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿ لقد رضيَ الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ في السورة نفسها، الآية الأخيرة: ﴿ محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء علىٰ الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزَرَه فاستوىٰ علىٰ سوقه يُعجب الزُّرّاع ليغيظ بهم الكفّارَ وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[٤].

---

(١) سورة التوبة ٩: ١٠٠.

(٢) سورة الحشر ٥٩: ٨ ـ ١٠.

(٣) سورة الفتح ٤٨: ١٨.

(٤) سورة الفتح ٤٨: ٢٩.

● الآية الرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿ والّذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوّئنّهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الّذين صبروا وعلىٰ ربّهم يتوكّلون ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا مِنْ بعد ما فُتِنوا ثـمّ جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيم ﴾[٢].

● الآيــة الخـامسة: قـوله تـعالىٰ: ﴿ لقـد تـاب الله عـلىٰ النـبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة العُسرة مِن بعد مـا كـاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم ثمّ تابَ عليهم إنّه بهم رؤوف رحيم ﴾[٣].

● الآية السادسة: قوله تعالىٰ: ﴿ والّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والّذين آووا ونصروا أُولئك هم المؤمنون حقّاً لهم مغفرة ورزق كريم * والّذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأُولئك منكم... ﴾[٤].

● الآية السابعة: قوله تعالىٰ: ﴿ وكـذلك جـعلناكـم أُمـة وسـطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[٥].

● الآية الثامنة: وقوله تعالىٰ: ﴿ كنتم خير أُمّـة أُخـرجت للـناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[٦].

● الآية التاسعة: وقوله تعالىٰ: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما

---

(١) سورة النحل ١٦ : ٤١ و ٤٢.

(٢) سورة النحل ١٦ : ١١٠.

(٣) سورة التوبة ٩ : ١١٧.

(٤) سورة الأنفال ٨ : ٧٤ و ٧٥.

(٥) سورة البقرة ٢ : ١٤٣.

(٦) سورة آل عمران ٣ : ١١٠.

تبيّن له الهُدىٰ ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّهِ ما تولّىٰ ونُصلِه جهنم وساءت مصيراً ﴾[١].

وللتنبيه علىٰ وهم القائل في مفاد الآيات بأنّها دالّة علىٰ مدح جميع الصحابة أو جميع من هاجر من مكّة، وجميع من ناصر في المدينة، أو أنّ هذا المديح دالّ علىٰ حجّيّة أقوال كلّ صحابي مهاجري أو أنصاري، لأجل ذلك لا بُدّ من التعرّض إلىٰ نقاط عامّة مشتركة، ثمّ التعرّض تفصيلاً لمفاد كلّ آية علىٰ حدة، وبيان البون بينه وبين مدّعىٰ المتوهّم.

■ **أمّا النقاط العامّة:**

* **النقطة الأُولىٰ**: ما أفاده بعض الأفاضل المعاصرين[٢] من أنّ القرآن الكريم يشير وينبّه إلىٰ ظهور حركة محترفي النفاق من بدايات تكوّن المسلمين في مكّة ويعنونهم باسم **﴿الّذين في قلوبهم مرضٌ﴾** وذلك في رابع سورة نزلت علىٰ النبيّ ﷺ في مكّة قبل الهجرة، وهي سورة المدّثّر، وكذلك سورة العنكبوت المكّية نزولاً قبل الهجرة في قول الأكثر أيضاً..

فالسورة الأُولىٰ، متمثّلة في قوله تعالىٰ: **﴿وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكةً وما جعلنا عدّتهم إلّا فتنةً للّذين كفروا ليستيقنَ الّذين أُوتوا الكتاب ويزداد الّذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الّذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربّك إلّا**

---

(١) سورة النساء ٤: ١١٥.

(٢) في كتابه إسلام شناسي تاريخي.

هو وما هي إلّا ذِكرىٰ للبشر﴾[1] .. قد قابلت بين فئات أربعة، فئتين من جهة وهما المؤمنون والّذين أوتوا الكتاب، والفئتين الأُخريَين من الجهة الأُخرىٰ هما الكافرون والّذين في قلوبهم مرض.

ومن الواضح أنّ الّذين في قلوبهم مرض ـ بحسب الآية ـ ليسوا من الفئات الثلاث: المؤمنين، والّذين أُوتوا الكتاب، والكافرين؛ فيقتضي كونهم من المسلمين غير المؤمنين قلباً.

ويعطي هذا المعنىٰ نفس عنوان: الّذين في قلوبهم مرض؛ فإنّه دلّ علىٰ أنّ مرضهم مستبطن في قلوبهم غير ظاهر، أي أنّ ظاهرهم يبدو عليه السلامة، أي الإسلام.

ويدلّل علىٰ ذلك أيضاً أنّ هذه الفئة يلاحقها القرآن الكريم بعد ذلك في أغلب السور المدنية نزولاً، في الوقائع الخطيرة التي حدثت للمسلمين في المدينة حتّىٰ آخر حياة النبيّ ﷺ، ويخصّهم القرآن الكريم بهذا العنوان مميّزاً بينهم وبين عنوان المنافقين، إذ يسند لهم أدواراً أكثر خطورة وضرراً علىٰ الدين من المنافقين.

أي أنّ المراد بالعنوان الثاني في القرآن عموم أهل النفاق ممّن قد ظهر التواؤه بنحو أو بآخر، بخلاف أصحاب العنوان الأوّل، فإنّهم محترفو النفاق، فقد احترفوا عملية التسلّل والنفوذ في كيان المسلمين منذ أوائل الدعوة للإسلام حتّىٰ آخر حياة النبيّ ﷺ، كما سنشير إلىٰ ذلك ـ في الجملة ـ في السور بعد ذلك.

ولك أن تجرّد وتسرد مواقعهم ومواضعهم وأدوارهم بالاستعانة

---

(١) سورة المدثّر ٧٤: ٣١.

بكشف المعجم المفهرس للقرآن الكريم باستخراج مواضع عنوان ﴿ **الّذين في قلوبهم مرض**﴾ في السور القرآنية والأحداث التي تضمّنتها.

وعلىٰ أيّ تقدير، ففي أوائل الدعوة للإسلام يشير القرآن الكريم إلىٰ تسلّل عناصر بشرية في صفوف من سبق إلىٰ الإسلام وآعتنقه في الظاهر، وأنّ تلك العناصر كان لها أدوار قبل الهجرة وبعد الهجرة في المدينة، وأنّها كانت ذات علاقات متميّزة مع كفّار قريش ومع اليهود ومع أهل النفاق ذوي النفاق العامّ غير المحترَف، كلّ ذلك من خلال الخريطة المسلسلة للأحداث السياسية وغيرها التي يرسمها لنا القرآن الكريم في سوره المكّية والمدنية عن هذه الفئة وهي «الّذين في قلوبهم مرض».

والسورة الثانية المكّية قبل الهجرة، هي قوله تعالىٰ: ﴿ **ألم * أحسب الناس أنّ يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتنون * ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين * أم حسب الّذين يعملون السيّئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون * من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم * ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه إنّ الله لغنيّ عن العالمين * والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون * ووصّينا الإنسان بوالديه حُسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليّ مرجعكم فأُنبّئكم بما كنتم تعملون * والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين * ومن الناس من يقول آمنّا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصرٌ من ربّك ليقولُنّ إنّا كنّا معكم أَوَليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمنّ الله الّذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين * وقال الّذين كفروا للّذين**

آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنّهم لكاذبون * وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليُسألُنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون﴾[1] . .

وهذه الآيات تؤكّد أنّ بين صفوف من أسلم قبل الهجرة فئة منافقة، غرضها من اعتناق الإسلام هو الوصول إلىٰ المشاركة في المكاسب السياسية التي سيحقّقها المسلمون، كما أنّ من تخصيص السورة خطاب الإغراء من الكفّار للمؤمنين خاصّة أنّ جهد الكفّار كان منصبّاً لثني المؤمنين دون المنافقين، ممّا يدلّ علىٰ وجود علاقة وتوافق موطّد بينهم.

وهذا جرد كشفي لمواطن تتبّع القرآن لهذه الفئة **﴿الّذين في قلوبهم مرض﴾** بحسب ترتيب النزول:

١ ـ سورة المدّثّر، الآية ٣١، مكّية ٤.

٢ ـ سورة العنكبوت، الآية ١٠ ـ ١١، مكّية ٨٥.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ١٠، مدنية ٨٧.

٤ ـ سورة الأنفال، الآية ٤٩، مدنية ٨٨.

٥ ـ سورة الأحزاب، الآية ١٢ ـ ٣٢ ـ ٦٠، مدنية ٩٠.

٦ ـ سورة محمّد، الآية ٢٠ ـ ٢٩، مدنية ٩٥.

٧ ـ سورة النور، الآية ٥٠، مدنية ١٠٣.

٨ ـ سورة الحجّ، الآية ٥٣، مدنية ١٠٤.

٩ ـ سورة المائدة، الآية ٥٢، مدنية ١١٣.

١٠ ـ سورة التوبة، الآية ١٢٥، مدنية ١١٤.

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩ : ١ ـ ١٣.

ومن كلّ ذلك ننتهي إلىٰ أنّ عموم المديح للمهاجرين وللأنصار لا يتناول فئة الّذين في قلوبهم مرض والمنافقين ممّن أسلم قبل الهجرة طمعاً في المكاسب السياسية التي تحدثت عنه كهنة العرب عن النبيّ ﷺ وأنبأت به اليهود قبل ظهور النبيّ ﷺ ، الّذين قطنوا الجزيرة العربية لأجل ذلك استعداداً لظهوره كما ذكر ذلك القرآن : ﴿ **ولمّا جاءكم كتاب من عند الله مصدّق لِما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنةُ الله علىٰ الكافرين** ﴾[1] ، فكانوا يتوعّدون الكفّار بالنصر عليهم بالنبيّ الخاتم ﷺ الذي يملك العرب ، فمعالم ظهوره ﷺ وسلطته علىٰ الجزيرة منتشرة في الآفاق قبل أن يبعث ﷺ ؛ بل إنّ المديح خاصّ بالمؤمنين قلباً حقّاً منهم خاصّة ، ويشهد لذلك النقطة الثانية الآتية .

ثمّ إنّ هناك سورة مكّية أُخرىٰ ـ سورة النحل ٧٠ نزولاً ـ فيها إشارة إلىٰ ظهور النفاق قبل الهجرة أيضاً . . ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة وأنّ الله لا يهدي القوم الكافرين * أُولئك الّذين طبع الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأُولئك هم الغافلون * لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون** ﴾[2] . .

فالاستثناء جملة معترضة ، وسياق الآية هكذا : « **مَن كفر بالله مِن بعد إيمانه مَن شرح بالكفر صدراً** » وجيء بـ : ﴿ **لكن** ﴾ للاستدراك من

(١) سورة البقرة ٢ : ٨٩ .

(٢) سورة النحل ١٦ : ١٠٦ ـ ١٠٩ .

المستثنىٰ ، وأنّ المراد بالكفر هو من شرح بالكفر صدراً ، وقيل : إنّ ﴿ **مَن شرح بالكفر صدراً** ﴾ نزلت في عبدالله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي ، وظاهر لفظ الجمع في الآيات يعطي أنّها فئة ومجموعة ، وأنّ سبب كفرهم بعد إيمانهم ليس إكراه المشركين لهم علىٰ ذلك ، بل هو استحباب الحياة الدنيا ، فطبع علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

* **النقطة الثانية** : إنّ كثيراً من آيات الهجرة يقيّد الهجرة بكونها لله تعالىٰ وبنيّة أنها في سبيل الله ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **الّذين هاجروا في الله . . .** ﴾[1] وهي الآية الرابعة من التي تقدّمت في مديح المهاجرين ، وكذا قوله تعالىٰ : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلىٰ الله ورسوله ثمّ يدركه الموت** ﴾[2] وقيّدت بقيّة الآيات الهجرة بقيد في سبيل الله ، كما قيّد الجهاد أنّه في سبيل الله المردف مع الهجرة .

ومن ثمّ تضافرت الأحاديث النبويّة في بيان أنّ الهجرة حكمها تابع لنيّة المهاجر ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فله الحسنىٰ في العقبىٰ ، ومن كانت هجرته إلىٰ حطام الدنيا من مال يصيبه أو امرأة ينكحها أو ولاية يصيبها فله ما هاجر إليه وخسر حظّه في الآخرة ، وكذلك وردت الأحاديث في الجهاد كذلك .

وعلىٰ ذلك ، فليس كلّ من قام بالهجرة البدنية المكانية من مكّة إلىٰ المدينة يكون ممّن هاجر في الله وإلىٰ الله ورسوله ، والمديح مخصوص بمن هاجر في الله وإلىٰ الله ورسوله ، لا كلّ من هاجر ولو بنيّة إصابة الدنيا .

---

(١) سورة النحل ١٦ : ٤١ .

(٢) سورة النساء ٤ : ١٠٠ .

تحقيق في عنوانَي «المهاجر» و «الأنصاري» :

إنّ المتتبّع للاستعمال القرآني لمادّتَي «الهجرة» و «النصرة» في هيئة الفاعل، عند الإطلاق وعدم التقييد بقرينة معينة، يجد أنّه لا يراد به كلّ مَن انتقل ببدنه من مكّة أو غيرها إلىٰ المدينة المنوّرة مظهراً للإسلام!

كما أنّ الأنصاري ليس كلّ من أظهر الإسلام وكان قاطناً في المدينة وحواليها.

فإنّ إجراء الاستعمال بهذا المعنىٰ الوسيع وحصول التوسّع عن المعنىٰ الأوّل إنّما وقع وشاع في الألسن لتخيّل تطبيق المعنىٰ اللغوي بلحاظ مطلق الانتقال المكاني، واستدعاء ذلك المقابلة مع مَن لم ينتقل من موطنه وهو الأنصاري، مع وجود الدوافع السياسية المقتضية لهذا التعميم كي تجد مستنداً للشرعية في ما تقدّم عليه.

بل المتحصّل من التتبّع للآي القرآني هو أنّ الهجرة والمهاجر، عند الإطلاق من دون تقييد، يراد به من انتقل من موطنه وبلاد المشركين إلىٰ المدينة بقصد طاعة الله وفي سبيل الله وإلىٰ الله ورسوله كما أشارت إلىٰ ذلك الآيات المتقدّمة، وكقوله تعالىٰ: ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة** ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ **والّذين هاجروا في سبيل الله ثمّ قُتلوا أو ماتوا ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً** ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿ **فآمنَ له لوط وقال إنّي مهاجر إلىٰ ربّي إنّه هو العزيز الحكيم** ﴾[3].

---

(١) سورة النساء ٤ : ١٠٠ .

(٢) سورة الحجّ ٢٢ : ٥٨ .

(٣) سورة العنكبوت ٢٩ : ٢٦ .

وقد اقترن ذِكر عنوان «الهجرة» كثيراً في الآيات[1] مع الجهاد في سبيل الله ، أو مع الإيمان ، أو مع الأذىٰ في سبيل الله ، أو القتل في سبيله ، أو مع الصبر ، وقد وردت الأحاديث النبويّة في تفسير الهجرة الشرعية بذلك .

فـ «الهجرة» عند الإطلاق هي بذلك المعنىٰ ، كما هو الحال في مقام الثناء والمديح لها كفعل عبادي من الطاعات والقربات العظيمة ، بخلاف ما إذا قيّد الاستعمال بقيد معيّن ، كترتيب أحكام خاصّة من قبيل حلّ المناكحة وحرمة الدم والمال ونحوها ، ولذلك ترىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ **إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنَّ فإنْ علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلىٰ الكفّار** ﴾[2] أنّه لم يُكتفَ بالهجرة الظاهرية من دون التحقّق من حصول الهجرة الواقعية الحقيقية ، التي هي مقيّدة بالإيمان القلبي وكونها في الله وفي سبيل الله وإلىٰ الله ورسوله .

وكذلك الحال في استعمال الآي القرآني ، قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسىٰ بن مريم للحواريّين مَن أنصاري إلىٰ الله قال الحواريّون نحن أنصار الله فآمنت طائفة مِن بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الّذين آمنوا علىٰ عدوّهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[3] . .

وقال تعالىٰ : ﴿ **فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور**

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٢١٨ ، سورة آل عمران ٣ : ١٩٥ ، سورة الأنفال ٨ : ٧٢ و ٧٤ و ٧٥ ، سورة التوبة ٩ : ٢٠ ، سورة النحل ١٦ : ٤١ .

(٢) سورة الممتحنة ٦٠ : ١٠ .

(٣) سورة الصفّ ٦١ : ١٤ .

الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون ﴾[١]..

وقال تعالىٰ: **﴿ والّذين آووا ونصروا أُولئك بعضهم أولياء بعض ﴾**[٢].

فيلاحظ أنّ «النصرة» و«الأنصاري» ليس مطلق المعاضدة، فضلاً عن أن تكون هي كلّ مسلم كان موطنه المدينة، فليس كلّ أوسي أو خزرجي أو غيرهما ممّن حول المدينة هو أنصاري، بل من آمن وآوىٰ وعزّر ووقّر الرسول ﷺ واتّبع النور الذي أُنزل مع الرسول ﷺ، وكان ذلك كلّه في الله وإلىٰ الله، كان أنصارياً.

ثمّ سنرىٰ أنّ في سورة التوبة ـ كما يأتي الحديث عنها ـ قَسّم كلُّ من أهل المدينة، وغيرهم ممّن انتقل إلىٰ المدينة، إلىٰ: فئات صالحة ينطبق عليها هذين العنوانين الوسامين «المهاجر» و«الأنصاري»، وطالحة مردت علىٰ النفاق، وكان في قلوبهم مرض، أو متقاعسة عن القتال، أو غيرهم من أنواع المنافقين.

وسنعاود التذكير علىٰ دلالة السورة المزبورة أيضاً علىٰ اختصاص هذين العنوانين والصفتين كمنقبتين وفضيلتين بمن توفّرت فيه القيود السالفة، فهي كبقية الآيات من السور الأُخرىٰ منبّهة علىٰ خطأ هذا الاصطلاح الشائع، من إطلاق «المهاجر» علىٰ كلّ مكّي ـ ونحوه ـ أسلم وانتقل إلىٰ المدينة، و«الأنصاري» علىٰ كلّ خزرجي أو أوسي أسلم كان يقطن المدينة ونحوها.

فالهجرة والنصرة منقبتان عظيمتان، وطاعتان مقرّبتان، أُخذ في

---

(١) سورة الأعراف ٧: ١٥٧.

(٢) سورة الأنفال ٨: ٧٢.

ماهيّتهما قيود وأجزاء متعدّدة، ويترتّب على ذلك لزوم إحراز توفّر القيود في مَن يراد وصفه بهما.

* **النقطة الثالثة**: إنّ هناك العديد من القيود التي تستعرضها الآيات كشرط في مديح المهاجر والأنصاري، مثلاً:

أ ـ ما جاء في سورة الفتح، ففيها ضابطة تستعرضها الآية في المهاجرين والأنصار، هي من المحكم الذي يُتبيّن به بقيّة الآيات، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ **إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما ينكث علىٰ نفسه ومن أوفىٰ بما عاهد عَلَيْهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[1]، فالآية اشترطت الوفاء بالعهد وعدم النكث به شرطاً لحسن العاقبة والمثوبة، فالوفاء بالعهد عند الموت وعدم النكث والتبديل شرط في ذلك ـ كما هو الحال في بقيّة المؤمنين ـ إلىٰ يوم القيامة.

ويشير إلىٰ ذلك قوله سبحانه وتعالىٰ أيضاً في آخر السورة: ﴿ **محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء علىٰ الكفّار رحماء بينهم... وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾[2].. فإنّه قيّد المغفرة والأجر بمن آمن قلباً منهم وعمل صالحاً، بل إنّ لفظة «منهم» دالّة علىٰ التبعيض، وإنّ ليس كلّ الّذين معه ﷺ لهم وعد بالحسنىٰ، بل خصوص من اتّصف بالقيد منهم، فالتقييد والتبعيض احتراز عن إيهام العموم الوارد في صدر الآية.

ويشير إلىٰ مثل هذا القيد في مدح المهاجر والأنصاري، قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الفتح ٤٨ : ١٠.

(٢) سورة الفتح ٤٨ : ٢٩.

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً * ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيماً ﴾[1].. فقد دلّت الآية علىٰ اشتراط عدم التبديل في المؤمنين كي ينالوا الأجر، وأنّ الوفاء وعدم التبديل شرط في وصف المؤمنين بالصدق وأنّهم صادقون.

وقد اشتهر عند الصحابة أنّهم إذا أرادوا أن يقدحوا في واحد منهم أن يقولوا: إنّه بدّل؛ كما هو دائر علىٰ ألسنتهم في الفتن التي وقعت بينهم.

ب ـ وهناك قيد آخر ذكرته الآيات كشرط في المديح، وهو اتّصافهم بأنّهم رحماء بينهم أشدّاء علىٰ الكفّار، أي اللين والرأفة فيما بينهم والشجاعة والشدّة أمام الكفّار، كقوله تعالىٰ: **﴿ محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء علىٰ الكفّار رحماء بينهم ﴾** في سورة الفتح..

وقوله تعالىٰ: **﴿ ويقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأَوْلىٰ لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾**[2]..

وقوله تعالىٰ: **﴿ والقائلين لإخوانهم هلُمّ إلينا ولا يأتون البأس إلّا قليلاً * أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشىٰ عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ**

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٢٣ و ٢٤.

(٢) سورة محمّد ٤٧ : ٢٠ و ٢١.

حداد أشحّة علىٰ الخير أُولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك علىٰ الله يسيراً ﴾(١)..

فبيّن الله تعالىٰ أنّ الجبن والخوف والخشية من الموت وإذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنةٍ حداد هي من صفات المنافقين والّذين في قلوبهم مرض، علىٰ عكس صفات المؤمنين من الرحمة فيما بينهم والشجاعة أمام الكفّار.

ومن الثابت أنّ من المهاجرين من كان فظّاً غليظاً مع بقيّة المؤمنين والمسلمين، هزوماً فرّاراً في الحروب، وإذا قاد جيشاً ليفتح حصناً أو يغزو غزاة عاد يجبّن الناس والناس يجبّنونه، بينما المؤمن كرّار غير فرّار يفتح الله علىٰ يديـه.

ج ـ كذلك هناك آيات أُخرىٰ دالّة علىٰ أنّ هناك أعمالاً سيّئة موجبة لحبط الأعمال، كقوله تعالىٰ: **﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾**(٢)، وكقوله تعالىٰ: **﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله وآتّقوا الله إنّ الله سميع عليم * يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾**(٣)..

ومن الثابت في كتب السير والأحاديث أنّه في العديد من الوقائع قد أبرم وقطع فيها غيرُ واحدٍ من الصحابة العشرة المبشّرة أمراً قبل أن يحكم الله ورسوله فيها، بل قد تقدّموا في أشياء قد تقدّم الله ورسوله فيها بحكم خلافا وردّاً!

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ١٨ و ١٩.

(٢) سورة المائدة ٥ : ٥.

(٣) سورة الحجرات ٤٩ : ١ و ٢.

وكقوله سبحانه تعالىٰ: **﴿إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصادقون * قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم﴾**[1]، فعدم الارتياب قيد في بقاء الإيمان، مع أنّ بعض المهاجرين ارتاب في دينه في صلح الحديبية!

فهذه نماذج من القيود، وعليك بتقصّيها في السور القرآنية، ممّا يُعْلِم فقدان جماعة من الصحابة المهاجرين والأنصار لها.

* **النقطة الرابعة**: إنّ ممّا قد ثبت مقطوعاً به للمتتبّع في الآيات القرآنية وكتب الأحاديث والسير والتواريخ، أنّ العديد من الصحابة، من المهاجرين والأنصار، قد وقعت وصدرت منهم مخالفات للشرع المبين تُعدّ من الكبائر، وبعضها من العظائم، سواء كان ذلك في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أو بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم عند التنازع والفتن التي انتهت إلىٰ حربَي الجمل وصفّين..

فقد وقع منهم الفرار من الزحف في مواطن كوقعة أُحد وحنين، ولم يبق إلّا ثلّة من بني هاشم[2]! مع أنّ الفرار من الزحف من الكبائر السبع المغلّظة!

وكذا ما أتاه الصحابة في صلح الحديبية - وفي مقدّمتهم بعض المهاجرين - من الاعتراض علىٰ صلح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والنكير لذلك حتّىٰ إنّهم أبوا أن يحلقوا رؤوسهم والإحلال من الإحرام، وأبدوا العصيان الجماعي حتّىٰ اضطرّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ أن يجدّد أخذ البيعة منهم بعد ذلك بعدما

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٥ و ١٦.

(٢) أنظر: تفسير الفخر الرازي ١٦/٢٢، تاريخ الطبري ٢/١٦٧ حوادث سنة ٨ هـ.

ارعووا وعادوا وآستوثق منهم المواثيق[١]!

وما أتاه عدّة من الصحابة ـ من المهاجرين ـ من التخلّف عن جيش أُسامة الذي جهّزه رسول الله ﷺ لقتال الروم، مع أنّه ﷺ قد لعن من تخلّف عن جيش أُسامة، وقال: أنفذوا جيش أُسامة[٢]!

وقد نزلت الآية الكريمة ـ كما قيل ـ: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما علىٰ الأُخرىٰ فقاتلوا التي تبغي حتّىٰ تفيء إلىٰ أمر الله** ﴾[٣] في اقتتال الأوس والخزرج بالأيدي والنعال والعصي[٤].

وبعضهم ردّ علىٰ النبيّ ﷺ عندما طلب دواة وكتاباً يكتب فيه ما إن تمسّكوا به فلن يضلّوا أبداً، وقال: إنّه غلب عليه المرض[٥].. وهي عظيمة!!

مفـاد الآيات القـرآنية:

هذا، وأمّا الآيات فمفادها بعيد تمام البعد عن تقديس جميع الصحابة أو ثلّة جماعة بيعة السقيفة، بل إنّ كلّ منها بنفسه دليل علىٰ عدم التعميم في عدالة الصحابة، سواء فسّرت الصحبة بمعنىٰ كلّ من

(١) آنظر: تاريخ الطبري ٢/١٢٢ حوادث سنة ٦ هـ، البداية والنهاية ٤/١٣٦ حوادث سنة ٦ هـ.

(٢) آنظر: الملل والنحل ـ للشهرستاني ـ ١/١٢، شرح نهج البلاغة ٦/٥٢، شرح المواقف ٨/٣٧٦.

(٣) سورة الحجرات ٤٩: ٩.

(٤) آنظر: تفسير الدرّ المنثور ٧/٥٦٠.

(٥) آنظر: صحيح البخاري ٤/٢١١ ح ١٠ و ج ٦/٢٩ ح ٤٢٢، صحيح مسلم ٥/٧٥ ـ ٧٦، الكامل في التاريخ ٢/١٨٥ حوادث سنة ١١ هـ.

رآه ﷺ، أو نقل الحديث عنه، أو لازمه مدّة مديدة.

■ **أمّا الآية الأُولىٰ:**

فهي قوله تعالىٰ: ﴿**السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والّذين اتّبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم**﴾[١].

فنرىٰ أنّ الآية قد قيّدت المرضيّ عنهم من المهاجرين والأنصار بقيدين، الأوّل: السبق؛ الثاني: كونه أوّل السابقين، أي الأوّلية في السبق، ومن المقرّر في موضعه تاريخياً ـ برغم الدعاوي الأُخرىٰ ـ أنّ أوّل السابقين إلىٰ الإسلام هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومن ثمّ حاولت الدعاوي الأُخرىٰ الاستعاضة لتطبيق الآية بأنّ عليّاً أوّل من أسلم من الأحداث، وأنّ خديجة أوّل من أسلم من النساء، وأنّ...

ولكنّ السبق والأوّلية في الآية غير مقيّدتين بحيثية السنّ أو الجنس، هذا من جانب، ومن جانب آخر نرىٰ أنّ استعمال القرآن الكريم للسبق هو بمعنىً خاصّ كما تطالعنا به سورة الواقعة، وهذا كديدَن الاستعمال القرآني في العديد من عناوين الألفاظ كالصدّيقين والاصطفاء والتطهير..

فالمعنىٰ الذي في سورة الواقعة ﴿**السابقون السابقون * أُولئك المقرّبون**﴾[٢] هو خصوص «المقرّب»، وقد أكّدت الآية علىٰ عنوان «السبق» بالتكرار للإشادة به، و«المقرّب» قد أُريد به معنىً خاصّ في سورة المطفّفين: ﴿**كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين * وما أدراك ما**

---

(١) سورة التوبة ٩: ١٠٠.

(٢) سورة الواقعة ٥٦: ١٠ و ١١.

عليّون * كتابٌ مرقومٌ * يشهده المقرّبون﴾[1]، فعرّف المقرّب بأنّه الذي يشهد كتاب الأبرار، وشهادة الأعمال من خصائص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما ذكرت ذلك الآيات كما في سورة التوبة..

وهذا يعطينا مؤدّىٰ أنّ «المقرّب» ليس من درجة الأبرار من أنماط المؤمنين، بل فوقهم شاهد لِما يعملونه، وشهادة الأعمال لا ريب أنّها نحو من الغيب الذي لا يطلعه الله إلّا لمن ارتضىٰ من رسول، فهي نحو من العلم اللدُنّي الإلٰهي المخصّص بالمقرّبين، فهم نحو من الّذين أُوتوا مناصب إلٰهية غيبية جعلها لهم.

ويعطي ذلك التقسيم في سورة الواقعة لمن يحشر من البشر إلىٰ ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة؛ ولا ريب في دخول الأنبياء والرسل والأوصياء في القسم الأوّل، وهو يقتضي عدم مشاركة غيرهم لهم في الدرجة، فالباقون هم في القسمين الأخيرين، فـ «السبق» في الاستعمال القرآني هو في من حاز العصمة والطهارة الذاتية من الذنوب، فالسبق ها هنا هو في الدرجات لا السبق الزمني، مع أنّ أوّل السابقين زمناً من المهاجرين هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام..

ومن ذلك يظهر المراد من أوّل السابقِين من الأنصار، فإنّ المطهّر من الذنب من الأنصار ـ أي الذي لم يهاجر ـ هما الحسنان، فإنّهما اللذان نزلت فيهما وفي أبويهما آية التطهير كما هو مقرّر في موضعه من سبب نزول الآية في أخبار الفريقين.

وكذلك يظهر المراد من الّذين اتّبعوهم بإحسان، أنّهم المطهَّرون من

---

(١) سورة المطفّفين ٨٣: ١٨ ـ ٢١.

الذنب من الذرّية النبوية، ويطالعك بهذا المعنىٰ ـ مضافاً إلىٰ أنّه مقتضىٰ معنىٰ «السبق» في الاستعمال القرآني ـ أنّ مقام الإحسان في القرآن لا ينطبق علىٰ غير المعصوم من الزلل والخطأ، إذ لم يُسند الإحسان إلىٰ فعل مخصوص، بل جُعل وصفاً لكلّ معصوم من الذنب، لاحظ قوله تعالىٰ: **﴿ومن ذرّيّته داود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين﴾**(١)..

وقوله تعالىٰ: **﴿ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾**(٢)..

وقوله تعالىٰ: **﴿ولمّا بلغ أشدّه وآستوىٰ آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾**(٣)..

وقوله تعالىٰ: **﴿سلام علىٰ قوم نوحٍ في العالمين * إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾**(٤)..

وقوله تعالىٰ: **﴿قد صدّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾**(٥)..

وقوله تعالىٰ: **﴿سلام علىٰ إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين﴾**(٦)..

وقوله تعالىٰ: **﴿سلام علىٰ موسىٰ وهارون * إنّا كذلك نجزي**

---

(١) سورة الأنعام ٦ : ٨٤.
(٢) سورة يوسف ١٢ : ٢٢.
(٣) سورة القصص ٢٨ : ١٤.
(٤) سورة الصافّات ٣٧ : ٧٩ و ٨٠.
(٥) سورة الصافّات ٣٧ : ١٠٥.
(٦) سورة الصافّات ٣٧ : ١٠٩ و ١١٠.

المحسـنين ﴾[١] ..

وقــوله تـعالىٰ: **﴿ سـلام عـلىٰ إل يـاسين * إنّـا كـذلك نـجزي المحسـنين ﴾**[٢] ..

فترىٰ أنّ الذي يوصف بالإحسان ـ من غير تقييد في فـعل خـاصّ كأداء دية أو مهر أو تسريح بإحسان للمطلّقة ، بل بالإحسان في كلّ أفعاله ـ قد ادّخر الله تعالىٰ له جزاءً دنيوياً وأُخروياً من سنخ الذي ذكرته الآيـات السابقة ، من جعل النبوّة في الذرّيّة ، وإتيان الحكم والعلم اللدُنّي الإلٰهي ، وتقدير السلامة والأمن في النشآت المختلفة .

وقد وُصف المحسنُ والمحسنون بأنّ رحمة الله قريب منهم ، وأنّ الله يحبّهم ، وأنّ الله لَمَعَهم معيّة خاصّة غير معيّته القيومية علىٰ كلّ مخلوق[٣] ، فالآية لم تكتفِ بوصف القسم الثالث بأنّهم تابعون للأوّلين السابقين ، بل ضيّقت الدائرة إلىٰ كون تبعيّتهم بإحسان ، والإحسان والمحسن مقام فـوق مقام العدل والعدالة .

وكذلك الحال في القسمين الأوّل والثاني ، فإنّه لم يَبقَ علىٰ دائـرته الوسيعة ، فضُيّق بحدود «السابقين» ، وهذه الدائرة لم تبقَ علىٰ حالها ، بل ضُيّقت إلىٰ دائرة «أوّل السابقين» ، فلا بُـدّ ـ والحال هذه ـ من تـمحيص وفهم دلالة الكلام ، ألا ترىٰ أنّ سورة المدّثّر ـ وهي رابع سورة نزلت علىٰ النبيّ ﷺ في مكّة ـ أنّها تقسّم الموجودين حينذاك إلىٰ أربـعة أقسـام ،

---

(١) سورة الصافّات ٣٧ : ١٢٠ و ١٢١ .

(٢) سورة الصافّات ٣٧ : ١٣٠ و ١٣١ .

(٣) أنظر : سورة النحل ١٦ : ١٢٨ ، سـورة آل عـمران ٣ : ١٣٤ ، سـورة المـائدة ٥ : ١٣ ، سورة الأعراف ٧ : ٥٦ .

هي: المؤمنون، وأهل الكتاب، والمشركون، والّذين في قلوبهم مرض؛ فلو كان المرادُ هو مَن سبق بإظهار الإسلام من المهاجرين، فأين هم الّذين في قلوبهم مرض، ويستترون بالإسلام عن إظهاره؟!

فبكلّ ذلك، مع ما ذكرنا من النقاط العامة، يقع القارئ على المراد في الآية الكريمة.

ثمّ إنّه لا يخفىٰ علىٰ القارئ أنّ الآية هي من سورة التوبة، وقد استعرضت السورة نماذج عديدة سيّئة ممّن عايش النبيّ ﷺ ولقيه، فمثلاً فيها: ﴿ **ويحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا** ﴾[1] فإنّها نزلت في غزوة تبوك، وبعد الغزوة وفي طريق العودة دُبّرت مؤامرة لاغتيال النبيّ ﷺ على العقبة، وقد تقدّم نقل حديث حذيفة ـ الذي رواه مسلم في صفات المنافقين ـ في منافقي أهل العقبة وأنّهم من الصحابة الخاصة!

ونموذج ثانٍ تفصح عنه سورة التوبة، قال تعالىٰ: ﴿ **ومِن أهل المدينة مردوا علىٰ النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يُردّون إلىٰ عذاب عظيم** ﴾[2]..

ومن البيّن أنّ السورة تشير إلىٰ نمط من المنافقين لم يظهر نفاقهم إلىٰ العيان، أي كانوا في غاية التستّر، ولا ريب أنّ الأباعد الّذين يلقون النبيّ الأكرم ﷺ لا يحتاجون إلىٰ هذه الشدّة من التستّر، كما أنّ هؤلاء كانوا من الخطورة بمكان حتّىٰ إنّهم احتاجوا إلىٰ هذه الشدّة من التستّر، كما إنّهم مردوا واَحترفوا النفاق بحيث لا يمكن اصطياد حركاتهم الظاهرة!

---

(١) سورة التوبة ٩: ٧٤.

(٢) سورة التوبة ٩: ١٠١.

هذا، فضلاً عن النماذج الأُخرىٰ التي تستعرضها سورة التوبة، مِـن الأعراب وممّن حول المدينة وغيرهم[١]، فـإذا كـانت السـورة تـقسّم مَـن صحب النبيّ ﷺ ممّن كان يتعامل معه يومياً أو لازموه إلىٰ فئات عديدة صالحة وطالحة، فكيف يعمّم الصلاح إلىٰ الكلّ ؟! فلا يكون التـعميم إلّا بأن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، أو يتعامىٰ عن النـظر إلىٰ جـميع آيات السورة الواحدة، أو تصمّ الآذان عن سماعها جميعاً!

وهذا التقسيم ـ كما نبّهنا سابقاً ـ دليل علىٰ عدم إطلاق «المـهاجر» علىٰ كلّ مكّيٍ أسلم وانتقل إلىٰ المدينة، وعلىٰ عدم إطـلاق «الأنـصاري»

---

(١) مثل قوله تعالىٰ: ﴿إنّما يستأذنك الّذين لا يؤمنون بالله واليـوم الآخـر وارتـابت قلوبهم فهم في ريبهم يتردّدون﴾ سورة التوبة ٩ : ٤٥.

وقوله تعالىٰ: ﴿يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إنّ الله مخرجٌ ما تحذرون﴾ سورة التوبة ٩ : ٦٤.

وقوله تعالىٰ: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم مـن بـعض يأمـرون بـالمنكر﴾ سورة التوبة ٩ : ٦٧.

وقوله تعالىٰ: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم...﴾ سورة التوبة ٩ : ١٠٦.

وقوله تعالىٰ: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألا في الفتنة سقطوا...﴾ سورة التوبة ٩ : ٤٩.

وقوله تعالىٰ: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين...﴾ سورة التوبة ٩ : ٧٥.

وقوله تعالىٰ: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات...﴾ سورة التوبة ٩ : ٥٨.

وقوله تعالىٰ: ﴿الّذين يلمزون المطّوّعين من المـؤمنين فـي الصـدقات...﴾ سورة التوبة ٩ : ٧٩.

وقوله تعالىٰ: ﴿ومنهم الّذين يؤذون النبيّ...﴾ سورة التوبة ٩ : ٦١.

وقـوله تـعالىٰ: ﴿وآخـرون اعـترفوا بـذنوبهم خـلطوا عـملاً صـالحاً وآخـر سيّئاً...﴾ سورة التوبة ٩ : ١٠٢.

علىٰ كلّ مدنيّ أسلم، بل يطلق كلٌّ منهما مع توافر قيود عديدة أُخرىٰ.

ولاحظ أُسلوب هذه الآيات التي تستعرض النماذج الأُخرىٰ، فإنّه أُسلوب لا يُرىٰ فيه الهوادة والمهادنة، كقوله تعالىٰ: ﴿ **يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين وآغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير** ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا قاتلوا الّذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة وآعلموا أنّ الله مع المتّقين * وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلىٰ رجسهم وماتوا وهم كافرون * أَوَلا يرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين ثمّ لا يتوبون ولا هم يذّكّرون * وإذا ما أُنزلت سورة نظر بعضهم إلىٰ بعض هل يراكم من أحد ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنّهم قوم لا يفقهون** ﴾[2]..

فترىٰ أنّ في سورة التوبة قد نزل الأمر بجهاد المنافقين علىٰ حدّ جهاد الكفّار سواء، وأفرد بالخطاب به النبيّ ﷺ، ونزل الأمر بمجاهدة الكفّار الّذين يلون المؤمنين ـ أي القريبين منهم ـ وجعلت الآياتُ الّذين في قلوبهم مرض من الكفّار، وقد عرفتَ أنّ الّذين في قلوبهم مرض هم من الخاصة التي أظهرت الإسلام في أوائل البعثة كما صرّحت بذلك سورة المدّثّر، أمّا سورة التوبة فقد نزلت في غزوة تبوك، أي في أُخريات حياة النبيّ ﷺ ..

وقد نزل قبل ذلك في سورة الأحزاب التهديدُ بمجاهدة المنافقين

---

(١) سورة التوبة ٩: ٧٣.

(٢) سورة التوبة ٩: ١٢٣ ـ ١٢٧.

والّذين في قلوبهم مرض من دون الأمر به، قال تعالىٰ: **﴿ لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرض والمرجِفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلّا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً * سُنّة الله في الّذين خلوا من قبل ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً ﴾**[١]..

فسورة التوبة متميّزة من بين السور الأُخرىٰ في ملاحقة فلول أقسام المنافقين والّذين في قلوبهم مرض، إلىٰ درجة نزول الأمر بجهاد المنافقين علىٰ حدّ جهاد الكفر سواء، ومن ذلك يظهر ملاحقة القرآنِ الّذين في قلوبهم مرض، وهم ممّن احترف النفاق ومرد عليه، من أوائل البعثة حتّىٰ آخر نزولِ القرآن في المدينة.

وقد تقدّمت رواية البخاري في صحيحه في الباب الواحد والعشرين من كتاب الفتن ـ عن حذيفة بن اليمان، قال: إنّ المنافقين اليوم شرٌّ منهم علىٰ عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يومئذ يسرّون واليوم يجهرون![٢] فعلىٰ من ينطبق ما يصفه حذيفة؟! ولماذا كانوا علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متستّرين وبعده خرجوا من تستّرهم وأصبحوا هم الظاهرين وصار الجوّ العامّ علىٰ مشرعتهم؟!

ولذلك سمّيت سورة التوبة بالفاضحة كما عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عبّاس: سورة التوبة؟ فقال: التوبة؟! بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل «ومنهم..» حتّىٰ ظننّا أن لن يبقىٰ منّا أحد إلّا ذُكر فيها![٣].

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٦٠ ـ ٦٢.

(٢) صحيح البخاري ٩/ ١٠٤ ح ٥٧.

(٣) الدرّ المنثور ٤/ ١٢٠.

وسمّيت بذلك لأنّها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم[١]، ومنهم أهل العقبة الّذين همّوا بما لم ينالوا وقالوا كلمة الكفر، وعرفهم حذيفة وعمّار في الواقعة المعروفة في كتب السير والتفاسير.

وتسمّىٰ بالمبعثرة، وذلك عن ابن عبّاس، لأنّها تبعثر عن أسرار المنافقين، أي تبحث عنها[٢].

وتسمّىٰ البحوث، فعن أبي أيّوب الأنصاري أنّه سمّاها بذلك لأنّها تتضمّن ذِكر المنافقين والبحث عن سرائرهم[٣].

وتسمّىٰ بالحافرة، فعن الحسن، لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه[٤].

ومن الواضح أنّه لم تكن هذه الفئة وغيرها من المنافقين من قبيل عبدالله بن أبي سلول وجماعته، ممّن كان ظاهر النفاق والشقاق وشاهر بهما، وإنّما فضحت سورة التوبة المتستّرين الّذين كانوا في شدّة خفاءٍ، ولا ريب أنّهم كانوا ذوي خطب ووقع في مجريات الأُمور، ويرون أنّ حجر العثرة الأساس أمام مخطّطاتهم هو وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك شدّد القرآن علىٰ أهمّيّة ملاحقتهم.

وتسمّىٰ المثيرة؛ لأنّها أثارت مخازيهم ومقابحهم[٥].

فلها عشرة أسماء كما ذكر المفسّرون[٦].

---

(١) مجمع البيان ٥/ ٥.
(٢) مجمع البيان ٥/ ٥.
(٣) مجمع البيان ٥/ ٦.
(٤) مجمع البيان ٥/ ٦.
(٥) مجمع البيان ٥/ ٦.
(٦) أنظر: مجمع البيان ٥/ ٥ ـ ٦.

ومع كلّ ما تضمّنته سورة التوبة ، وما كان سبب النزول الرئيسي لها ، ومع ما تبيّن من دلالة «الأوّلين ، السابقين ، والاتّباع بالإحسان» بتحديدها لدائرة خاصة جدّاً ، كيف يُتجرّأ علىٰ نسبة التعميم في مفاد الآية المتقدّمة ؟ !

وممّا ذكرنا يظهر الحال في مفاد الآية الخامسة من تعداد الآيات التي يستدلّ بها ، وهي قوله تعالىٰ في نفس سورة التوبة : ﴿ **لقد تاب الله علىٰ النبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثمّ تاب عليهم إنّه بهم رؤوف رحيم** ﴾[1] فإنّ «المهاجر» ـ كما تقدّم ـ لا يطلق علىٰ كلّ مكّيّ أسلم وانتقل إلىٰ المدينة وكان في ركاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، كما دلّت علىٰ ذلك سورة التوبة بتقسيمها مَن كان مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ فئات عديدة صالحة وطالحة .

وكذا الحال في عنوان «الأنصاري» ، فهو ليس كلّ مدنيّ أسلم كان بذلك في ركاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، مع أنّ الآية المذكورة في تفسيرها الوارد عن أهل البيت عليهم السلام ، دالّة علىٰ تكفير ذنب وخطيئة صدرت منهم ، وأنّ التوبة علىٰ الله تعالىٰ بلحاظ ذلك[2] .

■ **وأمّا الآية الثانية :**

فهي قوله تعالىٰ : ﴿ **للفقراء المهاجرين الّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أُولئك هم الصادقون * والّذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أُوتوا ويؤثرون علىٰ**

---

(١) سورة التوبة ٩ : ١١٧ .

(٢) مجمع البيان ٥/١٢٦ ـ ١٢٧ .

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون * والّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للّذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم ﴾[١].

فقد روىٰ السيوطي وغيره عن جمع أنّهم يحتجّون بهذه الآيات علىٰ عدم جواز تناول الصحابة بقصّ ما وقع منهم، وأنّ من يتناولهم بسوءٍ ما صدر من أفعال بعضهم ففي قلبه غلّ، وأنّ من يقصّ ما جرىٰ بينهم لا يدخل في مدلول **﴿ والّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا آغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للّذين آمنوا ﴾**[٢].

ولأجل تحصيل المفاد الصحيح للآيات ينبغي ذِكر الآيتين اللاحقتين، وهما: **﴿ ألم تر إلىٰ الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإنْ قوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنّهم لكاذبون * لئن أُخرجوا لا يخرُجُون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليُولّنّ الأدبار ثمّ لا يُنصَرون ﴾**[٣]..

فترىٰ أنّ سورة الحشر هنا كسورة التوبة المتقدّمة، فهي لا تقتصر في تقسيم من كان مع النبيّ ﷺ إلىٰ الفئة الصالحة فحسب، بل تنبّه علىٰ ذِكر

---

(١) سورة الحشر ٥٩: ٨ ـ ١٠.

(٢) الدرّ المنثور ٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦ و ١١٣ ـ ١١٤، تفسير الطبري ١٢/ ٤٣ ح ٣٣٨٨٨، تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ٢٨٩، تفسير البغوي ٤/ ٢٩٢.

(٣) سورة الحشر ٥٩: ١١ و ١٢.

الجماعة الطالحة، وهم المنافقون، وهو إبطال لدعوىٰ التعميم في كلّ مَن صحب ولقي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

كما أنّ السورة في الآيات المذكورة تحدّد وتفسّر «المهاجر» بأنّه من توافر علىٰ قيود أربعة، وهي:

الأوّل: الذي أُخرج من دياره وأمواله.

الثاني: كون خروجه ابتغاء فضل الله ورضوانه، كما قدّمناه مراراً من أنّ الهجرة في الاستعمال القرآني هي في المعنىٰ الخاصّ من الفعل العبادي في سبيل الله، لا قصد الحطام الدنيوي.

الثالث: نصرة الله ورسوله، وقدّمنا أنّ كتب السير ملأىٰ بمن كان يجبن في الحروب ومنازلة الأبطال في ساعة العسرة والشدائد ممّن يقال عنهم إنّهم من الخاصّة الّذين صحبوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع: الصدق، وهو ـ كما تقدّمت الإشارة المختصرة إليه ـ قد شُرح في آيات عديدة، كقوله تعالىٰ: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً * ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيماً**﴾[1]..

فالاستقامة حتّىٰ آخر العمر، وعدم التبديل، مِن مقدّمات الصدق، ولذلك اشتهر بين الصحابة في طعنهم علىٰ بعضهم بأنّه بدّل وأحدث، كما درج هذا الاستعمال بكثرة عندهم في فتنة قتل عثمان وبقية الفتن التي دارت بينهم، فدلّت الآية علىٰ اشتراط الوفاء بالعهد وعدم التبديل في

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٢٣ و ٢٤.

وصف المؤمنين بالصدق.

وكقوله تعالىٰ في سورة محمّد ﷺ : ﴿ **ويقولُ الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيتَ الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأَوْلىٰ لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إنْ تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم * أُولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمىٰ أبصارهم * أفلا يتدبّرون القرآن أم علىٰ قلوبٍ أقفالها * إنّ الّذين ارتدّوا علىٰ أدبارهم من بعدما تبيّن لهم الهدىٰ الشيطانُ سوّل لهم وأملىٰ لهم * ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرِهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾[1].

فنرىٰ في سورة محمّد ﷺ أنّها تشترط في عنوان الصدق الثباتَ عند الزحف وعدمَ الفرار والجبن، بينما المنافق الخفيّ جبان في الحروب والنزال كأنّه يغشىٰ عليه من الموت لشدّة خوفه وجبنه، فإذا قاد جيشاً ليفتح حصناً عاد يجبّن الناس والناس يجبّنونه، بخلاف الصادق، فإنّه كرّار غير فرّار، يفتح الله علىٰ يديه..

والمنافق الخفيّ المحترف للنفاق يحزن من هول القتال والكفّار،

---

(١) سورة محمّد ٤٧ : ٢٠ ـ ٣٠.

ويقول ـ مثلاً ـ: يا رسول الله ! إنّها قريش وخيلاؤها ، ما هزمت قطّ . فليس ذلك علامة الصدق في ما يدّعيه من الإيمان ، فهذا الصـحابي الذي تشـير إليهم سورة محمّـد ﷺ هو المنافق المحترف ، وصفتهم عكس ما أُشير إليه في سورة الفتح بقوله تعالىٰ : ﴿ **أشدّاء علىٰ الكفّار رحماء بينهم** ﴾[1] ، وإنّ صحابيّ هذه الفئة غظّ فظّ مع المؤمنين في السلم ، هجين ذعر جبان في الحرب مع الكفّار .

ثمّ إنّ السورة تلاحق وجود فئة محترفة للنفاق وهـي : ﴿ **الّذين في قلوبهم مرض** ﴾[2] وهي الفئة التي أشارت إليها سورة المـدّثّر المكّـية[3] ، رابع سورة أُنزلت في بداية البعثة ، وكشـفت عـن وجـود هـذه الفـئة فـي صفوف المسلمين الأوائل ، وهذه السورة تنبئ عن غرض هذه الفـئة مـن إسلامها منذ البدء ، وهو تولّي الأُمور ؛ وعرّضت بتولّيهم للأُمور ومقدّرات الحكم ، وإفسادهم في الأرض ، وسيرتهم عـلىٰ غـير سـيرة النـبيّ ﷺ وسُـننه ، وتقطيعهم للرحم التي أُمروا بوصلها ، وأنّ إسلامهم في بدء الدعوة ـ كما في سورة المدّثّر ـ هو لذلك الغرض ؛ لِما اشتهر من الأنباء من الكهنة واليهود عن ظفر النبيّ ﷺ بالعرب والبلدان ، كما أشارت إليه الآية عن اليهود قبل الإسلام بقوله تعالىٰ : ﴿ **ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لِما معهم وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الّذين كفروا فلمّا جاءهم مـا عرفوا كفروا به فلعنة الله علىٰ الكافرين** ﴾[4] .

---

(١) سورة الفتح ٤٨ : ٢٩ .

(٢) سورة محمّـد ٤٧ : ٢٠ و ٢٩ .

(٣) سورة المدّثّر ٧٤ : ٣١ .

(٤) سورة البقرة ٢ : ٨٩ .

كما إنّ سورة محمّد ﷺ تكشف عن وجود ارتباط بين هذه الفئة ﴿**الّذين في قلوبهم مرض**﴾ وبين الكفّار الّذين كرهوا ما نزّل الله، وإنّهم يعِدّونهم بطاعتهم في بعض الأمر والشؤون الخطيرة، ويحسبون أنّ الله ليس بكاشفهم، فالسورة تكشف عن فئة منافقة أخفَتْ نفاقها فغدت محترفة في الاختفاء.. ﴿**لو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول**﴾[1]، في مقابل الفئة المؤمنة أهل الصدق.. كما تكشف عن فئة مرتدّة في الباطن عن الإسلام..

والحاصل: إنّ سورة محمّد ﷺ عندما تشير إلىٰ شرائط عنوان الصدق، فإنّها تشير ـ كذلك ـ إلىٰ تقسيم مَن كان مع النبيّ ﷺ ممّن صحبه، لا التسوية بينهم وجعلهم في كفّة واحدة، فهل إنّ مَن يقسّم الصحابة إلىٰ فئات ـ تبعاً للقرآن الكريم في تقسيمه لهم ـ يؤمن بالكتاب كلّه؟! أم من يبعّض الإيمان، فهو يؤمن ببعض آيات السورة دون بعضها الآخر، مع إنّه لم يصب ذلك البعض أيضاً؟!

وكذا يشير إلىٰ معنىٰ الصدق قوله تعالىٰ في سورة الأحزاب: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذ جاءُوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنّون بالله الظنونا * هنالك ابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً * وإذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا ويستأذنُ فريق منهم النبيَّ يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إنْ**

---

(١) سورة محمّد ٤٧: ٣٠.

يريدون إلّا فراراً * ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثمّ سُئلوا الفتنة لَأَتوها وما تلبّثوا بها إلّا يسيراً * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّونَ الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً * قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتّعون إلّا قليلاً * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً * قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلّا قليلاً * أشحّةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشىٰ عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حدادٍ أشحّة علىٰ الخير * أُولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك علىٰ الله يسيراً * يحسَبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأتِ الأحزابُ يودّوا لو أنّهم بادُون في الأعراب يَسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً * لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً * ولمّا رأىٰ المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلّا إيماناً وتسليماً * من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً * ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إنْ شاء أو يتوب عليهم إنّ الله كان غفوراً رحيماً ﴾[1].

نقلنا الآيات بطولها من سورة الأحزاب لِيَبين الجوّ الذي تصوّره الآيات لنا في واقعة الخندق، كما أنّ هذه السورة تبيّن أيضاً أنّ من شرائط الصدق: الثبات عند الزحف، والشجاعة في الحروب، وعدم الفرار؛ إلّا أنّ

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣: ٩ ـ ٢٤.

المنافقين والّذين في قلوبهم مرض إذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، فالحدّة ليست في شجاعتهم وبطولتهم في النزال والشدائد، بل في لسانهم في وقت السلم، يبتذلون الفظاظة والغظاظة حتّىٰ مع النبيّ ﷺ، ويتقدّمون بما يرتأونه علىٰ الله ورسوله: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله وآتّقوا الله إنّ الله سميع عليم * يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾**[1]..

فمن الغريب بعد ذلك أن يرووا في فضائل بعض الصحابة اعتراضه علىٰ الرسول ﷺ في أربع موارد لفقوها، وأنّ القرآن نزل بخلاف قول النبيّ ﷺ ووفاقاً لرأي ذلك الصحابي؛ وفي بعضه الروايات أنّه أمسك بثوب النبيّ ﷺ وجذبه! وكأنّهم لم يقرؤوا سورة الحجرات ولم يقرؤوا قوله تعالىٰ: **﴿قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلّفين﴾**[2] ولم يقرؤوا قوله تعالىٰ: **﴿إنّ الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أُولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ لهم مغفرة وأجرٌ عظيم * إنّ الّذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنّهم صبروا حتّىٰ تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم * يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا علىٰ ما فعلتم نادمين * وآعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أُولئك هم**

---

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ١ و ٢.

(٢) سورة صٓ ٣٨ : ٨٦.

الراشدون﴾[1] . .

فالقرآن يجعل هذه الهالة المقدّسة لشخصية النبيّ ﷺ ، ويجعل أحكاماً عديدة لكيفية الارتباط بالرسول ﷺ من التوقير له ، وخفض الصوت ، وعدم التقدّم علىٰ أمره وحكمه ، وعدم مخالفته وعصيانه بالتسليم له ، وإنّ ذلك هو الإيمان ، وهو امتحان القلب بالتقوىٰ . .

فكيف يكون ما يذكرونه من مجابهة ذلك الصحابي لنبيّ الله ﷺ منقبة وفضيلة ؟ !

وكيف يُعتقد بتكلّف رسول الله ﷺ خلاف ما شرّع وحدّد له من الله تعالىٰ ، ويجعلون ذلك الصحابي يستنكر فعل النبيّ ﷺ ويردعه عنه ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ ثمّ ينزل القرآن بتقرير رأي الصحابي علىٰ قول نبيّ الله تعالىٰ ، الذي قال الله فيه : **﴿وما ينطق عن الهوىٰ * إن هو إلّا وحي يوحىٰ﴾**[2] ؟ !

نعوذ ونستجير بالله من هذه الأقاويل !

أليس هذا تبجيلاً للصحابي وغلوّاً فيه إلىٰ حدٍّ جعلوه فوق مقام النبوّة والرسالة ، وردّاً علىٰ قول الله تعالىٰ في شأن رسوله في سورة الحجرات وغيرها من السور ؟ !

وممّا يستغرب منه أنّ العديد من السور تجعل هذه الصفة ـ وهي عدم الإقدام في الحروب والشدائد ، والإقدام بحدّة اللسان والفظاظة في السلم مع المؤمنين أو مع الرسول ـ من علامات المنافقين ، أو الذي في

---

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ٣ ـ ٧ .

(٢) سورة النجم ٥٣ : ٣ و ٤ .

قلوبهم مرض ـ كما في سورة الفتح وسورة محمّد ﷺ وسورة الحجرات وسورة الأحزاب وغيرها ـ، فكيف تصاغ هذه الصفة كفضيلة من الفضائل، وتسمّىٰ بالشدّة والغيرة فى ذات الله وكراهة الباطل ؟!!

ونعود ثانية إلىٰ سورة الأحزاب، فنقول: إنّها تشترط في الصدقِ، الصدقَ عند النزال في الحروب والشدائد، والرحمة ولين العريكة مع المؤمنين، بل الآية تنفي الإيمان وتُحبط عمل من اتّصف بالجبن في الحروب ـ كحرب الأحزاب (الخندق) ـ وبحدّة اللسان في السلم مع المؤمنين..

كما إنّ هذه السورة تقسّم مَن صحب النبيّ ﷺ إلىٰ فئات صالحة وطالحة، وتنفي صلاح المجموع، بل تميّزهم إلىٰ فئة مؤمنة ثابتة في الزلازل، وفئة المنافقين، والّذين في قلوبهم مرض ـ وهم أكثر احترافاً للنفاق من الفئة الأُولىٰ، وأشدّ خطراً، كما تبيّن في سورة محمّد ﷺ وسورة المدّثّر ـ، وفئة المعوّقين..

كما تدعو السورة إلىٰ التأسّي بالنبيّ ﷺ والاقتداء به ومتابعته، لا الردّ والاعتراض عليه كما هو دأب المنافقين ودأب الفئة الثانية ﴿**الّذين في قلوبهم مرض**﴾[1] ودأب بعض القالين، يجعل ذلك منقبة لبعض الصحابة.. ﴿**قلْ أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم**﴾[2].

---

(١) سورة المائدة ٥ : ٥٢، سورة الأنفال ٨ : ٤٩، سورة التوبة ٩ : ١٢٥، سورة الأحزاب ٣٣ : ١٢ و ٦٠، سورة محمّد ﷺ ٤٧ : ٢٠ و ٢٩، سورة المدّثّر ٧٤ : ٣١.

(٢) سورة الحجرات ٤٩ : ١٦.

فأين هي السورة القرآنية التي لا تقسّم مَن صحب النبيّ ﷺ ولا تميزهم إلىٰ فئات عديدة مختلفة ؟!

وكذا يشير إلىٰ معنىٰ «الصدق» قوله تعالىٰ في سورة الحجرات: **﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم * إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصادقون * قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم * يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا علَيَّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إنّ الله يعلم غيب السمٰوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾**(١)..

فهذه السورة بآياتها هذه هي أيضاً تشترط في معنىٰ الصدق: الإيمان، مع الاستقامة عليه بعدم الارتياب، والمجاهدة في سبيل الله؛ مع أنّه قد روىٰ أكثر المفسّرين والمؤرّخين أنّ بعض من يُعَدّ ويُحسب من خاصة الصحابة قد ارتاب في نبوّة النبيّ ﷺ وحقّانية الدين في صلح الحديبية واعتراضه علىٰ النبيّ ﷺ!

وبعدما تحصّل لدينا معنىٰ الصدق والصادقين من العديد من السور، يتبيّن بوضوح لا ريب فيه أنّ المقصود من قوله تعالىٰ في الآية الأُولىٰ من الآيات الثلاث المتقدّمة من سورة الحشر، وهي: **﴿للفقراء المهاجرين الّذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً**

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٤ - ١٨.

وينصرون الله ورسوله أُولئك هم الصادقون ﴾[١] ليس هو كلّ مكّيٍّ أسلم وآنتقل إلىٰ المدينة وصحب النبيّ ﷺ، بل خصوص من توافرت فيه القيود العديدة المذكورة في الآية، والتي منها الصدق، والذي بيّنت السور العديدة الأُخرىٰ عدم توافره في جميع الصحابة، بل توافر في فئة منهم دون الفئات، وأنّهم ضرب من الجماعات.

وكيف يحتمل وصف الآية كلَّ مكّيٍّ ونحوه أسلم وآنتقل إلىٰ المدينة أنّه صادق، وقد صدر من العديد منهم مخالفات، كالفرار من الزحف الذي هو من الكبائر؟!

هذا، وقد فرّ كلّ الصحابة يوم حنين إلّا ثلّة من بني هاشم كما في قوله تعالىٰ: **﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ ولّيتم مدبرين * ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلىٰ المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الّذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾**[٢]، ووقعة حنين كانت بعد عام الفتح!

وكذا ما أتاه الصحابة في صلح الحديبية، وفي مقدّمتهم بعضهم من الاعتراض علىٰ صلح النبيّ ﷺ[٣] كما سيأتي تفصيله!

وكذا ما أتاه عدّة من الصحابة من التخلّف عن جيش أُسامة، الذي جهّزه رسول الله ﷺ لقتال الروم، وقد لعن ﷺ من تخلّف عن جيش

---

(١) سورة الحشر ٥٩: ٨.

(٢) سورة التوبة ٩: ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) آنظر: تاريخ الطبري ٢/١٢٢ حوادث سنة ٦ هـ، البداية والنهاية ٤/١٣٦ حوادث سنة ٦ هـ.

أُسامة وقال: «نفّذوا جيش أُسامة»![١].

وقد اقتتل الأوس والخزرج بالأيدي والنعال والعصيّ[٢] فنزلت الآية: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما علىٰ الأُخرىٰ فقاتلوا التي تبغي حتّىٰ تفيء إلىٰ أمر الله﴾**[٣]!

ألم يمنع بعض الصحابة من كتابة النبيّ ﷺ كتاباً ـ في مرضه الأخير ـ لا يضلّ المسلمون بعده ما إنْ تمسّكوا به، وقولة ذلك الصحابي: إنّ النبيّ ﷺ غلبه الوجع ـ أو: المرض ـ، أو: إنّ الرجل ليهجر؟![٤] وقد قال تعالىٰ: **﴿ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ * وما ينطق عن الهوىٰ * إن هو إلّا وحي يوحىٰ﴾**[٥] وقال تعالىٰ: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتّقوا الله إنّ الله سميع عليم * يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾**[٦] وقال: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**[٧] وقال: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾**[٨] وقال: **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول**

---

(١) انظر: الملل والنحل ـ للشهرستاني ـ ١/١٢، شرح نهج البلاغة ٦/٥٢، شرح المواقف ٨/٣٧٦.

(٢) انظر: تفسير الدرّ المنثور ٧/٥٦٠.

(٣) سورة الحجرات ٤٩: ٩.

(٤) انظر: صحيح البخاري ٤/٢١١ ح ١٠ و ج ٦/٢٩ ح ٤٢٢، صحيح مسلم ٥/٧٥ ـ ٧٦، مسند أحمد ١/٣٢٥، الكامل في التاريخ ٢/١٨٥ حوادث سنة ١١ هـ.

(٥) سورة النجم ٥٣: ٢ ـ ٤.

(٦) سورة الحجرات ٤٩: ١ و ٢.

(٧) سورة الحشر ٥٩: ٧.

(٨) سورة الأحزاب ٣٣: ٢١.

وآحذروا﴾[١]!

وكم من واقعة قد أبرم وقطع فيها غير واحد من العشرة المبشّرة قبل أن يحكم الله ورسوله فيها؟!

بل تقدّموا في أشياء قد تقدّم الله ورسوله فيها بحكم خلافاً وردّاً لذلك الحكم، كما في الأمثلة المتقدّمة وغيرها!

ثمّ إنّه بقرينة الآية الثالثة من آيات سورة الحشر المزبورة، وهي: **﴿والّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا آغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان﴾**[٢] يتبيّن أنّ المراد من «الفقراء المهاجرين» هم «السابقون»، وقد تقدّم في سورة التوبة المراد من «السابقين» فلا تغفل، ويعضد ذلك أيضاً التوصيف بـ«الصدق» كما تقدّم.

أمّا الآية الثانية من الآيات الثلاث من هذه السورة: **﴿والّذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أُوتوا ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون﴾**[٣].

فقد قيّدت الآية المديح بعدّة قيود، فلم تكتفِ بتبوّؤ الدار، بل قيّدته بالإيمان، والمحبّة لمن هاجر إليهم، والإيثار علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وعدم الشحّ..

ومن البيّن ضِيق الدائرة بلحاظ هذه القيود؛ لأنّه يُخرج المتبوّئ للدار المنافق، أو من انضمّ إلىٰ فئة الّذين في قلوبهم مرض، أو من كان من أهل

---

(١) سورة المائدة ٥ : ٩٢.

(٢) سورة الحشر ٥٩ : ١٠.

(٣) سورة الحشر ٥٩ : ٩.

المدينة من الّذين مردوا على النفاق ـ كما في سورة التوبة ـ ﴿ **لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلىٰ عذاب عظيم** ﴾[(١)]، أو غيرها من النماذج التي استعرضتها سور التوبة والأحزاب ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم والبقرة والأنفال والمائدة، وغيرها من السور المتعرّضة للفئات الطالحة التي صحبت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ألوان المنافقين المختلفة.

فلا الآية الثانية هذه من سورة الحشر مطلقة لكلّ مدنيّ أسلم، ولا الآيات الأُخرىٰ الناصّة علىٰ أنّ بعض الفئات الطالحة السيّئة هي من أهل المدينة تبقي الإطلاق المتوهَّم.

هذا، مع أنّه قد ورد في كتب أصحابنا عن أهل البيت عليهم السلام أنّ ذيل الآية ﴿ **ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون** ﴾ قد نزلت في عليّ وفاطمة عليهما السلام، بل رووا ذلك أيضاً عن رواة العامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[(٢)]، نعم، في بعض الروايات أنّ سيّد هذه الآية وأميرها عليٌّ عليه السلام، ممّا يدلّ علىٰ عموم المعنىٰ، ولا غرابة في ذلك بعد كون الآيات مختلفة نزولاً، فلعلّ صدرها في مورد وذيلها في آخر، وكم له من نظير في الآيات.

وعلى كلّ حال، فالآية تقيّد بعدّة قيود، فلا مسرح لتوهُّم الإطلاق.

الموالاة والبراءة:

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿ **والّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا آغفر لنا**

---

(١) سورة التوبة ٩: ١٠١.

(٢) الأمالي ـ للطوسي ـ: ١٨٥ ح ٣٠٩ المجلس ٧، مجمع البيان ٩/٣٨٦، تفسير الصافي ٥/١٥٧، وآنظر: شواهد التنزيل ٢/٢٤٦ ـ ٢٤٧ ح ٩٧٠ و ٩٧١.

ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلّاً للّذين آمنوا إنّك رؤوف رحيم ﴾[١] فالآية تقيّد الاستغفار لمن سبق بالإيمان، لا لمن سبق بظاهر الإسلام، وتنفي الغلّ عن الّذين آمنوا.

أمّا قوله تعالىٰ: ﴿ **ما كان للنبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولي قربىٰ من بعدما تبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه إنّ إبراهيم لأوّاه حليم ﴾**[٢]، فقد عَلّل النهي عن الاستغفار لمن يكون من أصحاب الجحيم عدوّاً لله العزيز..

وقد بيّنت سور القرآن العديدة المتقدّمة أنّ العديد ممّن صحب النبيّ الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم ولقيه كان من فئات المنافقين، أو الّذين في قلوبهم مرض، أو الماردين علىٰ النفاق، أو الّذين يلمزون المؤمنين، أو الّذين يؤذون النبيّ، أو المعوّقين عن القتال، أو المتخلّفين، أو غيرهم من النماذج السيّئة، وتوعّدهم الله تعالىٰ بالعذاب واللعن، وأنّ الكافرين سواء في العاقبة.

فمع كون الاستغفار من المؤمنين محرّم لهذه الفئات التي صحبت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يتوهّم شمول الاستغفار والحبّ لكلّ مكّي ونحوه أسلم في الظاهر وانتقل إلىٰ المدينة ولكلّ مدنيّ أسلم في الظاهر؟! وقد عرفت أنّ سورة المدّثر رابع سورة نزلت وسورتَي العنكبوت والنحل المكّيّات، قد تتبّعت وجود فئة محترفة للنفاق منذ أوائل البعثة، وأطلقت عليها عنوان: ﴿ **الّذين في قلوبهم مرض** ﴾، ولاحق القرآن الكريم خطواتهم في العديد

---

(١) سورة الحشر ٥٩ : ١٠.

(٢) سورة التوبة ٩ : ١١٣ و ١١٤.

من السور تحت هذا العنوان وبيّن أهدافهم من إظهار الإسلام والالتحاق بركب النبيّ ﷺ.

وقد ورد النهي في العديد من الآيات عن موادّة من حادّ الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أُولئك كتب في قلوبهم الإيمانَ وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أُولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون** ﴾[1].

وقد وصف القرآن العديد من الفئات التي كانت تصحب النبيّ ﷺ بالمحادّة لله ولرسوله، قال تعالىٰ: ﴿ **إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله كُبِتوا كما كُبِت الّذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بيّنات وللكافرين عذاب مهين... ألم تر إلىٰ الّذين نُهوا عن النجوىٰ ثمّ يعودون لِما نُهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول... ألم تر إلىٰ الّذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون علىٰ الكذب وهم يعلمون * أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنّهم ساء ما كانوا يعملون * اتّخذوا أيمانهم جُنّة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسَبون أنّهم علىٰ شيء ألا إنّهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أُولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان**

---

(١) سورة المجادلة ٥٨: ٢٢.

هم الخاسرون * إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله أُولئك في الأذلّين﴾[١].

فترىٰ أنّ القرآن ما يفتأ يلاحق النماذج العديدة من ألوان الّذين في قلوبهم مرض والمنافقين وأنشطتهم المضادّة لمحور المسيرة الإلٰهية وهو المسير النبوي..

وفي سورة التوبة المتقدّمة، المستعرضة لنماذج منهم ـ بعد قوله تعالىٰ: **﴿ومنهم... ومنهم... ومنهم...﴾** ـ: **﴿ومنهم الّذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أُذن قل أُذن خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للّذين آمنوا منكم والّذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم * يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحقّ أن يرضوه إنْ كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنّه مَن يحادِدِ الله ورسوله فأنّ له نارَ جهنّم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾**[٢].

ومنهم من آذىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ابنته فاطمة عليها السلام[٣]..

فمع هذا كلّه كيف لا يتحرّج المؤمن المتديّن في محبّة كلّ مكّيٍ أسلم وآنتقل إلىٰ المدينة، وكلّ مدنيّ أسلم؟! وقد تقدّم حديث حذيفة الذي رواه مسلم في كتاب المنافقين أنّ أصحاب مؤامرة العقبة ـ بعد غزوة تبوك ـ اثنا عشر هم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

أليس من حادّ الله ورسوله، وجعل نفسه ندّاً لهما، منافق ذو شقاق لله ورسوله، فكيف يتّخذونه وليّاً ومحبوباً وقد قال تعالىٰ: **﴿ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله والّذين آمنوا أشدّ حبّاً**

---

(١) سورة المجادلة ٤٨: ٥ و ٨ و ١٤ ـ ٢٠.

(٢) سورة التوبة ٩: ٦١ ـ ٦٣.

(٣) آنظر: مسند أحمد ١/ ٤ و ٦.

لله ولو يرىٰ الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جـميعاً وأنّ الله شديد العذاب * إذ تبرّأ الّذين اتُّبِعوا من الّذين اتَّبَعوا ورأوا العـذاب وتقطّعت بهم الأسباب * وقال الّذين اتَّبَعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرّؤا مـنّا كـذلك يـريهم الله أعـمالهم حسـرات عـليهم ومـا هـم بخارجين من النار﴾[1] ؟!

فمع كلّ هذا النكير والتحذير القرآني من اتّباع وموادّة من حـادّ الله تعالىٰ ورسوله ، من النماذج الطالحة التي كانت تـعايش النـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فـي المدينة ، أو في ركبه في القتال ، كـما تـذكر ذلك سـورة التـوبة وغـيرها ، وبعضهم ـ كما عرفت من سورة المدّثّر ـ قد التحقوا بالإسلام ظاهرياً منذ أوائل البعثة النبوية ، فكيف يستحلّ القائلُ بالتعميم الموالاةَ للجميع ؟!

■ **وأمّا الآية الثالثة :**

فهي قوله تعالىٰ : **﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مـا فـي قـلوبهم فأنـزل السكينة عـليهم وأثـابهم فـتحاً قريباً ﴾**[2] وقوله تعالىٰ في السورة نفسها : **﴿ محمّـد رسـول الله والّـذين معه أشدّاء علىٰ الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فـضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوىٰ علىٰ سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾**[3] .

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١٦٥ ـ ١٦٧ .

(٢) سورة الفتح ٤٨ : ١٨ .

(٣) سورة الفتح ٤٨ : ٢٩ .

ولأجل تحصيل مفاد هذه الآيات بدقّة لا بُـدّ من الالتفات إلىٰ الأُمور التالية :

● **الأمر الأوّل** : إنّه تمّ في صدر السورة الكريمة تقسيم مَن كان مع النبيّ ﷺ إلىٰ مؤمن ومنافق ، قال تعالىٰ : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السمٰوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها خالدين فيها ويكفّر عنهم سيّئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانّين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنّم وساءت مصيراً** ﴾[1] . .

فهذه السورة شأنها شأن بقية السور القرآنية تقسّم وتميّز من كان مع النبيّ ﷺ إلىٰ صالح وطالح ، ولا تجعلهم فئة واحدة ، كما إنّها تبيّن أنّ السكينة تنزل علىٰ المؤمنين دون المنافقين ممّن صحب النبيّ ﷺ ، ومن ثمّ يتبيّن أنّ الرضا والسكينة في الآية ١٩ منها خاصة بالمؤمنين الّذين بايعوا تحت الشجرة لا غيرهم ، أي ليس كلّ من بايع فهو مؤمن وقد رضي الله عنه . .

فالرضا كفِعل أُسند وتعلّق بالمؤمنين الّذين وُضعوا في صدر السورة في قبال المنافقين ، فهؤلاء الّذين تميّزوا عن أُولئك رضي الله عنهم حال مبايعتهم للنبيّ ﷺ .

وستأتي شواهد أُخرىٰ علىٰ تخصيص الرضا بهم لا بكلّ مَن بايع ، إذ ليس لفظ الآية هكذا : «لقد رضي الله عن الّذين يبايعونك تحت الشجرة

---

(١) سورة الفتح ٤٨ : ٤ ـ ٦ .

فعلم ما في قُلوبهم فأنزل السكينة عليهم» ، أي ليس الرضا لمطلق الّـذين بايعوا بل مقيّد ، وقد خصّص الله تعالىٰ ذلك أيضاً في قـوله : ﴿ **فأنزل الله سكينته علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين وألزمهم كلمة التقوىٰ وكانوا أحقّ بها وأهلها وكان الله بكلّ شيء عليماً** ﴾[1] ..

بينما لم تعمّ السكينة مَن كان مع النبيّ ﷺ في الغار كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكـينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الّذين كفروا السفلىٰ وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم** ﴾[2] .

● **الأمر الثـاني** : إنّ قـوله تـعالىٰ فـي سـورة الفـتح : ﴿ **إنّ الّـذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنّما يـنكث علىٰ نفسه ومن أوفىٰ بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[3] ترىٰ فيه أنّ الحكم لم يخصّص بإسناد المبايعة إلىٰ خصوص المؤمنين ، بل إلىٰ عموم الّذين بايعوا ، أي الّذين كانوا معه ﷺ ، وحـينئذ اشـترط عـليهم الوفاء بالبيعة وعدم النكث ، وفي الآية إشعار بوجود كِلا الفئتين ، ومن ثمّ عُرف بين الصحابة اصطلاح «بدّل» و «نكث» في الطـعن الذي يـوجّهونه علىٰ بعض منهم .

ومنه يظهر أنّ الرضا ـ حتّىٰ الذي أُسند إلىٰ المؤمنين منهم خاصة ـ مشروط بالوفاء بـما عـاهدوا الله عـليه ، وأنّ الرضـا هـو لأجـل تسـليمهم

---

(١) سورة الفتح ٤٨ : ٢٦ .

(٢) سورة التوبة ٩ : ٤٠ .

(٣) سورة الفتح ٤٨ : ١٠ .

ومبايعتهم لا مطلقاً، و ﴿إذ﴾ من قبيل التعليل.

● **الأمر الثالث**: وهو متّفق مع سابقَيه، وهو أنّ قوله تعالىٰ في آخر السورة: **﴿محمّد رسول والّذين معه أشدّاء علىٰ الكفّار رحماء بينهم... وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾**[1] يصف الّذين معه بالشدّة علىٰ الكفّار والرحمة فيما بينهم، وقد انبأتنا سورة محمّد ﷺ وسورة الأحزاب وسورة التوبة وغيرها من السور ـ كما تقدّمت الإشارة إلىٰ بعضها ـ إلىٰ وجود فئات من المنافقين والّذين في قلوبهم مرض مع النبيّ ﷺ إذا جاء الخوف تدور أعينهم كالمغشيّ عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، وإذا جاءت الأحزاب يودّون لو أنّهم بادون في الأعراب، يقولون بيوتنا عورة، وإنْ تولّىٰ أحدهم الأُمور العامّة أفسد في الأرض وقطّع الأرحام[2]، وأغلظ وكان فظّاً مع المؤمنين والمسلمين.

وبهذا يتبيّن أنّ هذه الآية في سورة الفتح تشير إلىٰ مديح فئة خاصة، ومعنىً خاصّ من «المعية» بمعنىٰ النصرة الصادقة، ويدلّ علىٰ ذلك أيضاً تقييد الآية الوعد الإلٰهي بالمغفرة والأجر العظيم بخصوص المؤمنين العاملين للصالحات، أي أنّ الآية جاءت بلفظ **﴿منهم﴾** الدالّ علىٰ التبعيض وعدم العموم.

وهذا ما نطقت به السور جميعها، فهي تؤكّد علىٰ تبعيض المجموع الذي صحب النبيّ ﷺ ـ سواء في القتال، أو في السلم حضراً أو سفراً ـ إلىٰ صالح وطالح، كما إنّ السورة تشترط لحصول المغفرة والأجر العظيم

---

(١) سورة الفتح ٤٨: ٢٩.

(٢) لاحظ سورة محمّد ﷺ ٤٧: ٢٠ ـ ٢٤، وما ذكرناه سابقاً.

الإيمان والعمل الصالح، أي الوفاء بالشرط.

● **الأمر الرابع**: إنّ شأن وقوع بيعة الشجرة ونزول آياتها ـ كما ذكر ذلك في كتب الرواية والتفسير والسير ـ هو ما وقع في صلح الحديبية من عصيان أكثر مَن كان مع النبيّ ﷺ أمْرَه ﷺ إيّاهم بالحلق والإحلال من الإحرام بعدما صُدّوا عن الاعتمار إلىٰ بيت الله الحرام، وصار الأمر إلىٰ عقد النبيّ ﷺ الصلح مع قريش، والذي كان فيه انتصار كبير لرسول الله وللمسلمين علىٰ قريش ـ كما وعد الله تعالىٰ نبيّه ﷺ ـ..

إلّا أنّ الّذين كانوا في ركبه ﷺ مضافاً إلىٰ أنّهم لم يدركوا الحكمة من ذلك، لم يسلّموا لأمر رسول الله ﷺ أيضاً، وفي مقدّمتهم أحد الصحابة ممّن يُحسب من الخاصة، فقد ذكرت كتب الصحاح والتواريخ شدّة اعتراضه وردّه لأمر رسول الله ﷺ حتّىٰ إنّه ارتاب في دينه، وقد قال تعالىٰ: ﴿**إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أُولئك هم الصادقون * قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم**﴾[(١)] وقال: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً**﴾[(٢)].

ولذلك قدّمنا في بيان آيات سورة الحشر أنّ اصطلاحات «الفقراء المهاجرين»... و«الصادقين» لا تعمّ كلّ مَن صحب النبيّ ﷺ، فكان من الكثير ممّن في ركبه ﷺ حالة عدم انصياع وعدم استجابة وعدم

---

(١) سورة الحجرات ٤٩: ١٥ و ١٦.

(٢) سورة الأحزاب ٣٣: ٣٦.

ائتمار، حتّىٰ دخل رسول الله ﷺ خيمته مغضباً فاستخبرته الحال أمّ سلمة، فأشارت عليه ﷺ بأن يبتدر ويحلق فسيضطرّون إلىٰ متابعته، فلمّا رأىٰ النبيّ ﷺ منهم مثل ذلك استوثق منهم بالبيعة تحت الشجرة كي لا يصدر منهم نكول مرّة أُخرىٰ، فالبيعة أُخذت لإنشاء التعهّد والوفاء والالتزام بمقتضىٰ الشهادتين التي أقرّوا بها.

ومن ذلك كلّه يفهم أنّ «الرضا» في الآية كان بعد اعتراض كثير من الصحابة ـ ممّن بايع بعد ذلك ـ علىٰ النبيّ ﷺ، وحصول حالة من عدم التسليم والنكول بينهم، وما يوجب السخط الإلٰهي عليهم، ومع ذلك فإنّ هذا «الرضا» خصّص بالمؤمنين لمّا بايعوا، ولم يُسنَد إلىٰ عموم الّذين بايعوا كما عرفت..

ومع ذلك أيضاً اشترط الوفاء بالبيعة وعدم النكث، أي الوفاء بالعهد الإلٰهي حتّىٰ حلول الأجل.

ومع كلّ ذلك، فقد دلّت السورة الكريمة علىٰ مديح بعض من صحب النبيّ ﷺ بلفظة ﴿**منهم**﴾ في آخر آية منها.

■ **أمّا الآيتان الرابعة والخامسة:**

فهي قوله تعالىٰ: ﴿**والّذين هاجروا في الله من بعدما ظُلموا لنبوّئنّهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الّذين صبروا وعلىٰ ربّهم يتوكّلون**﴾[1].. وقوله تعالىٰ: ﴿**ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا من بعدما فُتنوا ثمّ جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفور**

---

(١) سورة النحل ١٦: ٤١ و ٤٢.

رحيـم ﴾(١) . .

وقوله تعالىٰ : **﴿ لقد تاب الله علىٰ النبيّ والمـهاجرين والأنـصار الّذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثمّ تاب عليهم إنّه بهم رؤوف رحيم ﴾**(٢) .

ولأجل إدراك معنىٰ ومفاد الآيات الشريفة لا بُـدّ من الالتفات إلىٰ أنّ الآية الثانية المذكورة آنفاً من سورة النحل قد سبقتها الآيات التالية : **﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان ولكن مـن شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عـظيم * ذلك بأنّهم اسـتحبّوا الحـياة الدنـيا عـلىٰ الآخـرة وأنّ الله لا يـهدي القـوم الكافرين * أُولئك الّذين طبع الله علىٰ قـلوبهم وسـمعهم وأبـصارهم وأُولئك هم الغافلون * لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون * ثمّ إنّ ربّك للّذين هاجروا . . . ﴾**(٣) . .

ففي هذه الآيات المكّية دلالة علىٰ ظهور النفاق قـبل الهـجرة ، وأنّ هناك من المسلمين من يكفر بالله بلسانه بعد إسلامه مـع انشـراح صـدره بذلك من دون إكراه ، بل حبّاً في الحياة الدنيوية الوادعة ، وأُولئك مطبوع عـلىٰ قـلوبهم وسـمعهم وأبـصارهم ، وهـم فـي غـفلة عـن الحقّ وهـم الخاسرون . .

وقيل : إنّها نزلت في عبـدالله بن أبي سرح(٤) ، مـن بـني عـامر بـن

---

(١) سورة النحل ١٦ : ١١٠ .

(٢) سورة التوبة ٩ : ١١٧ .

(٣) سورة النحل ١٦ : ١٠٦ ـ ١١٠ .

(٤) انظر مثلاً : تفسير القرطبي ١٠ / ١٢٦ ، تفسير الدرّ المنثور ٥ / ١٧١ .

لؤي، لكنّ ظاهر لفظ الجمع في الآيات يعطي أنّها نزلت في مجموعة وفئة تطمع في الأغراض الدنيوية.

هذا، مضافاً إلىٰ ما تشير إليه سورة المدّثّر ـ المكّية، رابع سورة نزلت ـ من وجود فئة الّذين في قلوبهم مرض في أوائل البعثة في صفوف المسلمين، وتشير بقية السور إلىٰ ملاحقة هذه الفئة وأهدافها وآرتباطاتها بكلٍّ من الكفّار وأهل الكتاب.

فمن البيّن أنّ «الّذين هاجروا» في هذه السورة لا يراد به كلّ مكّي أسلم في الظاهر وآنتقل إلىٰ المدينة؛ كيف؟! وهي تقسّم المسلمين إلىٰ فئة صالحة، وأُخرىٰ طالحة تنشرح بالكفر صدراً بعد الإيمان، حبّاً في الدنيا، مطبوع علىٰ قلوبها، وكذلك سورة المدّثّر السابقة لها نزولاً..

بل إنّ في الآية الأُولىٰ المذكورة من هذه السورة تقييد الهجرة بكونها في الله، لا لإجل الأغراض والطموحات الدنيوية وتقلّد المناصب أو بعض الأُمور كما هو دأب فئة ﴿ **الّذين في قلوبهم مرض** ﴾ كما تشير إلىٰ ذلك سورة محمّد ﷺ، الآيات ٢٠ ـ ٢٤، بعدما اطّلعوا علىٰ ظفر ونصر النبيّ ﷺ علىٰ العرب، اطّلعوا علىٰ ذلك من أهل الكتاب، فقد كانوا علىٰ صلة بهم كما تشير إلىٰ ذلك سورة المائدة، الآية ٥٢، إذ كان أهل الكتاب علىٰ علم بذلك كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علىٰ الكافرين** ﴾[1].

وقد سبق أن بيّنّا مفصّلاً أنّ الهجرة والمهاجر والنصرة والأنصار في القرآن ليس بمعنىٰ كلّ مكّي ونحوه أسلم في الظاهر وآنتقل إلى المدينة،

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٨٩.

كما أنّ اللفظة الثانية ليست لكلّ مدنيّ أسلم في الظاهر وإنْ شاع ذلك في الأذهان غفلة وخطأً ، فراجع .

وقد تقدّم مفاد الآية الخامسة المذكورة من سورة التوبة ، عند الكلام عن السورة ، فراجع ؛ وأنّها في قراءة أهل البيت عليهم السلام : ﴿ **لقد تابَ الله علىٰ النبيّ والمهاجرين والأنصار** ﴾[١] وأنّ هذه السورة لم تترك فئة أو لوناً من ألوان المنافقين إلّا وكشفتهم ، ومن ثمّ سمّيت بعشرة أسماء ، منها : الكاشفة والفاضحة للمنافقين وغير ذلك ، بل ورد فيها أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بـمجاهدة المنافقين علىٰ حدّ مجاهدة الكفّار سواء .

عدم إيمان بعض البدريّين

■ **أمّا الآية السادسة :**

فهي قوله تعالىٰ : ﴿ **والّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والّذين آووا ونصروا أُولئك هم المؤمنون حقّاً لهم مغفرة ورزق كريم * والّذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأُولئك منكم** ﴾[٢] .

ويتّضح أنّ هذه السورة كبقية السور القرآنية في تقسيم وتمييز من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان في ركبه ، إلىٰ صالح وطالح ، وإلىٰ فئات متنوّعة ، ولكن ينبغي الالتفات إلىٰ بقية آيات السورة ، قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون * وأطيعوا**

---

(١) سورة التوبة ٩ : ١١٧ .

(٢) سورة الأنفال ٨ : ٧٤ ـ ٧٥ .

الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وآصبروا إنّ الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط * وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنّي جار لكم فلمّا تراءت الفئتان نكص علىٰ عقبيه وقال إنّي بريء منكم إنّي أرىٰ ما لا ترون إنّي أخاف الله والله شديد العقاب * إذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكّل علىٰ الله فإنّ الله عزيز حكيم﴾(١).

كما إنّ في الآيات ٤١ ـ ٤٤ من سورة الأنفال ـ والتي سبقت هذه الآيات ـ نبأ عظيم وإفصاح خطير، هو أنّ مَن كان في ركب النبيّ ﷺ في غزوة بدر وأثناء القتال كانوا علىٰ ثلاث فئات: فئة مؤمنة ثابتة، وفئة منافقة، وفئة الّذين في قلوبهم مرض ـ وهي الفئة التي أشارت إلىٰ وجودها سورة المدّثّر المكّية، رابع سورة نزلت في أوائل البعثة، في صفوف المسلمين ـ وكان من الفئتين الأخيرتين ـ لمّا رأتا حشد مشركي قريش وبطرهم وخيلاءهم في غزوة بدر ـ أن قالتا عن الفئة الأُولىٰ بأنّها مغرورة بسبب دينهم وهو دين الإسلام، فلم ينسبوا أنفسهم إلىٰ الدين الإسلامي، وإنّما جعلوا أنفسهم ـ بذلك ـ علىٰ دين المشركين!

والإفصاح هذا في هذه السورة عن معسكر جيش المسلمين الذي كان مع النبيّ ﷺ بأنّه منقسم إلىٰ ثلاث فئات، يبطل كلّ الروايات التي يرويها العامّة حول قدسية البدريّين، وأنّ الله قد غفر لهم وإنْ عملوا ما عملوا ـ فضلاً عن كون ذلك مناقض للآيات والسور العديدة المشترطة للوفاء حتّىٰ حلول الأجل والثبات علىٰ الإيمان والعمل الصالح ـ.

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٤٥ ـ ٤٩.

كما أنّه يبطل مقولة إنّ كلّ بدريّ أو أُحُدي فهو مؤمن وممدوح ومرضيّ حالُه عند الله تعالىٰ .

وفي الآيتين اللاحقتين المتّصلتين بالآيات التي أوردناها ، يقول تبارك وتعالىٰ : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفّىٰ الّذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد** ﴾[1] وهو تهديد ووعيد لهم بالعقوبة المبتدأ بها عند الموت .

ولأجل ذلك ترىٰ أنّ الخطاب الإلٰهي في هذه السورة مخصّص وموجّه إلىٰ النبيّ ﷺ والّذين آمنوا خاصة دون الفئتين الأخريتين ، قال تعالىٰ : ﴿ **وإنْ يريدوا أن يخدعوك فإنّ حسبك الله هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين * وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم * يا أيّها النبيّ حسبك الله ومن آتّبعك من المؤمنين * يا أيّها النبيّ حرّض المؤمنين علىٰ القتال إن يكن منكم . . .** ﴾[2] . .

فخصّ أُلفة القلوب والمساعدة علىٰ النصر والخطاب بالجهاد بالمؤمنين دون الفئتين الأُخريين ، فكيف يتوهّم بأنّ قوله تعالىٰ : ﴿ **والّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والّذين آووا ونصروا أُولئك هم المؤمنون حقّاً** ﴾[3] شامل للمنافقين والّذين في قلوبهم مرض ممّن كان في ركب النبيّ ﷺ في غزوة بدر ؟ !

---

(١) سورة الأنفال ٨ : ٥٠ و ٥١ .

(٢) سورة الأنفال ٨ : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٣) سورة الأنفال ٨ : ٧٤ .

وفي هذه السورة آيات أُخرىٰ، وهي قوله تعالىٰ: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يحييكم وآعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون * وآتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصة وآعلموا أنّ الله شديد العقاب * وآذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطيّبات لعلّكم تشكرون * يا أيّها الّذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾**[1].

ففي تفسير ابن كثير عن السدّي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا[2].

وفي هذه الآيات إشارة واضحة إلىٰ أنّ المسلمين البدريّين سيفتنون بفتنة تصيب الجميع، وأنّهم سيمتحنون بها وفيهم الظالمون، وأنّ من يخون الله ورسوله والأمانات المأخوذة عليه فإنّ الله شديد العقاب..

وهذه الآيات الكريمة صريحة ـ كذلك ـ في تقسيم وتمييز مَن صحب النبيّ ﷺ في بدر وفي أوائل الهجرة إلىٰ المدينة، وأنّهم يفتنون، ويكون بعضهم ظالماً، ويخون الله ورسوله والأمانات المأخوذة عليه.



(١) سورة الأنفال ٨: ٢٤ ـ ٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٦.

حال المسلمين في أُحد

قال تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسّونهم بإذنه حتّىٰ إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبّون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل علىٰ المؤمنين * إذ تُصعِدون ولا تلوون علىٰ أحد والرسول يدعوكم في أُخراكم فأثابكم غمّاً بغمّ لكيلا تحزنوا علىٰ ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أَمنة نعاساً يغشىٰ طائفة منكم وطائفة قد أهمّتهم أنفسُهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إنّ الأمر كلّه لله يخفون في أنفسهم ما لا يُبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هٰهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الّذين كُتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم وليبتليَ الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور * إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقىٰ الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسَبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفور حليم﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه حتّىٰ يميز الخبيث من الطيّب وما كان الله ليطلعكم علىٰ الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء فآمِنوا بالله ورسله وإنْ تؤمنوا وتتّقوا فلكم

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٥٢ ـ ١٥٥.

أجر عظيم﴾(١).

وقال تعالىٰ: **﴿وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾**(٢).

فهذه الآيات ترسم لنا وتقسّم من كان في ركب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، بأنّ بعضهم كان يريد الدنيا وبعضهم الآخر يريد الآخرة، وأنّه وقع من كثير من المسلمين فرار بعدما شاهدوا النصر باستزلال الشيطان لهم بسبب بعض الأعمال السيّئة السابقة، وأنّ طائفة منهم يظنّون بالله ظنّ الجاهلية ويخفون ذلك في قلوبهم، وأنّ من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في القتال منهم الطيّب ومنهم الخبيث، وأنّ وقعة أُحد كانت للتمييز بينهما.

وهذا خلاف رأي من يدّعي التعميم والمساواة في مَن صحب ولازم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، مع أنّ التمييز وقع في مَن كان من المسلمين أُحُديّ!

ومن ذلك يتبيّن أنّ التوصيف بكون الشخص بدرياً أو أُحدياً إنّما يكون منقبة إذا كان من الفئة المؤمنة، لا ما إذا كان من الفئات الأُخرىٰ، فليس كلّ بدري أو أُحدي هو من الفئة المؤمنة الممدوحة، بل بعضهم من الفئات المذمومة في سورتَي الأنفال وآل عمران.

ثمّ إنّ السورة تحذّر ـ أيضاً ـ من وقوع انقلابٍ من المسلمين علىٰ الأعقاب برحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كتب السير أنّ جماعة من المسلمين لمّا شاهدوا الهزيمة وظنّوا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قُتل، لاذوا بالفرار وصعدوا الجبل، واجتمعوا حول صخرة ـ عرفوا بعد ذلك بجماعة الصخرة ـ وقالوا:

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٧٩.

(٢) سورة آل عمران ٣: ١٤٤.

إنّا على دين الآباء[١]؛ كي يكون ذلك شافعاً لهم عند قريش، وفي ما سُطر في السير ما يلوح أنّهم ممّن يُعدّون من أعيان القوم ووجوههم.

والمتأمّل للسور الحاكية للغزوات ـ كما تقدّم في سورة الأحزاب عن غزوة الخندق، وسورة التوبة عن غزوة تبوك وحنين وغيرهما ـ يجدها ناطقة بلسان التمييز والتقسيم والتصنيف لمن صحب النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وشارك في القتال، وأنّ هناك الفئة الصالحة الثابتة المؤمنة، وهناك الطالحة وأصناف أهل النفاق ومحترفيه الّذين في قلوبهم مرض.

■ **أمّا الآية السابعة:**

فهي قوله تعالىٰ: ﴿**وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً لتكونوا شهداء علىٰ الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾[٢]..

وقوله تعالىٰ: ﴿**كنتم خير أُمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾[٣]..

وقوله تعالىٰ: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعدما تبيّن له الهدىٰ ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّىٰ ونُصْلِه جهنّم وساءت مصيراً**﴾[٤].

وهذه الآيات ـ وما هو من قبيلها ـ يُستدلّ بها عندهم علىٰ حجّيّة إجماع الأُمّة، أو حجّيّة إجماع الصحابة، بتقريب أنّهم أوّل المصاديق لهذا العنوان، ونحو ذلك، وللوصول إلىٰ المعنىٰ ومفاده في حدود ظهور ألفاظ

(١) أنظر مثلاً: السيرة الحلبية ٢ / ٥٠٤، السيرة النبوية ـ لابن كثير ـ ٣ / ٤٤.
(٢) سورة البقرة ٢ : ١٤٣.
(٣) سورة آل عمران ٣ : ١١٠.
(٤) سورة النساء ٤ : ١١٥.

الآيات لا بُدّ من الالتفات إلىٰ النقاط التالية :

الأُولىٰ : إنّ الآية الثانية المذكورة آنفاً قد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنّ أحد وجوه قراءتها أنّها بلفظ (أئمّة)[1] ـ جمع إمام ـ لا (أُمّة) ؛ ويعضد هذه القراءة النقاط اللاحقة .

الثانية : إنّ لفظة (أُمّة) هي من الألفاظ التي تستعمل في الجماعة كما تستعمل في المجموع ، بل تستعمل في الفرد ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **إنّ إبراهيم كان أُمّة قانتاً لله حنيفاً** ﴾[2] . .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ **ربّنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذرّيّتنا أُمّة مسلمة لك** ﴾[3] . .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ **منهم أُمّة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون** ﴾[4] . .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ **ومن قوم موسىٰ أُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون** ﴾[5] . .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ **وإذ قالت أُمّة منهم لِمَ تعظون . . .** ﴾[6] . .

وكقوله تعالىٰ : ﴿ **وممّن خلقنا أُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون** ﴾[7] . .

---

(١) أنظر : تفسير القمّي ١ / ١١٨ ، تفسير العيّاشي ١ / ٢١٩ ح ١٢٩ ، تفسير الصافي ١ / ٣٧٠ ـ ٣٧١ ح ١١٠ .

(٢) سورة النحل ١٦ : ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٢٨ .

(٤) سورة المائدة ٥ : ٦٦ .

(٥) سورة الأعراف ٧ : ١٥٩ .

(٦) سورة الأعراف ٧ : ١٦٤ .

(٧) سورة الأعراف ٧ : ١٨١ .

وكقوله تعالىٰ: ﴿ **ولمّا ورد ماء مَدين وجد عليه أُمّة من الناس يسقون** ﴾[١]..

والذي يظهر أنّ المعنىٰ المستعمل فيه للّفظة ها هنا هو بمعنىٰ الجماعة لا المجموع، وهو أنّ هذه الأُمّة الوسط تكون شاهدة علىٰ جميع الناس، والرسول شاهد عليها.

ومن البيّن أنّ هذا المقام لا يتشرّف به مجموع الأُمّة أو جميع أهل القِبلة من الموحّدين، فهل يجوز أن تقبل شهادة من لا تجوز شهادته في الدنيا علىٰ صاع من تمر أو علىٰ صرّة من بقل، فيطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأُمم الماضية؟!! كما أشار إلىٰ ذلك الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام[٢]..

لا ريب أنّ الله لم يعنِ مثل هذا، بل المراد جماعة خاصة لهم هذا المقام والشأن، وهم الّذين قال تعالىٰ عنهم: ﴿ **وقل اعملوا فسيرىٰ الله عملكم ورسولُه والمؤمنون وستردّون إلىٰ عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٣]، فإنّ سنخ اطّلاع هؤلاء علىٰ الأعمال وشهادتهم لها لدُنّيّة من الله تعالىٰ، كما إنّ مقتضىٰ ما يعطيه لفظ «الوسط» بقولٍ مطلق هو الوسطية في الصفات والفضائل لا الإفراط ولا التفريط، فهم النقباء..

كما إنّ الآية السابقة ـ للآية الثانية المذكورة من سورة آل عمران ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿ **ولتكن منكم أُمّة يدعون إلىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأُولئك هم المفلحون** ﴾[٤]، فهذه الأُمّة

---

(١) سورة القصص ٢٨ : ٢٣.
(٢) أنظر الهامش رقم ٢ من الصفحة السابقة.
(٣) سورة التوبة ٩ : ١٠٥.
(٤) سورة آل عمران ٣ : ١٠٤.

الداعية إلىٰ الخير، والآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، علىٰ صعيد الحكم والإمامة هي جزء من مجموع المسلمين، لا كلّ المجموع..

كما إنّ لفظة ﴿ **أُخرجتْ للناس** ﴾ تعطي مفهوم خروجها من الأصلاب، وفيه إشارة إلىٰ دعوة إبراهيم عليه‌السلام حين قال: ﴿ **ربّنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذرّيّتنا أُمّة مسلمة لك** ﴾[١] وذلك بعدما حكىٰ الله عنه ما قاله في قوله تعالىٰ: ﴿ **وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمّهنّ قال إنّي جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[٢]..

وكما قال تعالىٰ: ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني بَراء ممّا تعبدون * إلّا الذي فطرني فإنّه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون** ﴾[٣] أي جعل التوحيد والعصمة من الشرك كلمة باقية في عقب إبراهيم من نسل إسماعيل، فكان تقلّب الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في الأصلاب والأجداد الطاهرين من الشرك والوثنية، قال تعالىٰ: ﴿ **الذي يراك حين تقوم * وتقلّبك في الساجدين** ﴾[٤].

فمن ذلك كلّه يتبيّن أنّ الأُمّة المقصودة من الآيتين هي ثلّة من مجموع المسلمين لهم تلك المواصفات الخاصة التي تؤهّلهم إلىٰ ذلك المقام.

وكيف يتوهّم أنّ مجموع من أسلم بالشهادتين هو المراد؟! والحال أنّ سورة آل عمران ـ كما قدّمنا ـ تصنّف من شهد معركة أُحد ـ فضلاً عن

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١٢٨.
(٢) سورة البقرة ٢ : ١٢٤.
(٣) سورة الزخرف ٤٣ : ٢٦ ـ ٢٨.
(٤) سورة الشعراء ٢٦ : ٢١٨ و ٢١٩.

غيرهم ـ إلىٰ فئات صالحة وطالحة، وكذا ما في بقية السور التي استعرضناها، وغيرها، إذ إنّ فيها الذمّ والوعيد الشديد لألوان من الفئات الطالحة ممّن أظهرت الإسلام علىٰ عهد النبيّ ﷺ.

وأمّا الآية الثالثة المذكورة، فهي تجعل الميزان طاعة الرسول ﷺ، وعدم مشاقته، وعدم الردّ عليه، كما في قوله تعالىٰ: **﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾**[1]..

والحال أنّ بعض وجوه من صحب رسول الله ﷺ قد ردّ علىٰ النبيّ ﷺ أمره، بأنّه غلبه الوجع، أو: إنّه ـ والعياذ بالله ـ يهجر؛ وذلك عندما طلب الدواة والكتف من أجل كتابة كتاب لئلّا تضلّ أُمّته من بعده لو تمسّكت به، والله تعالىٰ يقول: **﴿ ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ * وما ينطق عن الهوىٰ * إن هو إلّا وحي يوحىٰ * علّمه شديد القوىٰ ﴾**[2]، وقال تعالىٰ: **﴿ إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس ﴾**[3]!!

وذلك علىٰ عكس ما حدث عند موت أبي بكر، فإنّ أبا بكر أراد عند موته أن يوصي، فذكر بعض الكلمات فأُغمي عليه، فأضاف عثمان اسم عمر كخليفة لأبي بكر، ولمّا أفاق أبو بكر أمضىٰ ما كتبه عثمان! فتثبيت اسم عمر لم يعدّوه هجراً من مثل أبي بكر!!

كما إنّهم أخذوا بكلام عمر ـ وهو في مرض موته ـ في تسمية أعضاء الشورىٰ!!

---

(١) سورة النساء ٤: ٦٥.

(٢) سورة النجم ٥٣: ٢ ـ ٥.

(٣) سورة النساء ٤: ١٠٥.

أليس ذلك ردّاً ومعصية وشقاقاً لرسول الله ﷺ ، قال تعالىٰ : **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾**(١) ، وقال : **﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقه فأُولئك هم الفائزون﴾**(٢) .

وكذا تخلّفهم عن جيش أُسامة ، وكذا في صلح الحديبية ، وغيرها من الموارد .

ثمّ إنّ الآية تقيّد بقيد آخر وهو اتّباع سبيل المؤمنين ، وقد بيّنت سورة الأنفال أنّ في البدريّين ومن شهد مع النبيّ ﷺ الغزوة الأُولىٰ فئات ثلاث ، هي : فئة مؤمنة ، وفئة منافقة ، وفئة الّذين في قلوبهم مرض ، وهم محترفو النفاق ! فلاحظ ما تقدّم .

وكذا بيّنت سورة آل عمران أنّ من شهد معركة أُحد لم يكونوا متساوين في الصلاح ، بل إنّ بعضهم طالح يريد الدنيا ، ويظنّ بالله ظنّ الجاهلية ، لا يثبت بعد موت الرسول ﷺ بل ينقلب علىٰ عقبيه .

كما بيّنت ذلك غيرهما من السور المتعرّضة لبقية الحروب والغزوات كما قدّمنا الإشارة إلىٰ ذلك .

فالفئة المؤمنة المخاطبة في الموارد العديدة ـ بوصف «الهجرة» و «النصرة» كمنقبتين ، وبوصف «الهداية» ، وغيرها من الفضائل ـ ، هذه الفئة هي فئة معيّنة خاصة ، لا عامة لكلّ من أسلم في الظاهر وكان في ركب النبيّ ﷺ في الحرب أو السلم . .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٦ .

(٢) سورة النور ٢٤ : ٥٢ .

ويشير إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ في سورة التحريم : ﴿ **وإذ أسرّ النبيّ إلىٰ بعض أزواجه حديثاً فلمّا نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلمّا نبّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبّأني العليم الخبير * إن تتوبا إلىٰ الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسىٰ ربّه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكاراً** ﴾[1] . .

ثمّ قال تعالىٰ في ذيل السورة : ﴿ **يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين وآغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير * ضرب الله مثلاً للّذين كفروا امرأة نوح وآمرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين * وضرب الله مثلاً للّذين آمنوا امرأة فرعون . . . القوم الظالمين** ﴾[2] . .

فالمقارنة التي تذكرها هذه السورة بين اثنتين من أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنّهما كانتا في معرض التظاهر علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وظاهر لحن السورة أنّ الأمر خطير استدعىٰ هذا التهديد بالقوّة الإلٰهية وخصوص صالح المؤمنين لا كلّ المؤمنين ، فضلاً عن كلّ المسلمين ، وعن كلّ من أسلم في الظاهر . .

فما هو سبب تخصيص صالح المؤمنين بمناصرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مثل هذه المواجهة ، وكأنّها كالحرب المعلنة التي نزل ـ في هذه السورة ـ الأمر الإلٰهي بها علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمجاهدة المنافقين كما يجاهد الكفّار

(١) سورة التحريم ٦٦ : ٣ ـ ٥ .
(٢) سورة التحريم ٦٦ : ٩ ـ ١١ .

سواء ، وكذا الأمر بالغلظة عليهم ؟!

وما هو سبب ذِكر صفات مَن سيبدله الله بهما وتحلّان محلّهما ، وأنّهنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ؛ والتبديل تعويض عن مفقود ؟!

وعلىٰ كلّ تقدير ، فإنّ هذا التهديد بالاستنفار في الآية ، الذي هو كاستنفار الحرب والقتال ، لا ينسجم مع تفسير مورد نزول الآية بأنّه بسبب إفشاء لخبر عادي ، بل مقتضىٰ هذه الشدّة في الوعيد أنّ الخبر بمنزلةٍ من الخطورة إلىٰ درجة أنّه يهدّد وجودَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم !

ثمّ إنّ ذيل السورة قد أفصح فيه أنّ الزوجية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ومقام الأُمومة للمؤمنين ، لا يغني عنهما من الله شيئاً إذا لزمتا معصية وخيانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والائتمار عليه ، كما هو الحال في امرأتَي النبيّين نوح ولوط عليهما السلام ، وأنّ المدار في الفضيلة هو علىٰ التصديق والإيمان والعمل الصالح .

ويتطابق هذا المفاد مع ما في سورة الأحزاب من مضاعفة العذاب ضعفين علىٰ المعصية ، وإنْ أطعن الله ورسوله فلهنّ الأجر مرّتين ، وقد نزل القرآن بالأمر بالقرار في البيوت ، وعدم التبرّج ، وبإطاعة الله ورسوله .

علماً أنّ الزوجية هي شدّة من الصحبة ، ومع ذلك فالمدار عند الله تعالىٰ بحسب هذه السورة وبقية السور هو علىٰ الإيمان والعمل الصالح وطاعة الله تعالىٰ وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنّ هذه الصحبة لا تغني عنهما من الله شيئاً !

فمن كلّ ذلك يتبيّن أنّ سبيل المؤمنين وصالحهم ليس هو مجموع الأُمّة ، بل هو الفئة المؤمنة حقّاً وواقعاً .

وهؤلاء القائلون بعدالة الصحابة ـ بالمعنىٰ الذي تقدّم شرحه ، فإنّه يضاهي الإمامة في الدين ، والعصمة والحجّيّة بذلك المعنىٰ ، في الدائرة الضيّقة من جماعة السقيفة ، وبالخصوص في الأوّل والثاني ـ هم في الوقت نفسه يلتزمون بعدم عصمة النبيّ ﷺ المطلقة ، فيجوّزون وقوع الخطأ منه ـ والعياذ بالله ـ!

ففي الوقت الذي يرفعون من مقام الأوّلَين ، فهم يحطّون من مقام النبوّة ، فتراهم يقولون باجتهاد النبيّ ﷺ ، أي قوله بالظنّ ، وأنّه قد يصيب وقد يخطئ!

كما إنّهم يلتزمون بمسألة أُخرىٰ ، وهي جواز اجتهاد الصحابة في عصر النبيّ ﷺ ، في الحضور أو الغياب!

نعم ، قد رفض هذا القول بعض منهم ، كأبي علي الجبّائي وابنه هاشم لقوله تعالىٰ : ﴿ **وما ينطق عن الهوىٰ** ﴾[1][2].

وعن ابن حزم الأندلسي في كتاب **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، أنّ الأنبياء عليهم‌السلام غير معصومين من الخطأ ، قال تعالىٰ : ﴿ **وعصىٰ آدمُ ربَّه فغوىٰ** ﴾[3] وقوله : ﴿ **فتاب عليه وهدىٰ** ﴾[4] وأنّ التوبة لا تكون إلّا من ذنب ، وهذا وقع منه عن قصد إلىٰ خلاف ما أُمر به ، متأوّلاً في ذلك ولا يدري أنّه عاصٍ ، بل كان ظانّاً أنّ الأمر للندب مثلاً أو النهي لكراهة .

وقال الله لنبيّنا ﷺ : ﴿ **فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب**

---

(١) سورة النجم ٥٣ : ٣ .

(٢) فواتح الرحموت بشرح مسلّم الثبوت ـ المطبوع بذيل المستصفىٰ ٢ / ٣٧٥ .

(٣) سورة طه ٢٠ : ١٢١ .

(٤) سورة طه ٢٠ : ١٢٢ .

الحوت إذ نادىٰ وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنُبذ بالعراء وهو مذموم﴾[١] أنّه غاضَبَ قومه ولم يوافق ذلك مراد الله ، فعوقب بذلك ، وإنْ كان ظانّاً أنّ هذا ليس عليه فيه شيء ، وهذا هو ما أراده الله من نبيّنا ﷺ حين نُهي عن مغاضبة قومه ، وأُمر بالصبر علىٰ أذاهم ، وأمّا إخبار الله بأنّه استحقّ الذمّ والملامة لولا النعمة التي تداركه بها للبث معاقَباً في بطن الحوت[٢] .

وذهب القاضي عياض في **الشفا** إلىٰ جواز اجتهاد الأنبياء في الأُمور الدنيويّة فقط ، مستدلاً بحديث تأبير النخل[٣] .

وقال كمال الدين ابن همام الدين الحنفي ، المتوفّىٰ سنة ٨٦١ هـ ، في كتاب **التحرير** : إنّ الرسول مأمور (بالاجتهاد مطلقاً) في الأحكام الشرعية والحروب والأُمور الدينيّة من غير تقييد بشيء منها[٤] .

وقال ابن تيميّة في غير ما يتعلّق بالتبليغ : إنّ الأنبياء كانوا دائماً يبادرون بالتوبة والاستغفار عند الهفوة ، والقرآن شاهد عدل ، فهو لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبيّ من الأنبياء إلّا مقروناً بالتوبة والاستغفار[٥] .

وقال الغزّالي في **المستصفىٰ** : «المختار جواز تعبّده بذلك ، لأنّه ليس بمحالٍ في ذاته ، ولا يفضي إلىٰ محال ومفسدة .

فإنْ قيل : المانع منه أنّه قادر علىٰ استكشاف الحكم بالوحي الصريح ، فكيف يرجم بالظنّ ؟ !

---

(١) سورة القلم ٦٨ : ٤٨ و ٤٩ .

(٢) أنظر : الفصل ٢ / ٢٨٤ ـ ٢٨٧ و ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

(٣) الشفا ٢ / ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٤) راجع تيسير التحرير ـ شرح محمّد أمين الحنفي علىٰ كتاب التحرير ـ ٤ / ١٨٥ .

(٥) أنظر : منهاج السُنّة ٢ / ٣٩٦ ـ ٤٠٣ .

قلنا: فإذا استكشف فقيل له: حكمنا عليك أن تجتهد وأنت متعبّد به، فهل له أن ينازع الله فيه، أو يلزمه أن يعتقد أنّ صلاحه في ما تعبّد به؟!

فإنْ قيل: قوله نصّ قاطع يضادّ الظنّ، والظنّ يتطرّق إليه احتمال الخطأ، فهما متضادّان.

قلنا: إذا قيل له: ظنّك علامة الحكم، فهو يستيقن الظنّ والحكم جميعاً فلا يحتمل الخطأ، وكذلك اجتهاد غيره عندنا، ويكون كظنّه صدق الشهود، فإنّه يكون مصيباً وإنْ كان الشاهد مزوّراً في الباطن.

فإنْ قيل: فإنْ ساواه غيره في كونه مصيباً بكلّ حال فليجز لغيره أن يخالف قياسه باجتهاد نفسه!

قلنا: لو تعبّد بذلك لجاز، ولكن دلّ الدليل من الإجماع علىٰ تحريم مخالفة اجتهاده، كما دلّ علىٰ تحريم مخالفة الأُمّة كافّة، وكما دلّ علىٰ تحريم مخالفة اجتهاد الإمام الأعظم والحاكم؛ لأنّ صلاح الخلق في اتّباع رأي الإمام والحاكم وكافّة الأُمّة، فكذلك النبيّ ﷺ ومن ذهب إلىٰ أنّ المصيب واحد يرجح اجتهاده لكونه معصوماً عن الخطأ دون غيره.

ومنهم من جوّز عليه الخطأ ولكن لا يقرّ عليه..

فإنْ قيل: كيف يجوز ورود التعبّد بمخالفة اجتهاده، وذلك يناقض الاتّباع، وينفّر عن الانقياد؟!

قلنا: إذا عرّفهم علىٰ لسانه بأنّ حكمهم اتّباع ظنّهم وإن خالف ظنّ النبيّ، كان اتّباعه في امتثال ما رسمه لهم كما في القضاء بالشهود، فإنّه لو قضىٰ النبيّ بشهادة شخصين لم يعرف فسقهما، فشهدا عند حاكم عرف فسقهما لم يقبلهما.

وأمّا التنفير، فلا يحصل، بل تكون مخالفته فيه كمخالفته في الشفاعة وفي تأبير النخل ومصالح الدنيا.

فإنْ قيل: لو قاس فرعاً علىٰ أصل أفيجوز إيراد القياس علىٰ فرعه أم لا؟ إنْ قلتم: لا؛ فمحال؛ لأنّه صار منصوصاً عليه من جهته.. وإن قلتم: نعم؛ فكيف يجوز القياس علىٰ الفرع؟!

قلنا: يجوز القياس عليه وعلىٰ كلّ فرع أجمعت الأُمّة علىٰ إلحاقه بأصل؛ لأنّه صار أصلاً بالإجماع والنصّ»[١].

نقلنا كلامه بطوله لأنّه تلخيص لأقوالهم في المسألتين، ويتلخّص من كلامهم أُمور:

الأوّل: مساواة النبيّ ﷺ لغيره من رعيّته في تجويز الاجتهاد، وتجويز مخالفة غيره له في الاجتهاد.

الثاني: إنّ الإجماع وإطباق كافّة الأُمّة هو الحجّة الأصل عندهم لأقوال النبيّ ﷺ، مع إنّ حجّيّة الإجماع لديهم مستقاة من الحديث النبوي.

الثالث: تسويتهم بين الموضوعات والأحكام الكلّيّة، وبين الموضوع في الأُمور العامّة والموضوع في الأمر الخاصّ بأحد المكلّفين، مع إنّ الموازين المتّبعة في كلّ شقّ مختلفة عنها في الشقّ الآخر كما هو محرّر في أُصول الفقه.

وقال الغزّالي في مسألة جواز الاجتهاد في زمان الرسول ﷺ: «المختار أنّ ذلك جائز في حضرته وغيبته، وأن يدلّ عليه بالإذن أو السكوت؛ لأنّه ليس في التعبّد به استحالة في ذاته، ولا يفضي إلىٰ محال

---

(١) المستصفىٰ ٢ / ٣٥٥ ـ ٣٥٦ القطب الرابع، الفن الأوّل في الاجتهاد.

ولا إلىٰ مفسدة ، وإنْ أوجبنا الصلاح فيجوز أن يعلم الله لطفاً يقتضي ارتباط صلاح العباد بتعبّدهم بالاجتهاد ؛ لعلمه بأنّه لو نصّ لهم علىٰ قاطع لبـغوا وعصـوا .

فإنْ قيل : الاجتهاد مع النصّ محال ، وتعرّف الحكم بالنصّ بالوحي الصريح ممكن ، فكيف يردّهم إلىٰ ورطة الظنّ ؟ !

قلنا : فإذا قال لهم : أُوحي إليّ أنّ حكم الله تعالىٰ عليكم ما أدّىٰ إليه اجتهادكم وقد تعبّدكم بالاجتهاد ، فهذا نصّ ، وقولهم : (الاجتهاد مع النصّ محال) مسلّم ، ولكن لم ينزل نصّ في الواقعة ، وإمكـان النـصّ لا يـضادّ الاجتهاد ، وإنّما يضادّه نفس النصّ .

كيف ؟ ! وقد تعبّد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالقضاء بقول الشهود حتّىٰ قال : إنّكم لتختصمون إليّ ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بـحجّته مـن بـعض ؛ وكـان يمكن نزول الوحي بالحقّ الصريح في كلّ واقعة حتّىٰ لا يحتاج إلىٰ رجم بالظنّ وخوف الخطأ »[1] .

ويتلخّص من كلامه :

الأوّل : جواز التقدّم بين يدي الله ورسوله في الحكم .

الثاني : أنّ بغي الناس وطغيانهم علىٰ حكم الله تعالىٰ يسوّغ الاجتهاد من أنفسهم دون الرجوع إلىٰ الله ورسوله ، وهو نمط من تفويض التشريع للأهواء **﴿ ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسـدت السـمٰوات والأرض ومـن فيهنّ ﴾**[2] **﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم ﴾**[3] **﴿ ولئن**

(١) المستصفىٰ ٢ / ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون ٢٣ : ٧١ .

(٣) سورة المائدة ٥ : ٤٩ .

اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمين ﴾[١] **﴿ أفمن كان علىٰ بيّنة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله واتّبعوا أهواءهم ﴾**[٢] **﴿ وإنّ كثيراً ليضلّون بأهوائهم بغير علم ﴾**[٣].

الثالث : خلطه بين الموضوعات والأحكام الكلّيّة وبين الموضوع في الأُمور العامّة والموضوع في الأمر الخاصّ بأحد المكلّفين ـ كما تقدّم ـ.

ونجم عن هذا الالتزام عندهم ما ذكره صاحب **المنار** ـ في معرض كلام له عن العمل بالحديث ـ: «... حكم عمر بن الخطّاب علىٰ أعيان الصحابة بما يخالف بعض تلك الأحاديث ، ثمّ ما جرىٰ عليه علماء الأمصار في القرن الأوّل والثاني من اكتفاء الواحد منهم ـ كأبي حنيفة ـ بما بلغه ووثق من الحديث وإنْ قلّ ، وعدم تعنّيه في جمع غيره إليه ليفهم دينه ويبيّن أحكامه ، قوىٰ عندك ذلك الترجيح ، بل تجد الفقهاء لم يجتمعوا علىٰ تحرير الصحيح والاتّفاق علىٰ العمل به ، فهذه كتب الفقه في المذاهب المتّبعة ، ولا سيّما كتب الحنفية فالمالكية فالشافعية ، فيها المئات من المسائل المخالفة للأحاديث المتّفق علىٰ صحّتها .

وقد أورد ابن القيّم في **أعلام الموقّعين** شواهد كثيرة جدّاً من ردّ الفقهاء للأحاديث الصحيحة عملاً بالقياس أو لغير ذلك ، ومن أغربها أخذهم ببعض الحديث الواحد دون باقيه ، وقد أورد لهذا أكثر من ستّين شاهداً»[٤] .

---

(١) سورة البقرة ٢ : ١٤٥ .

(٢) سورة محمّد ٤٧ : ١٤ .

(٣) سورة الأنعام ٦ : ١١٩ .

(٤) أنظر : أعلام الموقّعين ٢ / ٢٩٤ ـ ٤٢٤ .

ومع ذلك كلّه فمن الغريب جمع الغزّالي بين ذلك وبـين رأيـه فـي الصحابة، قال في **المستصفىٰ**: «الأصل الثاني من الأُصول الموهومة: قول الصحابي، وقد ذهب قوم إلىٰ أنّ مذهب الصحابي حجّة مطلقاً، وقوم إلىٰ أنّه حجّة إنْ خالف القياس، وقوم إلىٰ أنّ الحجّة في قول أبي بكر وعمر خاصّة، لقوله ﷺ: (اقتدوا باللذين من بعدي)، وقوم إلىٰ أنّ الحجّة في قول الخلفاء الراشدين إذا اتّفقوا..

والكلّ باطل عندنا؛ فإنّ من يجوز عـليه الغـلط والسـهو ولم تـثبت عصمته عنه، فلا حجّة في قوله، فكيف يحتجّ بقولهم مع جواز الخطأ؟! وكيف تدّعىٰ عصمتهم من غير حجّة متواترة؟! وكيف يتصوّر عصمة قوم يجوز عليهم الاختلاف؟! وكيف يختلف المعصومان؟!

كيف؟! وقد اتّفقت الصحابة علىٰ جواز مخالفة الصحابة، فلم ينكر أبو بكر وعمر علىٰ من خالفهما بالاجتهاد، بل أوجبوا في مسائل الاجتهاد علىٰ كلّ مجتهد أن يتّبع اجتهاد نفسه، فانتفاء الدليل علىٰ العصمة، ووقوع الاختلاف بينهم، وتصريحهم بجواز مخالفتهم فيه، ثلاثة أدلّة قاطعة»[1]..

ثمّ ذكر أدلّة بقية الأقوال وأخذ في ردّها، وتتلخّص ردوده عليها في النقاط التالية:

الأُولىٰ: إنّ ما يروىٰ عندهم من قوله ﷺ: «أصـحابي كـالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»، هو خطاب مع عوامّ ذلك العصر، لتعريف درجة الفتوىٰ للصحابة، إذ الصحابي خارج عن الخطاب فله أن يخالف الآخر.

الثانية: إنّ اتّباع كلّ واحد من الخلفاء الراشدين محال مع اختلافهم في المسائل.

---

(١) المستصفىٰ ١ / ٢٦٠ ـ ٢٦٢.

الثالثة : إنّ الاقتداء بأبي بكر وعمر وآتّباعهما هو إيجاب للتقليد في الفتوىٰ ، مع إنّه معارض بتجويزهما مخالفة الآخرين لهما ، ولو اختلفا كما اختلفا في التسوية في العطاء فأيّهما يتّبع ؟!

الرابعة : إنّ مذهب عبد الرحمٰن بن عوف معارَض بمذهب الإمام عليّ عليه السلام ، حين أبىٰ اشتراط عبد الرحمٰن الخلافة بشرط الاقتداء بالشيخين .

الخامسة : إنّ قول الصحابي ليس بحجّة ، وإنّما الحجّة الخبر إلّا أنّ إثبات الخبر بقول الصحابي من دون تصريح منه أنّه خبر إثبات موهوم ، وخبر الواحد الحجّة هو الخبر المصرّح لا الموهوم المقدّر الذي لا يعرف لفظه ومورده ، فقوله ليس بنصّ صريح في سماع خبر ، بل ربّما قاله من دليل ضعيف ظنّه دليلاً وأخطأ فيه ، والخطأ جائز عليه ، وربّما يتمسّك الصحابي بدليل ضعيف وظاهر موهوم ولو قاله عن نصّ قاطع لصرّح به .

السادسة : إنّ جميع ما يذكر لحجّيّة قول الصحابي أخبار آحاد لا تقاوم الحجج القطعية الأُخرىٰ .

السابعة : إنّ (جعل) قول الصحابي حجّة كقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخبره (إثبات) أصل من أُصول الأحكام ومداركه ، فلا يثبت إلّا بقاطع كسائر الأُصول .

الثامنة : حكىٰ عن الشافعي في الجديد : أنّه لا يقلّد العالم صحابياً كما لا يقلّد عالماً آخر . . ونقل المزني عنه ذلك ، وأنّ العمل هو علىٰ الأدلّة التي بها يجوز للصحابة الفتوىٰ ؛ ثمّ قال : «وهو الصحيح المختار عندنا ، إذ كلّ ما دلّ علىٰ تحريم تقليد العالم للعالم كما سيأتي في كتاب الاجتهاد لا يفرّق

فيه بين الصحابي وغيره»[١]، وذكر أنّ ما ورد من الثناء عليهم لا يـوجب تقليدهم، لا جوازاً ولا وجوباً، وإنّـه ﷺ قـد أثـنىٰ أيـضاً عـلىٰ آحـاد الصحابة كأبي بكر وعمر وعليّ وزيد ومعاذ بن جبل وآبن أُمّ عبـد، مع إنّهم لا يتميّزون عن بقية الصحابة بجواز التقليد أو وجوبه.

التاسعة: حكىٰ عن القاضي أنّه لا يرجّح أحد الدليلين المتعارضين بقول الصحابي؛ لأنّه لا ترجيح إلّا بقوّة الدليل، ولا يقوىٰ الدليـل بـمصير مجتهد إليه[٢]، وآستقرب احتمال مصير الصحابي إلىٰ أحد القولين أو أحد الدليلين لمجرّد الظنّ، لا لاختصاصه بمشاهدة.

هذا، فإذا كان مدار الحجّيّة المطلقة ـ عـند الغـزّالي وجـماعة مـنهم معروفين ـ في قول شخصٍ ما، هو عصمته عن الغلط والسهو وعدم الخطأ، وعدم جواز مـخالفته، فكـيف يـصوّرون حـجّيّة قـول رسـول الله ﷺ المطلقة ولزوم طاعته، ويجوّزون عليه الخطأ والاجتهاد الظنّي، بل ومخالفة غيره له في الاجتهاد؟!..

في حين ينكر الغزّالي علىٰ القائلين بحجّيّة قول عمر وأبي بكر وبقية الصحـابة بتمسّـكهم بأخبار آحـاد لا تـثبت أصلاً من أُصـول الأحكام التي لا بُـدّ فيها من القطع، تراه يرفع يده عن قطعيات الآيات في لزوم متابعة النبيّ وعدم الخلاف عليه وعصمته، بأخبار آحاد في تأبير النخل والمخالفة في الشفاعة ونحوها، مع إنّ لها وجه من التأويل يتلاءم مع العصمة من الخطأ، فما هذا إلّا تدافع، وأقوال ينقض أوّلها آخرها!

ثمّ أليس كما قال الإمام عليّ بن الحسين زيـن العـابدين عليه السلام فـي

---

(١) المستصفىٰ ٢ / ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٢) المستصفىٰ ٢ / ٤٦٥.

صحيفته في وصفه رسول الله ﷺ: «... فرضت علينا تعزيره وتوقيره ومهابته، وأمرتنا أن لا نرفع الأصوات علىٰ صوته، وأن تكون كلّها مخفوضة دون هيبته، فلا يجهر بها عليه عند مناجاته، ونلقاه عند محاورته، ونكفّ من غرب الألسن لدىٰ مسألته، إعظاماً منك لحرمة نبوّته، وإجلالاً لقدر رسالته، وتمكيناً في أثناء الصدور لمحبّته، وتوكيداً بين حواشي القلوب لمودّته»[١]..

وهو يشير إلىٰ المناصب الإلٰهية للرسول ﷺ التي جعلها الله تعالىٰ له، فقد قال تعالىٰ: ﴿**ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ * وما ينطق عن الهوىٰ * إنْ هو إلّا وحي يوحىٰ**﴾[٢]، وقال تعالىٰ: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتّقوا الله إنّ الله سميع عليم**﴾[٣].

والغريب ولا تنقضي غرابته أنّهم يجعلون فضيلة لبعض الصحابة بالتقدّم علىٰ الله ورسوله في الحكم في موارد، ويدّعون حالات لنزول آيات أُخرىٰ في تلك الموارد موافقة من الوحي لرأي ذلك الصحابي، وكأنّهم لا يصغون إلىٰ هذه الآية الصريحة، ويتأوّلون تلك الآيات بما يدافع ظهورها.

وقال تعالىٰ: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إنّ الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أُولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾[٤].

---

(١) الصحيفة السجّادية: الدعاء العاشر ـ ط. مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام.

(٢) سورة النجم ٥٣: ٢ ـ ٤.

(٣) سورة الحجرات ٤٩: ١.

(٤) سورة الحجرات ٤٩: ٢ و ٣.

وقال تعالىٰ: ﴿ **قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم** ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿ **يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا علىٰ ما فعلتم نادمين * وآعلموا أنّ فيكم رسولَ الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أُولئك هم الراشدون * فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم** ﴾[٢].

أليست هذه الآية في الموضوعات الخارجيّة والأُمور العامّة في تدبير الحكم، وأنّ النبيّ ﷺ لو يتابع من أسلم معه لوقعوا في المشقّة والحرج العظيم، ولكنّ الله حبّب إليهم طاعة الرسول ومتابعته وهو الإيمان، وكرّه إليهم مخالفة الرسول التي هي كفر وفسوق وعصيان، والرشاد إنّما يصيبه المؤمنون بمتابعة الرسول ﷺ، وهذا هو الفضل والنعمة من الله، وكلّ هذا عن علم وحكمة منه تعالىٰ.

فمع كلّ ذلك كيف يكون الرشاد في مخالفة النبي ﷺ، وقد قال تعالىٰ: ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلىٰ الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً * ألم تر إلىٰ الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدّمت**

---

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ١٦ .

(٢) سورة الحجرات ٤٩ : ٦ ـ ٨.

أيديهم ثمّ جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلّا إحساناً وتوفيقاً * أُولئك الّذين يعلمُ الله ما في قلوبهم فأعرِض عنهم وعِظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً * وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله وآستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً * فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾[1] ؟!

وفي هذه الآيات عدّة أحكام :

الأوّل : لزوم ردّ كلّ شيء يختلف فيه إلىٰ الله وإلىٰ الرسول ، وأنّ ذلك مقتضىٰ الإيمان بالله وبالمعاد ، فكيف يرجع إلىٰ الظنون مقدَّمة علىٰ الرجوع والردّ إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ؟!

الثاني : إنّ الاحتكام في الأُمور إلىٰ غير ما أنزل الله علىٰ رسوله تحاكم إلىٰ الطاغوت وضلال ونفاق وظلم للنفس .

الثالث : إنّ غاية رسالة الرسول هو طاعة أُمّته له بإذن الله ، لا خلافهم عليه .

الرابع : إنّ الإيمان مشروط بتحكيم الرسول في ما يُختلف فيه ، وطاعة الرسول في ما يحكم به ، مع عدم التحرّج ممّا حكم به الرسول ، ومع التسليم القلبي التامّ لذلك .

وقال تعالىٰ : **﴿ ومنهم الّذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أُذُن قل أُذُن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للّذين آمنوا منكم والّذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾**[2] ..

---

(١) سورة النساء ٤ : ٥٩ ـ ٦٥ .

(٢) سورة التوبة ٩ : ٦١ .

وقال تعالىٰ: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾[١]..

وقال تعالىٰ: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب** ﴾[٢]..

وقال تعالىٰ: ﴿ **قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله** ﴾[٣]..

إلىٰ غير ذلك من آيات الله العزيز، فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموا النبيّ في ما اختلفوا فيه، ولا يجدوا تحرّجاً في نفوسهم من حكمه وقضائه ﷺ ويسلّموا تسليماً لقوله ﷺ، وهم يتذرّعون بموارد من الآيات التي ظاهرها العتاب في الخطاب الإلٰهي للنبيّ ﷺ، وأنّه ﷺ يقضي بالبيّنات والأيمان، وهي قد تخطئ الواقع، أو بأخبار آحاد في تأبير النخل ونحوه في قبال الدليل القطعي.

مع إنّ لتلك الآيات الظاهرة في العتاب، في المنسبق من دلالتها بدواً، وجوهاً من المعنىٰ، ذهلوا عنه!

الأوّل: إن مقتضىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ **فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير** ﴾[٤] أنّه ﷺ مخاطب بفعل أُمّته كما يخاطب الوليّ بفعل المولىٰ عليه، وكما يخاطب المربّي بفعل من هو تحت قيمومته وتربيته، والرئيس يخاطب بفعل مرؤوسه، والإمام بفعل مأمومه، إذ إنّ صلاح الرعية من مسؤولية الراعي، ومن ثمّ يسند فعلهم إلىٰ فعله وإنْ كان الفعل صادر حقيقة منهم لا منه.

---

(١) سورة التوبة ٩ : ١٢٨.

(٢) سورة الحشر ٥٩ : ٧.

(٣) سورة آل عمران ٣ : ٣١.

(٤) سورة هود ١١ : ١١٢.

ومن هذا القبيل إسناد فعل الحكومة وجهاز الحكم والدولة إلىٰ الرئيس ويخاطب به، ومن هذا الباب قد يسند المعصوم الخطأ لنفسه كما في قول عليّ عليه‌السلام في خطبة له بعد تسلّمه مقاليد الأمور والخلافة بصفّين: «**فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ، أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلّا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به منّي**»[1].

ومن هذا الباب أكثر ما يخاطَب به النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ويعاتَب في لحن الخطاب، فإنّه بالتتبّع في تلك الموارد والتدبّر مليّاً يظهر أنّ الفعل الذي كان مورد الخطاب هو من فعل المسلمين خوطب به النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وإلىٰ هذا يشير قول الإمام الصادق عليه‌السلام: «**إنّ القرآن نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة**»[2]..

كما هو الحال في أسارىٰ بدر، فإنّ اللازم كان علىٰ المسلمين هو الإثخان في القتل ما دامت المعركة محتدمة، وعدم استبقاء المشركين أحياء ما دامت الحرب لم تضع أوزارها، فكان في أخذهم الأُسارىٰ أثناء المعركة خلاف الحكم والإرادة الإلٰهيّة..

وكما هو الحال في مساءلة الله تعالىٰ النبيّ عيسىٰ عليه‌السلام: ﴿ **وإذ قال الله يا عيسىٰ بن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأُمّي إلٰهَين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول... وكنتُ عليهِم شهيداً ما دمتُ فيهم** ﴾[3].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢١٤.
(٢) الكافي ٢ / ٤٦١ ح ١٤ باب النوادر.
(٣) سورة المائدة ٥: ١١٦ ـ ١١٧.

الثاني : إنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ، أي إنّه كلّما قرب الشخص من القدس الإلٰهي كلّما كان الحساب معه والتوقّع منه أكثر في مجال كمال الأفعال ، كما هو الحال في الموالي في العرف البشري ، فإنّ الملك يتوقّع من الوزير مستوىً من الاحترام والأدب والكون رهن الإشارة ما لا يتوقّعه من سائر الرعية ، بل إنّ في طبقات الوزراء اختلاف في المكانة والحظوة لدىٰ الملك ، وبالتالي اختلاف في ما يتوقّعه وينتظره الملك منهم في مجال التقيّد بأقصىٰ مكارم الآداب معه .

ومن هذا الباب ما يشاهد من خطابٍ عتابٍ مع الأنبياء في القرآن ، فإنّها ليست أخطاء ومعاصٍ في الشرع وحكم العقل ، وإنّما هي من باب ترك الأَوْلىٰ في منطق القرب والزلفىٰ ومقام المحبّين .

الثالث : إنّ خطأ الميزان الظاهر المجعول في باب القضاء ، أو في باب الإمارة وتدبير الحكم ، ونحوهما ممّا يكون في الموضوعات الخارجيّة ، ليس من خطأ المعصوم ، كالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنّه موظّف في مصالح التشريع بالعمل بهذا الميزان في تلك الموضوعات الجزئية ، ممّا يتدارك خطأ الميزان الشرعي الظاهري بالمصالح الأُخرىٰ ؛ وأين هذا من الأحكام الكلّيّة ومعرفة الشريعة ؟ !

وإذا فُرض جهل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بها ـ والعياذ بالله تعالىٰ ـ ، وتحرّيه لها بالاجتهاد الظنّي ، فأين الطريق إليها المأمون عن الخطأ ؟ ! وما هو ميزان الصحّة من الخطأ إذا كان الطريق مسدوداً إلىٰ الأبد ، إذ لا فاتح لِما انسدّ علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من أبواب العلم ؟ !

وهذا بخلاف باب الموضوعات الجزئية ، فإنّ طريق العلم بها مفتوح وراء ميزان القضاء والحكم .

الرابع: إنّهم خلطوا بين السؤال الممدوح عن الأحكام ومعارف الدين كما في قوله تعالى: **﴿فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين﴾**[(١)] وقال: **﴿فاسألوا أهل الذِكر إنْ كنتم لا تعلمون﴾**[(٢)]، وبين السؤال المذموم عن الأحكام والشريعة، قال الله تعالى: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبد لكم تسؤكم وإنْ تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبد لكم عفا الله عنها﴾**[(٣)] وقال: **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسىٰ من قبل﴾**[(٤)]..

فإنّ الفرق بين السؤالين هو الفرق بين الاجتهادين اللذين عند الشيعة وعند أهل السنّة، فإنّ الأوّل مخصوص باستكشاف الحكم الشرعي الثابت واقعاً، وتطبيقه علىٰ الموارد والدرجات المختلفة، بموازين منضبطة دقيقة، والثاني يشمل ذلك ويعمّ إنشاء أحكام جديدة تتميماً لِما يدّعىٰ من نقص الشريعة! نظير تتميم القوانين الدستورية بالتبصرة القانونية في القوانين الوضعية.

فالاجتهاد الأوّل هو تمسّك بالعموم المشرّع الوارد، والسؤال الممدوح هذا مورده، وهو فهم ما ورد، ومعرفة العمومات والأدلّة المشرّعة.

والاجتهاد الثاني هو الاجتهاد الابتداعي، والسؤال المذموم منطقته هو إنشاء الأحكام الجديدة وضمّها إلىٰ أحكام الشريعة، أو السؤال والمطالبة بإنشائها.

---

(١) سورة التوبة ٩ : ١٢٢.

(٢) سورة النحل ١٦ : ٤٣، وسورة الأنبياء ٢١ : ٧.

(٣) سورة المائدة ٥ : ١٠١.

(٤) سورة البقرة ٢ : ١٠٨.

والمنطقة الأُولىٰ هي كانت سيرة النبيّ ﷺ بالتسليم والاتّباع لربّه، والمنطقة الثانية لم يكن النبيّ ﷺ يتكلّفها كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **وما أنا من المتكلّفين** ﴾[1]، فالمنطقة الثانية والنمط الثاني كان ديدن اليهود، والنمط الأوّل هو ديدن الأنبياء بالوحي القطعي والرسالة والملّة الحنيفية الإبراهيمية.

فتلخّص أنّهم فرّطوا في عصمة النبيّ ﷺ، وغالوا في عدالة الصحابة إلىٰ العصمة والتفويض في التشريع.

الوجـه التاريخي:

ثـمّ إنّه بقـي وجـه آخـر أو أخير يتمسّـك به القـائل بعدالة الصحابة، ـ بالترديد المتقدّم في معنىٰ العدالة وفي دائرة الصحابة المرادة لذلك القائل ـ وهو: إنّ الصحابة هم الّذين قاموا بفتوحات الإسلام ونشر الدين في أرجاء المعمورة، وهذا بعدما عانوا ما عانوا مع النبيّ ﷺ في الغزوات الأُولىٰ..

وهذا الوجه ـ مع غضّ النظر عن التحليل الآتي فيه، وعن الخوض في حقيقته ـ ما هو المقدار اللازم منه في الحجّيّة المبحوث عنها في عدالة الصحابة؛ فقد تقدّم أنّ صدور العمل الصالح أو الحسن من شخص ـ بعد افتراض ذلك ـ لا يلازم عدالته وآستقامته في كلّ أفعاله الأُخرىٰ، فضلاً عن عصمته وإمامته في الدين.

ففي كثير من الغزوات التي قام بها المسلمون في عهد النبيّ ﷺ ارتكب مَن صحبه ﷺ فيها أعمالاً تعدّ في الشرع من الخطايا الكبيرة

---

(١) سورة ص ٣٨: ٨٦.

المغلّظة عقوبتها، وقد ذكرنا شطراً منها في ما سلف، ونذكر هنا شطراً آخر منها:

قوله تعالىٰ: ﴿**ما كان لنبيّ أن يكون له أسرىٰ حتّىٰ يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾[1].

والآية تبيّن أنّ الواجب علىٰ المسلمين الإثخان في قتل المشركين، وعدم أخذ الأسرىٰ والحرب قائمة قبل أنْ ينهدّ صفّ المشركين ويستولي عليهم الرعب.

وقد وصفت الآية أنّ العقوبة لولا عفو الله تعالىٰ لكانت عذاب، ووصفته بالعظيم، وظاهر الآية وبمقتضىٰ الإثخان هو: كون الواجب القتل لا الأسر أثناء قيام الحرب مع المشركين وقبل انتهائها بتقويض معسكرهم، لا ما يقال: إنّ الآية ناظرة إلىٰ حكم الأسرىٰ بعد انتهاء الواقعة، وإنّ الواجب هو قتلهم لا مفاداتهم؛ لأنّه يخالف الآيات اللاحقة: ﴿**يا أيّها النبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرىٰ إن يعلَمِ اللهُ في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أُخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم * وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكنَ منهم والله عليم حكيم**﴾[2]، الدالّة علىٰ أنّ القتل المطلوب هو أثناء الحرب لا بعد أنْ تضع الحرب أوزارها.

وكلّ هذا في غزوة «بدر»، وكذلك الحال في غزوة «حنين»، قال تعالىٰ: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحُبَت ثمّ**

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٦٧ و ٦٨.

(٢) سورة الأنفال ٨: ٧٠ و ٧١.

ولّيتم مدبرين﴾[١]، والفرار في اللقاء من الكبائر التي توعّد الله عليها النار، كما في قوله تعالىٰ: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار * ومن يولّهم يومئذٍ دبُرَهُ إلّا متحرّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلىٰ فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير﴾**[٢].

وكذلك الحال في غزوة «أُحد» كما أشرنا إليه سابقاً في سورة آل عمران، وقد قتل خالد بن الوليد بني جذيمة في فتح مكّة حينما بعثه الرسول ﷺ حولها في سرايا تدعو إلىٰ الله تعالىٰ ولم يأمرهم بقتال، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، فغدر خالد بهم وقتلهم، فانتهىٰ الخبر إلىٰ رسول الله ﷺ فرفع يديه إلىٰ السماء ثمّ قال: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد» ثلاث مرّات؛ ثمّ أرسل رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام فودىٰ لهم الدماء وأرضاهم[٣].

فتبيّن أن لا تلازم بين صدور العمل الصالح ـ علىٰ تقدير ثبوته ـ وبين استقامة الشخص في بقيّة أعماله، فضلاً عن عصمته وإمامته في الدين.

أمّا الخوض في الفتوحات بشكل إجمالي فالنظرة المقابلة تقيّم الفتوحات التي حصلت بأنّها كانت بمثابة سدوداً أمام انتشار الدين في كلّ أرجاء المعمورة، فإنّ هذا الدين الحنيف لا يصمد أمام بريق نوره الأقوام البشريّة إلّا وتنجذب إليه، وهذا هو عمدة نهج النبيّ ﷺ في دعوته إلىٰ الإسلام..

قال تعالىٰ: **﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون**

---

(١) سورة التوبة ٩: ٢٥.

(٢) سورة الأنفال ٨: ١٥ و ١٦.

(٣) المغازي للواقدي ـ ٣/٨٧٥ ـ ٨٨٤.

في دين الله أفواجاً ﴾[1]، فالدخول الفوجي الأفواجي للناس كان بحكم الانجذاب إلىٰ عظمة الدين، والمثالية التي يتّصف بها صاحب الدعوة، والكيان الداخلي الذي بناه..

إلّا إنّ مجموع الممارسات في أحداث الفتوحات كبّلت الدين، وألبست الإسلام أثواباً قاتمة، وولّدت انطباعاً لدىٰ بقيّة الأُمم والملل أنّ الدين الحنيف هذا هو دين السيف والدم، ولغته لغة القوّة بالدرجة الأُولىٰ وفي القاعدة الأصلية له، لا أنّه دين الفطرة العقلية، **﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾**[2].

ومن ثمّ أخذت بعض الكتابات في العالم العربي الإسلامي منذ نصف قرن في التنكّر لقانون الجهاد الابتدائي في الإسلام، باعتبار أنّه يعني لغة القوّة والعنف والعسكر، ورفضاً للغة الدعوة إلىٰ سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، التي هي من الثوابت الأوّلية لطريقة الدعوة إلىٰ الإسلام، وربّما تمسّكوا بسيرة النبيّ ﷺ في جميع غزواته؛ إذ إنّها لم تكن مبتدأة منه ﷺ، بل من مناوشات الكفّار أوّلاً للمسلمين، وبذيل بعض الآيات من قبيل قوله تعالىٰ: **﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين ﴾**[3]..

وقوله تعالىٰ: **﴿ لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين * إنّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم**

---

(١) سورة النصر ١١٠ : ١ و ٢.

(٢) سورة الروم ٣٠ : ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٢ : ١٩٠.

من دياركم وظاهروا علىٰ إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأُولئك هم الظالمون﴾[١] . .

ونـحوها مـن الآيـات التـي ظـاهرها يـوهم بأنّ القـتال مـخصوص بالمدافعة ، وقد تسرّب مثل هذا النظر إلىٰ بعض الأوساط الفقهيّة .

والذي أوقعهم في مثل هذا الوهم المخالف للمسلّمات الفقهيّة فـي الدين ، هو ما جرىٰ من الأحداث والممارسات في الفتوحات عبر تـاريخ المسلمين . .

فإنّه قد وقع الخلط لديهم بين الجهاد الابتدائي وبين العدوان المبتدأ ، وحصر الدفاع في الجهاد الدفاعي ، مع إنّ الجهاد الابـتدائـي ليس بـمعنىٰ الابتداء بالعدوان ، بل إنّ الغـطاء الحـقوقي للـجهاد الابـتدائـي هـو الدفـاع الحقوقي ، وإنّ كان ابتداء الحرب من المسلمين بمعنىٰ الضغط علىٰ الكفّار تحت تأثير القوّة ، لكن ليس هو ابتداء عدوان ، بل ابتداء الضغط بالقوّة لردّ العدوان الذي مارسه الكفّار تجاه المسلمين فـي مـا سـبق ، فـالابتداء فـي استخدام القوّة أمر ، والابتداء في العدوان أمر آخر . .

وأمّا التمسّك بسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد خلط أصحاب هذه المقولة بين الجهاد الابتدائي في مصطلح الفقهاء وبين العدوان الابتدائي الحقوقي ، فالثاني لم يكن في سيرته صلى الله عليه وآله وسلم ، أمّا الأوّل ؛ فغزوة «بدر» أعظم الغزوات كانت ابتداء في استخدام القوّة منه صلى الله عليه وآله وسلم ردّاً علىٰ مصادرة أموال المسلمين في مكّة التي قام بها كفّار قريش ، وردّاً علىٰ الغارات المباغتة التي كان يقوم بها أفراد منهم علىٰ أطراف المدينة ، ونحو ذلك ، لكنّ ذلك لا يسـتوجب

---

(١) سورة الممتحنة ٦٠ : ٨ و ٩ .

تصنيف غزوة «بدر» في الجهاد الدفاعي وإخراجه عن الابتدائي بالمصطلح الفقهي؛ إذ لكلٍّ شرائط تختلف عن الآخر، وكذا غزوة «خيبر» وغزوة «حنين» وغزوة «تبوك» وغيرها من الغزوات الكبرىٰ أو الوسطىٰ والصغيرة، وقوله تعالىٰ في سورة الأنفال صريح في ذلك: ﴿**كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحقّ بعد ما تبيّن كأنّما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون * وإذ يعدكم الله إحدىٰ الطائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذاتِ الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾[1]؛ فإنّ خروج قريش للحرب كان بعد انتداب أبي سفيان لحماية قافلة التجارة التي كان فيها عندما سمع بخروج المسلمين للاستيلاء عليها ابتداءً انتقاماً لِما فعل المشركون بهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿**فليقاتل في سبيل الله الّذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الّذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وآجعل لنا من لدنك وليّاً وآجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾[2].

فإنّ هذه الآيات تفيد الغطاء الحقوقي الدفاعي للجهاد الابتدائي.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلىٰ الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل * إلّا تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً**

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٥ ـ ٨.

(٢) سورة النساء ٤: ٧٤ ـ ٧٦.

ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً والله علىٰ كلّ شيء قدير ﴾[١].

و ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[٢].

و ﴿ **قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين أُوتوا الكتاب حتّىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون** ﴾[٣].

وتمـام الكلام في أدلّة الجهاد الابتـدائي موكول إلىٰ الكتب الفقهيـة، إلّا أنّ الغرض في المقام الإشارة إلىٰ أنّ الخلط الذي حصل كان بسبب عدم التمييز بين الجهاد الابـتدائـي عـلىٰ مسـتوىٰ التـنظير وسـيرة النـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والفلسفة الحقوقية التي تنطلق منها مشروعيّته، وبين ما حصل من ممارسة في فتوحات البلدان، فإنّ الانطباع الذي أورثته تلك الممارسات في أذهان الأُمم الأُخرىٰ عاد عقبة كؤوداً أمـام انـتشار الديـن الإسـلامي فـي أرجـاء المعمـورة.

فالدين الإسلامي ـ بناءً علىٰ هذا الانطباع ـ غطاء يـحرز مـن وراءه جمع الثروات، وآستعباد البشر في صورة الرقيق، ولقضاء النزوات بعنوان ملك الإماء، فيهلك الحرث في البلدان، ويبيد النسل البشري فيها، وتحت ركام هذه الصورة حاولت تلك المجموعة من المثقّفين والكتّاب في الدول الإسلاميّة القيام بعملية الغسيل، وتمييز الوجه الناصع للدين الحنيف عـن تلك الممارسات، لكنّها خلطت بـين حـقيقة الجـهاد الابـتدائـي وفـلسفته

---

(١) سورة التوبة ٩: ٣٨ و ٣٩.

(٢) سورة التوبة ٩: ٤١.

(٣) سورة التوبة ٩: ٢٩.

الحقوقية التي ينطلق منها، وبين ما حصل من ممارسات باسم الجهاد الابتدائي في الفتوحات التي جرت، ونضع القارئ أمام النقاط التالية كي يتبيّن له حقيقة الحال:

● **الأولىٰ**: إنّ أغراض هذا التشريع للجهاد الابتدائي كما تدلّ عليه مجموع الآيات القرآنية المتعرّضة للجهاد الابتدائي ـ والتي تقدّمت الإشارة إلىٰ بعضها ـ في الدين الحنيف، كما في قوله تعالىٰ: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقىٰ إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾**[1]..

فإنّ هذه الآية تحدّد مَعلماً مهمّاً من معالم الجهاد، وإنّ الغرض فيه ليس جمع الغنائم والأموال والاسترقاق، بل قيادة الجموع البشرية وهدايتها إلىٰ طريق الله وعبادته.

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله علىٰ ما في قلبه وهو ألّد الخصام * وإذا تولّىٰ سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد * وإذا قيل له اتّقِ الله أخذته العزّة بالأثم فحسْبه جهنّم ولبئس المهاد﴾**[2].

وهذه ملحمة قرآنية عمّن هو في الصفوف مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو عسل اللسان والكلام، ولكنّ قلبه مخالف تماماً لِما يظهره علىٰ لسانه، وهو شديد العداوة لله ولرسوله، والآية تُخبر أنّه إذا تولّىٰ الأُمور فسوف يكون سعيه في ولايته فساداً في الأرض وإهلاكاً للحرث والنسل البشري، والحال

(١) سورة النساء ٤ : ٩٤.

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

إنّ الله تعالىٰ لا يحبّ الفساد في التكوين ، وإنّ خاصية هذا المتولّي التعصّب لفِعله أمام نصيحة الآخرين له .

كما إنّ هذه الآية تحدّد أغراض الدين ـ بما فيه الجهاد الابتدائي ـ بأنّه ليس للإفساد في الأرض وإهلاك الموارد الطبيعية أو الإنجازات المدنية التي حقّقها البشر ، ولا الهدف تبديد النسل .

وكذا قوله تعالىٰ : ﴿ **فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأَوْلىٰ لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم * أُولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمىٰ أبصارهم * أفلا يتدبّرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها * إنّ الّذين ارتدّوا علىٰ أدبارهم من بعدما تبيّن لهم الهدىٰ الشيطان سوّل لهم وأملىٰ لهم * ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يُخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾[1] .

فهذه الآيات ترسم ملحمة مستقبلية لجماعة ﴿ **الّذين في قلوبهم مرض** ﴾ ، وهذه الجماعة قد أشار إليها القرآن الكريم في سورة المدّثّر ، رابع سورة نزلت علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أوائل البعثة الشريفة في مكّة

---

(١) سورة محمّد ٤٧ : ٢٠ ـ ٣٠ .

المكرّمة، وأعلن وجودها في صفوف الثلّة الأُولىٰ التي أسلمت..

قال تعالىٰ: **﴿عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلّا فتنة للّذين كفروا ليستيقن الّذين أُوتوا الكتاب ويزداد الّذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الّذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الّذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربّك إلّا هو وما هي إلّا ذكرىٰ للبشر﴾**(١).

فإنّ الآيات تبيّن أنّ المخاطب بعدّة الملائكة الموكّلين بالنار علىٰ أربعة أقسام؛ الأوّل: «الّذين آمنوا»، والثاني: «الّذين أُوتوا الكتاب»، والثالث: «الّذين في قلوبهم مرض»، والرابع: «الكافرون»، وتخبر أنّ الذي سيحصل له الإيمان هما القسمان الأوّلان، أمّا القسمان الآخران فسيحصل لديهما الارتياب.

ومن الواضح أنّ المرض الذي في القلب نحوٌ من النفاق الخفيّ جدّاً، أي الذي لا يظهر علىٰ صاحبه، بل يبطنه في قلبه وخفاء أعماله، وقد ذكرنا أنّ الآيات القرآنية تتابع هذه الفئة والجماعة في كثير من السور، تحت هذا العنوان وبهذا الاسم إلىٰ آخر حياة الرسول ﷺ ونزول القرآن..

والآيات هنا من سورة محمّد ﷺ تبيّن أنّ غرض هذه الفئة هو تولّي الأُمور والأخذ بزمامها، وأنّ ذلك الغرض هو وراء انضمامها إلىٰ صفوف المسلمين الأوائل؛ إذ إنّ خبر ظفر النبيّ المبعوث ﷺ كان منتشراً قبل البعثة، كما يشير إليه قوله تعالىٰ: **﴿وكانوا من قبل يستفتحون علىٰ الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله علىٰ**

---

(١) سورة المدّثّر ٧٤: ٣٠ و ٣١.

الكافرين﴾[١].

فقد أشارت الآية إلىٰ أنّ أهل الكتاب كانوا يستفتحون وينتظرون ويطلبون الفتح والنصر والظفر بالنبيّ ـ الذي سيبعث خاتماً ـ علىٰ الكافرين من مشركي الجزيرة العربية، فلمّا عرفوا ذلك وأنّه ﷺ قد بُعث كفروا برسالته.

فالسورة تبيّن أنّ غرض هذه الفئة ﴿**الّذين في قلوبهم مرض**﴾ هو تسلّم مقاليد الأُمور، وأنّها كانت علىٰ اتّصال في الخفاء وارتباط مع فئات معادية علناً لرسول الله ﷺ؛ ﴿**ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا...**﴾، وكذلك بقية السور المتعرّضة لهذه الفئة بهذا الاسم تشير إلىٰ هذه العلاقات بين هذه الفئة وبين بقية الفئات الأُخرىٰ.

ثمّ إنّ السورة تبيّن أنّ طابع سياسة الدولة التي يقيمها أفراد هذه الفئة هو الإفساد في الأرض، وقطع الصلة بمن أمر تعالىٰ بوصلهم ومودّتهم، كالذي تشير إليه آية ٢٠٥ من سورة البقرة: ﴿**وإذا تولّىٰ سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد**﴾.

فهذه الآيات تحدّد أنّ أغراض الشريعة ـ في أحكامها وقوانينها السياسية، وأبواب فقه النظام والسياسة الشاملة للجهاد الابتدائي ـ ليس الإفساد في الأرض، وإهلاك الحرث، وتبديد النسل البشري، فإنّ الله يحبّ صلاح الأرض وأهلها، فهذا هو سبيل الله تعالىٰ الذي أمرت الآيات القرآنية العديدة بالقتال فيه، وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ لأجل إزالة استضعافهم وإرجاع حقوقهم المغتصبة.

---

(١) سورة البقرة ٢: ٨٩.

● **الثانية** : إنّ نظرة سريعة إلىٰ الثروات المتكدّسة من الفتوحات توضّح معالم الأغراض وراءها ، والأُسلوب الممارس فيها ، المباين للنهج المرسوم في الكتاب والسُنّة النبويّة ، سيرةً وأقوالاً . .

قال العلّامة الأميني[١] في جرده لثروات عدّة من الأسماء :

منهم : سعد بن أبي وقّاص ؛ قال ابن سعد : ترك سعد يوم مات مائتي ألف وخمسين ألف درهم ، ومات في قصره بالعقيق .

وقال المسعودي : بنىٰ داره بالعقيق فرفع سمكها ووسّع فضائها ، وجعل أعلاها شرفات[٢] .

ومنهم : زيد بن ثابت ؛ قال المسعودي : خلف من الذهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار[٣] .

ومنهم : عبد الرحمٰن بن عوف الزهري ؛ قال ابن سعد : ترك عبد الرحمن ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعىٰ بالبقيع ، وكان يزرع بالجرف علىٰ عشرين ناضحاً ، وقال : وكان في ما خلّفه ذهب قطّع بالفؤوس حتّىٰ مجلت أيدي الرجال منه ، وترك أربع نسوة فأصاب كلّ امرأة ثمانون ألفاً .

وقال المسعودي : ابتنىٰ داره ووسّعها ، وكان علىٰ مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ثُمن ماله أربعة

---

(١) الغدير ٨ / ٢٨٢ ـ ٢٨٨ .
(٢) الطبقات الكبرىٰ ـ لابن سعد ـ ٣ / ١٠٥ ، مروج الذهب ١ / ٤٣٤ .
(٣) مروج الذهب ١ / ٤٣٤ .

وثمانين ألفاً[١].

ومنهم: يعلىٰ بن أُميّة؛ خلّف خمسمائة ألف دينار وديوناً علىٰ الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار[٢].

ومنهم: طلحة بن عبيدالله التيمي؛ ابتنىٰ داراً بالكوفة تعرف بالكناس بدار الطلحتين، وكانت غلّته من العراق كلّ يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وله بناحية سراة أكثر ممّا ذكر، وشيّد داراً بالمدينة وبناها بالآجر والجصّ والساج..

وعن محمّد بن إبراهيم، قال: كان طلحة يغلّ بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلىٰ خمسمائة ألف، ويغلّ بالسراة عشرة آلاف دينار أو أكثر أو أقلّ.

وقال سفيان بن عيينة: كان غلّته كلّ يوم ألف وافياً. والوافي وزنه وزن الدينار.

وعن موسىٰ بن طلحة: إنّه ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وكان ماله قد اغتيل.

وعن إبراهيم بن محمّد بن طلحة: كان قيمة ما ترك طلحة من العقار والأموال وما ترك من النافيّ ثلاثين ألف ألف درهم، ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عروض.

وعن عمرو بن العاص: إنّ طلحة ترك مائة بهار في كلّ بهار ثلاثة

(١) الطبقات الكبرىٰ ـ لابن سعد ـ ٣/٩٦، مروج الذهب ١/٤٣٤، تاريخ اليعقوبي ٢/١٤٦، صفة الصفوة ـ لابن الجوزي ـ ١/١٣٨، الرياض النضرة ـ لمحبّ الدين الطبري ـ ٢/٢٩١.

(٢) مروج الذهب ١/٤٣٤.

قناطير ذهب ، وسمعت أنّ البهار : جلد ثور ، وفي لفظ ابن عبد ربّه من حديث الخشني : وجدوا في تركته ثلاثمائة بهار من ذهب وفضّة .

وقال ابن الجوزي : خلّف طلحة ثلاثمائة جمل ذهباً .

وأخرج البلاذري من طريق موسىٰ بن طلحة ، قال : أعطىٰ عثمان طلحة في خلافته مائتي ألف دينار ، وقال عثمان : ويلي علىٰ ابن الحضرمية (يعني طلحة) أعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً وهو يروم دمي يحرّض علىٰ نفسي[1] .

ومنهم : الزبير بن العوّام ؛ خلّف ـ كما في **صحيح البخاري** ـ إحدىٰ عشرة داراً بالمدينة ، ودارين بالبصرة ، وداراً بالكوفة ، وداراً بمصر ، وكان له أربع نسوة فأصاب كلّ امرأة بعد رفع الثلث ألف ألف ومائتا ألف ، قال البخاري : فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف ، وقال ابن الهائم : بل الصواب أنّ جميع ماله حسبما فرض : تسعة وخمسون ألف ألف وثمانمائة ألف[2] .

ومنهم : عثمان بن عفّان ؛ قال محمّد بن ربيعة : رأيت علىٰ عثمان مطرف خزّ ثمنه مائة دينار ، فقال : هذا لنائلة كسوتها إيّاه ، فأنا ألبسه أسرّها به . .

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ـ لابن سعد ـ ٣ / ١٥٨ ، أنساب الأشراف ٥ / ٧ ، مروج الذهب ١ / ٤٣٤ ، العقد الفريد ٢ / ٢٧٩ ، الرياض النضرة ٢ / ٣٥٨ ، دول الإسلام ـ للذهبي ـ ١ / ١٨ ، الخلاصة ـ للخزرجي ـ : ١٥٢ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد / باب بركة الغازي في ماله ٥ / ٢١ ، ذكره شرّاح الصحيح : فتح الباري ، إرشاد الساري ، عمدة القاري ؛ شذرات الذهب ١ / ٤٣ ، وفي تاريخ ابن كثير ٧ / ٢٤٩ قيّدها بالدرهم .

ولاحظ : الطبقات الكبرىٰ ـ لابن سعد ـ ٣ / ٧٧، ومروج الذهب ١ / ٤٣٤ .

وقال أبو عامر سليم: رأيت علىٰ عثمان برداً ثمنه مائة دينار.

قال البلاذري: كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حليّ وجواهر فأخذ منه عثمان ما حلّىٰ به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك وكلّموه فيه بكلام شديد.. وجاء إليه أبو موسىٰ بكيلة ذهب وفضّة فقسّمها بين نسائه وبناته، وأنفق أكثر بيت المال في عمارة ضياعه ودوره.

وقال ابن سعد: كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، فانتُهبت وذهبت.. وترك ألف بعير بالربذة وصدقات ببراديس وخيبر ووادي القرىٰ قيمة مائتي ألف دينار.

وقال المسعودي: بنىٰ في المدينة داراً وشيّدها بالجعر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنىٰ أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة.

وذكر عبدالله بن عتبة: إنّ عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرىٰ وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلّف خيلاً كثيراً وإبلاً.

وقال الذهبي: كان قد صار له أموال عظيمة ﷺ، وله ألف مملوك[1]..

وأمّا أُعطيات عثمان إبّان حكمه فقد جردها العلّامة الأميني في **غديره** عن المصادر المزبورة، فقد أعطىٰ:

١ ـ مروان، خمسمائة ألف دينار.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ـ لابن سعد ـ ٣ / ٤٠ وص ٥٣، أنساب الأشراف ٣ / ٤، الاستيعاب ـ في ترجمة عثمان ـ ٢ / ٤٧٦، الصواعق المحرقة: ٦٨، السيرة الحلبية ٢ / ٨٧، مروج الذهب ١ / ٤٣٣، دول الإسلام ١ / ١٢.

٢ ـ ابن أبي سرح ، مائة ألف دينار .

٣ ـ طلحة ، مائتا ألف دينار .

٤ ـ عبد الرحمٰن بن عوف ، ألفا ألف وخمسمائة وستّين ألف دينار .

٥ ـ يعلىٰ بن أُميّة ، خمسمائة ألف دينار .

٦ ـ زيد بن ثابت ، مائة ألف دينار .

٧ ـ ما اقتصّه لنفسه في بعض الموارد ، مائة وخمسون ألف دينار .

٨ ـ ما اقتصّه لنفسه في بعض آخر من الموارد ، مائتا ألف دينار .

ويبلغ المجموع أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرة آلاف دينار .

وفي مجموعة أُخرىٰ من الأُعطيات :

٩ ـ الحكم ، ثلاثمائة درهم .

١٠ ـ آل الحكم ، ألفا ألف وعشرون درهم .

١١ ـ الحارث ، ثلاثمائة درهم .

١٢ ـ سعيد ، مائة ألف درهم .

١٣ ـ عبد الله ، ثلاثمائة ألف درهم .

١٤ ـ الوليد بن عقبة ، مائة ألف درهم .

١٥ ـ عبد الله ، مرّة أُخرىٰ ، ستّمائة ألف درهم .

١٦ ـ أبو سفيان ، مائتا ألف درهم .

١٧ ـ مروان ، مرّة أُخرىٰ ، مائة ألف درهم .

١٨ ـ طلحة ، مرّة أُخرىٰ ، ألفا ألف ومائتا ألف درهم .

١٩ ـ طلحة ، مرّة ثالثة ، ثلاثون ألف ألف درهم .

٢٠ ـ الزبير ، خمسة وتسعون ألف ألف وثمانمائة ألف درهم .

٢١ ـ سعد بن أبي وقّاص ، مائتان وخمسون ألف درهم .

٢٢ ـ ما اقتصّه لنفسه مرّة ثالثة، ثلاثون ألف ألف وخـمسمائة ألف درهم.

ويبلغ مجموع المجموعة الثانية مائة وستّة وعشرون مليوناً وسبعمائة وسبعون ألف درهم. انتهىٰ ملخّصاً.

فـلاحظ تـلك المـصادر والمـراجـع وغـيرها لاسـتقصاء الأُعـطيات والقطائع!

وقال الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم في أبيات له:

قتلتم أخي كيما تكـونوا مكـانه كما غدرتْ يوماً بكسرىٰ مرازبُه

فأجابه عبـدالله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبـد المطّلب بأبـيات طويلة منها:

وشبَّهته كسرىٰ وقـد كـان مـثله شبيهاً بكسرىٰ هَـديُه وضـرائـبُه

وكان المنصور إذا أنشد هذا البيت يقول: لعن الله الوليد، هو الذي فرّق بين بني عبـد مناف بهذا الشعر[1].

وروىٰ البلاذري: لمّا أعطىٰ عـثمان مـروان بـن الحكـم مـا أعـطاه، وأعطىٰ الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطىٰ زيد ابن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم، جعل أبو ذرّ يقول: بشِّـر الكـانزين بعذاب أليم، ويتلو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم** ﴾[2].. فرفع ذلك مروان ابن الحكم إلىٰ عثمان، فأرسـل إلىٰ أبي ذرّ ناتلاً مولاه: أن انْتهِ عمّا يبلغني عنـك.

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ـ ١ / ٩٠.

(٢) سورة التوبة ٩ : ٣٤.

فقال: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله، وعَيْبِ من ترك أمر الله؟! فوالله لأن أُرضي الله بسخط عثمان أحبّ إليّ وخير لي من أن أُسخط الله برضاه.

وكان أبو ذرّ ينكر علىٰ معاوية أشياء يفعلها.. بعث إليه معاوية حبيب ابن مسلمة الفهري بمائتي دينار، فقال: أما وجدت أهون عليك منّي حِين تبعث إليّ بمال؟! وردّها.

وبنىٰ معاوية «الخضراء» بدمشق، فقال: يا معاوية! إن كانت هذه الدار من مال الله، فهي الخيانة، وإن كانت من مالك، فهذا الإسراف.

وكان أبو ذرّ يقول: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سُنّة نبيّه، والله إنّي لأرىٰ حقّاً يُطفأ وباطلاً يُحيا، وصادقاً يُكذب، وأثرة بغير تُقىً، وصالحاً مستأثَراً عليه..

فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إنّ أبا ذرّ مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة. فكتب معاوية إلىٰ عثمان فيه، فكتب عثمان إلىٰ معاوية: أمّا بعد، فاحمل جندباً إليّ علىٰ أغلظ مركب وأوعره!

فوجّه معاوية من سار به الليل والنهار، فلمّا قدم أبو ذرّ المدينة جعل يقول: تستعمل الصبيان، وتحمي الحمىٰ، وتقرّب أولاد الطلقاء..

ثمّ إنّ عثمان نفاه إلىٰ «الربذة»، فلم يزل بها حتّىٰ مات.

والمقام يطول بذِكر كلّ ما جرىٰ من إنكار أبي ذرّ علىٰ عثمان ومعاوية؛ فلاحظ المصادر.

وأخرج البخاري في **صحيحه** من حديث زيد بن وهب، قال: مررت بالربذة فقلت لأبي ذرّ: ما أنزلك هذا؟!

قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿ **والّذين**

يكنزون الذهب والفضّة﴾ فقال: أُنزلت في أهل الكتاب، فقلت: فينا وفيهم. فكتب يشكوني إلىٰ عثمان، فكتب عثمان: أقدم المدينة. فقدمت فكثر الناس عليَّ كأنّهم لم يروني قبل ذلك، فذُكر ذلك لعثمان فقال: إن شئتَ تنحّيتَ فكنتَ قريباً؛ فذلك الذي أنزلني هذا المنزل..

قال ابن حجر في **فتح الباري** في شرح الحديث: وفي رواية الطبري أنّهم كثروا عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشام، فخشي عثمان علىٰ أهل المدينة ما خشيه معاوية علىٰ أهل الشام.

وهكذا الحال في ما جرىٰ من إنكار عمّار وبعض أخلّائه علىٰ عثمان؛ فلاحظ المصادر.

وفي **تاريخ الطبري**: إنّ أبا بكر لمّا استُخلف قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل، إنّما هي بنو عبد مناف. فقيل له: إنّه قد ولّىٰ ابنك. قال: وصلته رحم[1].

ومنهم: خالد بن الوليد؛ قال في **الإصابة**: وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكره الزبير بن بكّار، قال: كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلىٰ أبي بكر حساباً؛ أقدم علىٰ قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته، فكره ذلك أبو بكر وعرض الدية علىٰ متمّم بن نويرة، وأمر خالد بطلاق امرأة مالك، ولم يرَ أن يعزله..

وفي **تاريخ أبي الفداء**: فقال عمر لأبي بكر: إنّ سيف خالد فيه رهق، وأكثر عليه في ذلك، فقال: يا عمر! تأوّل فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد..

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٠٢.

وفي لفظ الطبري: فلمّا بلغ قتلهم عمرَ بن الخطّاب ـ أي قتل مالك ابن نويرة وقومه ـ تكلّم فيه عند أبي بكر فأكثر، وقال: عدوّ الله، عدا على امرئ مسلم فقتله ثمّ نزا على امرأته. وأقبل خالد بن الوليد قافلاً حتّى دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد، معتجراً بعمامة له، قد غرز في عمامته أسهماً، فلمّا أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطّمها، ثمّ قال: أرئاء؟! قتلت امرأً مسلماً ثمّ نزوت على امرأته... ثمّ ذكر أنّ أبا بكر عذره.

وروى ثابت في **الدلائل**: إنّ خالداً رأى امرأة مالك وكانت فائقة في الجمال، فقال مالك بعد ذلك لامرأته: قتلتيني.

وقال الزمخشري وابن الأثير وأبو الفداء والزبيدي: إنّ مالك بن نويرة رحمه الله قال لامرأته يوم قتله خالد بن الوليد: أقتلتِني؟! وكانت جميلة حسناء تزوّجها خالد بعد قتله، فأنكر ذلك عبدالله بن عمر، وقيل فيه:

أفي الحقّ أنّا لم تجفّ دماؤنا وهذا عروساً باليمامة خالد؟![1]

وفي **تاريخ ابن شحنة**[2]: أمر خالد ضراراً بضرب عنق مالك، فالتفت مالك إلى زوجته وقال لخالد: هذه التي قتلتني. وكانت في غاية الجمال.

فقال خالد: بل قتلك رجوعك عن الإسلام.

---

(١) ولاحظ لمزيد من التفاصيل: تاريخ الطبري ٣/٢٤١، الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ٣/١٤٩، أسد الغابة ٤/٢٩٥، تاريخ دمشق ـ لابن عساكر ـ ٥/١٠٥، خزانة الأدب ١/٢٣٧، تاريخ ابن كثير ٦/٣٢١، تاريخ الخميس ٢/٢٣٣، الإصابة ١/٤١٤ و٣/٣٥٧، الفائق ٢/١٥٤، النهاية ٣/٢٥٧، تاريخ أبي الفداء ١/١٥٨، وتاج العروس ٨/٧٥

(٢) في هامش الكامل ـ لابن الأثير ـ ٧/١٦٥.

فقال مالك : أنا مسلم .

فقال خالد : يا ضرار ! اضرب عنقه ! فضرب عنقه ، وفي ذلك يقول أبو نمير السعدي :

ألا قـل لحـيّ أُوطـؤا بـالسنابكِ ... تطاول هذا الليل من بعد مـالكِ
قضىٰ خـالد بـغياً عـليه بـعرسه ... وكـان له فـيها هـوىً قـبل ذلكِ
فأمضىٰ هواه خالد غير عـاطف ... عنان الهـوىٰ عـنها ولا مـتمالكِ
وأصبح ذا أهـل وأصـبح مـالك ... إلىٰ غير أهل هالكاً في الهوالكِ

فلمّا بلغ ذلك أبا بكر وعمر قال عمر لأبي بكر : إنّ خالداً قد زنـىٰ فاجلده .

قال أبو بكر : لا ؛ لأنّه تأوّل فأخطأ .

قال : فإنّه قتل مسلماً فاقتله .

قال : لا ، إنّه تأوّل فأخطأ . ثمّ قال : يا عمر ! ما كنت لأغمد سيفاً سلّه الله عليهم .

ورثىٰ مالكاً أخوه متمّم بقصائد عديدة[١] .

وفي **تاريخ الخميس** : اشتدّ في ذلك عمر وقال لأبـي بكـر : ارجـم خالداً ، فإنّه قد استحلّ ذلك .

فقال أبو بكر : والله لا أفعل ، إن كان خالد تأوّل أمراً فأخطأ[٢] .

وفي **شرح المواقف** : فأشار عمر علىٰ أبي بكر بقتل خالد قـصاصاً . فقال أبو بكر : لا أغمد سيفاً شهره الله علىٰ الكفّار . وقال عمر لخالد : لئن

---

(١) لاحظ : تاريخ أبو الفداء ١ / ١٥٨ .

(٢) تاريخ الخميس ٢ / ٢٣٣ .

وليت الأمر لأقيدنّك به[١].

وفي **تاريخ دمشق**: قال عمر: إنّي ما عتبت على خالد إلّا في تقدّمه وما كان يصنع في المال..

وكان خالداً إذا صار إليه شيئاً قسمه في أهل الغنى ولم يرفع إلى أبي بكر حسابه، وكان فيه تقدّم على أبي بكر، يفعل الأشياء التي لا يراها أبو بكر، وأقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته، وصالح أهل اليمامة، ونكح ابنة مجاعة بن مرارة، فكره ذلك أبو بكر ولم يرَ أن يعزله[٢].

هذا، وقد كان مالك من أصحاب النبيّ ﷺ، واستعمله ﷺ على صدقات قومه، وهو من أشراف الجاهلية والإسلام.

ثمّ إنّ ضرار بن الأزور زميل خالد بن الوليد في قتل مالك قد شنّ الغارة على حيّ من بني أسد فأخذ امرأة جميلة فوطئها بهبة من أصحابه، ثمّ ذكر ذلك لخالد، فقال: قد طيّبتها لك؛ فكتب إلى عمر فأجاب برضخه بالحجارة[٣].

وبعد فتح الشام أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر، عن محارب بن دثار: إنّ أناساً من أصحاب النبيّ ﷺ شربوا الخمر بالشام وقالوا: شربنا لقول الله: ﴿**ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾.. الآية[٤].

---

(١) المواقف: ٤٠٣، شرح المواقف ٨/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) تاريخ دمشق ٥/١١٢.

(٣) لاحظ: تاريخ دمشق ٧/٣١، خزانة الأدب ٢/٨، الإصابة ٢/٢٠٩.

(٤) سورة المائدة ٥: ٩٣؛ لاحظ: الدرّ المنثور ٢/٣٢١.

وفي كتاب من أبي بكر له: لعمري يا بن أُمّ خالد! إنّك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد. كتبه إليه لمّا قال خالد لمجاعة: زوّجني ابنتك. فقال له مجاعة: مهلاً، إنّك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك. قال: أيّها الرجل! زوّجني. فزوّجه، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب إليه الكتاب، فلمّا نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأُعيسر. يعني عمر بن الخطّاب[١].

هذا، وقد كان خالد بن الوليد من نجوم قيادات الفتوح.

وفي **الإصابة** ـ في ترجمة خالد بن الوليد ـ: قال عمر لأبي بكر: اكتب إلىٰ خالد لا يعطي شيئاً إلّا بأمرك. فكتب إليه بذلك، فأجابه خالد: إمّا أن تدعني وعملي وإلّا فشأنك بعملك. فأشار عليه عمر بعزله، فقال أبو بكر: فمن يجزي عنّي جزاء خالد. قال عمر: أنا. فتجهّز عمر...

إلىٰ أن قال ـ بعد ثني أبي بكر لعمر عن الخروج ـ: فلمّا قبل عمر كتب إلىٰ خالد: أن لا تعطي شاة ولا بعيراً إلّا بأمري. فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلىٰ أبي بكر، فقال عمر: ما صدقت الله إن كنت أشرت علىٰ أبي بكر بأمر فلم أُنفّذه. فعزله، ثمّ كان يدعوه إلىٰ أن يعمل فيأبىٰ إلّا أن يخلّيه يفعل ما شاء فيأبىٰ عمر، قال مالك: وكان عمر يشبه خالداً[٢].

وعن عبد الرحمٰن بن عوف، قال: إنّه دخل علىٰ أبي بكر في مرضه الذي توفّي فيه فأصابه مهتمّاً... فقال أبو بكر: إنّي ولّيت أمركم خيركم في نفسي، فكلّكم ورم أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولمّا تقبل وهي مقبلة حتّىٰ تتّخذوا ستور الحرير، ونضائد

---

(١) لاحظ: تاريخ الخميس ٣/٣٤٣، وتاريخ الطبري ٣/٢٥٤.

(٢) الإصابة ١/٤١٥.

الديباج، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذري كما يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان، والله لأن يُقدّم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدّ خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا، وأنتم أوّل ضالّ بالناس غداً فتصدّونهم عن الطريق يميناً وشمالاً، يا هادي الطريق! إنّما هو الفجر أو البحر(١).

وروى البخاري في **صحيحه**، عن هند بنت الحارث: إنّ أمّ سلمة زوج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة فزعاً يقول: سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن؟! وماذا أنزل من الفتن؟! من يوقظ صواحب الحجرات ـ يريد أزواجه ـ لكي يصلّين؟! ربّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة(٢)..

قال ابن حجر في **فتح الباري** في شرح الحديث: وفي رواية سفيان: ماذا أنزل الليلة من الفتن؟! وماذا فتح من الخزائن؟! قال ابن بطال في هذا الحديث: إنّ الفتوح في الخزائن تنشأ عنه فتنة المال بأن يتنافس فيه القتال بسببه، وأن يبخل به فيمنع الحقّ أو يبطر صاحبه فيسرف، فأراد صلى الله عليه وآله وسلم تحذير أزواجه من ذلك كلّه، وكذا غيرهنّ ممّن بلغه ذلك.

وقال ابن حجر في شرح «ربّ كاسية...»: واللفظة وإن وردت في أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لكنّ العبرة بعموم اللفظ؛ كاسية للشرف في الدنيا لكونها أهل التشريف وعارية يوم القيامة.

كما قد أُشير في أحاديث نبويّة أُخرى إلى هذه الأوضاع، نظير ما رواه البخاري ومسلم في كتاب الفتن عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّكم سترون بعدي أثرة

---

(١) لاحظ: الأموال ـ لأبي عبيد ـ: ١٣١، تاريخ الطبري ٤/٥٢، الإمامة والسياسة ـ لابن قتيبة ـ ١/١٨، مروج الذهب ١/٤١٤، العقد الفريد ٢/٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري ٩/٨٨ ح ١٨ كتاب الفتن ب ٦.

وأموراً تنكرونها»[١].

ثمّ إنّ هذا غيض مـن فـيض ، ولو أراد البـاحث اسـتقصاء حـوادث الفتوحات والممارسات التي حدثت ، لتوفّر لديه مجلّداً ضخماً في ذلك ، إن لم يكن مجلّـدات .

● **الثالثة** : إنّ الأجواء السائدة لدىٰ المسلمين في عهود الفـتوحات الأُولىٰ ، وما كان لديهم من حماس ديني ملتهب ، ومن قوّة نظر وإشراف في مراقبة الحكم والحاكم ، بجانب عوامل أُخرىٰ ـ نتعرّض لها كلّها ـ من إعداد وصنع رسول الله ﷺ ، كانت سبب النصر والظفر والفتوحات .

وبعبارة أُخرىٰ : الخطّة المرسومة من القرآن الكريم والرسول ﷺ للمسلمين ولوظيفة الحكم من بعده ، سواء علىٰ صعيد التـقنين ، أو عـلىٰ صعيد البناء الروحي للمسلمين ، أو علىٰ صـعيد البـناء العسكـري والقـوّة الضاربة ، أو علىٰ صعيد الوحدة الاجتماعية المترابطة ، أو علىٰ صعيد بناء الدولة وأجهزة الحكم ؛ كانت تملي القيام بالجهاد وفتح البلدان .

هذا كلّه بالإضافة إلىٰ البريق النيّر الذي أوجده رسول الله ﷺ عن الدين الإسلامي في أسماع الملل والأقوام المختلفة ، من العـدالة وكـرائـم الخلق في القانون والتنفيذ ، ونشـدة الحقّ والنصفة . .

فإنّ نظرة تحليلية في الأُصول الاجتماعية والسياسية والقانونية التـي كانت العرب تعيشها قبل البعثة النبويّة الشريفة مقارنة بـالنظام الاجـتماعي والسياسي والروحي والقانوني الذي بناه وأسّـسه رسول الله ﷺ ، هـذه النظرة والمقارنة كفيلة لفهم أنّ القيادة في الفتوحات بعد رسول الله ﷺ لم تكن تلعب ذلك الدور الخطير المؤثّر في الوصول إلىٰ نتائج الفتوحات ،

---

(١) صحيح البخاري ٩ / ٨٤ ح ٤ كتاب الفتن ب ٢ .

سواء القيادة السياسية ، أو القيادة العسكرية .

ويستطيع القارئ أن يلمس ذلك من بعض النصوص التاريخية أو الروائية التي ذكرناها آنفاً ، فضلاً عمّا لو تتبّع واستقصىٰ ذلك بنفسه من خلال كتب السير والتاريخ والحديث ؛ فإنّ سرّ الفوز بتلك النتائج يكمن في عظمة النظام الذي بنىٰ صرحه النبيّ ﷺ علىٰ الأصعدة المختلفة .

وقد أشار إلىٰ ذلك عدّة من الباحثين في حقل العلوم الإسلاميّة أو العلوم الإنسانية ، ولنضرب الأمثلة لنماذج تلك العوامل المزبورة :

* **فأمّا** رقابة المسلمين الشديدة علىٰ الحكم والحاكم ، التي ربّاهم عليها رسول الله ﷺ ، ومحاسبتهم لكلّ صغيرة وكبيرة ، وأنّ الظروف المحيطة بالحاكم والحكم ما كانت تسمح له بتغيير كلّ معالم النظام السياسي والاجتماعي والمعنوي الذي شيّده رسول الله ﷺ ؛ فمن أمثلة ذلك :

قول عمر بن الخطّاب لابن عبّاس : لو وليها عثمان لحمل بني أبي معيط علىٰ رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه[1] .

وفي نقل آخر عنه : لو ولّيتها عثمان لحمل آل أبي معيط علىٰ رقاب الناس ، والله لو فعلت لفعل ، ولو فعل لأوشكوا أن يسيروا إليه حتّىٰ يجزّوا رأسه[2] . .

وهذا ما حدث ؛ إذ ثار المسلمون علىٰ عثمان وقتلوه ، بسبب الإثرة في السلطة وفي المال وفي مقدّرات المسلمين التي خصّصها بذويه وعشيرته وبني أُميّة .

وهذه القوّة لرقابة الناس التي يصوّرها عمر في العقد الثالث الهجري

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ١٦ .

(٢) ذكره القاضي أبو يوسف في الآثار : ٢١٧ .

فكيف هي في العقد الثاني، وفي أوائل العهد الذي تلا العهد النبوي ؟!

وقول عليّ عليه السلام لعثمان؛ وقد كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلّىٰ به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك، وكلّموه فيه بكلام شديد حتّىٰ أغضبوه فقال: هذا مال الله، أعطيه من شئت وأمنعه من شئت، فأرغم الله أنف من رغم..

وفي لفظ آخر: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام.

فقال له عليّ عليه السلام: إذاً تُمنع من ذلك ويُحال بينك وبينه[1].

وقد صعد عمر المنبر يوماً وقال: لو صرفناكم عمّا تعرفون إلىٰ ما تنكرون ما كنتم ؟

فأجابه عليّ عليه السلام: إذاً كنّا نستتيبك، فإن تبت قبلناك.

فقال: وإنْ لم ؟

قال: نضرب عنقك الذي فيه عيناك.

فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في هذه الأُمّة من إذا اعوججنا أقام أَودنا[2].

والحاصل: إنّ أمثلة هذا العامل كثيرة جدّاً يجدها الباحث بمجرّد رجوعه إلىٰ ذاكرته في أحداث العقود الهجرية الأُولىٰ التي تلت العهد النبوي الأوّل.

نعم، ليس المراد من وجود هذا العامل أنّه لم تكن للتكتّلات السياسية في صفوف الصحابة ـ من المهاجرين والأنصار، وآئتلاف

(١) أنساب الأشراف ٦ / ١٦١.

(٢) مناقب الإمام عليّ عليه السلام ـ للخوارزمي ـ: ٩٨ ح ١٠٠.

السقيفة، والبيت الهاشمي وأنصاره ـ أيّ دور، إمّا في تغيير وتبديل الخطّة المرسومة من قبل رسول الله ﷺ، وإمّا في المحافظة علىٰ بقائها؛ إذ الأُمور نسبية، وإنّما الغرض بيان الجانب الغالب.

* **وأمّا** تعيين وظيفة المسلمين والدولة من قبل النبيّ ﷺ بشأن الفتوحات؛ فقد كان إخبار النبيّ ﷺ بفتح المسلمين لفارس والروم وسقوط ملك كسرىٰ وقيصر علىٰ أيديهم، إخباراً ملأ آذان المسلمين في مواقع عديدة أنبأ فيها بذلك، كما في حفر الخندق في غزوة الأحزاب[1] وغيره، وقد كان وعداً قطعياً منه ﷺ بذلك للمسلمين، وهذا الوعد الصادق استيقن به المسلمون، كما رأوا صدق الوعود منه ﷺ من قبل، وكان هذا باعثاً للأمل ولقوّة الروح فيهم التي لا تستجيب لليأس أو الخوف.

كما إنّ تعيين القرآن الكريم والنبيّ الأمين ﷺ هذه الوظيفة للمسلمين كان بياناً لمشروعية الجهاد في نفسه لدىٰ العديد ممّن لم يرَ مشروعية لِما نتج عن بيعة السقيفة.

ولقد كان في أمره ﷺ ـ في أيّامه الأخيرة ـ بتجهيز جيش أُسامة، وحثّه علىٰ إنفاذه، ولعنه من تخلّف عنه، دلالة علىٰ مدىٰ العناية الشديدة التي كان يوليها ﷺ لأمر الجهاد.

* **وأما** روح الفداء وطلب الشهادة والتضحية، والتعطّش لدرجات الآخرة والرضوان؛ فقد كانت ما تزال ملتهبة بفضل أنوار النبوّة وقرب العهد من الوحي، ومشاهد النبيّ ﷺ الحيّة في أذهانهم، ووقائع الغزوات الكبرىٰ في الإسلام، التي خلّدت أسماء نجوم الشهادة، فلم تكن هناك

---

(١) أنظر: تاريخ الطبري ٢ / ٩٢.

تعبئة من القيادة السياسية أو العسكرية للجهاد بقدر ما كانت محاولة تدبير للحالة الاندفاعية الموجودة والحماس الملتهب.

● **الرابعة**: سبب إخفاق الفتوح عن الوصول إلىٰ الوعود الإلٰهيّة؛ فإنّ المحاولة في التدبير هي التي أضفت لوناً علىٰ الجهاد والفتوح، وغيّرت من خلق وغايات هذا الباب، وساهمت في تقليل حيوية عوامله ومعدّاته، علىٰ نحو تدريجي، بسبب الممارسات التي ارتكبت، سواء بالإضافة إلىٰ البلدان المفتوحة وأهاليها، أو بالإضافة إلىٰ الرموز الخاصّة من القيادات العسكرية وغيرها، ممّن كانت تربطه بالسلطة علائق معينة، وسواء علىٰ صعيد المال أو الأعراض أو النفوس..

مضافاً إلىٰ إنّ الانفتاح علىٰ الأقوام الأُخرىٰ كان يتطلّب كفالة شرعية من مختلف الجوانب الروحية والعلمية والتربوية والقانونية والسياسية، وغيرها من الجوانب التي لم تكن القيادة المركزية مؤهّلة لتلك المهمّة في ظلّ التحديد والحصار لدور الإمام عليّ عليه‌السلام، حامل علم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، والقيّم الثاني المبيّن للدين، والوزير لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في تأسيس الدعوة وتشييدها حتّىٰ آخر لحظات حياة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم..

بسبب كلّ هذا لم يُكتب للوعد الإلٰهي في قوله تعالىٰ: ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليظهره علىٰ الدين كلّه ولو كره المشركون** ﴾[1]، الذي تكرّر في ثلاث سور ـ وغيره من الوعود الإلٰهيّة، كقوله تعالىٰ: ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذِكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾[2]، ووعده تعالىٰ في قوله: ﴿ **ونريد أن نمنّ علىٰ**

(١) سورة التوبة ٩ : ٣٢، وسورة الفتح ٤٨ : ٢٨، وسورة الصفّ ٦١ : ٩.

(٢) سورة الأنبياء ٢١ : ١٠٥.

الّذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين ﴾[١]، وقوله سبحانه: **﴿ أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾**[٢] ـ التحقّق في العاجل.

● **الخامسة**: الاهتراء الداخلي الذي بدأ عدّه العكسي وأخذ يدبّ في جسد الأُمّة ووحدة المسلمين؛ وقد حذّر منه النبيّ ﷺ في طوائف من الحديث، نظير قوله ﷺ عندما أشرف علىٰ أطم من آطام المدينة: «هل ترون ما أرىٰ ؟!».

قالوا: لا.

قال: «فإنّي لأرىٰ الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»[٣].

وقوله ﷺ عندما استيقظ من النوم محمرّاً وجهه: «لا إله إلّا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب»[٤].

وقوله ﷺ: «هلكة أُمّتي علىٰ يدي غِلمة من قريش» فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة؛ رواه البخاري، عن ابن سعيد، عن جدّه، وقال: فكنت أخرج مع جدّي إلىٰ بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسىٰ أن يكونوا منهم[٥]..

وقال ابن حجر في **فتح الباري** ـ بعد نقل الحديث؛ إذ ذكر البخاري تتمّة له من لعن مروان لأُولئك الغلمة ـ: تنبيه: يتعجّب من لعن مروان

---

(١) سورة القصص ٢٨ : ٥.

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٦٢.

(٣) صحيح البخاري ٩/٨٦ ح ١١ كتاب الفتن ب ٤، ورواه مسلم أيضاً في صحيحه ٨/١٦٨.

(٤) صحيح البخاري ٩/٨٦ ح ١٠ كتاب الفتن ب ٤.

(٥) صحيح البخاري ٩/٨٥ ح ٩ كتاب الفتن ب ٣.

الغلمة المذكورين مع إنّ الظاهر أنّهم من وُلده ، فكأنّ الله تعالىٰ أجرىٰ ذلك علىٰ لسانه ليكون أشدّ في الحجّة عليهم لعلّهم يتّعظون ، وقد وردت أحاديث في لعن الحكم والد مروان وما ولد ، أخرجها الطبراني[١].

وقد رواه مسلم في **صحيحه**، عنه ﷺ ، قال : «يهلك أُمّتي هذا الحيّ من قريش».

قالوا : فماذا تأمرنا ؟

قال : «لو أنّ الناس اعتزلوهم»[٢].

قال النووي ـ في شرحه بعد مطابقته بين الروايتين ـ : إنّ المراد برواية مسلم طائفة من قريش ، وهذا الحديث من المعجزات ، وقد وقع ما أخبره ﷺ[٣].

وقد تقدّم أنّ أبا بكر ابتدأ بتولية ابن أبي سفيان ، وقد أمن بذلك من مواجهة أبي سفيان لتنصيبه في السقيفة .

وقوله ﷺ : «أنا فرطكم علىٰ الحوض ، ليُرفعنّ إليّ رجال منكم حتّىٰ إذا أهويت لأُناولهم اختُلجوا دوني ، فأقول : أيْ ربّ أصحابي ، فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك»[٤].

وقوله ﷺ : «أنا فرطكم علىٰ الحوض ، من ورده شرب منه ، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ، ليردنّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثمّ يحال بيني وبينهم ، أقول : إنّهم منّي ، فيقال : إنّك لا تدري ما بدّلوا بعدك ،

---

(١) فتح الباري ١٣ / ١٣ ذ ح ٧٠٥٨ .

(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٨٦ كتاب الفتن .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٣٥ ح ٢٩١٧ .

(٤) صحيح البخاري ٩ / ٨٣ ح ٢ كتاب الفتن ب ١ .

فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي»[١].

قال ابن حجر في **فتح الباري**: إنْ كانوا ممّن لم يرتدّ لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال البدن أو بدعة من اعتقاد القلب؛ فقد أجاب بعضهم بأنّه يحتمل أن يكون أعرض عنهم ولم يشفع لهم اتّباعاً لأمر الله فيهم حتّىٰ يعاقبهم علىٰ جنايتهم، ولا مانع من دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكبائر من أُمّته فيخرجون عند إخراج الموحّدين من النار، والله أعلم[٢].

وقد تواصل هذا الاهتراء في نظام الحكم إلىٰ أن وصل إلىٰ الحالة التي أشرنا إليها في عهد عثمان، فقد أعطىٰ عبدالله بن سعد بن أبي سرح ـ أخاه من الرضاعة ـ الخمس من غنائم إفريقية في غزوها الأوّل[٣].

قال البلاذري في **الأنساب**: لمّا قدم الوليد ـ ابن عقبة بن أبي معيط ابن أبي عمرو بن أُميّة، الذي نزلت فيه آية: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبإٍ**﴾[٤] ـ الكوفة ألفىٰ ابن مسعود علىٰ بيت المال، فاستقرضه مالاً، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثمّ تردّ ما تأخذ، فأقرضه عبدالله ما سأله، ثمّ إنّه اقتضاه إيّاه، فكتب الوليد في ذلك إلىٰ عثمان، فكتب عثمان إلىٰ عبدالله بن مسعود: إنّما أنت خازن لنا، فلا تعرض للوليد في ما أخذ من المال..

فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظنّ أنّي خازن للمسلمين، فأمّا إذ كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك. وأقام بالكوفة بعد إلقائه

---

(١) صحيح البخاري ٩/٨٣ ح ٣ كتاب الفتن ب ١.

(٢) فتح الباري ١٣/٥ ذح ٧٠٥٠ و ٧٠٥١.

(٣) تاريخ ابن كثير ٧/١٥٢، أنساب الأشراف ٥/٢٦، شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ـ ١/٦٧.

(٤) سورة الحجرات ٤٩: ٦.

مفاتيح بيت المال[١].

حتّىٰ آل الأمر إلىٰ ليالي بني أُميّة وبني العبّاس ونظام حكمهم، وعن السيّدة عائشة: إنّ الخلافة سلطان الله يؤتيه البرّ والفاجر[٢].

وروىٰ البخاري، عن أيّوب، عن نافع، قال: لمّا خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إنّي سمعت النبيّ ﷺ يقول: ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة، وإنّا قد بايعنا هذا الرجل علىٰ بيع الله ورسوله، وإنّي لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل علىٰ بيع الله ورسوله ثمّ ينصب له القتال، وإنّي لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلّا كانت الفيصل بيني وبينه[٣].

وقد قتل يزيد في العام الأوّل من خلافته سبط الرسول ﷺ..

وفي العام الثاني استباح المدينة المنوّرة وأهلها ونساءها..

وفي العام الثالث رجم الكعبة..

بل إنّه أمر بأخذ البيعة من أهل المدينة علىٰ أنّهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم بما شاء؛ مع إنّ البخاري روىٰ في **صحيحه**، عن ابن عمر، عن النبيّ ﷺ، قال: «السمع والطاعة علىٰ المرء المسلم في ما أحبّ أو كره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة...»[٤].

---

(١) أنساب الأشراف ٥/ ٣٠، ولاحظ: العقد الفريد ٢/ ٢٧٢؛ وغيرها من الأرقام التي سطّرتها الكتب والسير من هذا القبيل.

(٢) الدرّ المنثور ٦/ ١٩.

(٣) صحيح البخاري ٩/ ١٠٣ ح ٥٥ كتاب الفتن ب ٢١.

(٤) صحيح البخاري ٩/ ١١٣ ح ٨ كتاب الأحكام / باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية / باب ٤.

● **السادسة** : من كلّ ما سبق يتّضح جليّاً سرّ تركيز عليّ عليه السلام في عهده الذي تسلّم فيه مقاليد الأُمور على إصلاح الداخل والبناء الذاتي ؛ إذ كيف يدعو الآخرين من الملل الأُخرى إلى الدين ، وأبناء الدين الإسلامي أنفسهم لا يعملون به ؟! وعطّلوه ومحوا رسومه التي كانت على عهد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنطق القرآن : **﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾**(١) ..

و **﴿ أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾**(٢) ..

وقال تعالى : **﴿ واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا أنّ الله شديد العقاب * واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطيّبات لعلّكم تشكرون * يا أيّها الّذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عنده أجرٌ عظيمٌ ﴾**(٣) .

وذكر ابن حجر في **فتح الباري** في شرح كتاب الفتن ، الذي صدّره البخاري بالآية ، قال : أخرج الطبري من طريق الحسن البصري ، قال : قال الزبير : لقد خُوّفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما ظننّا أنّا خُصصنا بها ..

وقال : عند الطبري من طريق علي بن أبي طلحة ، عن ابن عبّاس ،

---

(١) سورة الصفّ ٦١ : ٢ و ٣ .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٤٤ .

(٣) سورة الأنفال ٨ : ٢٥ ـ ٢٨ .

قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمّهم العذاب.

ولهذا الأثر شاهد من حديث عديّ بن عميرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يعذّب العامّة بعمل الخاصّة حتّىٰ يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون علىٰ أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصّة والعامّة»[1].

فإذا لم يحكم العدل في ما بين المسلمين فكيف يطالب غيرهم به؟!

وقد روي ـ ما مضمونه ـ: إنّ قائلاً قال للإمام السجّاد عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام: أتركت الجهاد في الثغور وخشونته وأقبلت علىٰ الحجّ ونعومته؟! وقد قال تعالىٰ: **﴿إنّ الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفىٰ بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾**[2].. الآية.

فقال له زين العابدين عليه السلام: «أكمل الآية».

فقال: **﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين﴾**[3].

فقال له زين العابدين عليه السلام: «إذا وجدتُ مَن هم بهذا الوصف فنحن نجاهد معهم»..

ويا له من شرط صعب! الحفظ لحدود الله!

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤ ح ٧٠٤٨.
(٢) سورة التوبة ٩: ١١١.
(٣) سورة التوبة ٩: ١١٢.

ولقد خطب الإمام عليّ عليه السلام في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة، فقال: «ألا إنّ كلّ قطيعة أقطعها عثمان، وكلّ مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال؛ فإنّ الحقّ القديم لا يبطله شيء، ولو وجدته قد تزوّج به النساء، وفرّق في البلدان، لرددته إلىٰ حاله، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عنه الحقّ فالجور عنه أضيق»(١).

فسيف عليّ عليه السلام الذي أُقيم به صرح الإسلام، وشُيّد به دعائم الدولة الإسلاميّة، عاد مرّة أُخرىٰ لإزالة الأود والعوج الذي حصل في نظام المسلمين السياسي والاجتماعي، وبناء النموذج الداخلي المثالي للدعوة إلىٰ الإسلام.

بل إنّ عليّاً عليه السلام أقام ـ قبل تسلّمه مقاليد الأُمور ـ مرابطاً في الخندق العلمي لوجه الدين الإسلامي، أمام تحدّيات المسائل الحرجة التي ابتليت بها الأُمّة ولم يكن لها من يطّلع علىٰ حكم الشريعة فيها، وقد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من الموارد لذلك، وكذا أمام تحدّي الملل والنحل الأُخرىٰ(٢).

● **السابعة**: وننتهي في الفتوحات إلىٰ هذه النقطة: وهي أنّ عقدة الملل الأُخرىٰ ـ لا سيّما الغربيّين ـ النفسية والذهنية تجاه الدين الإسلامي، وعدم إقبالهم عليه، وعدم البحث عن حلّ لمشاكلهم من منظار ديننا ـ وإن كان له أسباب متعدّدة صاغها أعداء الإسلام والمسلمين ـ مضافاً إلىٰ النفسية العدوانية، والعقلية الاستعلائية التي تصعّر بخدّهم؛ إلّا إنّ شطراً مهمّاً من

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ـ ١ / ٩٠، السيرة الحلبية ٢ / ٨٧.

(٢) لاحظ: ما أخرجه الحافظ العاصمي في كتابه: زين الفتىٰ في شرح سورة ﴿هل أتىٰ﴾، في وفد النصارىٰ وأسئلتهم لأبي بكر، وغير ذلك من الوقائع.

تلك الأسباب هي ممارسات المسلمين أنفسهم، وبالخصوص والتحديد هي رواسب الممارسات التي وقعت في فتوحات البلدان..

فإنّ سلبيّات كيفية الأداء في هذه الفتوحات وما رافقها من تجاوز للموازين الدينية المقرّرة، التي تحافظ على روح خُلق الشريعة، فإنّ الحفظ لحدود الله تعالىٰ في باب الجهاد وغيره هو الكفيل الأمثل لدخول الناس أفواجاً في دين الله تعالىٰ، والموجب لتحقّق الوعد الإلٰهي ـ الذي تأخّر إلىٰ هذا اليوم ـ بإظهار الإسلام في كافّة أرجاء المعمورة.

ونلخّص ما تقدّم في الحلقات السابقة من هذا الموضوع بجملة مختصرة، وهي: إنّ البحث عن «عدالة الصحابة» لا بُدّ من التعمّق فيه، ورفع الإجمال الذي يكتنفه..

هل المراد به: كلّ الصحابة، أم بعضهم؟!

ومن هم أُولئك البعض؟! هل هم تكتّل بيعة السقيفة ورموزها، أم يشمل سعد بن عبادة والأنصار والبيت الهاشمي وعليّاً عليه السلام وسلمان وأبا ذرّ والمقداد وعمّاراً، وغيرهم ممّن كان في تكتّل عليّ عليه السلام؟!

فهل الدائرة هي بحسب ما يُذكر في تعريف الصحابي، أم أضيق؟!

ثمّ ما المراد بالعدالة؟! هل هي بمعنىٰ الإمامة في الدين؟!

وما المراد بحجّية قول وعمل الصحابي؟! هل هي بمعنىٰ العصمة؟! أم بمعنىٰ حجّية الفتوىٰ كمجتهدين، مثل بقية المجتهدين، بحدود اعتبار الاجتهاد وضوابط موازينه الشرعية؟!

وعلىٰ هذا، فلِمَ لا يحتمل القائل خطأ أصحاب السقيفة في بيعتهم، وخطأ اجتهادهم مع وجود النصّين القرآني والنبوي علىٰ إمامة عليّ عليه السلام؟!

ولِمَ يدّعي القائل امتناع احتمال ذلك؟!

وكيف يبيّن الملازمة بين فضيلة الشيخين، وبين امتناع خطأ اجتهادهما، بعد فرض تسليمه بعدم عصمتهما؟!

وإذا كانت المسألة اجتهاديّة فلم لا يسوّغ الاجتهاد المخالف؟!

أم هي بمعنىٰ حجّية روايتهم كرواة ثقات، بحدود حجّيّة قول الراوي في الخبر؟!

ثمّ ما هو الغرض المترتّب علىٰ سدّ الحديث والكلام عمّا وقع منهم وبينهم؟!

وكيف يتلاءم ذلك مع دعوىٰ الاقتداء بهم، إذا لم تعرف سيرتهم وأعمالهم؟!

ونذيّل المقال ببعض الأحاديث التي ذكرها أصحاب الصحاح:

١ ـ روىٰ البخاري في **صحيحه**، عن أبي وائل، عن حذيفة بن اليمان، قال: إنّ المنافقين اليوم شرّ منهم علىٰ عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا يومئذ يسرّون واليوم يجهرون[١].

وهو مثار سؤال واجه كثيراً من الباحثين في التاريخ الإسلامي؛ إذ أنّ القرآن الكريم في سوره المباركة أشار إلىٰ مشكلة كبيرة وخطيرة كانت قائمة تواجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وهي أصناف وطوائف المنافقين، وقد أشرنا في ما سبق إلىٰ بعض تلك السور الكريمة، ولا يفتأ القرآن يتابعهم في كلّ خطواتهم، التي كانت خطيرة علىٰ أوضاع المسلمين حتّىٰ آخر حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم..

ولكن فجأة لا يرىٰ الباحث في التاريخ وجوداً لهذه المشكلة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم! فهل إنّ أفراد طوائف ومجموعات النفاق قد تابوا

---

(١) صحيح البخاري ٩/١٠٤ ح ٥٦ كتاب الفتن ب ٢١.

وآمنوا بعد وفاة النبيّ ﷺ ؟! أم إنّ الوضع ـ كما يصفه حذيفة بن اليمان ، الخبير بمعرفة المنافقين ، كما في روايات الفريقين ، والذي شهد مؤامرة العقبة التي دُبّرت في غزوة «تبوك» لاغتيال رسول الله ﷺ ـ عاد مؤاتياً لتحرّكهم وفسح المجال لهم بالجهر بمقاصدهم التي يحيكونها ضدّ الإسلام ؟!

٢ ـ وروىٰ أيضاً ، عن أبي الشعثاء ، عن حذيفة ، قال : إنّما كان النفاق علىٰ عهد النبيّ ﷺ ، فأمّا اليوم فإنّما هو الكفر بعد الإيمان[١] .

٣ ـ وروىٰ مسلم في **صحيحه** ، عن قيس ، قال : قلت لعمّار : أرأيتم صنيعكم هذا الذي صنعتم في أمر عليٍّ ، أرأياً رأيتموه ، أو شيئاً عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟!

فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلىٰ الناس كافّة ، ولكنّ حذيفة أخبرني ، عن النبيّ ﷺ ، قال : قال النبيّ ﷺ : في أصحابي اثنا عشر منافقاً ، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتّىٰ يلج الجمل في سمّ الخياط ، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة ؛ وأربعة لم أحفظ ما قال شعبة فيهم .

والذيل من قول الراوي عن شعبة ، عن قتادة ، عن أبي نضرة ، عن قيس[٢] .

وروىٰ مثله بطريق آخر[٣] .

وما قاله عمّار بيّن ؛ لأنّ تنصيب النبيّ ﷺ لعليّ عليه السلام يوم الغدير

---

(١) صحيح البخاري ٩ / ١٠٤ ح ٥٨ كتاب الفتن ب ٢١ .
(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٢٢ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .
(٣) صحيح مسلم ٨ / ١٢٢ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم .

كان على ملأ الناس الراجعين من حجّة الوداع، وغيرها من المواطن الأُخرى، وإنّما أراد عمّار بيان أنّ مناوئي عليّ عليه السلام وخصومه كان حذيفة قد عدّهم من الاثني عشر منافقاً الّذين يمتنع دخولهم الجنّة.

٤ ـ وروى بعد الحديثين السابقين، عن أبي الطفيل، قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أُنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك!

قال: كنّا نخبر أنّهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أنّ اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[١].. الحديث.

٥ ـ وروى مسلم، عن ابن عمر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام عند باب حفصة، فقال بيده نحو المشرق: «الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان» قالها مرّتين أو ثلاثاً[٢].

وقال عبيدالله بن سعيد في روايته: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند باب عائشة[٣]..

وروى عن ابن عمر، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بيت عائشة فقال: رأس الكفر من ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان. يعني المشرق. والذيل من تفسير الراوي[٤].

٦ ـ وروى أيضاً، عن أبي سعيد الخدري، قال: أخبرني من هو خير

---

(١) صحيح مسلم ٨/١٢٣ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.
(٢) صحيح مسلم ٨/١٨١ كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٣) صحيح مسلم ٨/١٨١ كتاب الفتن وأشراط الساعة.
(٤) صحيح مسلم ٨/١٨١ كتاب الفتن وأشراط الساعة.

منّي ، إنّ رسول الله ﷺ قال لعمّار حين جعل يحفر الخندق وجعل يمسح رأسه ويقول : بؤس ابن سميّة ، تقتلك فئة باغية . وفي طريق : ويس أو : يا ويس ابن سميّة[١] . .

قال النووي في شرح الحديث : قال العلماء : هذا الحديث حجّة ظاهرة في أنّ عليّاً ﷺ كان محقّاً مصيباً ، والطائفة الأُخرىٰ بغاة ، لكنّهم مجتهدون فلا إثم عليهم لذلك ، كما قدّمناه في مواضع ، منها هذا الباب . .

وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه ، منها :

إنّ عمّاراً يموت قتيلاً ، وإنّه يقتله مسلمون ، وإنّهم بغاة ، وإنّ الصحابة يقاتلون ، وإنّهم يكونون فرقتين : باغية وغيرها ، وكلّ هذا وقع مثل فلق الصبح ، صلّىٰ الله وسلّم علىٰ رسوله الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلّا وحي يوحىٰ[٢] .

ورویٰ بطرق أربعة أُخرىٰ ما يقرب من ألفاظ هذا الحديث من أنّ عمّاراً تقتله الفئة الباغية[٣] .

هـذا ، وإذا كان النووي يجوّز خطأ اجتهاد معاوية لوجود النصّ علىٰ حقّ وصواب عليّ عليه السلام ، فلِمَ لا يجوّز النووي وأهل الجماعة خطأ اجتهاد الشيخين مع وجود النصّ علىٰ عليّ عليه السلام ؟ !

فإذا كان الاجتهاد ممكن مع وجود النصّ ، ويمكن تأوّل المجتهد للنصّ ، فلِمَ لا يمكن خطأ المجتهد في تأوّله ؟ !

---

(١) صحيح مسلم ٨ / ١٨٥ ـ ١٨٦ كتاب الفتن وأشراط الساعة .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٣٤ ح ٢٩١٦ .

(٣) صحيح مسلم ٨ / ١٨٥ ـ ١٨٦ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٣٣ ـ ٣٤ ح ٢٩١٥ و ٢٩١٦ .

ولِمَ يمتنع خطأ اجتهاد أصحاب السقيفة في تأوّلهم للنصّ على عليّ عليه السلام ؟!

ولِمَ لا يسوّغ أهل الجماعة لأنفسهم الاجتهاد في صحّة أو خطأ بيعة السقيفة، ويفتحوا باب الاجتهاد في ذلك ما دامت أنّ المسألة اجتهادية ؟!

فكيف يدّعون فيها الضرورة أو التسالم ويغلقون باب الاجتهاد والفحص والتحرّي عن الحقيقة ؟!

٧ ـ وروىٰ أيضاً، عن أبي إدريس الخولاني، كان يقول حذيفة بن اليمان: والله إنّي لأعلم الناس بكلّ فتنة هي كائنة في ما بيني وبين الساعة وما بي إلّا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسرّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدّثه غيري، ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو يحدّث مجلساً أنا فيه عن الفتن[1].. الحديث.

وروىٰ أيضاً، عن عبدالله بن يزيد، عن حذيفة، أنّه قال: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما هو كائن إلىٰ أن تقوم الساعة، فما منه شيء إلّا وقد سألته، إلّا أنّي لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة[2].

٨ ـ ورووا في الصحاح، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «بينا أنا قائم ـ يعني يوم القيامة على الحوض ـ إذا زمرة، حتّىٰ إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلمّ.

فقلت: أين ؟!

فقال: إلىٰ النار والله.

قلت: وما شأنهم ؟!

---

(١) صحيح مسلم ٨ / ١٧٢ كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) صحيح مسلم ٨ / ١٧٢ كتاب الفتن وأشراط الساعة.

قال: إنّهم ارتدّوا بعدك علىٰ أدبارهم القهقرىٰ ـ إلىٰ أن قال: ـ فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم»[١].. الحديث.

وهو يطابق قوله تعالىٰ: ﴿ **وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[٢].

ومفاد الآية ملحمة قرآنية عمّا بعد حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ إنّ القائلين بعدالة الصحابة ما داموا لا يرون في تفسير فضيلة الشيخين معنىٰ العصمة، فلِمَ يدّعون الملازمة بين اجتهادهما في أمر الخلافة وبين الصواب، وأنّ تخطئتهما في ما اجتهدا فيه مخالفة لضرورة الدين أو للمتسالم عندهم؟!

أليست دعوىٰ ضرورة صوابهما هي تثبيت عصمتهما؟!

أَوَليس امتناع الخطأ منهما ينافي القول بأنّ ما أتيا به هو اجتهاد منهما؟!

كما إنّه ما هو المحصّل من وراء الفضيلة لهما؟!

هل بمعنىٰ امتناع خطئهما، وأنّ ما أتيا به لا يمكن أن يُخطئ الواقع؛ فبتوسّط تلك الفضيلة لم يكن ما يريانه اجتهاد، وإنّما هو عين اللوح المحفوظ؟!!

كلّ هذه الجهات يراها الناظر مدمجة عند القائلين بالمقالة المزبورة!



---

(١) صحيح البخاري ٨/٢١٧ ح ١٦٦ كتاب الرقاق باب الحوض.

(٢) سورة آل عمران ٣: ١٤٤.

موقف الصدّيقة فاطمة عليها السلام
تجاه الصحبة والصحابة

فقد روي عن المفضّل بن عمر، قال: «قال مولاي جعفر الصادق عليه السلام: لمّا وَلي أبو بكر بن أبي قحافة...

ثمّ سرد عليه السلام منعه فاطمة وعليّ وأهل بيته الخمس والفيء وفدكاً، ومجيء فاطمة لمحاجّة أبي بكر بقوله تعالىٰ: ﴿**فآتِ ذا القربىٰ حقّه**﴾[١] وأنّها ووُلدها أقرب الخلائق إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبقوله تعالىٰ: ﴿**وآعلموا أنّما غنمتم من شيءٍ فأنّ لله خُمُسَهُ وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وآبن السبيل**﴾[٢] وقوله تعالىٰ: ﴿**ما أفاء الله علىٰ رسوله من أهل القرىٰ فللّه وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وآبن السبيل كي لا يكون دُولة بين الأغنياء**﴾[٣] وأنّ ما لله فهو لرسوله، وما لرسوله فهو لذي القربىٰ، وأنّها وعليّ ووُلدهما ذوو القربىٰ الّذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ**﴾[٤]..

فنظر أبو بكر بن أبي قحافة إلىٰ عمر بن الخطّاب وقال: ما تقول؟

فقال عمر: ومَن اليتامىٰ والمساكين وأبناء السبيل؟!

قالت فاطمة عليها السلام: اليتامىٰ الّذين يأتمّون بالله وبرسوله وبذي القربىٰ،

---

(١) سورة الروم ٣٠: ٣٨.

(٢) سورة الأنفال ٨: ٤١.

(٣) سورة الحشر ٥٩: ٧.

(٤) سورة الشورىٰ ٤٢: ٢٣.

والمساكين الّذين أُسكنوا معهم في الدنيا والآخرة، وآبن السبيل الذي يسلك مسلكهم.

قال عمر: فإذاً الخمس والفيء كلّه لكم ولمواليكم وأشياعكم؟!

فقالت فاطمة عليها السلام: أمّا فدك فأوجبها الله لي ولولدي دون موالينا وشيعتنا، وأمّا الخمس فقسّمه الله لنا ولموالينا وأشياعنا كما يقرأ في كتاب الله.

قال عمر: فما لسائر المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان؟!

قالت فاطمة: إنْ كانوا موالينا ومن أشياعنا فلهم الصدقات التي قسّمها الله وأوجبها في كتابه فقال الله عزّ وجلّ: ﴿**إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب**﴾[1]... إلىٰ آخر القصّة.

قال عمر: فدك لكِ خاصّة والفيء لكم ولأوليائكم؟! ما أحسب أصحاب محمّد يرضون بهذا!!

قالت فاطمة: فإنّ الله عزّ وجلّ رضي بذلك، ورسوله رضي به، وقسّم علىٰ الموالاة والمتابعة لا علىٰ المعاداة والمخالفة، ومن عادانا فقد عادىٰ الله، ومن خالفنا فقد خالف الله، ومن خالف الله فقد استوجب من الله العذاب الأليم والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة.

فقال عمر: هاتي بيّنة يا بنت محمّد علىٰ ما تدّعين؟!

فقالت فاطمة عليها السلام: قد صدّقتم جابر بن عبدالله وجرير بن عبدالله ولم تسألوهما البيّنة! وبيّنتي في كتاب الله.

فقال عمر: إنّ جابراً وجريراً ذكرا أمر هيّناً، وأنت تدّعين أمراً عظيماً

---

(١) سورة التوبة ٩: ٦٠.

يقع به الردّة من المهاجرين والأنصار!

فقالت عليها السلام : إنّ المهاجرين برسول الله وأهل بيت رسول الله هاجروا إلىٰ دينه، والأنصار بالإيمان بالله ورسوله وبذي القربىٰ أحسنوا، فلا هجرة إلّا إلينا، ولا نصرة إلّا لنا، ولا اتّباع بإحسان إلّا بنا، ومن ارتدّ عنّا فإلىٰ الجاهلية»[1].

فها هي بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تمحّص عن الضابطة القرآنية في حسن الصحبة وسوئها، وهي علىٰ الموالاة والمتابعة لرسول الله وأهل بيته لا المعاداة لهم والمخالفة، وأنّ الهجرة تحقّقت بهم، والنصرة بنصرة الله ورسوله وذي القربىٰ، فلا هجرة إلّا إليهم لا إلىٰ غيرهم، ولا نصرة إلّا لهم لا عليهم، ولا اتّباع بإحسان إلّا باتّباع سبيلهم وصراطهم.. إهدنا الصراط المستقيم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين، سبيل وصراط المطهّرين من المعصية والذنوب، ومن الضلالة والجهل والعمىٰ..

ودلّت علىٰ ذلك بأن قرن تعالىٰ بين رسوله وبين ذي القربىٰ في مواطن، كما في اختصاص الخمس والفيء ـ الذي وصفه عمر بأنّه أمراً عظيماً ـ بالله ورسوله وذي القربىٰ، لمكان اللام، دون اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل، والتفرقة للدلالة علىٰ أنّ ملكية التصرّف هي شأنه تعالىٰ ورسوله وذي القربىٰ، وأنّ مودّة ذوي القربىٰ المفترضة في الكتاب كأجر لكلّ الرسالة هو موالاتهم ومجانبة عدائهم ومخالفتهم، فمدار حسن الصحبة علىٰ ذلك وسوئها علىٰ خلافه.

---

(١) الكشكول في ما جرىٰ علىٰ آل الرسول: ٢٠٣ ـ ٢٠٥، وبحار الأنوار ٢٩ / ١٩٤ ح ٤٠، نقلاً عنه.

ولقد أنصف أحمد بن حنبل ؛ إذ يروي عنه الفقيه الحنبلي ابن قدامة عند قوله : «وأمّا حمل أبي بكر وعمر (رض) علىٰ سهم ذي القربىٰ في سبيل الله ، فقد ذُكر لأحمد فسكت وحرّك رأسه ولم يذهب إليه ، ورأىٰ أنّ قول ابن عبّاس ومن وافقه أَوْلىٰ ؛ لموافقته كتاب الله وسُنّة رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ، فإنّ ابن عبّاس لمّا سئل عن سهم ذي القربىٰ فقال : إنّا كنّا نزعم أنّه لنا فأبىٰ ذلك علينا قومنا ؛ ولعلّه أراد بقوله (أبىٰ ذلك علينا قومنا) فِعل أبي بكر وعمر (رض) في حملهما عليه في سبيل الله ومن تبعهما علىٰ ذلك ، ومتىٰ اختلف الصحابة وكان قول بعضهم يوافق الكتاب والسُنّة كان أَوْلىٰ ، وقول ابن عبّاس موافق للكتاب والسُنّة»[1] .

وروىٰ البخاري بسنده عن عائشة ، في كتاب المغازي باب ٣٨ باب غزوة خيبر : إنّ فاطمة عليها السلام بنت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أرسلت إلىٰ أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر . .

فقال أبو بكر : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّا لا نورّث ما تركناه صدقة ، إنّما يأكل آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المال ، وإنّي والله لا أُغيّر من صدقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن حالها التي كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأعملنّ فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فأبىٰ أبو بكر أن يدفع إلىٰ فاطمة شيئاً ، فوجدت فاطمة فهجرته ، فلم تكلّمه حتّىٰ توفّيت ، وعاشت بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ستّة أشهر ، فلمّا توفّيت دفنها زوجها عليٌّ ليلاً ، ولم يؤذن بها أبو بكر ، وصلّىٰ عليها[2] .

---

(١) المغني ٧ / ٣٠١ .

(٢) صحيح البخاري ٥ / ١٧٧ ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٧ / ٤٩٣ .

ورواه مسلم في **صحيحه** بنفس ألفاظه، وأحمد في **مسنده**[١].

وفي هذه الرواية التي هي من طرقهم[٢]، ونظيراتها ممّا رووها، فضلاً عن طرقنا، ما يدلّ على إنّها عليها السلام كانت ساخطة على أبي بكر وعمر، منكرة لخلافتهم وإمامتهم إلى أن توفّيت عليها السلام، مع إنّ من مات ولم يبايع أو لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية وكفر وضلال، ممّا يدلّ على نفي إمامتهم وخلافتهم، لكونها مطهّرة في القرآن من كلّ رجس، وهي سيّدة نساء العالمين، وأنّ الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها.

والغريب في دعوى أبي بكر بكون الخمس والفيء الخاصّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذي القربى صدقة، فإنّ الناظر على الصدقة الجارية أيضاً هو الوارث لا الأجنبي، فإنّ ولاية النظارة على الصدقات الجارية أيضاً هي من نصيب الوارث، فكيف يمنعها عن الوارث؟!!

وفي موضع آخر[٣] قالت عليها السلام في معرض خطبتها المعروفة تجاه المهاجرين:

قالت ـ بعد الثناء على الله تعالى بأبلغ ثناء، وذِكر نعمة الرسول صلى الله عليه وآله على هدايته للأُمّة، وكثرة وشدّة بلاء ابن عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليّ بن أبي طالب في إرساء الدين ـ: وأنتم في بُلَهْنِيَةٍ من العيش ـ أي سعة ـ وادعون آمنون، حتّى إذا اختار الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم دار أنبيائه ظهرت حسيكة النفاق،

---

(١) صحيح مسلم: ١٣٨٠ ح ١٧٥٩، مسند أحمد ٢/٢٤٢ وص ٣٧٦ وص ٤٦٣ ـ ٤٦٤؛ وفيه: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله: لا تقتسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة.

(٢) صحيح ابن حبّان ١٤/ ٥٧٣ ح ٦٦٠٧.

(٣) بلاغات النساء: ١٢ ـ ٢٠، الاحتجاج ١/٢٦٣، بحار الأنوار ٢٩/١٠٨ ح ٢ وص ٢٣٣ ضمن ح ٨ خطبة الزهراء عليها السلام، وأنظر: شرح نهج البلاغة ١٦/٢١٢.

وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبع خامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، فاستنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتموها غير شربكم.

هذا، والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، بداراً زعمتم خوف الفتنة.. ﴿**ألا في الفتنة سقطوا وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين**﴾[1]، فهيهات منكم! وأنّىٰ بكم؟! وأنّىٰ تؤفكون؟! وهذا كتاب الله بين أظهركم، وزواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة، أرغبةً عنه تدبرون؟! أم بغيره تحكمون؟! ﴿**بئس للظالمين بدلاً**﴾[2].. ﴿**ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[3].

ثمّ لم تريثوا إلّا ريث أن تسكن نغرتها، تشربون حسواً، وتسرون في ارتغاء، ونصبر منكم علىٰ مثل حزّ المُدىٰ، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا.. ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[4]؟!

ويهاً معشر المهاجرين! أأبتزّ إرث أبي؟! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! لقد جئتَ شيئاً فريّاً.. فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد والموعد القيامة،

---

(١) سورة التوبة ٩ : ٤٩.

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٥٠.

(٣) سورة آل عمران ٣ : ٨٥.

(٤) سورة المائدة ٥ : ٥٠.

وعند الساعة يخسر المبطلون و﴿ **لكلّ نبإٍ مستقرّ وسوف تعلمون** ﴾[١].

ثمّ انحرفت إلىٰ قبر النبيّ ﷺ وهي تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة   لو كنت شاهدها لم تكثر الخطبُ
إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها   وآختلّ قومُك فاشهدهم فقد نكبوا
تجهمتنا رجال وآستخفّ بنا   بعد النبيّ وكلّ الخير مغتصبُ
سيعلم المتولىٰ ظلم حامتنا   يوم القيامة أن سوف ينقلبُ
فقد لقينا الذي لم يلقه أحد   من البرية لا عجم ولا عربُ

وقالت عليها السلام[٢] تجاه الأنصار: معشر البقية، وأعضاد الملّة، وحصون الإسلام! ما هذه الغميزة في حقّي، والسِنة عن ظلامتي؟! أما كان رسول الله ﷺ يقول: المرء يُحفظ في ولده؟! سرعان ما أجدبتم فأكديتم، وعجلان ذا إهانة، تقولون: مات رسول الله ﷺ! فخطب جليل استوسع وهيه، وآستنهر فتقه، وبعد وقته، وأظلمت الأرض لغيبته، وآكتأبت خيرة الله لمصيبته، وخشعت الجبال، وأكدت الآمال، وأُضيع الحريم، وأُزيلت الحرمة عند مماته ﷺ.

وتلك نازلة علنَ بها كتاب الله في أفنيتكم، في ممساكم ومصبحكم، يهتف بها في أسماعكم، وقبله حلّت بأنبياء الله عزّ وجلّ ورسله: ﴿ **وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[٣].

---

(١) سورة الأنعام ٦: ٦٧.

(٢) بلاغات النساء: ١٢ ـ ٢٠.

(٣) سورة آل عمران ٣: ١٤٤.

إيهاً بني قيلة ! أأهضم تراث أبيَه وأنتم بمرأىً منه ومسمع ؟ ! تلبسكم الدعوة ، وتشملكم الحيرة ، وفيكم العدد والعدّة ، ولكم الدار ، وعندكم الجنن ، وأنتم الأُلىٰ نخبة الله التي انتخب لدينه ، وأنصار رسوله وأهل الإسلام والخيرة التي اختار لنا أهل البيت ، فباديتم العرب ، وناهضتم الأُمم ، وكافحتم البهم ، لا نبرح نأمركم وتأتمرون ، حتّىٰ دارت لكم بنا رحا الإسلام ، ودرّ حلب الأنام ، وخضعت نعرة الشرك ، وباخت نيران الحرب ، وهدأت دعوة الهرج ، وآستوسق نظام الدين ، فأنّىٰ حرتم بعد البيان ، ونكصتم بعد الإقدام ، وأسررتم بعد الإعلان ، لقوم نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أوّل مرة .. **﴿ أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾**(١) ؟ !

ألا قد أرىٰ أن قد أخلدتم إلىٰ الخفض ، وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض ، وركنتم إلىٰ الدعة فعجتم عن الدين ، ومججتم الذي وعيتم ، ودسعتم الذي سوّغتم فـ **﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيٌّ حميد ﴾**(٢) .

ألا وقد قلت الذي قلته علىٰ معرفة منّي بالخذلان الذي خامر صدوركم ، وآستشعرته قلوبكم ، ولكن قلته فيضة النفس ، ونفثة الغيظ ، وبثّة الصدر ، ومعذرة الحجّة ، فدونكموها فاحتقبوها ، مدبرة الظهر ، ناكبة الخفّ ، باقية العار ، موسومة بشنار الأبد ، موصولة بـ **﴿ نار الله الموقدة * التي تطّلع علىٰ الأفئدة ﴾**(٣) ، فبعين الله ما تفعلون .. **﴿ وسيعلم الّذين**

---

(١) سورة التوبة ٩ : ١٣ .

(٢) سورة إبراهيم ١٤ : ٨ .

(٣) سورة الهُمَزة ١٠٤ : ٦ و ٧ .

ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾[١]، وأنا ابنة ﴿**نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد**﴾[٢] فـ ﴿**اعملوا علىٰ مكانتكم إنّا عاملون * وآنتظروا إنّا منتظرون**﴾[٣].

ثمّ إنّها عليها السلام تشير في استنهاضها الأنصار إلىٰ بيعتهم، بيعة العقبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين عاهدوه علىٰ أن يمنعوه وذرّيّته ممّا يمنعون منه أنفسهم وذراريهم.

وكانت تقول عندما دار بها عليٌّ عليه السلام علىٰ أتان والحسنين عليهما السلام معها علىٰ بيوت المهاجرين والأنصار: يا معشر المهاجرين والأنصار! انصروا الله فإنّي آبنة نبيّكم وقد بايعتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بايعتموه أن تمنعوه وذرّيّته ممّا تمنعون منه أنفسكم وذراريكم، فَفُوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببيعتكم[٤].

وقالت عليها السلام عندما اجتمع عندها نساء المهاجرين والأنصار فقلن لها: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! كيف أصبحت عن علّتك؟

فقالت عليها السلام: أصبحت والله عائفة لدنياكم، قالية لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنئتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحدّ، وخور القناة، وخطل الرأي، و﴿**لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله**

---

(١) سورة الشعراء ٢٦ : ٢٢٧.

(٢) سورة سبأ ٣٤ : ٤٦.

(٣) سورة هود ١١ : ١٢١ و ١٢٢.

(٤) الاختصاص ـ للشيخ المفيد ـ: ١٨٣ ـ ١٨٥، وآنظر: شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ـ ١٦/ ٢١٠ ـ ٢١٣، الاحتجاج ١/ ٢٠٦ وص ٢٠٩، الغدير ـ للأميني ـ ٧/ ١٩٢؛ وذكر جملة من المصادر.

عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾[1]، لا جرم لقد قلّدتهم ربقتها، وشنت عليهم عارها، فجدعاً وعقراً وسحقاً للقوم الظالمين.

ويحهم! أنّىٰ زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوّة، ومهبط الوحي الأمين، والطبين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نقموا من أبي الحسن؟! نقموا والله منه نكير سيفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمّره في ذات الله عزّ وجلّ.

والله لو تكافأوا عن زمام نبذه رسول الله ﷺ إليه لاعتلقه، ولسار بهم سيراً سجحاً، لا يكلم خشاشه، ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً، تطفح ضفتاه، ولأصدرهم بطاناً، قد تحرّىٰ بهم الريّ غير متحلٍ منه بطائل إلّا بغمر الماء وردعه شررة الساغب، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون.. **﴿والّذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيّئاتُ ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾**[2].

ألا هلمّ فاستمع! وما عشت أراك الدهر عجباً! وإنْ تعجب فعجب قولهم! ليت شعري إلىٰ أيّ سناد استندوا؟! وعلىٰ أيّ عماد اعتمدوا؟! وبأيّة عروة تمسّكوا؟! وعلىٰ أيّة ذرّيّة أقدموا واحتنكوا؟! لبئس المولىٰ ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلاً، استبدلوا والله الذنابىٰ بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم **﴿يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً﴾**[3]، **﴿ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾**[4].

---

(١) سورة المائدة ٥ : ٨٠.

(٢) سورة الزمر ٣٩ : ٥١.

(٣) سورة الكهف ١٨ : ١٠٤.

(٤) سورة البقرة ٢ : ١٢.

ويحهم! ﴿**أفمن يهدي إلىٰ الحقّ أحقّ أن يتّبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يهدىٰ فما لكم كيف تحكمون**﴾[١]..

أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثمّ احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً وزعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غبّ ما أسّس الأوّلون، ثمّ طيبوا عن دنياكم أنفساً، وآطمئنّوا للفتنة جاشاً، وأبشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، وآستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم، وأنّىٰ بكم وقد عُمّيت عليكم؟! ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾[٢]؟!»[٣].

فتحصّل أنّها عليها‌السلام لا ترىٰ مجرّد الهجرة والنصرة دليلاً علىٰ الاستقامة والصلاح وحسن العاقبة والخاتمة، بل لا بُدّ من الإقامة علىٰ شروط العهد والمواثيق التي أخذها عليهم الله تعالىٰ ورسوله، من الإقرار بالتوحيد والرسالة والولاية لأهل بيته ومودّتهم ونصرتهم.

وهذا عين ما تقدّم استفادتُه من الآيات العديدة، والروايات النبويّة التي رواها أهل سُنّة الجماعة، نظير روايات العرض علىٰ الحوض من أنّ بعض الصحابة يُزوَون عنه إلىٰ جهنّم فيقول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ربّ أصحابي! فيجاب: إنّهم بدّلوا بعدك وأحدثوا، فيقول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: بُعداً بُعداً سُحقاً سُحقاً.

وروىٰ ابن قتيبة الدينوري في كتابه **الإمامة والسياسة**: «أنّ عليّاً عليه‌السلام خرج يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم علىٰ دابّة ليلاً في مجالس

---

(١) سورة يونس ١٠: ٣٥.

(٢) سورة هود ١١: ٢٨.

(٣) معاني الأخبار: ٣٥٤ ـ ٣٥٦، الأمالي ـ للطوسي ـ: ٣٧٤ مج ١٣ ح ٥٥، الاحتجاج ١/٢٨٦ ـ ٢٩٢، بحار الأنوار ٤٣/١٥٨ ـ ١٦٠.

الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : يا بنت رسول الله ! قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، ولو أنّ زوجك وابن عمّك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به ، فيقول عليٌّ كرّم الله وجهه : أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيته لم أدفنه وأخرج أُنازع الناس سلطانه ؟ ! فقالت فاطمة : ما صنع أبو الحسن إلّا ما كان ينبغي له ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم .

وروىٰ ـ بعدما ذكر هجوم عمر وجماعته علىٰ بيت فاطمة لإخـراج عليّ عليه السلام للبيعة ـ أنّ عمر قال لأبي بكر : انطلق بـنا إلىٰ فـاطمة فـإنّا قـد أغضبناها ، فانطلقا جميعاً فاستأذنا علىٰ فاطمة ، فلم تأذن لهما ، فأتيا عليّـاً فكلّماه ، فأدخلهما عليها ، فلمّا قعدا عندها حـوّلت وجـهها إلىٰ الحـائط ، فسـلّما عليها ، فلم تردّ عليهما السلام . .

فتكلّم أبو بكر فقال : يا حبيبة رسـول الله ! والله إنّ قرابة رسول الله أحـبّ إليّ من قرابتي ، وإنّكِ لأحبّ إليّ من عائشة ابـنتي ، ولوددت يـوم مات أبوك أنّـي متّ ولا أبـقىٰ بـعده ، أفـتراني أعـرفك وأعـرف فـضلك وشـرفك وأمنعك حقّك وميراثك من رسول الله ؟ ! إلّا أنّي سـمعت أبـاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : لا نورث ما تركناه ، فهو صدقة .

فقالت : أرأيتكما إنْ حدثتكما حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تـعرفانه وتفعلان به ؟ !

قالا : نعم .

فـقالت : نشـدتكما الله ألم تسـمعا رسـول الله يـقول : رضـا فـاطمة رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني ، ومن أرضىٰ فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ !

قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قالت: فإنّي أُشهِد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبيّ لأشكونّكما إليه.

فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالىٰ من سخطه وسخطك يا فاطمة.

ثمّ انتحب أبو بكر يبكي حتّىٰ كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول: والله لأدعونّ الله عليك في كلّ صلاة أُصليها.

ثمّ خرج باكياً، فاجتمع إليه الناس فقال لهم: يبيت كلّ رجل منكم معانقاً حليلته، مسروراً بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي»[1].



(١) الإمامة والسياسة: ١٣ و ١٤.

موقف الإمام عليّ عليه السلام تجاه الصحبة والصحابة

ورد في كتاب للإمام عليّ عليه السلام إلىٰ معاوية ـ جواباً علىٰ كتاب له ـ ما نصّه: «كان أشدّ الناس عليه [علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم] تأليباً وتحريضاً هم أسرته، والأدنىٰ فالأدنىٰ من قومه إلّا قليلاً ممّن عصمه الله منهم..

وأنّ الله اجتبىٰ لرسول الله من المسلمين أعواناً أيّده بهم، فكانوا في منازلهم عنده علىٰ قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام ـ كما زعمت ـ وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة الصدّيق، ومن بعده خليفة الخليفة الفاروق».

ثمّ قال: «وما أنت والصدّيق؟! فالصدّيق من صدّق بحقّنا وأبطل باطل عدوّنا، وما أنت والفاروق؟! فالفاروق من فرّق بيننا وبين عدوّنا.

وذكرت أنّ عثمان بن عفّان كان في الفضل ثالثاً، فإن يكن عثمان محسناً فسيجزيه الله بإحسانه، وإن يك مسيئاً فسيلقىٰ ربّاً غفوراً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره.

ولعمر الله، إنّي لأرجو إذا أعطىٰ الله المؤمنين علىٰ قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ولرسوله أن يكون نصيبنا أهل البيت في ذلك الأوفر.

إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم لمّا دعا إلىٰ الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهل البيت أوّل من آمن به وصدّق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً كاملة مُجَرَّمَةً تامّةً وما يَعبد الله في رَبْعٍ ساكنٍ من العرب أحدٌ غيرُنا، فأراد قومنا قتل نبيّنا، وٱجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا الميرة، وأمسكوا عنّا العذْب، وأحلسونا الخوف، وٱضطرّونا إلىٰ جبل وعر، وجعلوا علينا

الأرصاد والعيون ، وأوقدوا لنا نار الحرب ، وكتبوا علينا بينهم كتاباً : لا يؤاكلوننا ، ولا يشاربوننا ، ولا يناكحوننا ، ولا يبايعوننا ، ولا يكلّموننا ، ولا نأمن فيهم حتّىٰ ندفع إليهم نبيّنا محمّد ﷺ فيقتلوه ويمثّلوا به ؛ فلم نكن نأمن فيهم إلّا من موسم إلىٰ موسم . .

فعزم الله لنا علىٰ منعه ، والذبّ عن حوزته ، والرمي من وراء حرمته ، والقيام بأسيافنا دونه في ساعات الخوف ، وبالليل والنهار ؛ فمؤمننا يبغي بذلك الأجر ، وكافرنا يحامي عن الأصل .

وأمّا من أسلم من قريش بعد ، فإنّه خلوٌ ممّا نحن فيه بحلْفٍ يمنعه ، أو عشيرة تقوم دونه ، فلا يبغيه أحد بمثل ما بغانا به قومنا من التلف ، فهو من القتل بمكان نجوة وأمن ؛ فكان ذلك ما شاء الله أن يكون .

ثمّ أمر الله تعالىٰ رسوله بالهجرة ، وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين ، وكان رسول الله ﷺ إذا احمرّ البأس ، ودعيتْ نزال ، وأحجم الناس قدّم أهل بيته فوقىٰ بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنّة ، فقُتل عبيدة ابن الحارث يوم بدر ، وقُتل حمزة يوم أُحد ، وقُتل جعفر وزيد يوم مؤتة ، وأسلمَ الناسُ نبيَّهم يوم حنين غير العبّاس عمّه وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب ابن عمّه ، وأراد من لو شئت يا معاوية ذكرتُ اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع رسول الله ﷺ غير مرّة ، ولكنّ آجالهم عُجّلت ومنيّته أُجّلت ، والله وليّ الإحسان إليهم ، والمنّان عليهم بما قد أسلفوا من الصالحات .

وأيم الله ما سمعت بأحد ولا رأيت من هو أنصح لله في طاعة رسوله ، ولا أطوع لرسوله في طاعة ربّه ، ولا أصبر علىٰ اللأواء والضرّاء وحين البأس ومواطن المكروه مع النبيّ ﷺ من هؤلاء النفر من أهل بيته

الّذين سمّيت لك، وفي المهاجرين خير كثير نعرفه جزاهم الله خيراً بأحسن أعمالهم.

وذكرتَ حسدي علىٰ الخلفاء، وإبطائي عنهم، وبغيي عليهم..

فأمّا الحسد والبغي عليهم، فمعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته، بل أنا المحسود المبغي عليه.

وأمّا الإبطاء عنهم والكراهة لأمرهم، فإنّي لست أعتذر منه إليك ولا إلىٰ الناس؛ وذلك لأنّ الله جلّ ذِكره لمّا قبض نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم اختلف الناس، فقالت قريش: منّا الأمير، وقالت الأنصار: منّا الأمير؛ فقالت قريش: منّا محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنحن أحقّ بالأمر منكم؛ فعرفت ذلك الأنصار فسلّمت لقريش الولاية والسلطان..

فإذا استحقّوها بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم دون الأنصار، فإنّ أولىٰ الناس بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أحقّ بها منهم، وإلّا فإنّ الأنصار أعظم العرب فيها نصيباً.. فلا أدري أصحابي سلّموا من أن يكونوا حقّي أخذوا، أو الأنصار ظلموا؟!

بل عرفت أنّ حقّي هو المأخوذ...»[1].

ويتّضح من كلامه عليه السلام إنّ الصدق والصدّيقية في الصحبة والصحابة إنّما هي بالإقامة علىٰ العدل والوفاء بمواثيق الله ورسوله التي أُخذت في الكتاب والسُنّة عليهم، وهي التسليم لأهل البيت بالولاية والمودّة، وإنّهم ولاة الفيء والأنفال والخمس، وإنّهم الثقل الثاني الواجب التمسّك بهم

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤٩. ط مؤسّسة الإمام صاحب الزمان عليه السلام ـ تحقيق السيّد الموسوي ـ، وهي الطبعة المعتمدة في التخريجات اللاحقة؛ وقد ذكر للكتاب ولبعض ما ورد فيه مصادر أُخرىٰ عديدة من كتب الفريقين.

وانظر: شرح نهج البلاغة ١٥/ ٧٤ ـ ٧٨ آخر شرح الكتاب ٩، ونهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ٤/ ١٧٢ ـ ١٨٦ الكتاب ٧٠.

أعدال الكتاب، فيتولّىٰ أهل البيت ويبرأ من أعدائهم..

والفاروق من يميّز بين الحقّ الثابت لأهل البيت وبين الباطل الذي عند عدوّهم.

وإنّ أشدّ الناس عناءً وبلاءً وجهداً في الجهاد والذبّ عن حوزة وحومة النبيّ ﷺ هم أهل بيته، وإنّهم أوّل الناس إيماناً به قبل أن يؤمن به أصحابه من قريش أو الأنصار، فقد سبق أهل البيت جميع الصحابة سنيناً وأعواماً، وهم الّذين تحمّلوا أعباء الرسالة في المرتبة الأُولىٰ، وهم الّذين قدّموا الشهداء في الصفوف الأُولىٰ، فلا تشهد الحروب لأبي بكر وعمر وعثمان وبقيّة الصحابة من قريش ممّن اجتمع في السقيفة أو الأنصار ثباتاً في حرب، كيوم حنين وغيرها.

فأهل بيت النبيّ ﷺ هم أنصح وأطوع وأصبر لله ولرسوله ﷺ وهم مع ذلك أقرب للنبيّ ﷺ وأحقّ الناس بخلافته.

وقال عليه السلام في كتاب آخر له إلىٰ معاوية ـ جواباً علىٰ كتابه الذي ذكر فيه اصطفاء الله تعالىٰ محمّد ﷺ لدينه، وتأييده إيّاه بمن أيّده من أصحابه ـ: «فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً؛ إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله تعالىٰ عندنا، ونعمته علينا في نبيّنا محمّد ﷺ، فكنت في ذلك كناقل التمر إلىٰ هجر، أو داعي مُسدِّدِه إلىٰ النضال...

وزعمت أنّ أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان، فذكرتَ أمراً إنْ تمّ اعتزلك كلّه، وإنْ نقص لم يلحقك ثلمه.

وما أنت يابن هند والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس؟!

وما للطلقاء وأبناء الطلقاء، والأحزاب وأبناء الأحزاب، والتمييز بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟!

هيهات، لقد حنّ قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها!

ألا تربع ـ أيّها الإنسان ـ علىٰ ظَلْعِك، وتعرف قصور ذرعك، وتتأخّر حيث أخّرك القدر؟! فما عليك غلبة المغلوب، ولا لك ظفر الظافر، وإنّك لذهّاب في التيه، روّاغ عن القصد.

ألا ترىٰ ـ غير مُخبِرٍ لك، ولكن بنعمة الله أُحدّث ـ أنّا قد فزنا علىٰ جميع المهاجرين كفوز نبيّنا محمّد ﷺ علىٰ سائر النبيّين؟!

أَوَلا ترىٰ أنّ قوماً استشهدوا في سبيل الله تعالىٰ من المهاجرين والأنصار ولكلٍّ فضل، حتّىٰ إذا استشهد شهيدنا قيل: سيّد الشهداء، وخصّه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه، ووضعه بيده في قبره؟!

أَوَلا ترىٰ أنّ قوماً قُطّعت أيديهم في سبيل الله ولكلٍّ فضل، حتّىٰ إذا فُعل بواحدنا ما فُعل بواحدهم قيل: الطيّار في الجنّة وذو الجناحين؟!

أَوَلا ترىٰ أنّ مسلمنا قد بان في إسلامه كما بان جاهلنا في جاهليّته، حتّىٰ قال عمّي العبّاس بن عبد المطّلب لأبي طالب:

أبا طالب! لا تقبل النَصف منهم وإنْ أنصفوا حتّىٰ نُعقّ ونُظلما
أبىٰ قومنا أن ينصفونا فأنصفتْ صوارم في أيماننا تقطر الدما
تركناهم لا يستحلّون بعدها لذي حرمةٍ في سائر الناس مُحْرَما[1]

ولولا ما نهىٰ الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجّها آذان السامعين.

---

(١) أوردها ابن عساكر في تاريخه ٢٦ / ٢٨٥ وزاد عليها غيرها، وفي تصحيفات المحدثين: ١٣٩ ذكر البيتين الأوّليين.

فدع عنك يابن هند من قد مالت به الرمِيّة ! فإنّا صنائع ربّنا ، والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزّنا ، ولا عاديُّ طَوْلنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ، ولستم هناك . .

وأنّىٰ يكون ذلك كذلك ؟ ! ومنّا المشكاة الزيتونة ومنكم الشجرة الملعونة ، ومنّا النبيّ ومنكم المكذِّب ، ومنّا أسد الله ومنكم طريد رسول الله ﷺ ، ومنّا هاشم بن عبد مناف ومنكم أُميّة كلب الأحلاف ، ومنّا الطيّار في الجنّة ومنكم عدوّ الإسلام والسُّنّة ، ومنّا سيّدا شباب أهل الجنّة ومنكم صبية النار ، ومنّا خير نساء العالمين بلا كذب ومنكم حمّالة الحطب ، في كثير ممّا لنا وعليكم .

فإسلامنا ما قد سُمع وجاهليّتكم لا تُدفع ، والقرآن يجمع لنا ما شذّ عنّا ، وهو قوله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: **﴿ وأُولو الأرحام بعضهم أَوْلىٰ ببعض في كتاب الله ﴾**[1] وقوله تعالىٰ : **﴿ إنّ أَوْلىٰ الناس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهذا النبيّ والّذين آمنوا والله وليّ المؤمنين ﴾**[2] فنحن مرّة أَوْلىٰ بالقرابة وتارة أَوْلىٰ بالطاعة .

ولمّا احتجّ المهاجرون علىٰ الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا عليهم ، فإنْ يكن الفلج به فالحقّ لنا دونكم ، وإنْ يكن بغيره فالأنصار علىٰ دعواهم .

وزعمتَ أنّي لكلّ الخلفاء حسدت ، وعلىٰ كلّهم بغيت ، فإنْ يكن ذلك كذلك فليس الجناية عليك فيكون العذر إليك .

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

---

(١) سورة الأنفال ٨ : ٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ٣ : ٦٨ .

وقلـتَ: إن كنتُ أُقاد كما يُقاد الجـمل المـخشوش حتّىٰ أُبـايع.. ولعَمر الله لقد أردتَ أن تذُمَّ فمدحتَ، وأن تفضح فافتضحت. وما علىٰ المسلم من غضاضة في أنْ يكون مظلوماً ما لم يكـن شـاكّاً فـي ديـنه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجّتي إلىٰ غيرك قصدها، ولكنّي أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذِكرها...»[1].

فهـو عليه السلام يفضّـل ذوي القـربىٰ الّذيـن آزروا النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وفـادوه بأرواحهم وبكَلِّهم علىٰ جميع المهاجرين والأنصار، وذلك لكـونهم أَوْلىٰ بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رحماً، وأشدّ الناس متابعة ونصحاً وطاعة ونـصرة له، كـما تشير إليه الآيتان اللتان استشهد عليه السلام بهما، ومن ثمّ قدّم القرآن ذوي القربىٰ مصرّحاً في آية الفيء بقوله تعالىٰ: ﴿**ما أفاء الله علىٰ رسوله مـن أهـل القرىٰ فللّه وللرسول ولذي القربىٰ و...**﴾..

وكذلك في آية الخمس، قال تعالىٰ: ﴿**وٱعلموا أنّما غـنمتم مـن شيءٍ فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وٱبن السبيل إنْ كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علىٰ عبـدنا يوم الفرقان يوم ٱلتقىٰ الجمعان والله علىٰ كلّ شيءٍ قديرٌ**﴾ فخصّ تعالىٰ ذوي القربىٰ بالمقام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وقرنهم به وبذاته المقدّسة دلالة علىٰ تشريفهم ولزوم طاعتهم وأحقّيّتهم بالأمر دون غيرهم..

فكرّر اللام التي للاختصاص وملكية التصرّف لذاته تعالىٰ ولرسـوله ولذي القربىٰ دون غيرهم، دلالة علىٰ مـنصب ذوي القـربىٰ الخـاص فـي الولاية علىٰ الأموال والأُمور العامّة.

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٥٩، وقد ذكر للكتاب ولبعض ما ورد فـيه مـصادر أُخـرىٰ عديدة من كتب الفريقين. وهو برقم ٢٨ في الطبعة المعروفة.

وقال تعالىٰ مخاطباً نبيّه: ﴿**فآت ذا القربىٰ حقّه**﴾.. كما خصّهم بالذِكر في الأمر بالمودّة، وجعله أجراً لكلّ الرسالة والدين وعدلاً لمجموع الإسلام الحنيف حين قال تعالىٰ: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ**﴾..

وقال: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجرٍ إلّا من شاء أن يتّخذ إلىٰ ربّه سبيلاً**﴾[1]..

وقال: ﴿**قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم**﴾[2]..

فبيّن تعالىٰ أنّ مودّة وولاية ذوي القربىٰ هي السبيل إليه تعالىٰ، وهي لنفع جميع المسلمين وصلاحهم وكمالهم.. فلم يدرجهم تعالىٰ مع سائر المهاجرين والأنصار مع إنّ ذوي القربىٰ هم أوّل الناس هجرة إلىٰ الله ورسوله وأوّلهم نصرة وطاعة ونصحاً وصبراً.

وقال عليه‌السلام في الخطبة المعروفة بعد النهروان:

«أمّا بعد.. أيّها الناس! أنا الذي فقأت عين الفتنة، شرقيّها وغربيّها، ومنافقها ومارقها، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، وآشتدّ كلَبها.

وأيم الله، لو لم أكُ فيكم لَما قوتل أصحاب الجمل الناكثون، ولا أهل صِفّين القاسطون، ولا أهل النهروان المارقون...

إنّ قريشاً طلبت السعادة فشقيتْ، وطلبت النجاة فهلكتْ، وطلبت الهداية فضلّتْ.

---

(١) سورة الفرقان ٢٥ : ٥٧.

(٢) سورة سبأ ٣٤ : ٤٧.

إنّ قريشاً قد أضلّت أهل دهرها ومن يأتي من بعدها من القرون ؛ ألم يسمعوا ـ ويحهم ـ قوله تعالى : ﴿ **والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتُهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم** ﴾[1] ؟ ! فأين المعدل والمنزع عن ذرّيّة الرسول ، الّذين شيّد الله بنيانَهم فوق بنيانِهم ، وأعلىٰ رؤوسَهم فوق رؤوسِهم ، واختارهم عليهم ؟ !

أين الّذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا وحسداً لنا أن رفعنا الله سبحانه ووضعهم ، وأعطانا وحرمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ؟ ! بنا يستعطىٰ الهدىٰ لا بهم ، وبنا يستجلىٰ العمىٰ لا بهم .

إنّ الأئمّة من قريشٍ ، غُرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح علىٰ سواهم ، ولا تصلح الولاة من غيرهم . . .

والهجرة قائمة علىٰ حدّها الأوّل ما كان لله تعالىٰ في أهل الأرض حاجة من مستسرّ الأُمّة ومعلنها ، ولا يقع اسم الهجرة علىٰ أحد إلّا بمعرفة الحجّة في الأرض ؛ فمن عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر ، ولا يقع اسم الاستضعاف علىٰ من بلغته الحجّة فسمعتها أُذنه ووعاها قلبه . . . » .

ثمّ ذكر عليه السلام ضلال الخوارج والثواب الخاصّ في مقاتلتهم ، وقال : « أتراني أكذب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ! والله لأنا أوّل من صدّقه فلا أكون أوّل من كذب عليه .

وأنا الصدّيق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر ، وصلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يصلّي معه أحد من النـاس .

(١) سورة الطور ٥٢ : ٢١ .

أنا صفيّ رسول الله وصاحبه، وأنا وصيّه وخليفته من بعده.

أنا ابن عمّ رسول الله، وزوج ابنته، وأبو وُلده.

أنا الحجّة العظمىٰ، والآية الكبرىٰ، والمثل الأعلىٰ، وباب النبيّ المصطفىٰ.

أنا وارث علم الأوّلين، وحجّة الله علىٰ العالمين بعد الأنبياء ومحمّد خاتم النبيّين، أهل موالاتي مرحومون، وأهل عداوتي ملعونون..

لقد كان حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يقول: يا عليّ! حبّك تقوىٰ وإيمانٌ، وبغضك كفرٌ ونفاقٌ، وأنا بيت الحكمة وأنت مفتاحه، كذب من زعم أنّه يحبّني ويبغضك...»[1].

فها هو عليه السلام بعد أن بيّن أفضلية أهل البيت عليهم السلام علىٰ سائر قريش يذكر ضابطة الهجرة والمهاجر، وهي معرفة الشخص الذي هو حجّة الله في أرضه، وهي الضابطة نفسها المتقدّمة في كلام الصدّيقة الزهراء عليها السلام بأنّ الهجرة إنّما هي بالهجرة إليهم، إلىٰ أهل البيت عليهم السلام، لا الابتعاد عنهم، فالهجرة إلىٰ المدينة ـ إضافة لكونها مقام النبيّ وآله صلوات الله عليهم ـ هي هجرة إلىٰ نور الله تعالىٰ ومصابيح هدايته، وهو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته من بعده، وإنّ الهجرة تكليف شرعي باقٍ ببقاء الشريعة؛ لأنّ معرفة حجّة الله تعالىٰ في أرضه مفتاح أبواب الشريعة.

وهذا خلاف ما يزعمه أهل سُنّة الجماعة من أنّ لا هجرة بعد الفتح، وسنشير في ما يأتي إلىٰ دلالة الآيات علىٰ بقاء الهجرة والنصرة، وملازمة ذلك؛ لكون مدار الهجرة والنصرة هو: الهجرة إلىٰ أهل البيت عليهم السلام

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢١، وقد ذكر للخطبة ولبعض ما ورد فيها مصادر أُخرىٰ عديدة من كتب الفريقين.

ومناصرتهم، لا الهجرة إلىٰ بقعة من الأرض معينة مقدّسة، وهي المدينة المنوّرة، والتي تقدّست بوجود النبيّ وأهل بيته صلوات الله عليهم، بخلاف الضابطة التي يذكرها أهل سُنّة الجماعة من أنّها الانتقال الجسماني من مكّة المكرّمة إلىٰ المدينة المنوّرة، كسفر بدني، وقد انتهىٰ ومضىٰ.

وقال عليه السلام في خطبته المعروفة بالطالوتية:

«ألا إنّ مثل آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كمثل نجوم السماء، إذا هوىٰ منهم نجم طلع نجم، فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون.

فيا عجباً وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق علىٰ اختلاف حججها في دينها!!! وبؤساً لهذه الأُمّة الجائرة في قصدها، الراغبة عن رشدها، لا يقتصّون أثر نبيّ، ولا يقتدون بعمل وصيّ، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفّون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلىٰ أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات علىٰ آرائهم، كأنّ كلّ امرئٍ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها في ما يرىٰ بعرىً ثقات، وأسباب محكمات؛ فلا يزالون بجورٍ، لا يألون قصداً، ولن يزدادوا إلّا خطأً، لا ينالون تقرّباً، ولن يزدادوا إلّا بعداً من الله عزّ وجلّ؛ لشدّة أُنس بعضهم ببعض، وتصديق بعضهم لبعض.

كلّ ذلك حياداً ممّا ورّث الرسول النبيّ الأُمّيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ونفوراً عمّا أدّىٰ إليهم من أخبار فاطر السمٰوات والأرض العليم الخبير، فهم أهل عشوات، وكهوف شبهات، وقادة حيرة وضلالة وريبة.

من وكله الله إلىٰ نفسه ورأيه فاغرورق في الأضاليل فهو مأمون عند من يجهله، غير متّهم عند من لا يعرفه، فما أشبه أُمّة صُدّتْ عن ولاتها بأنعام قد غاب عنها رعاؤها.

هذا، وقد ضمن الله قصد السبيل **﴿ليهلك من هلك عن بيّنةٍ ويحيىٰ من حيّ عن بيّنةٍ وإنّ الله لسميع عليم﴾**[1]..

أيّتها الأُمّة المتحيّرة بعد نبيّها في دينها، التي خُدعت فانخدعت، وعرفت خديعة من خدعها فأصرّت علىٰ ما عرفت، وٱتّبعت أهواءها، وخبطت في عشواء غوايتها، وقد استبان لها الحقّ فصدعت عنه، والطريق الواضح فتنكّبته.

أما والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، لو كنتم قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وجعلتم الولاية والوراثة حيث جعلها الله، وٱقتبستم العلم من معدنه، وشربتم الماء بعذوبته، وٱدّخرتم الخير من موضعه، وأخذتم الطريق من واضحه، وسلكتم الحقّ من نهجه؛ لَنَهَجَتْ بكم السبل، وبدت لكم الأعلام، وأضاء لكم الإسلام، فأكلتم رغداً وما عال فيكم عائل، ولا ظُلم منكم مسلم ولا معاهد، ولكنّكم سلكتم سبل الظلام، فأظلمت عليكم دنياكم برحبها، وسُدّت عليكم أبواب العلم فقلتم بأهوائكم، وٱختلفتم في دينكم فأفتيتم في دين الله بغير علم، وٱتّبعتم الغواة فأغووكم، وتركتم الأئمّة فتركوكم، فأصبحتم تحكمون بأهوائكم، إذا ذُكر الأمر سألتم أهل الذكر، فإذا أفتوكم قلتم: هو العلم بعينه، فكيف وقد تركتموه ونبذتموه وخالفتموه؟!

---

(١) سورة الأنفال ٨: ٤٢.

فذوقوا وبال أمركم ، وما فرطتم في ما قدّمت أيديكم ، وما الله بظلّام للعبيد ، رويداً عمّا قليل تحصدون جميع ما زرعتم ، وتجدون وخيم ما اجترمتم وما اجتلبتم .

فوالذي فلق الحبّة وبرأ النسمة ، لقد علمتم أنّي صاحبكم والذي به أُمرتم ، وأنّي عالمكم والذي بعلمه نجاتكم ، ووصيّ نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم ، وخيرة ربّكم ، ولسان نوركم ، والعالم بما يصلحكم ، فعن قليل رويداً ينزل بكم ما وُعدتم وما نزل بالأُمم قبلكم ، وسيسألكم الله عزّ وجلّ عن أئمّتكم ، فمعهم تحشرون ، وإلىٰ الله عزّ وجلّ غداً تصيرون ، ﴿ **وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون** ﴾ ...»[1] .

ويشير عليه السلام إلىٰ ما يشير إليه قوله تعالىٰ : ﴿ **وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ فقد تركوا وصية القرآن والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في عليّ عليه السلام - وعترته عليهم السلام - ، من أنّه وليّ الأُمور من بعده صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنّه مفزع الأمّة وملجأُها .

وقد أشارت فاطمة الزهراء عليها السلام إلىٰ ذلك أيضاً كما تقدّم ، وأنّ سبب الاختلاف والفِرَق الحادثة في المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو تركهم التمسّك بالثقلين اللذين هما ضمان عصمتهم من الضلال .

وقال عليه السلام في خطبة أُخرىٰ :

«فأين تذهبون ؟! وأنّىٰ تؤفكون ؟! والأعلام قائمة ، والآيات

---

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٠ ، وقد ذكر للخطبة ولبعض ما ورد فيها مصادر أُخرىٰ عديدة من كتب الفريقين .

واضحة ، والمنار منصوبة ، فأين يُتاه بكم ؟ !

بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم ، وهم أزمّة الحقّ ، وأعلام الدين ، وألسنة الصدق ؟ ! فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاش .

ألا وإنّ من أعجب العجائب أنّ معاوية بن أبي سفيان الأُموي ، وعمرو بن العاص السهمي ، أصبحا يحرّضان الناس على طلب الدين بزعمهما ! !

والله لقد علم المستحفَظون من أصحاب رسول الله ﷺ أنّي لم أردّ على الله سبحانه ولا على رسوله ساعة قطّ ، ولم أعصه في أمر قطّ ، ولقد بذلت في طاعته صلوات الله عليه جهدي ، وجاهدت أعداءه بكلّ طاقتي ، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال ، وترتعد فيها الفرائص ، وتتأخّر فيها الأقدام ، نجدةً أكرمني الله بها وله الحمد .

ولقد أفضى إليّ من علمه ما لم يفضِ إلى أحد غيري ، فجعلت أتّبع مأخذ رسول الله ﷺ فأطأ ذكره حتّى انتهيت إلى العرج ، ولقد قُبض رسول الله ﷺ وإنّ رأسه لعلى صدري ، ولقد سالت نفسه في كفّي فأمررتها على وجهي ، ولقد وليت غسله ﷺ وحدي والملائكة المقرّبون أعواني ، فضجّت الدار والأفنية ، ملأ يهبط وملأ يعرج ، وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلّون عليه ، حتّى واريناه في ضريحه ، فمن ذا أحقّ به منّي حيّاً وميّتاً ؟ !

وأيم الله ما اختلفت أُمّة قطّ بعد نبيّها إلّا ظهر أهل باطلها على أهل

حقّها إلّا ما شاء الله...»[1].

ويشـير عليه السلام إلىٰ أنّ مدار فضيلة الصـحبة ومقامها مـتحقّق فـيه عليه السلام بأرفع درجاتها، بنحو لا يدانيه بقيّة الصحابة..

وبيان ذلك: إنّه قد اشتهر عند أهل سُنّة الجماعة الاستدلال لحجّـيّة الصحابة وقول الصحابي وفِعله، لا سيّما من عاشر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مدّة مديدة، لا سيّما جماعة السقيفة، الّـذين وطّـدوا الأرضـية لبـيعة أبـي بكـر، ومـن ناصرهم علىٰ ذلك، ولا سيّما أبي بكر وعـمر، بأنّ الصـحابة هـم الّـذين حملـوا علـم الديـن عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخالطوه، وهم أعـلـم بأقـوال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله ومراده، وهم الّذين تربّوا بتربية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واَهتدوا علىٰ يديه وأطاعوه وتابعوه، فهم أقرب الخلق إليه، فهم حملة الدين إلىٰ الناس والقرون اللاحـقة، وحـملة سُـنّة النـبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحـفّاظها ووعـاتها والمؤدّين عنه، وبما نقلوه كمال الدين، وثبات حجّة الله عزّ وجـلّ عـلىٰ العباد، فهـم الواسـطة بين النبـيّ وأُمّـته، فإنّ الرسول حقّ، والقرآن حقّ، وما جاء به حقّ، وإنّما أدّىٰ إلينا ذلك كلّه الصحابة؛ لأنّهم الّذين نـاصروا النبيّ علىٰ عدوّه وآزروه، فهم المؤتمنين علىٰ دينه.

والناظر المتدبّر في هذه الصفات التي أوجبوا بها حجّيّة الصحابة، أو حجّيّة الشيخين ـ علىٰ إجمال وترديد إبهام ما يرمي إليه أهل سُـنّة الجماعة من معنىٰ الحجّيّة كما أشرنا إليه مراراً في هذه الحلقات من كون الحـجّيّة بمعنىٰ العصمة والإمامة الإلٰهيّة، أو بمعنىٰ العدالة وحجّيّة فـتوىٰ المـجتهد والفقيه، أو بمعنىٰ وثاقة وحجّيّة خبر الراوي ـ يـلاحظ أنّ هـذه الصـفات

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٩، وقد ذكر للخطبة ولبعض ما ورد فـيها مـصادر أُخـرىٰ عديدة من كتب الفريقين.

متوفّرة بدرجة رفيعةٍ سابقةٍ في عليّ عليه السلام سبقاً شاسعاً لا يمكن لغيره من الصحابة ـ كأبي بكر وعمر وغيرهما ـ اللحوق به، فضلاً عن مقايسته بهم.

ولا أجد نفسي بحاجة إلىٰ تذكير القارئ بتوفّر كلّ تلك الصفات والجهات في عليّ عليه السلام بنحو أسبق وأوفر وأوصل وأنمىٰ وأزكىٰ وأشدّ من بقيّة الصحابة؛ بعد أن استعرضنا كلامه عليه السلام ممّا تواتر وقوع مضمونه في مواطن شهيرة في تاريخ الإسلام.

وإلىٰ مثل ذلك يشير قوله عليه السلام حين سأله سُليم بن قيس الهلالي بأنّه سمع من سلمان والمقداد وأبي ذرّ شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم غير ما في أيدي الناس، ثمّ سمع منه عليه السلام تصديق ما سمع منهم، ورأىٰ في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم يخالفهم فيها عليه السلام هو والصحابة الموالين له، ويبطلونها؛ متعجّباً من كون الناس يكذبون علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمّدين، ويفسّرون القرآن بآرائهم؟!!

فقال عليه السلام: «قد سألت فافهم الجواب:

إنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعامّاً وخاصّاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً، وقد كُذِب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ عهده حتّىٰ قام خطيباً فقال: أيّها الناس! قد كثرت علَيَّ الكذّابة، فمن كذب علَيَّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار، ثمّ كُذِب عليه من بعده.

وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس:

رجل منافق، يُظهر الإيمان، متصنّع بالإسلام، لا يتأثّم ولا يتحرّج أن يكذب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمّداً، فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب،

لم يقبلوه منه ولم يصدّقوه، ولكنّهم قالوا: هذا قد صحب رسول الله ﷺ ورآه وسمع منه، وأخذوا عنه وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبر الله عن المنافقين بما أخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عزّ وجلّ: ﴿ **وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم** ﴾[1]، ثمّ بقوا بعده فتقرّبوا إلىٰ أئمّة الضلالة والدعاة إلىٰ النار بالزور والكذب والبهتان، فولّوهم الأعمال، وحملوهم علىٰ رقاب الناس، وأكلوا بهم الدنيا، وإنّما الناس مع الملوك والدنيا إلّا من عصم الله، فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله شيئاً، لم يحمله علىٰ وجهه، ووهم فيه، ولم يتعمّد كذباً، فهو في يده، يقول به ويعمل به، فيقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنّه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنّه وهم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به، ثمّ نهىٰ عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهىٰ عن شيء، ثمّ أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ، ولو علم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه أنّه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب علىٰ رسول الله ﷺ، مبغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله ﷺ، لم ينسه، بل حفظ ما سمع علىٰ وجهه، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ.

فإنّ أمر النبيّ ﷺ مثل القرآن، ناسخ ومنسوخ، خاصّ وعامّ،

---

(١) سورة المنافقون ٦٣ : ٤.

ومحكم ومتشابه، قد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان: كلام عامّ وكلام خاصّ مثل القرآن، وقال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[1]، فيشتبه على من لم يعرف ولم يدرِ ما عنىٰ الله به ورسوله ﷺ، وليس كلّ أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله عن الشيء فيفهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه، حتّىٰ إنْ كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأل رسول الله ﷺ حتّىٰ يسمعوا.

وقد كنت أدخل علىٰ رسول الله ﷺ كلّ يوم دخلة وكلّ ليلة دخلة، فيخلّيني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه، فلا يبقىٰ عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معه في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحد من بَنيّ.

وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت علىٰ رسول الله ﷺ آية من القرآن إلّا أقرأنيها وأملاها عليَّ، فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصّها وعامّها، ودعا الله لي بما دعا.

وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون، ولا كتاب منزل علىٰ أحد قبله من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته، فلم أنسَ حرفاً واحداً.

---

(١) سورة الحشر ٥٩ : ٧.

ثمّ وضع يده علىٰ صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً، فقلت: يا نبيّ الله! بأبي أنت وأُمّي، منذ دعوت لم أنسَ شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه، أفتتخوّف علَيّ النسيان في ما بعد؟! فقال: لا لست أتخوّف عليك النسيان والجهل»[1].

فعليٌّ عليه السلام بجانب من شدّة الصلة بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقربه منه زماناً ومكاناً وبيتاً وصحبة ورحماً وملازمة وأُخوّة ومحبّة، حتّىٰ نزلت آية وجوب التصدّق قبل نجوىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعمل بها إلّا هو عليه السلام دون بقيّة الصحابة حتّىٰ نسخت، وكانت بيوت بعضهم في العوالي قد لا يرون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيّاماً كما جاء ذلك علىٰ لسان بعضهم[2]، مضافاً إلىٰ شدّة عناية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم به عليه السلام وإزلافه له، فخصّه بتزويج فاطمة عليها السلام والمؤاخاة معه، كما في آية المباهلة وغير ذلك من المواطن والمشاهد المذكورة في كتب الفريقين.

والغريب من أهل سُنّة الجماعة ـ حين يستدلّون لحجّيّة الصحابي ـ التغافل عن كلّ ذلك، وعن تقديم حجّيّة قول عليّ عليه السلام وفِعله ومقامه علىٰ بقيّة الصحابة.

وكيف يستقيم ذلك مع حجيّة الصحابي، بأنّه لولاهم لانقطع نقل الدين وثبوته؟!

وكيف يستبدلون حجّيّة الثقلين ـ كتاب الله وعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ المنصوص عليها في القرآن وحديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المتواتر بين الفريقين،

---

(١) أُصول الكافي ١/٦٢ ـ ٦٤ ح ١، الخصال: ٢٥٥ ح ١٣١.

(٢) أنظر مثلاً: صحيح البخاري ١/٥٥ ـ ٥٦ ح ٣١ باب التناوب في العلم، سنن الترمذي ٥/٣٩٢ ح ٣٣١٨ كتاب تفسير القرآن.

بحجّيّة الصحابة ـ إنْ كان مرادهم من الحجّيّة مقام العصمة والإمامة في الدين ـ أو بحجّيّة جميع الصحابة ـ إنْ كان مرادهم حجّيّة الفتوىٰ أو الرواية ـ مع إنّ فيهم الأقسام الأربعة التي أشار إليها عليه السلام ؟!!

وكيف يتعطّل الدين ويبطل مع وجود عترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الهادية العاصمة عن ضلال الأُمّة وتحيّرها ؟!

وهل تمحيص الصحابي المستقيم علىٰ عهد الله وعهد رسوله في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعد مماته صلى الله عليه وآله وسلم ، عن الصحابي الذي نكث العهد وبدّل وأحدث في الدين ، يوجب تعطيل وبطلان الدين ؟! أم إنّه صيانة للدين عن تحريف المبطلين وزيغ المُحْدِثين ، وحياطة للدين عن السنن المحدَثة التي خولفت فيها سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

فها هو عليه السلام يشير إلىٰ مثل ذلك في قوله عليه السلام :

«لقد عملت الولاة قبلي أعمالاً عظيمة خالفوا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمّدين لخلافه ، ناقضين لعهده ، مغيّرين لسُنّته ، ولو حملتُ الناس علىٰ تركها وتحويلها عن مواضعها إلىٰ ما كانت تجري عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لتفرّق عنّي جندي حتّىٰ لا يبقىٰ في عسكري غيري وقليل من شيعتي الّذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عزّ ذِكره وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السلام فرددته إلىٰ الموضع الذي وضعه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ورددت فدك إلىٰ ورثة فاطمة عليها السلام ، ورددت صاع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومُدّه إلىٰ ما كان ، وأمضيت قطائع أقطعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأقوام مسمّين لم تمضَ لهم ولم تنفذ ، ورددت دار

جعفر بن أبي طالب إلىٰ ورثته وهدمتها من المسجد ، ورددت قضايا من الجور قضىٰ بها من كان قبلي ، ونزعت نساءً تحت رجالٍ بغير حقّ فرددتهنّ إلىٰ أزواجهنّ ، وآستقبلت بهنّ الحكم في الفروج والأحكام ، وسبيت ذراري بني تغلب ، ورددت ما قسم من أرض خيبر ، ومحوت دواوين العطايا وأعطيت كما كان رسول الله ﷺ يعطي بالسويّة ولم أجعلها دُولة بين الأغنياء ، وألقيت المساحة ، وسوّيت بين المناكح ، وأنفذت خمس الرسول كما أنزل الله عزّ وجلّ وفرضه ، ورددت مسجد رسول الله ﷺ علىٰ ما كان عليه ، وسددت ما فتح فيه من الأبواب وفتحت ما سدّ منها ، وحرّمت المسح علىٰ الخُفّين ، وحددت علىٰ النبيذ ، وأمرت بإحلال المتعتين ، وأمرت بالتكبير علىٰ الجنائز خمس تكبيرات ، وألزمت الناس الجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم ، وأخرجت من أُدخل مع رسول الله ﷺ في مسجده ممّن كان رسول الله أخرجه ، وأدخلت من أُخرج بعد رسول الله ممّن كان رسول الله ﷺ أدخله ، وحملت الناس علىٰ حكم القرآن ، وعلىٰ الطلاق علىٰ السُنّة ، وأخذت الصدقات علىٰ أصنافها وحدودها ، ورددت الوضوء والغسل والصلاة إلىٰ مواقيتها وشرائعها ومواضعها ، ورددت أهل نجران إلىٰ مواضعهم ، ورددت سبايا فارس وسائر الأُمم إلىٰ كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ ، إذاً لتفرّقوا عنّي .

والله لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلّا في فريضة ، وأعلمتهم أنّ اجتماعهم في النوافل بدعة ، فتنادىٰ بعض أهل عسكري ممّن يقاتل سيفه معي : يا أهل الإسلام ! غُيّرت سُنّة عمر ، ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوّعاً في جماعة ! حتّىٰ خفت أن يثوروا في ناحية عسكري .

بؤسي لِما لقيتُ من هذه الأُمّة بعد نبيّها من الفرقة وطاعة أئمّة

الضلال والدعاة إلىٰ النار!!

وأعظم من ذلك! لو لم أُعط سهم ذوي القربىٰ إلّا من أمر الله بإعطائه، الّذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وٱعلموا أنّما غنتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وٱبن السبيل** ﴾ كلّ هؤلاء منّا خاصّة ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا علىٰ عبدنا يوم الفرقان يوم ٱلتقىٰ الجمعان** ﴾.

فنحن والله الّذين عنىٰ الله بذي القربىٰ، الّذين قرنهم الله بنفسه وبرسوله ﷺ فقال تعالىٰ: ﴿ **وما أفاء الله علىٰ رسوله من أهل القرىٰ فللّه وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وٱبن السبيل كي لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وٱتّقوا الله** ﴾ في ظلم آل محمّد ﴿ **إنّ الله شديد العقاب** ﴾ لمن ظلمهم، رحمة منه لنا، وغنىً أغنانا الله به ووصّىٰ به نبيّه ﷺ؛ لأنّه لم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً، وأكرم الله رسوله ﷺ وأكرمنا أهل البيت أن يطعمنا من أوساخ أيدي الناس، فكذّبوا الله، وكذّبوا رسوله، وجحدوا كتاب الله الناطق بحقّنا، ومنعونا فرضاً فرضه الله لنا.

ما لقي أهل بيت نبيّ من أُمّته ما لقينا بعد نبيّنا ﷺ، والله المستعان علىٰ من ظلمنا، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»(١).

وموقف عليّ عليه السلام يوم الشورىٰ حينما رفض شرط عبد الرحمٰن بن عوف لمبايعته أن يحكم بسُنّة الشيخين، وحصر الحكم بكتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، موقف مشهود معلن معروف عند الحاضر والبادي.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٣، كتاب سُليم بن قيس: ١٦٢، روضة الكافي ٨/ ٥٨ ح ٢١.

وقال عليه السلام: «إنه لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأُمّة أحد، ولا يسوّىٰ بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أطول الناس أغراساً، وأفضل الناس أنفاساً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة، وحجّة الله عليكم في حجّة الوداع يوم غدير خمّ، وبذي الحُليفة، وبعده المقام الثالث بأحجار الزيت.

تلك فرائض ضيّعتموها، وحرمات انتهكتموها، ولو سلّمتم الأمر لأهله سلمتم، ولو أبصرتم باب الهدىٰ رشدتم ـ إلىٰ أن يقول: ـ يا أيّها الناس! اعرفوا فضل من فضّل الله، وآختاروا حيث اختار الله، وآعلموا أنّ الله قد فضّلنا أهل البيت بمنّه حيث يقول: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾[1]، فقد طهّرنا الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومن كلّ دنيّة وكلّ رجاسة، فنحن علىٰ منهاج الحقّ، ومن خالفنا فعلىٰ منهاج الباطل...

وعندنا أهل البيت معاقل العلم، وأبواب الحُكم، وأنوار الظُلَم، وضياء الأمر، وفصل الخطاب، فمن أحبّنا ينفعه إيمانه، ويُتقبّل منه عمله، ومن لا يحبّنا أهل البيت لا ينفعه إيمانه، ولا يُتقبّل عمله وإنْ دأب في الليل والنهار قائماً صائماً.

والله لئن خالفتم أهل بيت نبيّكم لتخالفنّ الحقّ، ولقد علم المستحفَظون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إنّي وأهل بيتي مطهّرون، فلا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا تتخلّفوا عنهم

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٣ .

فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، هم أحلم الناس كباراً، وأعلمهم صغاراً، إنّهم لا يدخلونكم في ردىٰ، ولا يخرجوكم من باب هدىٰ، فاتّبعوا الحقّ وأهله حيث كانوا...

الآن إذ رجع الحقّ إلىٰ أهله ونقل إلىٰ منتقله...»[١].

وقال في الخطبة القاصعة المعروفة، التي أنشأها لبيان أنّ كفر إبليس هو كفر جحود لولاية وليّ الله تعالىٰ، وهو آدم عليه السلام، وعدم انقياد له، وأنّ كلّ أبواب التوحيد وأركان فروع الدين تنتهي إلىٰ ولاية وليّ الله تعالىٰ:

«ألا وإنّكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، وإنّ الله سبحانه قد امتنّ علىٰ جماعة هذه الأُمّة، في ما عقد بينهم من حبل هذه الأُلفة التي يتنقّلون في ظلّها، ويأوون إلىٰ كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة؛ لأنّها أرجح من كلّ ثمن، وأجلّ من كلّ خطر.

وٱعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلّقون من الإسلام إلّا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلّا رسمه»[٢].

فقد جعل عليه السلام المدار في الهجرة هو: السير والانتقال مع ولاية وليّ الله تعالىٰ، وهو الإمام من أهل البيت عليهم السلام، والإعراض عنه تعرّب؛ فبالموالاة والنصرة يقع عنوان الهجرة، وبالتحزّب والتفرّق عن الموالاة يقع عنوان التعرّب، وكلامه عليه السلام يقضي بأنّ عنوان الهجرة وصف قابل للزوال عن الشخص، وهذا اللازم قهري بعد عدم كون الهجرة سفر وٱنتقال من مكان إلىٰ مكان آخر.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١١.

فتحصّل أنّ معنىٰ الهجرة والنصرة عند فاطمة وعليّ عليهما السلام متطابق علىٰ هذا المعنىٰ، وهذا المعنىٰ هو الذي يُستفاد من تعريف الهجرة والنصرة من سورة الحشر؛ إذ قُيّدت الهجرة بـ ﴿ **وينصرون الله ورسوله** ﴾[1]، وقُيّدت النصرة بـ ﴿ **يحبّون من هاجر إليهم** ﴾[2]، فالهجرة هي نصرة وموالاة وليّ الله تعالىٰ، والنصرة هي محبّة ذلك والمؤازرة عليه.

نتف من كلماته عليه السلام في عدّة من الصحابة بأعيانهم :

١ ـ قال له ابن الكوّاء: «يا أمير المؤمنين! أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عليه السلام: عن أيّ أصحاب رسول الله تسألني؟

قال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن أبي ذرّ الغفاري!

قال: سمعت رسول الله يقول: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء علىٰ ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ.

٢ ـ قال: يا أمير المؤمنين! فأخبرني عن سلمان الفارسي.

قال: بخ بخ، سلمان منّا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم، عَلِمَ عِلْمَ الأوّل والآخر.

٣ ـ قال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن حذيفة بن اليمان.

قال: ذاك امرؤٌ علم أسماء المنافقين، إنْ تسألوه عن حدود الله تجدوه بها عالماً.

(١) سورة الحشر ٥٩: ٨.
(٢) سورة الحشر ٥٩: ٩.

٤ ـ قال : يا أمير المؤمنين ! فأخبرني عن عمّار بن ياسر .

قال : ذاك امرؤٌ حرّم الله لحمه ودمه علىٰ النار أن تمسّ شيئاً منها .

٥ ـ قال : يا أمير المؤمنين ! فأخبرني عن نفسك .

قال : كنتُ إذا سألتُ أُعطيت ، وإذا سكتُّ ابتُدِئت »[١] .

٦ ـ وقال بعد استشهاد محمّد بن أبي بكر : « ألّا وإنّ محمّد بن أبي بكر قد استشهد رحمه الله ، فعند الله نحتسبه ، أمّا والله لقد كان ـ ما علمت ـ ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحبّ سَمْت المؤمن ، ولقد كان إليّ حبيباً ، وكان لي ربيباً ، وكان بي برّاً ، وكنت أعدّه ولداً ، فرحم الله محمّداً ، فقد أجهد نفسه ، وقضىٰ ما عليه »[٢] .

٧ ـ وقال عليه السلام : « أمّا والله لقد كنت أردت تولية مصر المرقال هاشم ابن عتبة ، ولو ولّيته إيّاها لَما خلّىٰ لهم العرصة ، ولا انهزهم الفرصة ، ولَما قتل إلّا وسيفه بيده ، بلا ذمٍّ لمحمّد بن أبي بكر »[٣] .

وهاشم بن عتبة بن أبي وقّاص ابن أخي سعد بن أبي وقّاص ، كان نافذ البصيرة ، شديد الولاء لأمير المؤمنين ، وشديد البراءة من أعدائه ، وقد دعا له أمير المؤمنين عليه السلام فقال : « اللّهمّ ارزقه الشهادة في سبيلك ، والمرافقة لنبيّك صلى الله عليه وآله وسلم » .

٨ ـ وقال عليه السلام لمّا مرّ ـ وهو عائد من صفّين ـ علىٰ عدّة قبور فيها قبر خبّاب بن الأرتّ : « رحم الله خبّاباً ، فلقد أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلي في جسمه آخراً ، وقنع بالكفاف ، ورضي عن

---

(١) الاحتجاج ـ للطبرسي ـ ١ / ٣٨٧ .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٥٦ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٥٦ .

الله تعالىٰ ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً»[١].

٩ ـ وقال بعد مرجعه من صفّين وقد توفّي سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة ، وكان من أحبّ الناس إليه : «لو أحبّني جبل لتهافت»[٢].

وسهل بن حنيف صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان بدرياً ، وشهد مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حروبه كلّها ، وكان من النقباء[٣].

١٠ ـ وقال لمّا بلغه نعي مالك الأشتر : «لله درّ مالك ، وما مالك ! والله لو كان جبلاً لكان فِنْداً ، ولو كان حجراً لكان صلداً ، لا يرتقيه الحافر ، ولا يوفي عليه الطائر .

أمَا والله ليهدّنّ موتك عالماً وليفرحنّ عالماً ، فهل مرجوٌّ كمالك ؟ ! وهل قامت النساء عن مثل مالك ؟ ! فعلىٰ مثله فلتبكِ البواكي .

إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، اللّهمّ إنّي أحتسبه عندك ، فإنّ موته من مصائب الدهر ، فرحم الله مالكاً ، فقد وفىٰ بعهده ، وقضىٰ نحبه ، ولقي ربّه ، مع إنّا قد وطّنّا أنفسنا أن نصبر علىٰ كلّ مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنّها أعظم المصيبات»[٤].

وقال عنه أيضاً : «لا ينام أيّام الخوف ، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع ، حذّار الدوائر ، أشدّ علىٰ الفجّار من حريق النار ، وأبعد الناس من دنسٍ أو عار ، وهو مالك بن الحارث أخو مَذْحِج ... فإنّه سيف من سيوف الله ، لا كليل الظُّبَة ، ولا نابي الضريبة»[٥].

---

(١) نهج البلاغة : الكلام ١٣١ .

(٢) نهج البلاغة : الكلام ١٣٣ .

(٣) وقعة صفّين : ١١٢ .

(٤) نهج البلاغة : الكلام ١٥٣ .

(٥) نهج البلاغة : كتاب ٦٩ .

١١ ـ وقال في كتاب له إلىٰ عمر بن أبي سلمة المخزومي ـ ابن أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة، وهي التي أرسلته لنصرة الأمير في الجمل ـ واليه علىٰ البحرين: «ولعمري لقد أحسنت الولاية، وأدّيت الأمانة، فأقبِل غير ظنين ولا ملوم، ولا متّهم ولا مأثوم، فلقد أردتُ المسير إلىٰ ظَلَمة أهل الشام وبقية الأحزاب، وأحببت أن تشهد معي لقاءهم، فإنّك ممّن أستظهر به علىٰ جهاد العدوّ ونصر الهدىٰ وإقامة عمود الدين إن شاء الله»[1].

١٢ ـ ونظيره ما قاله عليه السلام لمخنف بن سليم الأزدي، عامله علىٰ أصبهان[2].

١٣ ـ وقال عليه السلام لزيد بن صوحان العبدي: «رحمك الله يا زيد، قد كنت خفيف المؤونة، عظيم المعونة»، كما قد ورد حديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في بشارته بالشهادة علىٰ الحقّ[3].

١٤ ـ وقال عليه السلام في حُكيم بن جبلة العبدي: «فقتلوه ـ ويقصد أصحاب الجمل ـ في سبعين رجلاً من عبّاد أهل البصرة ومخبتيهم، يسمّون المثفّنين، كأنّ راح أكفّهم وجبهاتهم ثفِنات الإبل»[4].

١٥ ـ وقال عليه السلام في يزيد بن الحارث اليشكري: «وأبىٰ أن يبايعهم وهو شيخ أهل البصرة يومئذ، فقال ـ مخاطباً طلحة والزبير ـ: اتّقيا الله، إنّ أوّلكم قادنا إلىٰ الجنّة، فلا يقودنا آخركم إلىٰ النار، فلا تكلّفونا أنْ نصدّق المدّعي ونقضي علىٰ الغائب، أمّا يميني فقد شغلها عليّ بن أبي طالب

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٣١.
(٢) نهج البلاغة: كتاب ٣٢.
(٣) رجال الكشّي ١/ ٢٨٤، الاختصاص: ٢٩.
(٤) نهج البلاغة: الكتاب ٧٥.

ببيعتي إيّاه ، وأمّا شمالي فهذه خذاها فارغة إن شئتما ؛ فخُنق حتّىٰ مات رحمه الله »[1] .

١٦ ـ وقال عليه السلام في عمران بن حصين الخزاعي : « فقام صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي جاءت فيه الأحاديث ، وقال : يا هذان ! ـ مخاطباً طلحة والزبير ـ لا تُخرجانا ببيعتكما من طاعة عليٍّ ، ولا تحملانا علىٰ نقض بيعته ، فإنّها لله رضىً .

أمَا وسعتكما بيوتكما حتّىٰ أتيتما بأُمّ المؤمنين ؟! فالعجب لاختلافها إيّاكما ومسيرها معكما !!! فكُفّا عنّا أنفسكما وآرجعا من حيث جئتما ، فلسنا عبيد من غلب ، ولا أوّل من سبق ؛ فهمّا به ثمّ كفّا عنه »[2] .

١٧ ـ وقال عليه السلام : « ثمّ أخذوا عاملي عثمان بن حنيف أمير الأنصار غدراً ، فمثّلوا به كلّ المثلة ، ونتفوا كلّ شعرة في رأسه ووجهه »[3] .

وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، شهد معه المشاهد ، أُحداً وما بعدها . .

وهو أحد الاثني عشر الّذين أنكروا علىٰ أبي بكر جلوسه مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم ستّة من المهاجرين ، وستّة من الأنصار ، فالمهاجرين هم : سلمان الفارسي ، وأبو ذرّ الغفاري ، وعمّار بن ياسر ، إضافة إلىٰ :

١٨ ـ خالد بن سعيد بن العاص ـ وكان من بني أُميّة ـ .

١٩ ـ المقداد بن الأسود .

---

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٧٥ .

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٧٥ .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٧٥ .

٢٠ ـ وبريدة الأسلمي.

والأنصار هم ـ إضافة إلىٰ عثمان بن حنيف ـ:

٢١ ـ أبو الهيثم بن التيّهان.

٢٢ ـ سهل بن حنيف، أخي عثمان.

٢٣ ـ خزيمة بن ثابت، ذو الشهادتين.

٢٤ ـ أُبيّ بن كعب.

٢٥ ـ وأبو أيّوب الأنصاري..

فقد قال لهم عليّ عليه السلام ـ عندما اتّفقوا علىٰ إنزال أبي بكر عن منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «وأيم الله لو فعلتم ذلك لَما كنتم لهم إلّا حرباً، ولكنّكم كالملح في الزاد وكالكحل في العين ـ إلىٰ أن قال لهم: ـ فانطلقوا بأجمعكم إلىٰ الرجل فعرّفوه ما سمعتم من قول نبيّكم، ليكون ذلك أوكد للحجّة، وأبلغ للعذر، وأبعد لهم من رسول الله إذا وردوا عليه».

وقال لهم عليّ عليه السلام ـ بعد أن اعترضوا علىٰ أبي بكر ـ: «اجلس يا خالد فقد عرف الله لك مقامك وشكر لك سعيك...»، ثمّ التفت إلىٰ أصحابه فقال: «انصرفوا رحمكم الله»[1].

٢٦ ـ وقال عليه السلام في العبد الصالح عمرو بن الحمق الخزاعي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد تشدّد في موالاته لأمير المؤمنين، وآستبسال في نصرته: «اللّهمّ نوّر قلبه بالتقىٰ، وآهده إلىٰ صراط مستقيم، ليت أنّ في جندي [شيعتي] مائة مثلك!»[2].

---

(١) الخصال: ٤٦١ ح ٤، الاحتجاج ١/١٨٦ ح ٣٧، اليقين في إمرة أمير المؤمنين ـ لابن طاووس ـ: ١٠٨ ب ١٢٦.

(٢) وقعة صفّين: ١٠٣، الاختصاص: ١٤.

٢٧ ـ وقال عليه السلام في عديّ بن حاتم بن عبدالله الطائي، الصحابي المعروف، مخاطباً بني حِزْمِر: «إنّي أراه رأسكم قبل اليوم، ولا أرىٰ قومه كلّهم إلّا مسلمين له غيركم»[١] وكان شديد الذود عن أمير المؤمنين عليه السلام، متفانياً في ولايته، وشهد معه مشاهده.

٢٨ ـ وقال عليه السلام في عبدالله بن كعب المرادي ـ عندما استشهد في صفّين ـ: «رحمه الله، جاهَد معنا عدوّنا في الحياة، ونصح لنا في الوفاة» وكان قد أبلغ الأسود بن قيس السلام لأمير المؤمنين عليه السلام في آخر رمق له وأوصاه بنصرته عليه السلام[٢].

٢٩ ـ وعامر بن واثلة بن عبدالله الكناني الليثي، أبو الطفيل، وهو آخر من مات من الصحابة، توفّي سنة ١٠٠ هـ، ولم يروِ عنه البخاري؛ لأنّه كان من شيعة عليّ عليه السلام، وقد شهد مع عليّ عليه السلام جميع حروبه، ومادح عليّ عليه السلام بشعره، ومن ثقاته[٣].

٣٠ ـ وقال عليه السلام في سعد بن مسعود الثقفي، عمّ المختار بن أبي عبيد: «أمّا بعد، فإنّك قد أدّيت خراجك، وأطعت ربك، وأرضيت إمامك، فعل المبرّ التقي النجيب، فغفر الله ذنبك، وتقبّل سعيك، وحسّن مآبك»[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ٥/٩، تاريخ ابن الأثير ٢/٣٦٩.

(٢) وقعة صفّين: ٤٥٧، تنقيح المقال ـ ط الحجرية ـ ٢/١٦٩؛ وفي شرح نهج البلاغة ٨/٩٣ أنّ هذا القول كان في حقّ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وكان قد أوصىٰ الأسود بن طهمان الخزاعي بنصرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) رجال الشيخ الطوسي: ٧٠ رقم ٦٤٦، تاريخ اليعقوبي ٢/٣٠٧، تاريخ دمشق ٢٦/١٢٨، سير أعلام النبلاء ٣/٤٦٨ رقم ٩٧.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٠١.

٣١ ـ وقال عليه السلام في صعصعة بن صوحان بن حجر العبدي، الذي كان لسانه السيف البتّار دفاعاً عن عليّ عليه السلام، وشهد معه الجمل وبقيّة حروبه: «إنْ كنتَ لِما علمت خفيف المؤونة عظيم المعونة»[١]، وهو نظير ما قاله عليه السلام لأخيه زيد..

وقد قتل مع أخيه سيحان (٣٢) يوم الجمل ودفنا في قبر واحد.

٣٣ ـ أمّا سليمان بن صرد بن الجون الخزاعي، فهو من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومن وجوه الشيعة في الكوفة، شهد مع عليّ عليه السلام صفّين، وقد أتاه بعد التحكيم في صفّين ووجهه مضروباً بالسيف، فلمّا نظر إليه عليٌّ عليه السلام قال: «**﴿فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾**[٢] فأنت ممّن ينتظر وممّن لم يبدّل»[٣].

وقد قاد ثورة التوّابين علىٰ ابن زياد في الكوفة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام.

٣٤ ـ وقال عليه السلام في حجر بن عديّ بن معاوية الكندي ـ له صحبة ـ، الذي كان من خواصّه، وشهد معه حروبه، بصيراً بمعرفة عليّ عليه السلام ومقامه في الدين: «لا حرمك الله الشهادة، فإنّي أعلم أنّك من رجالها»[٤].

وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً في استشهاده علىٰ الحقّ، وأنّ أهل السماء يغضبون لقتله[٥].

---

(١) رجال الكشّي ١/٢٨٤ رقم ١٢١، الغارات ـ للثقفي ـ ٢/٥٢٤، مقاتل الطالبيّين: ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب ٣٣: ٢٣.

(٣) وقعة صفّين: ٥١٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/١٩٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٣١.

٣٥ ـ حبّة بن جوين البجلي العرني ، أبو قدامة ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام ، وشهد معه حروبه ، وروىٰ حديث الغدير .

٣٦ ـ وقال عليه السلام لجندب بن كعب بن عبدالله الأزدي الغامدي ، من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام : «يا جندب ! ليس هذا زمان ذاك»[١] ، وذلك عندما أصرّ جندب عليه عليه السلام أن يدعو إليه عندما بويع عثمان لأنّه أحقّ بالخلافة ممّن تقدّم عليه ، وأنّه سيجد من يناصره .

٣٧ ـ جعدة بن هبيرة بن أبي وهب القرشي المخزومي ، وأُمّه أُمّ هاني بنت أبي طالب ، وكان ممّن يحفيه عليه السلام ويوليه عناية خاصّة[٢] .

٣٨ ـ وقال في جارية بن قدامة التميمي السعدي وكان من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام ، ثابتاً صلباً في ولائه له ، شديداً علىٰ أعدائه ، من جملة شرطة الخميس .

٣٩ ـ جابر بن عبدالله الأنصاري ، الصحابي المعروف ، شهد مع الإمام عليه السلام صفّين ، وكان يدور في سكك الأنصار ومجالسهم ويقول : عليّ خير البشر ، فمن أبىٰ فقد كفر ، يا معشر الأنصار ! أدّبوا أولادكم علىٰ حبّ عليّ ، فمن أبىٰ فانظروا في شأن أُمّه[٣] .

وعن الصادق عليه السلام أنّه آخر من بقي من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان رجلاً منقطعاً إلىٰ أهل البيت[٤] .

---

(١) الإرشاد ١ / ٢٤١ ، أمالي الطوسي : ٢٣٤ ح ٤١٥ ، شرح نهج البلاغة ٩ / ٥٧ .
(٢) وقعة صفّين : ٤٦٣ .
(٣) علل الشرائع : ١٤٢ / ٤ ، أمالي الصدوق : ١٣٥ ح ١٣٤ ، رجال الكشّي ١ / ٢٣٦ رقم ٩٣ .
(٤) الكافي ١ / ٤١٩ ، رجال الكشّي ١ / ٢١٧ رقم ٨٨ .

٤٠ ـ ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري الظفري، من أصحاب النبيّ ﷺ، شهد أُحداً وما بعدها، وكان له بلاء مع عليّ عليه السلام في حروبه، وآستعمله على المدائن، وكان معاوية يهابه[١].

٤١ ـ أبو قتادة الحارث بن ربعي بن بلدمة الأنصاري الخزرجي، من أصحاب النبيّ ﷺ، شهد أُحداً وما بعدها، وشهد مع عليّ عليه السلام حروبه، كان شديد الإيمان بعليّ عليه السلام، وقد ولّاه مكّة.

٤٢ ـ أبو رافع، مولى رسول الله ﷺ، شهد معه ﷺ المشاهد ما عدا بدراً، ولازم عليّاً عليه السلام، وكان على بيت المال من قبله[٢].

٤٣ ـ أبو سعيد سعد بن مالك بن شيبان الأنصاري الخدري، من صحابة النبيّ ﷺ، وكان معه في عدّة من المشاهد، ولازم عليّاً عليه السلام وكان معه في حرب النهروان[٣].

٤٤ ـ أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو، وهو من الثابتين على محبّة عليّ عليه السلام ووُلده، شهد معه حروبه.

وغيرهم ممّن مدحهم أمير المؤمنين عليه السلام.



(١) تاريخ بغداد ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦، الإصابة ١/ ٥١٠ رقم ٩٠٤.

(٢) رجال النجاشي: ٤ رقم ١، رجال ابن داود: ٣١ رقم ١٢، الخلاصة ـ للشيخ الطوسي ـ: ٤٧ رقم ٢.

(٣) تاريخ بغداد ١/ ١٨٠، رجال الكشّي ١/ ١٨٣ رقم ٧٨.

موازين التعديل والجرح في الصحابي

قد تبيّن ممّا مرّ كراراً أنّ البحث في عنوان عدالة الصحابة غير عاكس لحقيقة البحث بصورة عامّة، بل الحقيقة هو البحث عن أصحاب السقيفة، الذين بايعوا أبا بكر دون عامّة الأنصار، والذين خالفوا البيعة تبعاً لسعد بن عبادة، ودون بني هاشم، وكذا من والىٰ عليّاً عليه‌السلام ممّن ذكرنا أسمائهم في الحلقات السابقة، كما أنّ البحث ليس في الصحبة للنبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله، وأنّما البحث الجاري في مشروعية ما أُقيم وأُسّس في السقيفة من نهج الخلافة وما تبع ذلك من النهج الأُموي والمرواني كل ذلك إقصاءً لعترة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله.

ورغم الوعي بهذه الحقيقة فمسايرة مع عنوان البحث نتابع النقطة التالية:

من موازين التعديل والجرح في الصحابي:

المودّة للعترة أو نصب العداوة لهم:

وذلك لكون المودّة فريضة قرآنية كبرىٰ أوجبها الله تعالىٰ علىٰ كلّ مسلم وعظّمها في الذكر الحكيم، قال تعالىٰ: ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنّات لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك هو الفضل الكبير * ذلك الذي يبشرُ الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسناً إنّ الله غفور شكور** ﴾[1]، مضافاً إلىٰ ما استفاض

(١) سورة الشورىٰ ٤٢ : ٢٢ و ٢٣.

بل تواتر من السُنّة النبويّة في حبّ علي والعترة عليهم السلام، فمن كان قائماً من الصحابة بهذه الفريضة مراعياً لها كان على حدّ العدالة، ومن كان تاركاً لها ناقضاً لهذا الميثاق فهو خارج عن حدّ العدالة فضلاً عن نصب العداوة للعترة. الذي هو بمثابة الجحود.

وسنرى أنّ من أهل سُنّة الجماعة قد عكس العيار عندهم وجعلوا النصب والعداوة سُنّة يدينون بها.

ولنتعرض للمعيار القرآني والنبوي أوّلاً، ثم نتبعه بتركهم له ثانياً.

المقام الأوّل

المعيار القرآني والنبويّ لفريضة المودّة

فأمّا الآية الشريفة فقبل التعرّض إلىٰ إطار مفادها نذكر:

أوّلاً: مورد نزولها هو أنّ الأنصار والمهاجرين اجتمعوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! أنّ لك مؤونة في نفقتك ومن يأتيك من الوفود وهذه أموالنا مع دمائنا فاحكم فيها مأجوراً، اعطِ منها ما شئت وأمسك ما شئت من غير حرج. فأنزل الله عزّ وجلّ عليه الروح الأمين، فقال: يا محمّد! قل: **﴿لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القُربىٰ﴾**[1]، يعني: أن تودّوا قرابتي من بعدي. فخرجوا، فقال المنافقون: ما حمل رسول الله علىٰ ترك ما عرضنا عليه إلّا ليحثّنا علىٰ قرابته من بعده، إن هو إلّا شيء افتراه في مجلسه، فكان ذلك من قولهم عظيماً، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تُفيضون فيه كفىٰ به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفورُ الرحيم﴾**[2]، فبعث إليهم النبيّ ﷺ، فقال: هل من حدث؟ فقالوا: أي والله، قال بعضنا كلاماً غليظاً كرهناه، فتلا عليهم رسول الله ﷺ الآية فبكوا وآشتدّ بكاؤهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿وهو الذي يقبل التّوبة عن**

---

(١) سورة الشورىٰ ٤٢ : ٢٣ .

(٢) سورة الأحقاف ٤٦ : ٨ .

عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾[١][٢].

وقد روي قريب منه عن عبد الله بن عبّاس، كما روي في عدّة مصادر لأهل سُنّة الجماعة أنّهم سألوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما عليهم السلام»[٣].

ثانياً: قال في **الكشاف**: «يجوز أن يكون استثناءً متّصلاً أي: لا أسألكم أجراً إلّا هذا وهو أن تودّوا أهل قرابتي ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة لأنّ قرابته قرابتهم فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة، ويجوز أن يكون منقطعاً أي: لا أسألكم أجراً قط ولكنني أسألكم أن تودّوا قرابتي الّذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم، فإن قلت: هلا قيل: إلّا مودة القربىٰ، أو إلّا المودّة للقربىٰ، وما معنىٰ قوله: **﴿إلّا المودّة في القربىٰ﴾** قلت: جُعلوا مكاناً للمودّة ومقراً لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم هوىٰ وحبّ شديد، تريد: أحبّهم وهم مكان حبّي ومحله وليست (في) بصلة للمودّة، كاللام إذا قلت: إلّا المودّة للقربىٰ.

أنّما هي متعلّقة بمحذوف تعلّق الظرف به في قولك المال في الكيس وتقديره: إلّا المودة ثابتة في القربىٰ ومتمكنة فيها. والقربىٰ: مصدر كالزلفىٰ والبشرىٰ بمعنى: قرابة والمراد في أهل القربىٰ.

---

(١) سورة الشورىٰ ٤٢: ٢٥.

(٢) تفسير البرهان ٤/٨١٩.

(٣) لاحظ: فضائل الصحابة ـ لابن حنبل ـ ٢/٦٦٩ ح ١١٤١، والعمدة ـ لابن بطريق ـ: ٩٤ ح ٤٧، وصحيح البخاري ـ في تفسير آية المودّة ـ ٦/٢٣١ ح ٣١٤، وتفسير الطبري ٢٥/١٦، وشواهد التنزيل ٢/١٤ ح ١٣٧، ومستدرك الحاكم ٣/١٧٢، والصواعق المحرقة: ١٧٠، والطرائف: ١١٢ ح ١٦٩، مناقب الخوارزمي: ١٩٤، ومقاتل الطالبيين: ٦٢، وغيرها من المصادر العديدة.

وروي أنّها لمّا نزلت هذه الآية ، قيل : يا رسول الله ! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم ؟

قال : عليّ وفاطمـة وابنـاهما . .

ويـدلّ عليه ما روي عن علي رضي الله عنه : شكـوت إلىٰ رسـول الله ﷺ حسد الناس لي ، فقال : (أما ترضىٰ أن تكون رابع أربعة : أوّل من يدخل الجنّة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا ، وذريتنا خلف أزواجنا)[1] .

وعن النبيّ ﷺ : (حرمت الجنّة علىٰ من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ، ومن اصطنع صنيعة إلىٰ أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة) .

ثم ذكر مورد النزول المتقدّم ، وقال : قال رسول الله ﷺ : من مات علىٰ حبّ آل محمّـد مات شهيداً[2] ، ألّا ومن مات علىٰ حبّ آل محمّـد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات علىٰ حبّ آل محمّـد مات تـائباً ، ألا ومـن مات علىٰ حبّ آل محمّـد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات علىٰ حبّ آل محمّـد بشّره ملك الموت بالجنّة ، ثمّ منكر ونكير ، ألا ومن مات علىٰ حبّ آل محمّـد يزف إلىٰ الجنّة كما تزف العروس إلىٰ بيت زوجها ، ألا ومن مات علىٰ حبّ آل محمّـد فتح له في قبره بابان إلىٰ الجنّة ، ألا ومن مات علىٰ حبّ آل محمّـد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحـمة ، ألا ومـن مات علىٰ حبّ آل محمّـد مات علىٰ السُنّة والجماعة ، ألا ومن مات علىٰ

---

(١) في هامش الكشّاف ٤ / ٢٢٠ ، أخرجه الكريمي عن ابن عائشة بسنده عـن عـلي ، ورواه الطبراني من حديث أبي رافع .

(٢) في هامش الكشاف ٤ / ٢٢٠ ، أخرجه الثعلبي .

بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمّد لم يشمّ رائحة الجنّة[1].

وقال في تفسير: ﴿ومن يقترف حسنة﴾، عن السدّي أنّها المودّة في آل رسول الله ﷺ: نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ومودّته فيهم[2].

والظاهر: العموم في أي حسنة كانت، إلّا أنّها لمّا ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربىٰ، دلّ ذلك علىٰ أنّها تناولت المودّة تناولاً أوّلياً، كأنّ سائر الحسنات لها توابع»[3]. انتهىٰ.

أقول:

ويدلّ تقريبه الأخير لحسنة المودّة وعظمتها أنّها من الفرائض الكبرىٰ في الدّين، وسيأتي تقريب دلالة الآية علىٰ ذلك بنحو أوضح.

وقال الفخر الرازي في **تفسيره الكبير** بعد ما نقل كلام الزمخشري: «وأنا أقول آل محمّد ﷺ هم الّذين يؤول أمرهم إليه فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل.

ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين

---

(١) وفي تفسير القرطبي ١٦/٢٢، في ذيل الآية حُكي عن الثعلبي هذه الرواية مذيّلة بـ: «ومن مات علىٰ بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي».

(٢) ويشهد لذلك موت فاطمة عليها السلام وهي واجدة علىٰ أبي بكر، ما رواه البخاري في صحيحه ٥/٨٢ غزوة خيبر، وإيصائها عدم حضوره جنازتها وأخذه لفدك منها، في قبال إعطاءه ابنته عائشة حجرة النبيّ ﷺ توريثاً.

(٣) تفسير الكشّاف ٤/٢٢١.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ التعلّقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل ، فقيل : هم الأقارب ، وقيل : هم أُمّته ، فإن حملناه علىٰ القرابة فهم الآل ، وإن حملناه علىٰ الأُمّة الّذين قبلوا دعوته فهم أيضاً الآل ، فثبت علىٰ جميع التقديرات هـم الآل ، وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؟ فمختلف فيه »[1] .

أقول :

يشير الفخر الرازي إلىٰ ما قاله الرضا عليه السلام في مجلس المأمون ـ في حديث ـ: « فلمّا أوجب الله تعالىٰ ذلك ثُقّل لِثقَلِ وجوب الطّاعة ، فأخذ بها قوم أخذ الله ميثاقهم علىٰ الوفاء ، وعاند أهل الشقاق والنفاق وألحدوا في ذلك ، فصرفوه عن حدّه الذي قد حدّه الله تعالىٰ ، فقالوا القرابة هم العرب كلّها وأهل دعوته ، فعلىٰ أيّ الحالتين كان ، فقد علمنا أنّ المودّة هي للقرابة فأقربهم من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أولاهم بالمودّة ، وكلما قربت القرابة كانت المودّة علىٰ قدرها »[2] .

ثمّ قال الرازي في **تفسيره**: « وروىٰ صاحب **الكشّاف** أنّه لمّا نـزلت هذه الآية ، قيل : يا رسول الله مـن قـرابـتك هـؤلاء الذيـن وجـبت عـلينا مودّتهم ؟

فقال : علي وفاطمة وابناهما » .

فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ، ويدلّ عليه وجوه :

---

(١) التفسير الكبير ٢٧ / ١٦٦ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ / ٢١١ ح ١ .

الأوّل : قوله تعالىٰ : ﴿ **إلّا المودّة في القربىٰ** ﴾ ، ووجه الاستدلال به ما سبق .

الثاني : لا شك أنّ النبي ﷺ كان يحبّ فاطمة عليها السلام ، قال ﷺ : «فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها» ، وثبت بالنقل المتواتر عن محمّد ﷺ أنّه كان يحبّ عليّاً والحسن والحسين ، وإذا ثبت ذلك وجب علىٰ كلّ الأُمّة مثله ؛ لقوله : ﴿ **واتّبعوه لعلّكم تهتدون** ﴾[1] ؛ ولقوله تعالىٰ : ﴿ **فليحذر الّذين يخالفون عن أمره** ﴾[2] ؛ ولقوله : ﴿ **قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[3] ؛ ولقوله سبحانه : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنة** ﴾[4] .

الثالث : أنّ الدعاء للآل منصب عظيم ، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله : اللهم صل علىٰ محمّد وعلىٰ آل محمّد وارحم محمّداً وآل محمّد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل ، فكلّ ذلك يدلّ علىٰ أنّ حبّ آل محمّد واجب ، وقال الشافعي رضي الله عنه :

يا راكباً قف بالمحصّب من منىٰ   واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلىٰ منىٰ   فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبّ آل محمّدٍ   فليشهد الثقلان أنّي رافضي[5]

---

(١) سورة الأعراف ٧ : ١٥٨ .
(٢) سورة النّور ٢٤ : ٦٣ .
(٣) سورة آل عمران ٣ : ٣١ .
(٤) سورة الأحزاب ٣٣ : ٢١ .
(٥) التفسير الكبير ٢٧ / ١٦٦ ، ديوان الشافعي : ٨٤ .

أقول :

عقد ابن قدامة الحنبلي صاحب كتاب **المغني**، وكذا صاحب **الشرح الكبير** فصلاً في باب التشهد في الصلاة ـ بعدما نقلا الأقوال في صفة الصلاة على النبي وآله ﷺ، وأنّ هناك من اختار وجوب الصلاة على (آله) ـ.

قال : «فصل آل النبيّ ﷺ أتباعه على دينه، كما قال الله تعالى ﴿**أدخِلوا آل فرعون**﴾[1]، يعني أتباعه من أهل دينه، وقد جاء عن النبيّ ﷺ أنّه سُئل مَنْ آل محمّد ؟ فقال : كلّ تقيّ، أخرجه تمام في فوائده، وقيل : آله أهله، الهاء منقلبة عن الهمزة ـ إلى أن قال ـ ومعناهما جميعاً أهل دينه، وقال ابن حامد وأبو حفص : لا يجزي لما فيه من مخالفة لفظ الأثر وتغيير المعنى فإنّ الأهل أنّما يعبّر عن القرابة والآل يعبّر به عن الأتباع في الدين»[2].

أقول :

وتحريف الكلم عن مواضعه في المقام وأمثاله ممّا يخصّ مناقب عترة النبيّ ﷺ امتثالاً لفريضة المودّة، فتراه يترك ما يروونه من ذكر الذريّة في صفة الصلاة على النبيّ ﷺ في التشهد، ولا يشير إليها من قريب ولا بعيد، مع أنّ الآل في قوله تعالى : ﴿**وقال رجلٌ مؤمن من آل فرعون**﴾[3] المراد به الرحم ؛ لأنّه ابن عمّ أو ابن خال فرعون، وليس

(١) سورة غافر ٤٠ : ٤٦ .
(٢) المغني ١ / ٥٨٢ .
(٣) سورة غافر ٤٠ : ٢٨ .

استعمال الآل في الأتباع على وجه الحقيقة بل المجاز.

فكان الأولى بهم الاستشهاد في معنى اللآل بقوله تعالى **﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذريّة بعضها من بعض﴾**[1]، فحيث وضحّت الآية الاصطفاء في آل إبراهيم وآل عمران هو في الذريّة والرحم لا في الأتباع.

فالموازنه بين آل محمّد مع آل إبراهيم وآل عمران لا مع آل فرعون.

ثمّ قال الرازي: «قوله: **﴿إلّا المودّة في القربى﴾**، فيه منصب عظيم للصحابة؛ لأنّه تعالى قال: **﴿والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون﴾**[2]، فكلّ من أطاع الله كان مقرّباً عند الله تعالى فدخل تحت قوله: **﴿إلّا المودّة في القربى﴾**، والحاصل أنّ هذه الآية تدلّ على وجوب حبّ آل رسول الله ﷺ وحبّ أصحابه وهذا المنصب لا يسلم إلاّ على قول أصحابنا أهل السُنّة والجماعة الّذين جمعوا بين حبّ العترة والصحابة، وسمعت بعض المذكّرين قال أنّه ﷺ، قال: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا»، وقال ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم» ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين:

أحدهما: السفينة الخالية من العيوب والثقب.

والثاني: الكواكب الظاهرة الطالعة النيّرة، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجا السلامة غالباً، فكذلك ركب أصحابنا أهل السُنّة سفينة حبّ آل محمّد ووضعوا أبصارهم على نجوم

---

(١) سورة آل عمران ٢: ٣٣ و ٣٤.

(٢) سورة الواقعة ٥٦: ٩ و ١٠.

الصحابة، فرجوا من الله تعالىٰ أن يفوزوا بالسلامة والسعادة في الدنيا والآخرة»[١]. انتهىٰ.

أقول:

١ ـ كيف يجمع الرازي بين تفسير القُربىٰ بمعنىٰ القرابة وتفسيرها بمعنىٰ العبادة. مع ما روي بطرق عديدة أنّهم «عليّ وفاطمة وأبناهما»، بل مع قوله تعالىٰ في آيتي الخمس[٢] والفيء[٣] من جعلهما لله وللرسول ولذي القربىٰ بمعنىٰ القرابة وكذلك في آية إيتاء ذي القربىٰ حقّه[٤] التي نزلت خطاباً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في اعطاء فاطمة فدكاً، بل لم يرد لفظ وهيئة (القربىٰ) في القرآن بمعنىٰ العبادة والطاعة ونحوهما، بل جميع مواردها بمعنىٰ القرابة والأهل.

٢ ـ أنّه لم ينقل تتمّة حديث السفينة وهي: «ومَنْ تخلّف عنها هلك»، وحديث السفينة دالّ علىٰ انحصار النجاة بهم.

كما أنّ حديث النجوم المنقول في بعض الطرق الأُخرىٰ لديهم أيضاً هو: «أهل بيتي كالنجوم...»، ولو سلّمنا كون ألفاظ الحديث هو ما ذكرها فإنّ أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم هم علىٰ مجموعات، منهم جماعة السقيفة الذين عقدوا بيعة أبي بكر، ومنهم الأنصار الذين خالفوا تلك البيعة، ومنهم الموالين لعلي عليه السلام، كسلمان وأبي ذرّ وعمّار والمقداد وبقية الاثني عشر الّذين

---

(١) التفسير الكبير ٢٧ / ١٦٧.

(٢) سورة الأنفال ٨ : ٤١.

(٣) سورة الحشر ٥٩ : ٧.

(٤) سورة الإسراء ١٧ : ٢٦.

ذكرناهم في الحلقة السابقة الذين اعترضوا على أبي بكر وجلوسه مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذا جابر بن عبد الله الأنصاري وزيد بن أرقم وأبي سعيد الخدري وغيرهم ، وبمقتضى الجمع بين الحديثين وعدم المعارضة والتوفيق بينهما هو الاقتداء بالصحابة الذين والوا عترة النبيّ وركبوا سفينة النجاة ، كما أنّ حديث السفينة المخاطب به كلّ المسلمين بما فيهم الصحابة ، ولفظ الحديث حسب ما زعم (بأيّهم اقتديتم) لفظ العموم البدلي (أي) ، المنطبق على مثل سلمان وأبي ذرّ والمقداد بل إنّ أكثر من صحب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأدمن ملازمته هم قرابته علي وفاطمة عليهما السلام .

٣ ـ أن دعواه ركوب أصحابه سفينة حبّ آل محمّد سيأتي تفشي سُنّة العداء والنصب لآل محمّد فيهم ، وجعلهم حبّ آل محمّد علامة للضعف والجرح ، وأنّهم مقيمون على الجفاء والهجر لعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، واقرأ التاريخ من يوم وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحدوث السقيفة إلى يومنا هذا فانظر مَن الذي وصل العترة رحم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ **والّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾[1] ؟! ومَن الذي قطع الصلة بالعترة ﴿ **والذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾[2] ؟!

ثالثاً : قد حكى القرطبي في **تفسيره** عن قوم القول بنسخ الآية بقوله تعالى : ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلّا على الله** ﴾[3] وبقوله تعالى : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين** ﴾[4] ،

(١) سورة الرعد ١٣ : ٢١ .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٧ .

(٣) سورة سبأ ٣٤ : ٤٧ .

(٤) سورة ص ٣٨ : ٨٦ .

لكي يلحق الله تعالىٰ نبيّه بإخوانه من الأنبياء، حيث قالوا: ﴿**وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىٰ إلّا علىٰ ربّ العالمين**﴾[١]، ثمّ حكىٰ تقبيح هذا القول عن الثعلبي[٢].

أقول:

إنّ قوله تعالىٰ: ﴿**ما سألتكم من أجر فهو لكم**﴾ يعزز آية المودّة ولا يصادم مفادها، بل هو شارح للأجر في آية المودّة وأنّ منفعته ونفعه عـائد للـمكلّفين والمسـلمين أنـفسهم لا إلىٰ النـبيّ ﷺ، فـليس سُـنّة النبيّ ﷺ التي أمره الله تعالىٰ بها في آية المودّة مخالفة لسنن الأنبياء من قبل من عدم طلب الأجر علىٰ أدائهم وتبليغهم للدّين والنبوّة.

إذْ المودّة في القربىٰ التي سألها النبيّ ﷺ منهم ليس أجراً عـائداً نفعه له بل نفعه ينتفع به هم أنفسهم، وهذا ممّا ينادي أنّ مودّة القربىٰ هي منشأ هداية لهذه الأُمّة، وهذا ما يوضحه أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجراً إلّا من شاء أن يتّخذ إلىٰ ربّه سبيلا**﴾[٣]، أي: أنّ الأجـر الذي سأله النبيّ ﷺ وهو المودّة في القربىٰ هو اتخاذ السبيل إلىٰ الربّ تعالىٰ، فنفع المودّة عائد للأُمّة نفسها لا للنبيّ ﷺ، إذْ المودّة تتخذ سبيلاً للهداية إلىٰ الله تعالىٰ، فمودّة علي وفاطمة وابناهما هداية، وهم السبيل إليه تعالىٰ.

ويتحصّل من ذلك: تطابق آية المودّة مع حديث الثقلين وحـديث

---

(١) سورة الشعراء ٢٦ : ١٠٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ٢٢.

(٣) سورة الفرقان ٢٥ : ٥٧.

السفينة وغيرها من الآيات والأحاديث في أصحاب الكساء.

مفاد آية المودّة:

إنّ التأمّل والتدبّر في ألفاظ الآية يرشدنا إلىٰ ما أشارت إليه الآيتان الأُخريان من كون المودّة في القربىٰ مصلحة عامّة للأُمّة وسبيل هداية، وأنّ هذه الفريضة التي أمر الله تعالىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغها للأُمّة هي من عظائم الفرائض وأركانها؛ وذلك لأنّ المودّة جعلت أجراً معادلاً لكلّ الرسالة ومن البين أنّ تبليغ الرسالة اشتمل علىٰ تبليغ التوحيد والمعاد والأقرار والايمان بالنبوّة وغير ذلك من الأُصول الاعتقادية، فضلاً عن بقية أركان الدين، ومقتضىٰ المعادلة بين الأجر والمعوض كون هذه الفريضة من أركان الدين.

وفي حديث الرضا عليه السلام في مجلس المأمون عن آية المودّة: «وهذه خصوصية للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ يوم القيامة وخصوصية للآل دون غيرهم، وذلك أن الله عزّ وجلّ حكىٰ ذكر نوح في كتابه: **﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجري إلّا علىٰ الله وما أنا بطارد الّذين آمنوا إنّهم ملاقوا ربّهم ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾**[1]..

وحكىٰ عزّ وجلّ عن هود أنّه قال: **﴿ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنّ أجري إلّا علىٰ الذي فطرني أفلا تعقلون﴾**[2]..

وقال عزّ وجلّ لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمّد! **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ ومن يقترف حسنةً نزد له فيها حسناً﴾**[3]، ولم

---

(١) سورة هود ١١: ٢٩.

(٢) سورة هود ١١: ٥١.

(٣) سورة الشورىٰ ٤٢: ٢٣.

يفرض الله تعالىٰ مودّتهم إلّا وقد علم أنّهم لا يرتدّون عن الدّين أبداً ولا يرجعون إلىٰ ضلال أبداً، وأخرىٰ أن يكون الرجل وادّاً للرجل، فيكون بعض أهل بيته عدوّاً له، فلم يسلم قلب الرجل له، فأحبّ الله عزّ وجلّ أن لا يكون في قلب رسول الله ﷺ علىٰ المؤمنين شيء ففرض الله عليهم مودّة ذوي القربىٰ فمن أخذ بها وأحبّ رسول الله ﷺ وأحبّ أهل بيته لم يستطع رسول الله ﷺ أن يبغضه، ومن تركها ولم يأخذ بها وأبغض أهل بيته، فعلىٰ رسول الله ﷺ أن يبغضه لأنّه قد ترك فريضة من فرائض الله تعالىٰ، فأيّ فضيلة وأيّ شرف يتقدّم هذا أو يدانيه؟..

ـ إلىٰ أن قال عليه السلام: ـ وما بعث الله عزّ وجلّ نبيّاً إلّا أوحىٰ إليه أن لا يسأل قومه أجراً، لأنّ الله يُوَفّي أجر الأنبياء، ومحمّد ﷺ فرض الله عزّ وجلّ مودّة قرابته علىٰ أُمّته، وأمره أن يجعل أجره فيهم، لتودّوه في قرابته، لمعرفة فضلهم الذي أوجب الله عزّ وجلّ لهم، فإنّ المودّة إنّما تكون علىٰ قدر معرفة الفضل..

ـ إلىٰ أن قال عليه السلام: ـ وما أنصفوا نبيّ الله ﷺ في حيطته ورأفته، وما منّ الله به علىٰ أُمّته ممّا تعجز الألسن عن وصف الشكر عليه، أن يَوَدّوه في قرابته وذريّته وأهل بيته، وأن يجعلوهم فيهم بمنزلة العين من الرأس، حفظاً لرسول الله ﷺ فيهم، وحبّاً لهم، وكيف والقرآن ينطق به ويدعوا إليه، والأخبار ثابتة أنّهم أهل المودّة والذين فرض الله تعالىٰ مودّتهم ووعد الجزاء عليها، فما وفىٰ أحد بهذه المودّة مؤمناً مخلصاً إلّا استوجب الجنّة، لقول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنّات لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك هو الفضل الكبير * ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم**

عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ ﴾[١] مفسّراً مبيّناً»[٢].

ثمّ إنّ هناك آيات أُخر دالّة علىٰ هذه الفريضة، كقوله تعالىٰ: **﴿ إنّما وليّكم الله ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولّ الله ورسوله والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون ﴾**[٣].

وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تصدّق وهو راكع في واقعة معروفة، فلاحظ فيها مصادر الفريقين، وكذا آية التبليغ وآية خير البريّة، وسورة هل أتىٰ وغيرها من الآيات الكثيرة.

وأما الروايات، والأحاديث الواردة في افتراض محبّة عترة المصطفىٰ علي وفاطمة وولديهما فهي فوق حدّ التواتر، فقد روي عن جابر: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نعرض أولادنا علىٰ حبّ علي بن أبي طالب[٤].

وروي عن عبادة بن الصامت، أنّه قال: كنا نبور أولادنا بحبّ علي ابن أبي طالب فإذا رأينا أحداً لا يحبّه علمنا أنّه ليس منّا وأنه لغير رشدة[٥].

وروىٰ المناوي في **كنوز الحقائق**، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «حبّ علي عليه السلام براءة من النفاق»[٦]، وروىٰ الطبراني وغيره عن فاطمة

---

(١) سورة الشورىٰ ٤٢: ٢٢ و ٢٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ / ٢١١ ح ١.

(٣) سورة المائدة ٥: ٥٥ و ٥٦.

(٤) ميزان الاعتدال ١ / ٢٣٦، لسان الميزان ٢ / ٢٣١.

(٥) الغريبين ـ للهروي ـ: ٢١ مخطوط، مجمع بحار الأنوار ـ للصديقي ـ ١ / ١٢١ طبعة لكهنو، الأربعين ـ لعلي الهروي ـ: ٥٤، المناقب ـ لعبد الله الشافعي ـ: ٢١ مخطوط، تاج العروس ـ للزبيدي ـ ٣ / ٦١ مادة «بور»، نزهة المجالس ـ للصفوري ـ ٢ / ٢٠٨.

(٦) كنوز الحقائق: ٦٧، ينابيع المودّة ـ للقندوزي ـ: ١٨.

الزهراء عليها السلام قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أنّ السعيد كلّ السعيد من أحبّ عليّاً عليه السلام في حياته وبعد موته، وأنّ الشقيّ كلّ الشقيّ من أبغض عليّاً عليه السلام في حياته وبعد موته»[١]، وروىٰ جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لكلّ شيء أساس وأساس الدّين حبّنا أهل البيت»، وفي طريق آخر «حبّ أهل بيتي»[٢].

وروي عن أنس بن مالك أنّه يقول: والله الذي لا إله إلّا هو لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «عنوان صحيفة المؤمن حبّ علي بن أبي طالب»[٣].

ويمكن للقارئ العزيز مراجعة كتاب **ملحقات إحقاق الحق** بتوسط فهرست الملحقات مادة «ح ب ب» ليقف علىٰ عشرات المصادر من كتب أهل سنة الجماعة التي روت الأحاديث الجمّة في ذلك، مثل «من مات علىٰ حبّ آل محمّد مات شهيداً»، فقد أخرج له في الملحقات العديد من المصادر، وكذا «من مات علىٰ حبّ آل محمّد فأنا كفيله بالجنّة وجعل الله

---

(١) المناقب ـ للخوارزمي ـ: ٤٧ و ٨٠ عن **معجم الطبراني**، ذخائر العقبى ـ للطبري ـ: ٩٢، الرياض النضرة ٢/٢١٤، شرح النهج ـ لابن أبي الحديد ـ ٢/٤٤٩، مقتل الحسين ـ للخوارزمي ـ: ٤٦، مجمع الزوائد ـ للهيثمي ـ ٢/١٣٢، منتخب كنز العمال ٥/٤٧، ينابيع المودّة ـ للقندوزي ـ: ١٢٧ و ٢١٣، الأربعين ـ للهروي ـ: ٦٥ مخطوط، أرجح المطالب ـ للأمرتسي ـ: ٥٢٢ و ٥٠٧ و ٥١٨، مفتاح النجا ـ للبدخشي ـ: ٦٠.

(٢) لسان الميزان ٥/٣٨٠، المناقب المرتضوية ـ للكشفي الحنفي ـ: ١٠٠، كنز العمال ١٣/٩٠ و ٦/٢١٨، رموز الأحاديث ـ للكمشخانوي ـ: ٤٩٨.

(٣) تاريخ بغداد ـ للخطيب ـ ٤/٤١٠، والمناقب ـ لابن المغازلي ـ: ٢٤٣ ح ٢٩٠، لسان الميزان ٤/٤٧١، الجامع الصغير ـ للسيوطي ـ ٢/١٤٥، تاريخ دمشق ـ لابن عساكر ـ ١/٤٥٤، وغيرها من عشرات المصادر.

زوار قبره ملائكة الرحمة»، و «لو اجتمع الناس على حبّ عليّ بن أبي طالب لما خلق الله النار»، و «حبّ علي براءة من النار»، و «حبّ علي حسنة لا تضرّ معها سيئة وبغضه سيئة لا تنفع معها حسنة»، و «أساس الإسلام حبّي وحبّ أهل بيتي»، «لن يقبل الله فرضاً إلّا بحبّ علي بن أبي طالب»، «لا ينال ولاية النبيّ إلّا بحبّ علي»، «أكثركم نوراً يوم القيامة أكثركم حبّاً لآل محمّد»، «أثبتكم على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي»، «من أحبّ هذين ـ الحسنين ـ وأُمّهما وأباهما كان معي في درجتي»، «من أحبّ عليّاً فقد أحبّني ومن أحبّني فقد أحبّ الله»، «شفاعتي لأُمّتي من أحبّ أهل بيتي»، «لا يحبنا إلّا من طابت ولادته»، «لا يحببنا أهل البيت إلّا مؤمن تقيّ»، «لا يحبّني حتّى يحبّ ذوي قرابتي»، «من أراد دخول الجنّة بغير حساب فليحبّ أهل بيتي»، «لا يقبل إيمان عبد إلّا بمحبته أهل بيتي»، «عاهدني ربّي أن لا يقبل إيمان عبد إلّا بمحبّة أهل بيتي»، وغيرها من عشرات الأحاديث لو أردنا أن نستوفيها بأكملها لخرجنا عن حدّ البحث، لكن يمكن مراجعة تلك المصادر[1].



(١) لاحظ : فهرس ملحقات إحقاق الحقّ ٣٤/ ٤٠١، مادة : «ح ب ب».

المقام الثاني

في ترك القوم فريضة المودّة وتبديلها بسُنّة النّصب والعداوة

قال ابن قدامة في **المغني** في كتاب الشهادات ـ شروط الشـهادة ـ:

«الشرط الرابع: العدالة...

فالفسوق نوعان:

أحدهما: من حيث الأفعال فلا نعلم خلافاً في ردّ شهادته.

والثاني: من جهة الاعتقاد وهو اعتقاد البـدعة فـيوجب ردّ الشـهادة أيضاً، وبه قال مالك وشريك وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور، وقال شريك أربعة لا تجوز شهادتهم، (رافـضي) يـزعم أن له إمـاماً مـفترضة طـاعته، (وخارجي) يزعم أن الدنيا دار حرب..

ـ إلى أن قال ـ وقال أبو حامد من أصحاب الشافعي المختلفون على ثلاثة أضرب.

الأوّل: اخـتلفوا فـي الفـروع، فـهولاء لا يـفسقون بـذلك ولا تـردّ شهادتهم وقد اختلف الصحابة في الفروع ومن بعدهم من التّابعين.

الثاني: من نفسّقه ولا نكفّره وهو من سبّ القرابة كالخوارج أو سبّ الصحابة كالروافض فلا تقبل لهم شهادة لذلك...»[1].

ونظير ذلك قال صاحب **الشرح الكبير**[2].

---

(١) المغني ١٢/٢٨ ـ ٢٩.

(٢) الشرح الكبير بذيل المغني ١٢/٣٩ ـ ٤٠.

وقال في **المغني** في فصل التوبة من الكتاب المزبور: «وقد ذكر القاضي أنّ التائب من البدعة يعتبر له مضي سنة لحديث صبيغ رواه أحمد في الورع قال: ومن علامة توبته أن يجتنب من كان يواليه من أهل البدع ويوالي من كان يعاديه من أهل السُنّة...»[١].

أقول:

فالرفض أحد تعاريفه لديهم هو: من يعتقد بالإمام المفترض الطاعة من عترة النبيّ ﷺ، وجعلوا هذا الاعتقاد بدعة في الدّين ولا أدري أيّ دين يعنون؟!

هل آية المودّة وآية التطهير وآية المباهلة وسورة الدهر وآية الولاية، والتصدّق في حال الركوع، وآية الإبلاغ في غدير خم من سورة المائدة، إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة التي نزلت في أصحاب الكساء، فضلاً عن الأحاديث النبويّة فيهم كحديث الغدير والسفينة والثقلين والدار والمنزلة والأئمّة من قريش إثنا عشر، وغيرها من الأحاديث النبويّة الكثيرة التي رواها الفريقان، كلّ هذه الحجج من الكتاب والسُنّة ابتداع في الدين الذي يرسمه القوم لأنفسهم؟!

والأنكىٰ أنّ جماعة من أهل سُنّة الجماعة ـ كما نقل التفتازاني في **شرح المقاصد**[٢]، في مبحث الإمامة وغيره في كتب أُخرى ـ قائلون بالنصّ علىٰ أبي بكر وأنّه الخليفة المنصوب المفترض طاعته، وكذلك النصّ علىٰ

---

(١) المغني ١٢ / ٨١.
(٢) تقدّم نقله في الحلقات الأُولىٰ.

عمر ، فهل القول بالنصّ عليهما غير مخرج عن الدين ، والقول بالنصّ علىٰ عليّ عليه‌السلام وولده بدعة في الدين ، لا أرىٰ هذه التفرقة إلّا امتثالاً لفريضة المودّة في القربىٰ التي أمر القرآن بها ! !

والغريب أنّ التفتازاني ثمّة أعترف ـ ونقل عن بعضهم أيضاً ـ أنّ الدلائل من كلا الطرفين موجودة ، غاية الأمر انه رجّح الدالّ منها ـ بزعمه ـ علىٰ فضائل الشيخين ، علىٰ ما دلّ علىٰ فضائل علي عليه‌السلام ، ولا ينقضي التدافع في أقوال القوم فهم من جانب يجعلون الخلافة والإمامة بعد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من الفروع دون الاعتقادات ، ومن جانب آخر يجعلون الاختلاف بينهم وبين الشيعة في الإمامة والخلافة خلافاً اعتقادياً ، وهذا بخلاف الاختلاف في المذاهب الأربعة ونحوها فإنّه خلاف في الفروع لاتّفاقهم علىٰ إمامة الشيخين وإن اختلفوا في التجسيم والتشبيه وفي الجبر والتفويض وفي خلق القرآن وغيرها من المسائل الخطيرة الخلافية في الاعتقادات .

ثمّ أنّهم اشترطوا في التوبة الاجتناب ممّن كان يواليه من أتباع أهل البيت عليهم‌السلام ويوالي من كان يعاديه من أهل سُنّة الجماعة ولم يذكروا ذلك في الناصبة الذين عادوا أهل البيت عليهم‌السلام ، ولم يعتبروهم من أهل البدع بل من أهل سُنّة الجماعة الذين اشترط موالاتهم في التوبة المتقدمة .

وقال الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي : «شيعي جلد ، لكنّه صدوق ، فلنا صدقه وعليه بدعته .

وقد وثقه أحمد بن حنبل وآبن معين وأبو حاتم وأورده ابن عدي وقال : كان غالياً في التشيّع ، وقال السعدي : زائغ مجاهر .

فلقائل أن يقول : كيف ساغ توثيق مبتدع ، وحدّ الثقة العدالة والإتقان ؟ ! فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة ؟ !

وجوابه : أنّ البدعة على ضربين : فبدعة صغرى كغلوّ التشيّع أو كالتشيّع بلا غلو ولا تحرف ، فهذا كثير في التّابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق ، فلو رُدّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبويّة ، وهذه مفسدة بيّنة ثم بدعة كبرى ، كالرفض الكامل والغلو فيه ، والحطّ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والدعاء إلى ذلك ، فهذا النوع لا يحتجّ بهم ولا كرامة . وأيضاً فما استُحضر الآن في هذا الضرب رجلاً صادقاً ولا مأمونا ، بل الكذب شعارهم ، والتقية والنفاق دثارهم ، فكيف يقبل نقل من هذا حاله ! حاشا وكلا ، فالشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم هو من تكلّم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممّن حارب عليّاً رضي الله عنه ، وتعرّض لسبّهم ، والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفّر هؤلاء السادة ، ويتبرأ من الشيخين أيضاً ، فهذا ضالّ مُعَثّر ، ولم يكن أبان بن تغلب يعرض للشيخين أصلاً ، بل قد يعتقد عليّاً أفضل منهما»[1] . انتهى .

أقول :

وإقرار الذهبي بأنّ كثيراً من رواة التّابعين وتابعيّهم هم ممن تشيّع وكان من الرافضة ، يقتضي على أصول القوم تعديلهم لأولئك الرواة وحجّيتهم بمقتضى القاعدة والأصل الذي عدّلوا به الصحابة ، وهو كونهم نقلة الدّين وأنّه لولاهم لما وصل إلينا .

---

(١) ميزان الاعتدال ١ / ٥ .

إلّا أنّ القوم لم يعملوا بهذا الأصل في التّابعين وتابعيهم في الرواة المذكورين ، ممّا يدلل على أن وجهة التعديل ليس ذلك الأصل المتقدّم وإنّما هو بيعة السقيفة .

ويلحظ في نهج الذهبي الدمشقي الذي هو من أئمّة الجرح والتعديل لدى أهل سُنّة الجماعة والذي وصفه تلميذه ابن السبكي في **الطبقات** بالنصب ، بل إنّ غالب أئمّة الجرح والتعديل لديهم ممّن ينصب العداوة لآل البيت عليهم‌السلام ـ كما يفوح من كلماتهم ـ :

أنّه جعل حبّ أهل البيت عترة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ـ وهو التشيّع كما يسمّيه ـ بدعة ، ولا يستغرب من جرأة القوم على القرآن والسُنّة وجعلهم الفريضة العظيمة بدعة ، وسيأتي أنّهم جعلوا بغض أهل البيت سُنّة وكلّما أشتد البغض أطلقوا عليه صلب في السُنّة .

وقد جرى على ذلك غالب أئمّة الجرح والتعديل لديهم .

ففي ترجمة إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي الجوزجاني قال ابن حجر في **تهذيب التهذيب** : «قال الخلال : إبراهيم جليل جداً ، كان أحمد بن حنبل يكاتبه ويكرمه إكراماً شديداً . . . .

وقال ابن حبّان في **الثقات** : كان حروري المذهب ، ولم يكن بداعية ، وكان صلباً في السُنّة ، حافظاً للحديث ، إلّا أنّه من صلابته ربّما كان يتعدّى طوره .

وقال ابن عدي : كان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق في الميل على علي .

وقال السلمي عن الدارقطني بعد أن ذكر توثيقه : لكنّ فيه انحراف

عن علي، اجتمع على بابه أصحاب الحديث فأخرجت جارية له فرّوجة لتذبحها فلم تجد من يذبحها، فقال: سبحان الله فرّوجة لا يوجد من يذبحها، وعليّ يذبح في ضحوة نيفا وعشرين ألف مسلم.

قلت: وكتابه في **الضعفاء** يوضح مقالته، ورأيت في نسخة من كتاب ابن حبان حريزي المذهب وهو بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وبعد الياء زاي نسبة إلىٰ حريز ابن عثمان المعروف بالنصب»[1]. انتهىٰ.

وقال الذهبي في ترجمته: «أحد أئمّة الجرح والتعديل... كان مقيماً بدمشق يحدّث علىٰ المنبر وكان أحمد يكاتبه فيتقوّىٰ بكتابه ويقرؤه علىٰ المنبر»[2]. انتهىٰ.

أقول:

فقد أفصحوا بأبلغ وضوح مرادهم من السُنّة والصلابة في السُنّة وهي نصب العداوة لعلي عليه‌السلام وولده، ويلاحظها المتتبع في تراجم كثير من الرواة من التّابعين وتابعيّهم المعروفين بالنصب والجفاء للعترة، وهذه السُنّة أفرزتها السقيفة من إقصاء أهل البيت عليهم‌السلام، ومن الهجوم علىٰ بيت فاطمة عليها‌السلام، كما جاهر بها بنو أُميّة وهي طابع النهج المرواني.

ولقد ارتجّ المسجد من صياح من فيه بعمر بن عبد العزيز: السُنّة السُنّة تُركت السُنّة! عندما ترك في خطبة الجمعة لعن ابن عمّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأخيه!! وأصرّ أهل حران علىٰ الاستمرار علىٰ تلك السُنّة لمّا نهوا عن

---

(١) تهذيب التهذيب ١/١٥٩ رقم ٣٣٢.

(٢) ميزان الاعتدال ١/٧٥ ـ ٧٦.

اللعن، وقالوا أنّ الجمعة لا تصحّ بدونها، ولا غرو فقد أخرجت تلك السُنّة في تلك البلدان أجيال ممّن تـصلّبوا فـيها مـن الوقـيعة واللـمز فـي أهـل البيت عليهم السلام.

هذا في حين يذكر الذهبي في ترجمة عـمر بـن سـعد قـاتل سـبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: وقال العجلي: روىٰ عنه الناس، تابعي ثقة.

وقال ابن حجر في ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي البصري: «قال أبو طالب عن أحمد: لا بأس به، قيل له: أن سليمان بن حـرب يـقول: لا يكتب حديثه، فقال: أنّما يتشيّع، وكان يحدّث بأحاديث في فضل علي، وأهل البصرة يغلون في علي ـ أي في بغضه ـ وقال عباس عنه: ثقة كان يحيىٰ بن سعيد لا يكتب حديثه لا يروي عنه وكان يستضعفه، وقال أحمد بن سنان: رأيت عبد الرحمن بن مهدي لاينبسط لحديث جعفر بن سليمان قال أحمد بن سنان: استثقل حديثه، وقال ابن سعد: كان ثقة وبه ضعف وكان يتشيّع، وقال جعفر الطيالسي عن ابن معين: سمعت من عبد الرزاق كلاماً يوما فاستدللت به علىٰ ما ذكـر عـنه مـن المـذهب، فـقلت له: أنّ أستاذيك الذين أخذت عنهم ثقات، كلهم أصحاب سُنّة فعمّن أخذت هذا المذهب؟ فقال: قدم علينا جعفر بن سليمان فرأيته فاضلاً حسـن الهـدي فأخذت هذا عنه.

وقال ابن الضريسي: سألت محمّـد بن أبي بكر المقدمي عن حديث لجعفر ابن سليمان، فقلت: روىٰ عنه عبد الرزاق قال: فقدت عبد الرزاق ما أفسد جعفر غيره ـ يعني في التشيع ـ ...

قال ابن حبان: كان جعفر من الثقات في الروايات غير أنّـه يـنتحل الميل إلىٰ أهل البيت ولم يكن بداعية إلىٰ مذهبه وليس بين أهل الحديث

من أئمّتنا خلاف، أن الصدوق المتقن إذا كانت فيه بدعة ولم يكن يدعوا إليها الاحتجاج بخبره جائز»(١). انتهىٰ.

فيلاحظ من نقله لكلمات أئمّة الجرح والتعديل الأُمور التالية:

الأوّل: جعلهم حبّ علي عليه السلام ونقل الرواية في فضائله بدعة، ويسمونه تشيع، وهم في ذلك يستحرمون الفريضة العظيمة التي أمر بها القرآن من مودّة القربىٰ.

الثاني: جعلهم الميل إلىٰ أهل البيت مصدر طعن وقدح في الراوي، وتراهم يفصحون بذلك ويجاهرون به في كثير من تراجم الرواة من غير نكير وهذا شقاق مع الله ورسوله ومحادّة، وقد طعنوا في كثير من أصحاب علي عليه السلام وحواريّه بمثل ذلك.

الثالث: إعراضهم عن روايات فضائل أهل البيت عليهم السلام التي يرويها الثقات، وكم طُمس وضُيّع من الآثار النبوّية في مناقب العترة، الجمّ الغفير وترىٰ تصريحهم بالإعراض المزبور في تراجم رواة ثقات كثير، ومن ذلك قول الشافعي في حقّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ماذا أقول في رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفت أعداؤه فضائله حسداً، وشاع من بين ذين ما ملأ الخافقين(٢).

وكيف لا يكون ذلك منهم وقد منع كتابة الحديث النبوي في الصدر الأوّل تحت شعار حسبنا كتاب الله.

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٦١ ـ ٦٣.

(٢) حلية الأبرار ١ / ٢٩٤، وآنظر: الرواشح السماويّة: ٢٠٣، الأنوار البهيّة: ٦٠، كشف اليقين: ٤٠.

الرابع: جريهم على استبشاع الروايات الواردة في فضائل علي عليه السلام فتارة يعبرون لا ينبسط لحديث فلان، وأخرى لا يكتب حديثه، وثالثة استثقل حديثه وغير ذلك من عبائرهم التي تفوح بالإشمئزاز والنفرة من الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، «وعلي مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه حيثما دار»، «لا يبغضك يا علي إلّا منافق أو ابن زنا أو ابن حيضة»، وغيرها من الأحاديث النبويّة.

الخامس: جعلهم الانقطاع عن أهل البيت عليهم السلام والابتعاد عنهم وتركهم سُنّة، والعاملين بها أصحاب سُنّة كما عبّر بذلك ابن معين في كلامه مع المحدّث الحافظ عبد الرزاق الصنعاني، وجعل موادّة عبد الرزاق لأهل البيت عليهم السلام فساد في الدين.

ولا يخفى أن جعفر بن سليمان ممّن روى حديث الطير، وحديث ما تريدون من عليّ! عليّ مني وأنا منه وهو وليّ كل مؤمن بعدي كما ذكر ذلك الذهبي في الميزان[1].

وقال ابن حجر في ترجمة حريز بن عثمان الحمصي: «قال معاذ بن معاذ حدّثنا حريز بن عثمان ولا أعلم أني رأيت بالشام أحداً أُفضله عليه.

وقال الآجري عن أبي داود: شيوخ حريز كلّهم ثقات، قال: وسألت أحمد بن حنبل فقال: ثقة ثقة، وقال أيضاً: ليس بالشام أثبت من حريز إلّا أن يكون بحير، وقال أيضاً عن أحمد وذكر له حريز وأبو بكر بن أبي مريم وصفوان فقال: ليس فيهم مثل حريز ليس أثبت منه...

وقال عمر بن علي: كان ينتقص علياً وينال منه وكان حافظاً لحديثه

---

(١) ميزان الاعتدال ١/ ٤١٠ ـ ٤١١.

وقال في موضع آخر: ثبت شديد التحامل علىٰ علي.

وقال الحسن بن علي الخلال: سمعت عمران بن إياس سمعت حريز بن عثمان يقول: لا أحبّه قتل آبائي ـ يعني عليّاً ـ.

وقال أحمد بن سعيد الدارمي، عن أحمد بن سليمان المروزي: سمعت إسماعيل بن عياش قال: عادلت حريز بن عثمان من مصر إلىٰ مكّة فجعل يسبّ عليّاً ويلعنه، وقال الضحاك بن عبد الوهاب ـ وهو متروك متّهم ـ: حدّثنا إسماعيل بن عياش سمعت حريز بن عثمان يقول: هذا الذي يرويه الناس عن النبيّ ﷺ أنّه قال لعلي: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ» حقّ، ولكن أخطأ السامع، قلت: فما هو؟

فقال: إنّما هو: أنت منّي بمنزلة قارون من موسىٰ.

قلت: عمّن ترويه؟

قال: سمعت الوليد بن عبد الملك يقول وهو علىٰ المنبر.

وقال ابن عدي: وحريز من الأثبات في الشاميين، ويحدّث عن الثقات منهم، وقد وثّقه القطان وغيره، وإنّما وضع منه ببغضه لعلي، وقيل له في ذلك، فقال: هو القاطع رؤوس آبائي وأجدادي.

وقد اعتمده البخاري في **صحيحه**»[1]. انتهىٰ.

أقول:

فانظر إلى مدح هذا الناصبيّ الوضّاع، وتوثيقهم له وجعلهم إيّاه من الأثبات، واعتمادهم عليه وملازمة روايته وتوثيقهم لجميع مشايخه الذين

---

(١) تهذيب التهذيب ٢/٢١٩ ـ ٢٢٢.

منهم الوليد بن عبد الملك!!

ثمّ أين غيرتهم على الصحابة والبراءة من سبّ الصحابة؟! وأين تلك الهالة القدسيّة التي يحيطونها بالصحابي؟! وأين تلك الحميّة لصحبة الرسول ﷺ؟! أو ليس ابن عمّ النبيّ ﷺ نجم ورأس في الصحبة والصحابة؟! علاوة على قرابته للرسول ﷺ ومقاماته في بناء صرح الدّين.

كلّ هذا شاهد لما كررناه في بحوث هذه الحلقات أنّ عنوان الصحابة لا يراد به إلّا أصحاب السقيفة دون الأنصار ودون بني هاشم ودون من والى عليّاً عليه السلام من المهاجرين وسائر الصحابة، كما أنّ مرادهم من أصحاب السُنّة هو سُنّة العداء والقطيعة والجفاء لعترة النبيّ ﷺ، بل إنّ هذه السُنّة الجاهلية والمنبعثة من السقيفة والأُمويّة المروانية قد طالت شخص النبيّ الأعظم ﷺ.

قال ابن حجر في ترجمة خالد بن سلمة بن العاص المخزومي المعروف بالفأفأ: قال أحمد ـ أي ابن حنبل ـ وابن معين وابن المديني: ثقة....

وقال أبو حاتم: شيخ يكتب حديثه، وقال ابن عدي: هو في عداد من يجمع حديثه، ولا أرى بروايته بأساً، وذكره ابن حبان في **الثقات**، وقال محمّد بن حميد عن جرير: كان الفأفأ رأساً في المرجئة وكان يبغض عليّاً، ذكره علي بن المديني يوماً، فقال: قُتل مظلوماً.

وقع في **صحيح البخاري** ضمناً، وذكر ابن عائشة أنّه: كان ينشد بني مروان الأشعار التي هجى بها المصطفى ﷺ[١].

(١) تهذيب التهذيب ٢/٥١٤ ـ ٥١٥.

وقد وثّقه الذهبي أيضاً[١].

أقول :

وكيف لا يركنون إلىٰ أمثال هؤلاء الرواة المبغضين للنبيّ ﷺ وعترته ، ـ كمروان بن الحكم ونظائره في صحاحهم ـ ؟! وكيف لا يأمنونهم علىٰ دينهم والسُنّة عندهم هي علىٰ قطيعة العترة وجفائهم وهجرهم والعداوة لهم ؟! وهي تؤدي إلى قطيعة النبيّ ﷺ والعداوة له ، كما أنّ مودّة النبيّ ﷺ تؤدي إلىٰ مودّة عترته ، فالنبيّ ﷺ وعترته متلازمان في المودّة ، وبغض أحدهما يؤدي إلىٰ بغض الآخر وهذا هو مفاد آية المودّة ، إذْ مقتضىٰ كون مودّة القربىٰ أجر الرسالة هو : أن تقدير نبوّة النبيّ ﷺ ورسالة الرسول ﷺ وتقديسه ، بأداء أجرها وقيمتها وهو مودّة القربىٰ ، فالاستخفاف بمودّة القربىٰ استخفاف بأجر الرسالة والنبوّة ، واستحلال عداوة العترة استحلال لحرمة الرسالة .

وقال ابن حجر في ترجمة لِمازَة بن زبّار ـ أبو لبيد البصري ـ : « ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل البصرة ، وقال : سمع من علي وكان ثقة وله أحاديث ، وقال حرب عن أبيه : كان أبو لبيد صالح الحديث ، وأثنىٰ عليه ثناءً حسناً ، وقال موسىٰ بن إسماعيل ، عن مطر بن حمران : كنّا عند أبي لبيد فقيل له : أتحبّ عليّاً ؟ فقال : أحبّ علياً وقد قتل من قومي في غداة ستة آلاف ، وذكره ابن حبّان في **الثقات** .

وقال عباس الدوري عن يحيىٰ بن معين : حدّثنا وهب بن جرير ، عن

---

(١) ميزان الاعتدال ١ / ٦٣١ .

أبيه، عن أبي لبيد وكان شتاماً، قلت: زاد العقيلي، قال وهب: قلت لأبي: من كان يشتم؟ قال: كان يشتم علي بن أبي طالب، وأخرجه الطبري من طريق عبد الله بن المبارك، عن جرير بن حازم، حدّثني الزبير بن خريت، عن أبي لبيد، قال: قلت له: لمَ تسبّ عليّاً؟ قال: ألا أسبّ رجلاً قتل منّا خمسمائة وألفين والشمس هاهنا..

ـ ثمّ قال ابن حجر ـ وقد كنت استشكل توثيقهم الناصبي غالباً، وتوهينهم الشيعة مطلقاً، لا سيّما أنّ عليّاً ورد في حقّه: (لا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلاّ منافق).

ثمّ ظهر لي في الجواب عن ذلك أنّ البغض هاهنا مقيّد بسبب وهو كونه نصر النبيّ ﷺ؛ لأن من الطبع البشري بغض من وقعت منه إساءة في حقّ المبغض، والحبّ بعكسه؛ وذلك ما يرجع إلىٰ أمور الدنيا غالباً، والخبر في حبّ علي وبغضه ليس علىٰ العموم، فقد أحبّه من أفرط فيه حتّىٰ ادعىٰ أنّه نبيّ، أو أنّه إلٰه تعالىٰ الله عن إفكهم، والذي ورد في حقّ علي من ذلك قد ورد مثله في حقّ الأنصار، وأجاب عنه العلماء أن بغضهم لأجل النصر كان ذلك علامة نفاقه وبالعكس، فكذا يقال في حقّ علي، وأيضاً فأكثر من يوصف بالنصب يكون مشهوراً بصدق اللهجة والتمسّك بأمور الديانة بخلاف من يوصف بالرفض فإنّ غالبهم كاذب، ولا يتورّع في الأخبار، والأصل فيه أنّ الناصبة أعتقدوا أنّ عليّاً رضي الله عنه قتل عثمان، أو كان أعان عليه فكان بغضهم له ديانة بزعمهم، ثمّ انضاف إلىٰ ذلك أنّ منهم من قُتلت أقاربه في حروب علي»[1]. انتهىٰ كلامه.

---

(١) تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٠ ـ ٤١١ رقم ٨٣١.

وقال الذهبي في ترجمة لِمازة بن زبّار: «بصري حضر وقعة الجمل، وكان ناصبياً ينال من علي رضي الله عنه، ويمدح يزيد»[١]. انتهىٰ.

أقول:

دفاع ابن حجر عن الناصبة وإن كان استحلالاً منه لعداوة علي عليه السلام بتسويل واهي إلّا أننا نوضّح لوازم كلامه ونسجّل نقاط اعترافه:

الأُولىٰ: إقراره بتوثيق أهل سُنّة الجماعة غالب الناصبة المعادين لعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، واعتمادهم في الرواية عليهم وأخذ أحكام الدّين عنهم، ولا غرابة في ذلك لأنّ مآل من يترك العترة النبويّة التي أمر الله بمودّتها ـ وهو ترك لأعظم فريضة ـ الركون إلىٰ العصاة البغاة أهل النفاق والشقاق.

الثانية: إقراره بتوهين أهل سُنّة الجماعة كافة الشيعة ممّن يميل إلىٰ عترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويواليهم، وهذا يعزز ما ذكرناه من أنّ مرادهم من السُنّة هو سُنّة العداء وقطعية عترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: دعواه: أنّ حرمة بغض علي عليه السلام وكون البغض نفاقاً مقيّداً بسبب نصرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وآستدل علىٰ التقييد بأنّ من وقعت منه إساءة في حقّ المبغض يبغضه بحكم الطبع البشري.

ويندفع: مع ذيل كلامه من أنّ الناصبة يبغضون عليّاً لمخالفته لعثمان، وليس كلّ الناصبة ممّن كان في عصر علي عليه السلام، ولا كلّ الناصبة هم ممّن قتل علي آباءهم في بدر وأُحد وحنين والأحزاب وخيبر والجمل وصفين،

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٩ رقم ٦٩٨٩.

كما أن قتل علي لآباء الناصبة وأجدادهم في حروب النبيّ ﷺ كان في سبيل الله واعلاء كلمة الإسلام وإرغام كلمة الكفر، وكذلك في حرب الجمل وصفين والنهروان كان قتالاً للناكثين للبيعة والقاسطين الظلمة والمارقين من الإسلام، كما يمرق السهم من القوس، كما أمره بذلك النبيّ ﷺ وجاءت به الأحاديث النبويّة، وكما في أحاديث قتل عمار بن ياسر وغيرها، وكيف يطلق ابن حجر علىٰ ذلك الجهاد في سبيل الله أنّه إساءة لآباء الناصبة وفعل سوء ـ ربنا نعوذ بك من استحلال حرمات دينك ـ.

ولعمري إنّ دفاع ابن حجر بمثل ذلك أعظم فدحاً في الدّين من نصب الناصبة، لأن ذلك يفتح الباب للآخرين ببغض العترة بذلك التسويل، ثمّ ماذا يصنع ابن حجر مع آية المودّة فهل يأوّلها أيضاً؟ وإذا ساغ مثل هذا العبث بمحكمات وبيّنات الدّين فليعذر عندهم إبليس في معاداته لخليفة الله آدم عليه السلام؛ لأنّه تأوّل فأخطأ لا سيّما وأن خلقة إبليس من نار فطبعه الخلقي الحمية والعصبية.

ثمّ إن حديث «علي مع الحقّ والحقّ مع علي يدور معه حيثما دار»، أو مثل حديث السفينة وحديث الثقلين وغيرها من الأحاديث دالّ علىٰ أنّ بغض علي عليه السلام في أيّ موقف مخالفة للحقّ وهلاك وضلال؛ لأنّ علياً عليه السلام في كلّ سيرته وفعله مع الحقّ ونصرة للنبيّ ﷺ حتّىٰ بعد وفاته.

الرابعة: إنّ إفراط بعض من أحبّ علياً وغلوه لا يسوّغ بغض وعداوة علي عليه السلام، وإلّا لجاز بغض ومعاداة النبيّ عيسىٰ عليه السلام، وكيف يتعذّر ابن حجر بمثل ذلك في مخالفة آية المودّة التي تنادي بعظم فريضة المودّة في القربىٰ؟! وما وزر مَنْ أحبّ علياً ولم يغل فيه؟!

وأمّا قياس ما ورد في علي عليه السلام بما ورد في حقّ الأنصار، فهو قياس

مع الفرق والبون الشاسع، فإنّ ما ورد في علي عليه السلام لا يحصىٰ من أحاديث الفضائل والمناقب، وأين ذلك ممّا ورد في الأنصار، مضافاً إلىٰ أنّ الحكم في علي عليه السلام قد رُتّب علىٰ ذاته الطاهرة التي أذهب الله عنها الرجس بنصّ آية التطهير.

وأمّا الحكم في الأنصار فقد رُتّب علىٰ عنوان نصرتهم، والوصف مشعر بعلّة الحكم، بخلاف عنوان الذات في علي عليه السلام فإنّه يعطي ملازمة ذاته الطاهرة للحقّ ونصرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والدّين في كلّ المواطن.

ثمّ ما يصنع ابن حجر في الحديث الآخر: «لا يبغضك يا علي إلّا منافق أو ابن زنا أو ابن حيضة»، أو ما في حديث جابر: «كنّا نباري أولادنا بحبّ علي عليه السلام، فمن كان يحبّه علموا أنّه طاهر الولادة، ومن كان يبغضه علموا أنّه لغير أبيه»، وغير ذلك من الأحاديث التي تهيّج ثائرة أهل النصب.

الخامسة: وصفه أكثر الناصبة بالتمسّك بأمور الديانة والصدق، ومن تلك الديانة قطع ما أمر الله به أن يوصل، ومنع أجرة النبوّة العائد نفعها لا إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف لا يكون إبليس أعبد العباد علىٰ هذا المنطق؛ لأنّه أبىٰ أن يسجد لآدم وأصرّ أن يكون خضوعه لله خالصاً من طاعة ولي الله، فلقد اقترح إبليس علىٰ الله أن اعفني من السجود لآدم ولأعبدنّك عبادة لم يعبدك أحد مثلها، فأجابه تعالىٰ: «إنّي أُحبّ أن أُعبد من حيث أُريد لا من حيث تريد»، ثمّ إنّ ممّن وثّقوه من الناصبة خالد بن سلمة بن العاص الذي تقدّم أنّه ينشد بني مروان أشعاره التي يهجو بها المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم، وكذا عمر بن سعد قاتل الحسين عليه السلام، ونظائرهم فبخ بخ له بهذه الديانة.

السادسة: دعواه: كذب أكثر الرافضة يناقضه ما تقدّم من إقرار الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب: «فهذا كثير في التّابعين وتابعيهم مع الدين والورع

والصدق ، فلو ردّ حديث هؤلاء لذهبت جملة من الآثار النبويّة وهذه مفسدة بيّنة »[١] .

هذا مع أنّ تأوّل ابن حجر في جرح أهل سُنّة الجماعة في الرواة الشيعة يدفعه تنصيصهم علىٰ أنّ منشأ الطعن هو الميل إلىٰ أهل البيت عليهم‌السلام ، أو حبّ علي عليه‌السلام ، فكلماتهم تنادي بأبتداع المودّة في القربىٰ التي أمر الله تعالىٰ بها .

السابعة : أنّ الناصبة يعذرون في بغضهم لعلي عليه‌السلام ، مع افتراض مودّته بنصّ الكتاب ومع ذلك يوصفون بالديانة ، فلم لا يُعذر مَنْ يُنسبْ إليهم بغض الشيخين وأصحاب السقيفة ؟ !

العداوة مرض في قلوب الناصبة :

إنّ القرآن الكريم كما أمر وفرض مودّة أهل البيت وأمر بصلتهم وعظّم من هذه الفريضة حتّىٰ جعل خطبها في مصافّ أُصول الاعتقاد والإيمان بجعلها أجراً لكلّ الرسالة المشتملة علىٰ العقيدة والمعرفة ، وهذا البيان شاف لإقامة الحجّة البالغة علىٰ العباد وقطع العذر وإنارة سبيل النجاة .

كذلك القرآن حذّر ونهىٰ عن البغض والعداوة لهم ، حيث تعرّضت كثير من الآيات للنهي عن قطع ما أمر الله به أنْ يوصل ، كما حذّر من الضغينة التي هي ضد المودّة في قوله تعالىٰ : ﴿ **إنّ الّذين ارتدّوا علىٰ أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدىٰ الشيطان سوّل لهم وأملىٰ لهم * ذلك بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله**

(١) ميزان الاعتدال ١ / ٥ .

يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾(١).

فقد سلّطت الضوء هذه الآيات الشريفة علىٰ تعريف الضغينة بأنّها مرض في قلوب ثلّة، ولا نجد في القرآن الكريم أنّ الله تعالىٰ افترض المحبّة والمودّة ـ التي هي من أفعال القلب ـ، ومن ثمّ تظهر علىٰ أفعال الجوارح إلّا في المحبّة لله تعالىٰ وللرسول ولذي القربىٰ، فالضغينة المحرّمة لا تكون إلّا في موارد عصيان فريضة المحبّة والمودّة؛ فالقرآن قد حرّم المودّة والمحبّة لآخرين في موارد أُخرىٰ، كما في قوله تعالىٰ: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أُولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾**(٢)، وقد أطلق القرآن علىٰ موادّة من حادّ الله ورسوله أنّها موالاة في السورة نفسها في الآيات الكريمة التى تحكي عن طائفة ممّن هم حول النبيّ ﷺ **﴿ألم تَرَ إلىٰ الّذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم...﴾**(٣).

ولك أن تقول أطلق علىٰ الموالاة أنّها موادّة.

وهذا تعريف آخر يطلعنا ويوقفنا عليه القرآن الكريم وهو كون

---

(١) سورة محمّد ﷺ ٤٧: ٢٥ ـ ٣٠.

(٢) سورة المجادلة ٥٨ : ٢٢.

(٣) سورة المجادلة ٥٨ : ١٤.

المودّة موالاة، غاية الأمر أنّ المودّة ـ والتي هي موالاة ـ على نحوين:

منها: واجبة مفترضة، وهي المحبّة والمودّة والموالاة لله ولرسوله ولذي القربى.

ومنها: محرّمة، وهي المودّة والموالاة لمن حادّ وشاقق الله ورسوله.

كما أنّ الضغينة المحرّمة هي التي يؤتى بها وترتكب في موارد الفريضة الواجبة مخالفة، فبتوسط آية المودّة في سورة الشورى وهذه الآيات من سورة محمّد ﷺ والمجادلة يتبيّن أنّ المودّة والموالاة والنصرة هي لله ولرسوله ولذي القربى ـ علي وفاطمة وابناهما ـ، وهو الإيمان الذي يكتبه الله تعالى في القلوب، فالإيمان في القلب هو المودّة والموالاة لله ولرسوله ولذي القربى والمرض في القلوب هو العداوة والضغينة لله ولرسوله ولذي القربى.

ويتّضح من هذه الآيات: إنّ الإيمان يقابل المرض في القلوب، وإنّ الّذين في قلوبهم مرض من أوائل عهد الإسلام ـ كما تشير إليه سورة المدّثر ـ أُولئك لم يُكتب في قلوبهم الإيمان من البدء وبقوا على تلك الصفة.

ومن ذلك يُعلم أنّ من الهدى الذي نزّل الله تعالى ـ وكرهه جماعة وتابعهم جماعة أُخرى طواعية للجماعة الأُولى إسراراً بين الجماعتين ـ هو افتراض مودّة ذي القربى في آية المودّة كما أنّ ممّا نزّل الله تعالى من الهدى ـ والذي كرهه جماعة أيضاً وأبطلوا العمل به ـ هو افتراض الخمس والفيء لذي القربى في سورة الأنفال والحشر، ولا ريب أنّ أداء الخمس لذي القربى وتمكينهم من الفيئ الذي افترضه الله لهم هو من أبرز مصاديق الموالاة والمودّة لذي القربى.

وقد مرّ بنا في الحلقات الأُولى أنّ الّذين في قلوبهم مرض هم ثلّة

نشأت في أوائل الدعوة وبداية الإسلام، حيث ورد ذكرهم في سورة المدثّر وهي رابع سورة نزلت على النبيّ ﷺ في مكّة في أوائل عهد البعثة الشريفة، وقد جعلت سورة المدثّر الّذين في قلوبهم مرض فئة في قبال فئة الّذين آمنوا وفئة الّذين أُوتوا الكتاب وفي مصافّ فئة رابعة هي فئة الّذين كفروا، لكنّها ميّزتهم عنواناً واسماً عن الذين كفروا وإن كانوا في موقف واحد بحسب الحقيقة والواقع لا بحسب الظاهر؛ لأنّ الّذين في قلوبهم مرض يبطنون هذا المرض وهو الضغينة المحرّمة بحسب تعريف آيات سورة محمّد ﷺ تلك الضغينة تجاه من أمر تعالى بمحبّتهم ومودّتهم وموالاتهم، وهذه السور تلاحق هذه الفئة والثلّة التي نشأت في صفوف من أسلم في أوائل البعثة.

وتبيّن أن مخططهم مبني على الضغينة لذي القربى وكراهة ما نزّل الله في حقّهم من المودّة والموالاة والخمس والفيء، كما تبيّن الآيات السابقة في سورة محمّد ﷺ وهي تتحدّث في وصف الّذين في قلوبهم مرض: **﴿ ويقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الّذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم * أُولئك الّذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم ﴾**(١).

فهذه الآيات تنبأ عن ملحمة قرآنية عن هذه الثلّة والفئة ـ التي ترعرعت في أوائل البعثة ووصفتهم هذه السورة بأنّ وصفهم البارز هو

---

(١) سورة محمّد ﷺ ٤٧ : ٢٠ ـ ٢٣.

الضغينة لمن أمر الله تعالىٰ بمودّته وصلته وموالاته ـ وكراهة ما نزّل علىٰ رسوله من الهدىٰ الذي منه مودّة وموالاة ذي القربىٰ، وتخصيص الخمس والفيء بهم أي بولايتهم، وقد أطلقت اسم مرض القلب في قبال الإيمان المكتوب في القلب ـ حسب ماورد في سورة المجادلة كما مرّ بنا ـ هذه الملحمة تولي هذه الفئة سدّة الحكم والتصرّف في الأُمور العامّة للمسلمين، وسيكون الطاغي علىٰ أفعال هذه الفئة ـ الّذين في قلوبهم مرض ـ عدّة أُمور:

الأوّل: هو الفساد في الأرض، وهو مخالفة الكتاب والسُنّة في الأحكام والتشريعات، ممّا يوجب استشراء الفساد في الأرض شيئاً فشيئاً حتّىٰ ينتشر في بلاد المسلمين الظلم والفساد المالي والفساد الأخلاقي والحيف في القضاء والتلاعب في مقدّرات الحكم والسلطة، وغيرها من وجوه الفساد في الأرض.

والثاني: قطع ما أمر الله به أن يوصل، وهو معاداة من أمر الله بمودّتهم وموالاتهم وتمكينهم من حقّ الولاية لهم علىٰ الخمس والفيء، وقد أنبأت آية آخرىٰ من كتاب الله العزيز عن نفس هذه الملحمة المستقبلية لأوضاع المسلمين وهي: ﴿**وما أفاء الله علىٰ رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلّط رسله علىٰ من يشاء والله علىٰ كل شيء قدير * ما أفاء الله علىٰ رسوله من أهل القرىٰ فلله وللرسول ولذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب**﴾[1]، حيث علّل هذه في الآيات تخصيص ذوي القربىٰ بالفيء ـ وهو الأموال العامّة والمنابع الطبيعة في البلاد كما هو مقرّر

---

(١) سورة الحشر ٥٩: ٦ و ٧.

في الفقه ـ كي لا تكون ـ أي الأموال العامّة ـ دولة يتداولها الأغنياء خاصّة منكم يستأثرون بها دون عامّة المسلمين، أي كي تسود العدالة المالية بين المسلمين لا بد من ولاية ذوي القربىٰ علىٰ الفئ والأموال العامّة ومقتضىٰ هذا التعليل أنّ مجيء غيرهم علىٰ سدّة الحكم والولاية علىٰ الأموال العامّة سوف ينجم منه الظلم والفساد المالي، وهذا ما وقع فإنّه قد فرّق بين المسلمين في عطاء بيت المال في عهد الأوّل، وازداد ذلك في عهد الثاني ووصل إلىٰ ذروة الحيف، واللامساواة في توزيع وعطاء بيت المال في عهد الثالث حتّىٰ ثار المسلمون وحدث الذي حدث، وكذلك استمر النهج في عهد بني أُمية وبني العبّاس، وقد أخبرت الصديقة فاطمة عليها السلام بذلك في خطبتها التي سبق نقلها.

وقد توعّدت آيات سورة الحشر عن مخالفة هذا الحكم والتشريع بشدّة العقاب.

فتلخّص ـ ممّا مرّ بنا ـ: أنّ المودّة للقربىٰ وعترة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هي موالاة لهم ـ كما أوضحت ذلك سورة المجادلة التي مرّ ذكر آياتها ـ وأنّ الضغينة والعداوة لهم مرض في القلوب ـ كما أوضحت ذلك سورة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ـ في قبال المودّة والموالاة لهم فإنّه إيمان.

وإلىٰ ظاهر هذه الآيات من السور يشير الصادق عليه السلام فيما رواه عنه عبد الله بن سنان أنّه عليه السلام قال: في معرض كلامه عن علامات ظهور القائم من آل محمّد (عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف) وأنّه يكون في السماء نداء «ألا أن الحقّ في علي بن أبي طالب وشيعته، قال عليه السلام: فـ ﴿ **يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾[1] علىٰ الحقّ وهو النداء الأوّل، ويرتاب

---

(١) سورة إبراهيم ١٤ : ٢٧ .

يومئذ الذين في قلوبم مرض ، والمرض والله عداوتنا»[١] . الحديث .

وقد روىٰ ابن المـغازلي الشـافعي فـي **المناقب** ، عـن أبـي سـعيد الخدري في قوله تعالىٰ : **﴿ ولتعرفنّهم في لحن القول ﴾**[٢] ، قال : ببغضهم علي بن أبي طالب[٣] ، والآية المذكورة في سياق وصف الّذين في قلوبهم مرض ، وغيرها من الروايات[٤] .

هذا ، وممّا يدلّ علىٰ كون مودّة ذوي القربىٰ موالاتـهم ، مـضافاً إلىٰ ما تقدّم في سورة المجادلة ، قوله تعالىٰ في سورة آل عـمران : **﴿ قـل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكـم ذنـوبكم والله غـفور رحيم ﴾**[٥] ، فإنّ في الآيـة تـصريح بأنّ مـقتضىٰ المـحبّة الاتّـباع ، كـما أنّ مقتضىٰ مفهوم الشرطية في الآية أيضاً هو أنّ ترك الاتّباع كاشف مسبب عن عدم المحبّة .

فيتحصّل أنّ مودّة ذوي القربىٰ مقتضاها إتّباعهم وموالاتهم وهي التي قد جعلها أجراً لكلّ الرسالة . فمفاد الآية متطابق مع حديث الثقلين وحديث السفينة .

فتحصّـل أنّ مقتضىٰ فريضة المودّة في القـربىٰ والتـي عـظّم شأنـها القرآن الكريم ، وكون بغضهم والعداوة لهـم وجـفاءهم وقـطعيتهم مـرض يعري القلوب ويسلبها الإيمان ، هو أن المودّة للقربىٰ ميزان ومعيار لتعديل

---

(١) الغيبة ـ للنعماني ـ : ٢٦٠ ح ١٩ الباب ١٤ .

(٢) سورة محمّـد ٤٧ : ٣٠ .

(٣) مناقب ابن المغازلي : ٢٦٢ ح ٣٥٩ .

(٤) لاحظ : ما روي عنهم عليهم السلام في **تفسير البرهان** ، **ونور الثقلين** في ذيل آيـات سـورة محمّـد صلى الله عليه وآله وسلم .

(٥) سورة آل عمران ٣ : ٣١ .

الصحابي، وبغض ذوي القربىٰ والمصادمة معهم ميزان ومعيار لجرح الصحابي، فهذا الضابط يتطابق مع ما تقدّم من الموازين والمعايير التى مرّت بنا في الحلقات السابقة.

ومن ذلك قول الصدّيقة الزهراء عليها السلام بإن الهجرة كوصف للصحابي أنّما تنطبق عليه لا لكون معناها انتقال البدن من مكان إلىٰ مكان كسفر جغرافي، بل الهجرة إنّما هي بالهجرة إلىٰ أهل البيت عليهم السلام، لا الابتعاد عنهم، وأنّ المدار علىٰ الموالاة والمتابعة لرسول الله وأهل بيته، لا المعاداة لهم والمخالفة، والهجرة تحققت بهم، والنصرة بنصرة الله ورسوله وذي القربىٰ، فلا هجرة إلّا إليهم لا إلىٰ غيرهم، ولا نصرة ومودّة وموالاة إلّا لهم لا عليهم، ولا إتّباع بإحسان إلّا بإتباع سبيلهم، وما أسألكم عليه من أجر إلّا ـ وهو المودة في القربىٰ ـ من شاء أن يتخذ إلىٰ ربه سبيلاً، كما مرّ بنا قول علي عليه السلام: «أنّ الصدّيق من صدّق بحبهم وأبطل باطل عدوهم، والفاروق من فرّق بينهم وبين عدوهم»[1]، وأنّ من ترك الهجرة إليهم يتعرّب، وأنّ من يترك المودّة والموالاة لهم يتحزّب.

فهذه وقفة يلزم إعطاءها الإمعان التّام في مبحث عدالة الصحابة.

❀ ❀ ❀

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤٩. ط مؤسّسة الإمام صاحب الزمان ـ عجّل الله فرجه ـ.

واقعتان خطيرتان في الصحبة
أهل العقبة ـ المظاهرة

يشير القرآن الكريم في سورة التوبة (براءة) وسورة التحريم إلىٰ تصاعد حدّة العداء للنبيّ ﷺ لدىٰ جماعة ممّن كان معه وممّن يحيط به، وكذلك كتب الحديث والسيَر والتواريخ، وقد بلغ هذا العداء ذروته بتدبيرهم محاولتين للفتك به ﷺ :

*** الأُولىٰ :**

في رجوعه من تبوك عند العقبة، ومدبّريها عُرفوا بـ: أهل العقبة..

قال تعالىٰ: ﴿ **ولئن سألتَهم ليقولُنّ إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ قلْ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤنَ * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانِكمْ إن نعفُ عن طائفةٍ منكم نعذّبْ طائفةً بأنّهم كانوا مُجرمين** ﴾[1].

وقال تعالىٰ في السورة نفسها أيضاً: ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفر وكفروا بعد إسلامِهم وهَمّوا بما لم ينالوا وما نَقَموا إلّا أن أغناهُمُ اللهُ ورسوله من فضله فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم وإن يَتولّوْا يعذّبهُمُ اللهُ عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من وليٍّ ولا نصيرٍ** ﴾[2]..

قال الطبرسي في **مجمع البيان** في ذيل الآيات الأُولىٰ: «قيل: نزلت

---

(١) سورة التوبة (براءة) ٩: ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) سورة التوبة (براءة) ٩: ٧٤.

في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وآله عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم، وعمّار كان يقود دابّة رسول الله صلى الله عليه وآله وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّه فلان وفلان. حتّى عدّهم كلّهم.

فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟!

فقال: أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم.

عن ابن كيسان.

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله، إلّا أنّه قال: ائتمَروا بينهم ليقتلوه، وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنّا كنّا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن نقتله».

وفي ذيل الآيات اللاحقة قال: «وقيل: نزلت في أهل العقبة؛ فإنّهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله في عقبة عند مرجعهم من تبوك وأرادوا أن يقطعوا انساع راحلته، ثمّ ينخسوا به، فأطلعه الله تعالى على ذلك، وكان من جملة معجزاته؛ لأنّه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلّا بوحي من الله تعالى..

فسار رسول الله صلى الله عليه وآله في العقبة وعمّار وحذيفة معه، أحدهما يقود ناقته والآخر يسوقها، وأمر الناس كلّهم بسلوك بطن الوادي، وكان الّذين همّوا بقتله اثني عشر رجلاً أو خمسة عشر رجلاً على الخلاف فيه، عرفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسمّاهم بأسمائهم واحداً واحداً.

عن الزجّاج والواقدي والكلبي، والقصّة مشروحة في كتاب الواقدي..

وقال الباقر عليه السلام: كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب»[١].

وقال الزمخشري في ذيل الآية ٧٤: «أقام رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين فيسمع من معه منهم، منهم الجلاس بن سويد... ـ إلىٰ أن قال: ـ فتاب الجلاس وحسنت توبته.

﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾: وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام.

﴿ **وهمّوا بما لم ينالوا** ﴾: وهو الفتك برسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم، وذلك: عند مرجعه من تبوك تواثق خمسة عشر منهم علىٰ أن يدفعوه عن راحلته إلىٰ الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل، فأخذ عمّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح، فالتفت فإذا قوم متلثّمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في **كتاب الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشّاف** في ذيل كلام الزمخشري المتقدّم: «أخرجه أحمد من حديث أبي الطفيل، قال: لمّا قفل رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي لا يأخذنّ العقبة أحد، فإنّ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم يسير وحده..

فكان النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم يسير وحذيفة رضي الله عنه يقود به، وعمّار رضي الله عنه يسوق به، فأقبل رهط متلثّمين علىٰ الرواحل حتّىٰ غشوا النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم، فرجع عمّار فضرب وجوه الرواحل، فقال

---

(١) مجمع البيان ـ للطبرسي ـ ٥/ ٧٠ ـ ٧٨.

(٢) الكشّاف ـ للزمخشري ـ ٢/ ٢٩١.

النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم لحذيفة: قُد قُد. فلحقه عمّار فقال: سُق سُق. حتّىٰ أناخ، فقال لعمّار: هل تعرف القوم؟!

فقال: لا، كانوا متلثّمين، وقد عرفت عامّة الرواحل.

فقال: أتدري ما أرادوا برسول الله؟!

قلت: الله ورسوله أعلم.

فقال: أرادوا أن يمكروا برسول الله فيطرحوه من العقبة.

فلمّا كان بعد ذلك وقع بين عمّار رضي الله عنه وبين رجل منهم شيء ممّا يكون بين الناس، فقال: أنشدكم الله، كم أصحاب العقبة الّذين أرادوا أن يمكروا برسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم؟!

فقال: ترىٰ أنّهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فهم خمسة عشر..

ومن هذا الوجه رواه الطبراني والبزّار، وقال: روي من طريق عن حذيفة، وهذا أحسنها وأصلحها إسناداً.

ورواه ابن إسحاق في المغازي، ومن طريقه البيهقي في **الدلائل**، عن الأعمش، عن عمرو بن مرّة، عن أبي البختري، عن حذيفة بن اليمان، قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم أقود به، وعمّار رضي الله عنه يسوق الناقة حتّىٰ إذا كنّا بالعقبة وإذا اثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فانتهت إلىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم فصرخ بهم فولّوا مدبرين»[1].

وقال الفخر الرازي في **تفسيره الكبير** ـ بعد أن ذكر أسباباً أخرىٰ لنزول هذه الآيات ـ: «قال القاضي: (يبعد أن يكون المراد من الآية هذه الوقائع؛ وذلك لأنّ قوله: ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾

---

(١) ذيل الكشّاف ٢/٢٩٢.

إلىٰ آخر الآية ، كلّها صيغ الجموع ، وحمل صيغة الجمع علىٰ الواحد ، خلاف الأصل .

فإن قيل : لعلّ ذلك الواحد قال في محفل ورضي به الباقون .

قلنا : هذا أيضاً خلاف الظاهر ؛ لأنّ إسناد القول إلىٰ من سمعه ورضي به خلاف الأصل . .

ثمّ قال : بلىٰ الأوْلىٰ أن تُحمل هذه الآية علىٰ ما روي : أنّ المنافقين همّوا بقتله عند رجوعه من تبوك ، وهم خمسة عشر تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلىٰ الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل ، وكان عمّار بن ياسر آخذاً بالخطام علىٰ راحلته وحذيفة خلفها يسوقها ، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثّمون ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله ، فهربوا . .

والظاهر أنّهم لمّا اجتمعوا لذلك الغرض ، فقد طعنوا في نبوّته ونسبوه إلىٰ الكذب والتصنع في إدّعاء الرسالة ، وذلك هو قول كلمة الكفر . وهذا القول اختيار الزجّاج) .

فأمّا قوله : ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ ، فلقائل أن يقول : إنّهم أسلموا ، فكيف يليق بهم هذا الكلام ؟ ! والجواب من وجهين :

الأوّل : المراد من الإسلام : الذي هو نقيض الحرب ؛ لأنّهم لمّا نافقوا ، فقد أظهروا الإسلام ، وجنحوا إليه ، فإذا جاهروا بالحرب ، وجب حربهم .

والثاني : أنّهم أظهروا الكفر بعد أن أظهروا الإسلام .

وأمّا قوله : ﴿ **وهمّوا بما لم ينالوا** ﴾ ، المراد : إطباقهم علىٰ الفتك بالرسول ، والله تعالىٰ أخبر الرسول عليه السلام بذلك حتّىٰ احترز عنهم ،

ولم يصلوا إلىٰ مقصودهم..

ـ إلىٰ أن قال في ذيل الآيات الثلاث التي تتلو الآية المزبورة ـ: اعلم أنّ هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين، ولا شكّ أنّهم أقسام وأصناف، فلهذا السبب يذكرهم علىٰ التفصيل»[١].

أقول:

قد مرّ بنا في الحلقات السابقة[٢] أنّ سورة التوبة (البراءة) سمّيت: «الفاضحة»؛ فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عبّاس: سورة التوبة؟

فقال: التوبة؟! بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: «ومنهم..» حتّىٰ ظننّا أن لن يبقىٰ منّا أحد إلّا ذُكر فيها..

وكذلك سمّيت: «المبعثرة»؛ لأنّها تبعثر عن أسرار المنافقين..

وسمّيت: «البحوث»؛ لأنّها تذكر المنافقين وتبحث عن سرائرهم..

و«المدمدمة»، أي: المهلكة..

و«الحافرة»؛ لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين..

و«المثيرة»؛ لأنّها أثارت مخازيهم وقبائحهم..

و«العذاب»؛ روىٰ عاصم بن زر بن حبيش، عن حذيفة، قال: يسمّونها سورة التوبة وهي سورة العذاب[٣].

فترىٰ أن سورة التوبة (البراءة) مليئة بالإشارة إلىٰ أقسام المذمومين

---

(١) التفسير الكبير ـ للرازي ـ ١٦/ ١٣٦ ـ ١٣٨.

(٢) راجع: الحلقة (٣) من هذا المقال، المنشورة في **تراثنا**، العددان الثالث والرابع [٥٩ ـ ٦٠] لسنة ١٤٢٠ هـ.

(٣) مجمع البيان ـ للطبرسي ـ ٥/ ٣ ـ ٤.

ممّن كان في عهد النبيّ ﷺ بظاهر الإسلام، وأبرز ما فيها الكشف عن أفضع عملية حاول جماعة منهم ارتكابها، وهي الفتك بالنبيّ ﷺ.

والجدير بالانتباه أنّ هذه السورة من أواخر السور نزولاً؛ فهي نزلت قبيل عام الفتح وعند غزوة تبوك، وقد صوّرت ـ بتفصيل ـ الأجواء التي كان يعيشها النبيّ ﷺ بالنسبة إلىٰ من حوله.

حذيفة وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام أعلم الناس بالمنافقين:

فقد ورد هذا المضمون في الحديث النبوي الشريف[1]، وكذلك في عدّة روايات قد مرّت في ما سبق، وهو بروز الصحابي حذيفة بن اليمان في علمه ومعرفته بالمنافقين، والظاهر أنّ هذه الواقعة ـ وهي محاولة اغتيال النبي ﷺ ـ هي مربض الفرس، والحادثة العظمىٰ التي أطلعت حذيفة علىٰ رؤوس شبكة النفاق، ومن المهمّ أن نتتبّع خيوط وتفاصيل الحادثة؛ لترتسم لنا منظومة هذه الشبكة والمجموعة، وهل هي من دائرة الصحابة المحيطة بالنبيّ ﷺ، أو من الدائرة المتوسطة، أو الدوائر البعيدة؟!

وها هنا ـ في البدء ـ عدّة موارد وتساؤلات مطروحة:

* الأُولىٰ:

ما مرّ من قول ابن كيسان وروايته: أنّ حذيفة قد قال للنبيّ ﷺ عقب الحادثة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟! فأجابه ﷺ: «أكره أن تقول العرب لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم»؛ فقوله ﷺ يفيد أنّ المجموعة التي

(١) تفسير البرهان ٢/٨١٢ سورة التوبة (براءة) ط الحديثة ـ قم، وكذا في مصادر العامّة.

قامت بهذا التدبير هي من خواصّ الصحابة المحيطين به .

* الثانـية :

إنّ في كثير من الروايات لدىٰ الفريقين التعبير عـنهم بـفلان وفـلان و... من دون ذكر أسمائهم ؛ فما هذه الحشمة عن ذكر أسمائهم وعدّتهم بكاملها ؟ ! ولم هذا التحاشي عن التصريح إلىٰ الكناية المبهمة ؟ ! ومن هم هؤلاء الّذين يتحفّظ عن ذكر أسمائهم ؟ ! أترىٰ لو كانوا مـن الأبـاعد فـي الصحبة يُتستّر عليهم ؟ ! أو لو كانوا مـن المشـهورين عـلناً بـالنفاق لكـان يتخفّىٰ عليهم ؟ !

وهذا مؤشّـر مهمّ يضع بصماته علىٰ هذه الجماعة .

* الثالـثة :

قول الباقر عليه السلام : إنّ ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب .

* الرابـعة :

إنّه وقع بين عمّار رضي الله عنه وبين رجل من تلك المجموعة شـجار بـعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله ، وأشار عمّار ولمّـح بين مـلأ مـن النـاس إلىٰ كـون ذلك الرجل منهم .

* الخامسـة :

إنّ سـرّ مـعرفة حـذيفة بـالمنافقين وٱختصاصه بـهذه المـعرفة هـو مشاهدته لهذه الواقعة ، وهذا يفيد أنّ أصحاب هذه المجموعة لم يكـونوا

مشهورين في العلن لدىٰ عامّة المسلمين بأنّهم من المتمرّدين والمنافقين، بل كانوا يتستّرون في عداوتهم وكيدهم للدين والنبيّ صلى الله عليه وآله؛ وإلّا لَما اختصّ حذيفة بمعرفتهم كخصيصة أشاد بها النبيّ صلى الله عليه وآله لحذيفة..

ولماذا لم تشمل هذه المعرفة أصحاب السقيفة والخلفاء الثلاثة، بينما اختصّ بها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وحذيفة؟!

*** السادسـة:**

من الملاحظ والملفت للنظر أنّ الرسول الأكـرم صلى الله عليه وآله لم يـصطحب علىٰ العقبة إلّا عمّار وحذيفة وسلمان والمقداد، حسب اختلاف الروايات، بينما باقي الصحابة ـ كالصاحب في الغار، وغيره من أصحاب السقيفة ـ لم يكونوا معه صلى الله عليه وآله..

وستأتي تتمّة للموارد الفاحصة لأوراق هذه الحادثة.

قال السيوطي في **الدرّ المنثور**:

«وأخرج البيهقي في **الدلائل** عن عروة رضي الله عنه، قال: رجع رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم قافلاً من تبوك إلىٰ المدينة، حتّىٰ إذا كان ببعض الطريق مكر برسـول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ناس من أصـحابه، فتآمـروا أن يطرحـوه من عقبة في الطـريق، فـلمّا بـلغوا العـقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلمّا غشيهم رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم أُخبر خبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنّه أوسع لكم.

وأخذ رسـول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم العقبة وأخـذ النـاس ببطن الوادي إلّا النفر الّذين مكروا برسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم لمّا سمعوا ذلك استعدّوا وتلثّموا وقد همّوا بأمر عظيم..

وأمر رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وعمّار بن ياسر رضي الله عنه فمشيا معه مشياً، فأمر عمّار أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة يسوقها.

فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم وأمر حذيفة أن يردّهم، وأبصر حذيفة رضي الله عنه غضب رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثّمون لا يشعروا إنّما ذلك فعل المسافر، فرعبهم الله حين أبصروا حذيفة رضي الله عنه وظنّوا أنّ مكرهم قد ظهر عليه فاسرعوا حتّىٰ خالطوا الناس.

فأقبل حذيفة رضي الله عنه حتّىٰ أدرك رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم، فلمّا أدركه قال: اضرب الراحلة يا حذيفة، وآمش أنت يا عمّار.

فاسرعوا حتّىٰ استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أحداً؟!

قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثّمون.

فقال النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم: هل علمتم ما كان شأنهم وما أرداوا؟!

قالوا: لا والله يا رسول الله.

قال: فإنّهم مكروا ليسيروا معي حتّىٰ إذا طلعت في العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله فنضرب أعناقهم.

قال: أكره أن يتحـدّث الناس ويقـولوا أنّ محمّـداً وضـع يـده فـي أصحابه. فسمّاهم لهما وقال: اكتماهم».

ثمّ إنّ السيوطي ذكر رواية البيهقي بطريق آخر، فيها ذكر أسمائهم، قال: «وأخرج ابن سـعد، عن نافع بن جبير بن مـطعم، قـال: لم يـخبر رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم بأسماء المنافقين الّذين تحسّـوه ليلة العقبة بتبوك غير حذيفة ﷺ، وهم اثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشي وكلّهم من الأنصار ومن حلفائهم».

ثمّ ذكر السيوطي رواية أُخرىٰ عن البيهقي أيضاً في **الدلائل**، وذكر سرد الواقعة إلىٰ أن قال: «قلنا: يا رسول الله! ألا تبعث إلىٰ عشائرهم حتّىٰ يبعث إليك كلّ قوم برأس صاحبهم.

قال: لا، إنّي أكره أن تحدّث العرب بينها أن محمّـداً قاتل بقوم حتّىٰ إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. ثمّ قال: اللّهمّ ارمهم بالدبيلة.

قلنا: يا رسول الله! وما الدبيلة؟

قال: شهاب من نار يوضع علىٰ نياط قلب أحدهم فيهلك»[1].

ويستفاد من هذه الروايات عدّة موارد أُخـرىٰ كشـواهـد مـقرّبة إلىٰ معرفة هذه المجموعة ـ مضافاً إلىٰ ما تقدّم ـ.

* **السابـعة:**

قد عبّر الراوي الأخير لهذه الواقعة عن تلك المجموعة بأنّهم: «ناس من أصحابه ﷺ»، ولا يخفىٰ أنّ التعبير لدىٰ الرواة بوصف الصحبة يخصّ

---

(١) الدرّ المنثور ٣/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

من يتّصل بصحبة وبعلاقة قريبة، فلم يكن تعبيرهم بلفظ الصحبة عن كلّ من أدرك النبيّ ﷺ، بل هو وصف خاص لدىٰ الرواة لخصوص مَن هو ممّن حواليه ﷺ، بخلاف أصحاب التراجم والرجال؛ إذ أنّهم اصطلحوا علىٰ تعاريف عدّة للصحابي، شملت بعضها كلّ من رأىٰ النبيّ ﷺ وإن لم يروِ عنه، أو كلّ من أدركه وروىٰ عنه ولو بعض روايات قليلة، أو حتّىٰ رواية واحدة أو اثنتين..

فالاستعمال الجاري لدىٰ الرواة أنّهم لا يطلقون لفظ الصحبة إلّا علىٰ الخواصّ، وممّن هم حواليه علىٰ علاقة متميزة به ﷺ، كما في الاستعمال العرفي الدارج حالياً، فإنّه لا يقال أصحاب فلان إلّا علىٰ من لهم صلة خاصّة بذلك الشخص.

هذا مضافاً إلىٰ قرائن أُخرىٰ في هذه الروايات:

منها: إضافة اللفظ إلىٰ الضمير «من أصحابه»؛ فإنّه يختلف في الظهور عن تعبير: «من الصحابة»؛ إذ الأوّل أكثر تخصّصاً.

ومنها: أنّهم أرادوا أن يسلكوا العقبة مع الرسول ﷺ في بدء الأمر من دون الناس الّذين كانوا يمشون ببطن الوادي، فقال ﷺ لهم ـ بعدما أُخبر خبرهم ـ: «من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي، فإنّه أوسع لكم»؛ وهذا يفيد أنّهم ممّن يتعارف مشيه مع الرسول قريب منه في الأسفار والحركة، وهذه الصفة لا تكون للأباعد.

ومنها: جواب حذيفة ـ عندما سأله النبيّ ﷺ عن معرفة الرهط الّذين همّوا بذلك الأمر العظيم ـ بأنّه رأىٰ راحلة فلان وفلان؛ وهذا يفيد أنّ الرهط هم من وجوه المسلمين، وممّن لحذيفة خلطة قريبة معهم، وليسوا من الأباعد كي تخفىٰ رواحلهم ودوابّهم علىٰ حذيفة.

ومنها : قوله ﷺ ـ عندما طلب منه حذيفة وعمّار قتل الرهط ـ : «إنّي أكره أن يتحدّث الناس ويقولوا أنّ محمّداً وضع يده في أصحابه» ؛ ومنه يتبيّن أنّ الرهط والمجموعة هم ممّن ناصر النبيّ ﷺ بحسب الظاهر ، وكانوا ممّن حوله من الخواصّ الّذين لهم علاقة متميزة به أمام مرأىٰ الناس ، ومن الّذين لا يتوقّع الناس معاداتهم له ﷺ ، بل كان الإقدام علىٰ قتلهم من قبله ﷺ مستنكراً عند الناس ، وهذا ظاهر في عدم كونهم من أوساط الناس أو من الأباعد .

ومنها : قوله ﷺ لحذيفة وعمّار لمّا أطلعهم بأسمائهم : «اكتماهم» ؛ فما وجه الأمر بالكتمان لو كان هؤلاء الرهط من أوساط الناس ، ومن حلفاء الأنصار ونحوهم ، كما روىٰ ابن سعد أنّهم لم يكونوا من قريش بل من الأنصار وحلفائهم ؟!

لا ريب أنّ علّة الأمر بالكتمان ظاهرة في كون هؤلاء الرهط هم ممّن يحسب علىٰ النبيّ ﷺ بصحبة خاصّة ، ممّن يؤدّي فضحه وكشفه ـ لا سيّما بمثل هذا الفعل الشنيع المنكر ، الذي هو علىٰ أُصول الكفر الباطني ـ إلىٰ حدوث بلبلة وآضطراب في أوساط الناس وعامّتهم ممّن لا يعرف من الإسلام إلّا رسمه ، ومن الدين إلّا طقوساً ظاهرية . .

فحفاظاً منه ﷺ علىٰ عدم إثارة الفتنة بين عامّة الناس بذلك ، وعدم تزلزل إسلامهم أمر بالكتمان ؛ ولا سيّما أنّ قوله تعالىٰ في الآية السابقة لهذه الآيات : ﴿ **يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين وآغلُظ عليهم ومأواهم جهنّمُ وبئس المصير** ﴾[1] في تفسير أهل البيت عليهم‌السلام ـ كما روىٰ ذلك

---

(١) سورة التوبة (براءة) ٩ : ٧٣ .

الطبرسي في **مجمع البيان**[١]، وغيره من مفسّري الإمامية، وبطرق مسندة عنهم عليه السلام ـ: «جاهد الكفّار بالمنافقين»، قالوا: لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يكن يقاتل المنافقين وإنّما كان يتألّفهم؛ لأنّ المنافقين لا يُظهرون الكفر، وعلم الله تعالىٰ بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يُظهرون الإيمان. فعلىٰ هذا التفسير كان صلى الله عليه وآله مأموراً بأن يستبقيهم ويجاهد بهم الكفار..

ثمّ أنّه من الغريب من ابن سعد أنّه يروي أنّهم ليسوا من قريش بل من الأنصار وحلفائهم، ويروي ـ في الوقت نفسه ـ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يخبر بأسمائهم غير حذيفة، فكيف نفىٰ كونهم من قريش؟!

والغريب منه أيضاً نفي كونهم من حلفاء قريش؛ إذ نسبهم إلىٰ الأنصار وحلفائهم خاصّة..

ولا غرابة في ذلك؛ فإنّ أصحاب السقيفة لم يواجههم في السقيفة إلّا الأنصار وحلفائهم ـ إلّا القليل ـ ولم يعقد البيعة في السقيفة إلّا قريش وحلفائها.

ومنها: قوله صلى الله عليه وآله في الرواية الأُخرىٰ المتقدّمة: «إنّي أكره أن تحدّث العرب بينها أنّ محمّداً قاتل بقوم حتّىٰ إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»؛ فإنّه صلى الله عليه وآله وصف هؤلاء الرهط بأنّهم: «قوم قاتل بهم» و: «أظهره الله بهم»، ولو بنظر عامّة الناس وأذهان العرب، فهل هذا الوصف ينطبق إلّا علىٰ الخواصّ ممّن هاجر من الأوائل معه صلى الله عليه وآله..

وهو صلى الله عليه وآله قد بيّن أنّ عامّة أذهان الناس، التي تنظر إلىٰ مجريات الأحداث بسطحية وتحكم عليها حسب ظواهرها لا حقيقتها، تستنكر

---

(١) مجمع البيان ٥/ ٧٧.

الاقتصاص من هؤلاء الرهط ومعاقبتهم وفضحهم على الملأ؛ إذ كانوا قد أوجدوا ـ بحسب الظاهر ـ لأنفسهم مكانة وٱختصاص لدى النبيّ ﷺ في أعين الناس، لدرجة كان يصعب معها كشف زيف هذه الصنيعة، ولم يكن من الهيّن واليسير بيان الحقيقة لعقول الناس القاصرة، التي لا تزن الأُمور حسب الواقع بل حسب الظواهر.

* **الثامنة:**

إنّ هؤلاء الرهط تميّزوا بأنّهم دعا ﷺ عليهم بأن يبتليهم الله تعالى بالدبيلة، وسيأتي في روايات أُخرى كالتي أوردها **صحيح مسلم** وغيره أنّها تشير إلى تلك الجماعة.

* **التاسعة:**

إنّ اقتران حذيفة وعمّار في هذه الواقعة أمر تكرّر في الروايات والنقول التاريخية، أي اقترنا في معرفة هؤلاء الرهط، وهذه علامة سيتمّ الاستفادة منها في الموارد الروائية اللاحقة بشأن المنافقين.

والملفت للنظر أنّ النبيّ ﷺ لمّا أخبره الوحي بنيّة تلك الجماعة الفتك به لم يستعن ﷺ بأحد من خواصّ أصحابه سوى حذيفة وعمّار وسلمان والمقداد، فما شأن البقية من الخواصّ؟!

لماذا لم يستأمنهم ﷺ ويأمنهم في الدفاع عنه وحمايته؟! أم أنّ الحال كان على عكس ذلك.

وأمّا أبا ذرّ فلم يكن عنده راحلة في غزوة تبوك، فكان يتأخّر عن جيش الرسول ﷺ في سيره ماشياً على قدميه، كما ذكرت ذلك مصادر السِيَر والتواريخ.

*** العاشرة :**

إنّ هذه الواقعة الخطيرة في حياة النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ومسيرة الدين متّفق على وقوعها في كتب حديث الفريقين وكتب السير والتواريخ ، سواء كانت هي سبب نزول الآيات ، كما هو الأقوىٰ الظاهر ، أم كان السبب للنزول واقعة أُخرىٰ .

قال ابن عبد البرّ في **الاستيعاب** في ترجمة أبي موسىٰ الأشعري ، عبد الله بن قيس بن سليم ، أنّه : «ولّاه عمر البصرة في حين عزل المغيرة عنها ، فلم يزل عليها إلىٰ صدر من خلافة عثمان ، فعزله عثمان عنها وولّاها عبد الله بن عامر بن كريز ، فنزل أبو موسىٰ حينئذ بالكوفة وسكنها .

فلمّا دفع أهل الكوفة سعيد بن العاص ولّوا أبا موسىٰ وكتبوا إلىٰ عثمان يسألونه أن يولّيه ، فأقرّه عثمان على الكوفة إلىٰ أن مات .

وعزله عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عنها فلم يزل واجداً منها على عليّ حتّىٰ جاء منه ما قال حذيفة ؛ فقد روي فيه لحذيفة كلام كرهت ذكره والله يغفر له .

ثمّ كان من أمره يوم الحكمين ما كان»[1] . .

قال ابن أبي الحديد في **شرح النهج** :

«قلت : الكلام الذي أشار إليه أبو عمر بن عبد البرّ ولم يذكره ، قوله فيه ـ وقد ذُكر عنده ، أي عند حذيفة ، بالدين ـ : أمّا أنتم فتقولون ذلك ، وأمّا أنا فأشهد أنّه عدوّ لله ولرسوله وحرب لهما ، في الدنيا **﴿ ويوم يقوم الأشهاد * يومَ لا ينفعُ الظالمين معذرتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ**

---

(١) الاستيعاب ـ في ذيل الإصابة ـ ٢ / ٣٧٢ .

الدار﴾[١] . .

وكان حذيفة عـارفاً بـالمنافقين ، أسـرّ إليـه رسـول الله ﷺ أمـرهم وأعلمه أسماءهم .

وروي أنّ عمّاراً سئل عن أبي موسىٰ ، فقال : لقد سمعت فيه مـن حذيفة قولاً عظيماً ، سمعته يقول : صاحب البرنس الأسْود . ثمّ كلح كلوحاً علمت منه أنّه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط .

وروي عن سويد بن غفلة ، قال : كنت مع أبي موسىٰ علىٰ شـاطئ الفرات في خلافة عثمان ، فرویٰ لي خبراً عن رسول الله ﷺ ، قال : سمعته يقول : إنّ بني إسرائيل اختلفوا ، فلم يـزل الاخـتلاف بـينهم ، حـتّىٰ بـعثوا حكمين ضالّيْن ضلّا وأضلّا من اتّبعهما ، ولا ينفكّ أمر أُمّتي حتّىٰ يـبعثوا حكمين يَضلان ويُضلّان .

فقلت له : احذر يا أبا موسىٰ أن تكون أحدهما !

قال : فخلع قميصه ، وقـال : أبـرأ إلىٰ الله مـن ذلك ، كـما أبـرأ مـن قميصي هذا» .

ثمّ ذكر ما قاله أبو محمّد بن متّويه في كتاب **الكفاية** : «أمّا أبو موسىٰ فإنّه عظم جرمه بما فعله ، وأدّىٰ ذلك إلىٰ الضرر الذي لم يـخف حـاله ، وكان عليّ عليه‌السلام يقنت عليه وعلىٰ غيره فـيقول : اللّـهمّ العـن مـعاوية أوّلاً وعَمْراً ثانياً وأبا الأعور السلمي ثالثاً وأبا موسىٰ الأشعري رابعاً .

وروي عنه عليه‌السلام أنّه كان يقول في أبي موسىٰ : صبغ بـالعلم صبغاً وسلخ منه سلخاً»[٢] .

---

(١) سورة غافر ٤٠ : ٥١ و ٥٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ـ ١٣ / ٣١٤ ـ ٣١٥ .

وقال المزّي في **تهذيب الكمال**: «وعمل للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على زبيد وساحل اليمن ـ وهذا قبل تبوك كما لا يخفىٰ ـ.

وٱستعمله عمر بن الخطّاب علىٰ الكوفة والبصرة، وشهد وفاة أبي عبيدة بن الجراح بالأُردن، وشهد خطبة عمر بالجابية، وقدم دمشق علىٰ معاوية.

ـ إلىٰ أن قال: ـ وقال مجالد، عن الشعبي: كتب عمر في وصيّته: أن لا يقرّ لي عامل أكثر من سنة، وأقرّوا الأشعري أربع سنين»[١].

وفي **تاريخ دمشق** عن أبي تحيىٰ حكيم، كنت جالساً مع عمّار فجاء أبو موسىٰ، فقال [عمّار]: ما لي ولك؟!

قال: ألست أخاك؟!

قال: ما أدري، إلّا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يلعنك ليلة الجمل.

قال: إنّه استغفر لي.

قال عمّار: قد شهدت اللعن ولم أشهد الاستغفار»[٢].

وذكر الذهبي في **سير أعلام النبلاء**، عن شقيق: «كنّا مع حذيفة جلوساً فدخل عبد الله وأبو موسىٰ المسجد، فقال ـ أي حذيفة ـ: أحدهما منافق. ثمّ قال ـ أي حذيفة ـ: إنّ أشبه الناس هدياً ودلّاً وسمتاً برسول الله صلى الله عليه وآله عبد الله»[٣].

وروىٰ الشيخ المفيد في **أماليه** عن عليّ عليه السلام ـ بشأن أبي موسىٰ ـ: «والله ما كان عندي مؤتمناً ولا ناصحاً، ولقد كان الّذين تقدّموني استولوا

(١) تهذيب الكمال ٤ / ٢٤٤.

(٢) تاريخ دمشق ٣٢ / ٩٣، كنز العمّال ١٣ / ٦٠٨ ح ٣٧٥٥٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٩٣ رقم ٨٢، تاريخ دمشق ٣٢ / ٩٣.

علىٰ مودّته ، وولّوه وسلّطوه بالإمرة علىٰ الناس ، ولقد أردت عزله فسألني الأشتر فيه أن أقرّه ، فأقررته علىٰ كره منّي له ، وتحمّلت علىٰ صرفه من بعد »[1] .

وذكر المسعودي في **مروج الذهب** : «إنّ أبا موسىٰ ثبّط الناس عن عليّ عليه‌السلام في حرب الجمل ، فعزله عن الكوفة وكتب إليه : «اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً ، فما هذا أوّل يومنا منك ، وإنّ لك فينا لهنّات وهنيّات »[2] .

وذكر ابن سعد في **الطبقات** عن أبي بردة ـ وهو ابن أبي موسىٰ الأشعري ـ : « . . . إذ دخل يزيد بن معاوية فقال له معاوية : إن وليت من أمر الناس شيئاً فاستوصِ بهذا ، فإنّ أباه كان أخاً لي ـ أو خليلاً أو نحو هذا من القول ـ غير أنّي قد رأيت في القتال ما لم ير »[3] .

هذا ، ويستفاد من الموارد والنصوص الآنفة عدّة أُمور :

*** الحادية عشرة :**

إنّ أحد أعضاء مجموعة أهل العقبة والرهط هو عبد الله بن قيس بن سليم ، المشتهر بـ : أبي موسىٰ الأشعري ، صاحب البرنس الأسود ، وهو أوّل بصمات المجموعة يجدها المتتبّع بوضوح ، ومنه تتلاحق بقية البصمات .

---

(١) الأمالي ـ للمفيد ـ : ٢٩٥ رقم ٦ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٦٧ ، تاريخ الطبري ٤ / ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

(٣) الطبقات الكبرىٰ ٤ / ١١٢ ، تاريخ الطبري ٥ / ٣٣٢ ، سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٠١ رقم ٨٢ .

* الثانية عشرة :

ما تقدّم من قول عليّ عليه السلام من أنّ الخلفاء قبله «استولوا علىٰ مودّته !! وولّوه وسلّطوه بالإمرة علىٰ الناس»، وقال عليه السلام له : «فما هذا أوّل يومنا منك، وإنّ لك فينا لهنّات وهنيّات»؛ فما هو يا ترىٰ سبب مودّتهم له بالدرجة الشديدة، كما عبّر عليه السلام : «استولوا علىٰ مودّته» ؟! وما هو سبب توليتهم وتسليطهم له، علىٰ نقيض نفرة حذيفة وعمّار له، وتنويههم وتصريحهم بأنّه من مجموعة أهل العقبة ؟!

* الثالثة عشرة :

ما تقدّم من تصريح معاوية بخلّته لأبي موسىٰ الأشعري، كما في شدّة مودّة الخلفاء السابقين له أيضاً، وتوافقهم علىٰ توليته وتسليطه علىٰ إمارة علىٰ الناس..

ذكر الطبري في **تاريخه** عن جويرية بن أسماء : «قدم أبو موسىٰ علىٰ معاوية فدخل عليه في برنس أسود، فقال : السلام عليك يا أمين الله !!! قال : وعليك السلام.

قال معاوية : أقدم الشيخ لأُولّيه، ولا والله لا أُولّيه»[١].

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٣٢٢، الكامل في التاريخ ٢ / ٥٢٧، أنساب الأشراف ٥ / ٥٠.

اثنين حتّىٰ يموت»[١].

يظهر من ذلك شدّة حرص أبي موسىٰ الأشعري علىٰ تولّي الإمارة، وأنّ سيرته في هذا الحرص ـ بالتالي ـ توضّح لنا معالم دواعي مشاركته في عملية الفتك بالنبيّ ﷺ، وأنّ دواعي المجموعة هي الوصول إلىٰ سدّة الحكم والإمارة في ظل أجواء الدين الجديد، لا كبقية المنافقين ممّن يريد إعادة الكفر والشرك مرّة أُخرىٰ جهاراً..

فالظاهر إنّ هذه المجموعة رأت الفرصة متاحة للوصول إلىٰ السلطة في ظلّ الدعوة للإسلام؛ إذ لم تكن متاحة لهم في ظلّ سُنن الملّة الجاهلية، التي تحكمها القوانين القبلية والعشائرية، وهم ليسوا بذوي حسب ونسب قبلي يؤهلهم إلىٰ ذلك.

ويتوافق هذا الشاهد في توضيح معالم دواعي أهل العقبة ـ وهي الوصول إلىٰ سدّة الحكم في ظلّ الدعوة الجديدة ـ مع الشاهد المتقدّم سابقاً عنهم من أنّهم من خاصّة أصحاب النبيّ ﷺ بنظر الناس وعامّة المسلمين، أي أنّهم رسموا وصنعوا لأنفسهم صورة لمكانة دينية في أذهان المسلمين، وهذه الصورة هي السلّم والطريق لوصولهم لأمارة الحكم؛ ففي ظلّ الدعوة الجديدة يغيب المعيار القبلي والتحالفات العشائرية، ومعيار القدرة المالية، وينفتح باب تقنين جديد لعلاقات المجتمع وشرائعه، ومن الممكن أن يسنّوا ـ حينئذ ـ ما يوافق تمركز القدرة لهم دون ما يرسمه الدين، ودون ما يرسمه ويقننه الدين الإسلامي، ودون ما كانت ترسمه شريعة الجاهلية السابقة..

---

(١) الغارات ٢/٦٥٦.

فلا القدرة الشرعية الدينية المتمثّلة بالنبيّ ﷺ ووصيّه أمير المؤمنين ابن عمّه عليه السلام ، ولا القدرة التقليدية القبلية ، بل السماح ببروز قدرة ثالثة في ظلّ الأجواء الجديدة إلّا أنّها وليد اصطناعي من هذه المجموعة .

وروىٰ الواقدي في **المغازي** حادثة العقبة كما مرّ وذكر في ذيلها قول رسول الله ﷺ عندما سئل عن قتل أولئك الرهط : «إنّي لأكره أن يقول الناس أنّ محمّد لمّا انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه .

فقال : يا رسول الله ! فهؤلاء ليسوا بأصحاب .

قال رسول الله ﷺ : أليس يظهرون شهادة أن لا إلٰه إلّا الله ؟ !

قال : بلىٰ ، ولا شهادة لهم !

قال : أليس يظهرون أنّي رسول الله ؟ !

قال : بلىٰ ، ولا شهادة لهم !

قال : فقد نُهيت عن قتل أُولئك» .

وروىٰ عن أبي سعيد الخدري : «قال : كان أهل العقبة الّذين أرادوا بالنبيّ ﷺ ثلاثة عشر رجلاً ، قد سمّاهم رسول الله ﷺ لحذيفة وعمّار رحمهما الله» .

وروىٰ عن جابر بن عبد الله : «قال : تنازع عمّار بن ياسر ورجل من المسلمين في شيء فاستبّا ، فلمّا كاد الرجل يعلو عمّاراً في السباب قال عمّار : كم كان أصحاب العقبة ؟

قال : الله أعلم .

قال : أخبرني عن علمكم بهم ؟ !

فسكت الرجل ، فقال من حضر : بيّن لصاحبك ما سألك عنه .

وإنّما يريد عمّار شيئاً قد خفي عليهم، فكره الرجل أن يحدّثه، وأقبل القوم على الرجل فقال الرجل: كنّا نتحدّث أنّهم كانوا أربعة عشر رجلاً.

قال عمّار: فإنّك أن كنت منهم فهم خمسة عشر رجلاً.

فقال الرجل: مهلاً، أذكرك الله أن تفضحني.

فقال عمّار: والله ما سمّيت أحداً، ولكنّي أشهد أن الخمسة عشر رجلاً اثنا عشر منهم حرب لله ولرسوله **﴿في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾**»[1].

ويستفاد من هذه الموارد أُموراً:

*** الرابعة عشرة:**

ما تقدّم من أنّ أهل العقبة والرهط هم ممّن يحيط بالنبيّ ﷺ لدرجة عدّهم ـ عند الناس ـ من أصحابه في مقابل بقية الناس..

وقد روى الصدوق في **الخصال**، بإسناده إلى حذيفة بن اليمان أنّه قال: «الّذين نفروا برسول الله ناقته في منصرفه من تبوك أربعة عشر: أبو الشرور، وأبو الدواهي، وأبو المعازف، وأبوه، وطلحة، وسعد بن أبي وقّاص، وأبو عبيدة، وأبو الأعور، والمغيرة، وسالم مولى أبي حذيفة، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبو موسى الأشعري، وعبد الرحمن ابن عوف، وهم الّذين أنزل الله عزّ وجلّ فيهم: **﴿وهمّوا بما لم ينالوا﴾**»[2].

---

(١) المغازي ٢/١٠٤٢ ـ ١٠٤٥.

(٢) الخصال: ٤٩٦ حديث ٦.

* **الخامسة عشرة :**

إنّ الرجل الذي تنازع معه عمّار فتسابّا يشهد نقل الواقدي أنّه بقدر عمّار في قرب الصحبة من النبيّ ﷺ ، ولو بنظر الناس ؛ إذ كيف يسأله عمّار عن عدّة أهل العقبة وعن علمه بهم مع كونه من الأباعد وأوساط الناس . .

كما أنّ تعبير الآخرين أنّ الرجل صاحب عمّار ، شاهد على كونه ممّن يحيط بالنبيّ ﷺ ، ومن ثمّ هو على علقة قريبة من عمّار .

كما أن تعبير عمّار وخطابه له : «أخبرني عن علمكم بهم» دالّ على كون كلّ مجموعة أهل العقبة هم من قبيل ذلك الرجل ، أي من الدائرة القريبة من النبيّ ﷺ .

كما أنّ تحاشي عمّار عن ذكر أسماء هؤلاء ـ مضافاً إلى كونه وصية النبيّ ﷺ له ولحذيفة في تلك الواقعة ، ولو بحسب ما دام النبيّ ﷺ حياً ـ هو لمكانة أُولئك الرهط في أعين الناس ، فكان من المشقّة والصعوبة بمكان كشف الحقائق والأوراق لعامّة الناس .

روى ابن عبد البرّ في **الاستيعاب** في ترجمة حذيفة : «من كبار أصحاب رسول الله ﷺ و . . . وكان عمر بن الخطّاب يسأله عن المنافقين وهو معروف في الصحابة بصاحب سرّ رسول الله ﷺ . . . وقتل صفوان وسعيد ابنا حذيفة بصفّين وكانا قد بايعا عليّاً بوصية أبيهما بذلك إيّاهما»[١] .

وروى المزّي في **تهذيب الكمال** ، عن قتادة : «قال حذيفة : لو كنت على شاطئ نهر ، وقد مددت يدي لأغترف فحدّثتكم بكلّ ما أعلم

(١) الاستيعاب ـ بذيل الإصابة ـ ١ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

ما وصلت يدي إلىٰ فمي حتّىٰ أُقتل !!».

وقال عطاء بن السائب، عن أبي البختري: «قال حذيفة: لو حدّثتكم بحديث لكذّبني ثلاثة أثلاثكم ـ أي كلّكم ـ.

قال: ففطن له شاب فقال: من يصدّقك إذا كذّبك ثلاثة أثلاثنا ؟!

فقال: إنّ أصحاب محمّد ﷺ كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر.

قال: فقيل له: ما حملك علىٰ ذلك ؟

فقال: إنّه من اعترف بالشر وقع في الخير».

وروىٰ عن النزّال بن سبر: «كنّا مع حذيفة في البيت فقال له عثمان: يا أبا عبد الله ! ما هذا الذي يبلغني عنك.

قال: ما قلته.

فقال عثمان: أنت أصدقهم وأبرّهم.

فلمّا خرج قلت: يا أبا عبد الله ! ألم تقل ما قلته ؟!

قال: بلىٰ، ولكنّي أشتري ديني ببعضه مخافة أن يذهب كلّه».

وروىٰ عن بلال بن يحيىٰ: «بلغني أنّ حذيفة كان يقول: ما أدرك هذا الأمر أحد من أصحاب النبيّ ﷺ إلّا قد اشترىٰ بعض دينه ببعض.

قالوا: فأنت ؟!

قال: وأنا.. والله إنّي لأدخل علىٰ أحدهم، وليس من أحد إلّا وفيه محاسن ومساوئ، فأذكر من محاسنه وأعرض عن ما سوىٰ ذلك، وربّما دعاني أحدهم إلىٰ الغذاء فأقول: إنّي صائم ولست بصائم»[1].

---

(١) تهذيب الكمال ٢ / ٧٥ ـ ٧٧.

ويستفاد من هذه الموارد أُموراً:

*** السادسة عشر:**

إنّ أسرار المنافقين ـ وعمدتها أسماء مجموعة أهل العقبة ـ لا يحتمل غالب الناس وعامّة المسلمين كشفها والإعلان عنها، كما صرّح بذلك حذيفة، بل لقتلوه كما قال..

كما إنّ حذيفة يصرّح بانسياق وذهاب كثير من الصحابة وراء الدنيا وتكالبهم عليها، ونكث العهود التي أخذها الله ورسوله عليهم.

*** السابعة عشرة:**

إنّه كانت بين حذيفة وعثمان منافرة ومراقبة ومواجهة بسبب ما يعرفه حذيفة من أسماء أهل العقبة، وكان منها ما يمسّ عثمان وأمثاله من جماعته من الصحابة.



متابعة قصاصات واقعة العقبة

نتعرّض فيها للبقية منها..

قول ابن حزم في **المحلّىٰ**: «ومن طريق مسلم[1]: نا زهير بن حرب، نا أحمد الكوفي، نا الوليد بن جُمَيع، نا أبو الطفيل، قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة ما يكون بين الناس، فقال: انشدك الله كم كان أصحاب العقبة؟ فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال ـ يعني حذيفة ـ: كنّا نخبر أنّهم أربعة عشر، فإن كنت فيهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أنّ اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة؛ قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ولا علمنا بما أراد القوم».

إلىٰ أن قال ابن حزم: «وأحاديث موقوفة علىٰ حذيفة، فيها: أنّه كان يدري المنافقين، وأنّ عمر سأله: أهو منهم؟ قال: لا، ولا أخبر أحداً بعدك بمثل هذا، وأنّ عمر كان ينظر إليه فإذا حضر حذيفة جنازة حضرها عمر وإن لم يحضرها حذيفة لم يحضرها عمر، وفي بعضها: منهم شيخ لو ذاق الماء ما وجد له طعماً؛ كلّها غير مسندة..

وعن حذيفة، قال: مات رجل من المنافقين فلم أذهب إلىٰ الجنازة، فقال: هو منهم، فقال له عمر: أنا منهم؟ قال: لا».

إلىٰ أن قال: «وعن زيد بن وهب، قال: كنّا عند حذيفة ـ وهو من

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١٤٤ ح ١١.

طريق البخاري[1] ـ فقال حذيفة: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلّا ثلاثة، ـ يعني قوله تعالىٰ: ﴿ **فقاتلوا أئمّة الكفر** ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ **ينتهون** ﴾[2] ـ قال حذيفة: ولا بقي من المنافقين إلّا أربعة. فقال له إعرابي: إنّكم أصحاب محمّد تخبروننا بما لا ندري، فما هؤلاء الّذين ينقرون بيوتنا ويسرقون أعلافنا؟ قال: أُولئك الفسّاق، أجل لم يبقَ منهم إلّا أربعة، شيخ كبير لو شرب الماء وجد له برداً».

ثمّ نقل أحاديث بأنّه ﷺ لا يقتل أصحابه: «لا يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه»[3].

وقال: «إنّه لا خلاف بين أحد من الأُمّة في أنّه لا يحلّ لمسلم أن يسمّي كافراً معلناً بأنّه صاحب رسول الله ﷺ، ولا أنّه من أصحاب النبيّ عليه السلام، وهو عليه السلام قد أثنىٰ علىٰ أصحابه، فصحّ أنّهم أظهروا الإسلام فحرّمت بذلك دماؤهم في ظاهر الأمر، وباطنهم إلىٰ الله تعالىٰ في صدق أو كذب، فإن كانوا صادقين في توبتهم فهم أصحابه حقّاً، عند الناس ظاهرهم وعند الله تعالىٰ باطنهم وظاهرهم، فهم الّذين أخبر رسول الله ﷺ أنّهم: لو أنفق أحدنا مثل أُحد ذهباً ما بلغ نصيف مدّ أحدهم. وإن كانوا كاذبين فهم في الظاهر مسلمون وعند الله تعالىٰ كفّار»[4].

وقال: «وأمّا حديث حذيفة فساقط؛ لأنّه من طريق الوليد بن جُميع، وهو هالك، ولا نراه يعلم مَن وَضَع الحديث؛ فإنّه قد روىٰ أخباراً فيها أنّ

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٨٢؛ وفيه: «لو شرب الماء البارد لَما وجد برده».

(٢) سورة التوبة ٩: ١٢.

(٣) المحلّىٰ ١١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٤) المحلّىٰ ١١/ ٢٢٣.

أبا بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، وسعد بن أبي وقّاص رضي الله عنهم أرادوا قتل النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم وإلقاءه من العقبة في تبوك، وهذا هو الكذب الموضوع الذي يطعن الله تعالىٰ واضعه، فسقط التعلّق به، والحمد لله ربّ العالمين»[١].

إلىٰ أن قال: «وأمّا الموقوفة علىٰ حذيفة فلا تصحّ، ولو صحّت لكانت بلا شكّ علىٰ ما بيّنا من أنّهم صحّ نفاقهم وعاذوا بالتوبة ولم يقطع حذيفة ولا غيره علىٰ باطن أمرهم فتورّع عن الصلاة عليهم..

وفي بعضها: أنّ عمر سأله: أنا منهم؟ فقال له: لا، ولا أُخبر أحداً غيرك بعدك. وهذا باطل، كما ترىٰ؛ لأنّ من الكذب المحض أن يكون عمر يشكّ في معتقد نفسه حتّىٰ لا يدري أمنافق هو أم لا؟

وكذلك أيضاً لم يختلف اثنان من أهل الإسلام في أنّ جميع المهاجرين قبل فتح مكّة لم يكن فيهم منافق، إنّما كان النفاق في قوم من الأوس والخزرج فقط، فظهر بطلان هذا الخبر»[٢].

ثمّ روىٰ عن البخاري[٣]: «نا آدم بن أبي إياس، نا شعبة، عن واصل الأحدب، عن أبي وائل شقيق ابن سلمة، عن حذيفة بن اليمان، قال: إنّ المنافقين اليوم شرّ منهم علىٰ عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله، كانوا حينئذ يسرّون واليوم يجهرون»[٤].

---

(١) المحلّىٰ ١١/ ٢٢٤.
(٢) المحلّىٰ ١١/ ٢٢٥.
(٣) صحيح البخاري ٩/ ٧٢؛ وفيه: «يومئذ» بدل: «حينئذ».
(٤) المحلّىٰ ١١/ ٢٢٥.

أقول :

ذكر في **تهذيب الكمال** في ترجمة الوليد بن جميع : «الوليد بن عبد الله بن جميع الزهري الكوفي ، والد ثابت بن عبد الله بن جميع ، وقد ينسب إلىٰ جدّه أيضاً . ثمّ نقل عن أحمد بن حنبل وأبي داود قولهما فيه : لا بأس . وعن يحيىٰ بن معين : ثقة ـ وزاد مصحّح الكتاب حكاية الدارمي عن يحيىٰ بن معين ذلك عن ابن محرز ، وزاد : مأمون مرضي ـ وكذلك عن العجليّ . وقال أبو زرعة : لا بأس به . وقال أبو حاتم : صالح الحديث . وقال عمرو بن علي : كان يحيىٰ بن سعيد لا يحدّثنا عن الوليد بن جميع فلمّا كان قبل موته بقليل حدّثنا عنه . وذكره ابن حبّان في كتاب **الثقات** ، روىٰ له البخاري في **الأدب** ، والباقون سوىٰ ابن ماجة»[١] .

وذكر مثل ذلك في **التهذيب** ، وقال : «وذكره ـ اي ابن حبّان ـ في الضعفاء ، وقال : ينفرد عن الأثبات بما لا يشبه حديث الثقات ، فلمّا فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به . وقال ابن سعد : كان ثقة ، له أحاديث . وقال البزار : احتملوا حديثه ، وكان فيه تشيّع . وقال العقيلي : في حديثه اضطراب . وقال الحاكم : لو لم يخرج له مسلم لكان أوْلىٰ»[٢] .

فترىٰ أنّهم مسلّمون بوثاقة الوليد بن جُمَيع إلّا أنّ سبب الطعن بوثاقته هو روايته عن أبي الطفيل ، عن حذيفة روايات أصحاب عقبة تبوك .

وقد ذكر ابن جرير الطبري في **المسترشد** بعض تلك الروايات . .

قال : «وروىٰ عبيد الله بن موسىٰ ، عن الوليد بن جميع ، عن

---

(١) تهذيب الكمال ٧ / ٤٧٤ رقم ٧٣٠٨ .

(٢) تهذيب التهذيب ٩ / ١٥٤ .

أبي الطفيل ، عن حذيفة أو عمّار ، قال : تجسّسوا علىٰ رسول الله ﷺ ليلة العقبة : ...» ، وذكر جماعة من الصحابة ..

وروىٰ أنّه ﷺ قال ـ بعد فشل أصحاب العقبة في تنفير راحلته ومطالبة بعض من كان معه بقتل تلك المجموعة ـ : «إنّي أكره أن يقول الناس : أنّ محمّداً لمّا انقطعت الحرب بينه وبين المشركين ، وضع يده في قتل أصحابه . فقال : يا رسول الله ! فإنّ هؤلاء ليسوا بأصحاب . قال : أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلّا الله ؟ قال : بلىٰ ، ولا شهادة لهم . قال : أليس يظهرون أنّي رسول الله ؟ قال : بلىٰ ، ولا شهادة لهم . قال : فقد نهيت عن قتل أُولئك»[1] .

وأخرج الذهبي في **سير أعلام النبلاء** في ترجمة حذيفة[2] : «وكان النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم قد أسرّ إلىٰ حذيفة أسماء المنافقين ، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأُمّة[3] .

وقد ناشده عمر : أأنا من المنافقين ؟ فقال : لا ، ولا أُزكّي أحداً بعدك[4]»[5] .

وقال : «حمّاد بن سلمة : أخبرنا علي بن زيد ، عن الحسن ، عن جندب : أنّ حذيفة قال : ما كلام أتكلّم به يردّ عنّي عشرين سوطاً ، إلّا كنت متكلّماً به .

خالد ، عن أبي قلابة ، عن حذيفة ، قال : إنّي لأشتري ديني بعضه

---

(١) المسترشد ـ لمحمّد بن جرير الطبري ـ : ٥٩٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٦١ رقم ٧٦ .

(٣) انظر : البخاري ١٣ / ٤٠ ـ ٤١ في الفتن ، ومسلم : ١٤٤ ، والترمذي : ٢٢٥٩ .

(٤) نسبه في الكنز ١٣ / ٣٤٤ إلىٰ رستة .

(٥) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٦٤ .

ببعض ؛ مخافة أن يذهب كلّه(١).

أبو نعيم : حدّثنا سعد بن أوس ، عن بلال بن يحيىٰ ، قال : بلغني أنّ حذيفة كان يقول : ما أدركَ هذا الأمر أحد من الصحابة إلّا قد اشترىٰ بعض دينه ببعض . قالوا : وأنت ؟ قال : وأنا والله ، إنّي لأدخل علىٰ أحدهم ـ وليس أحد إلّا فيه محاسن ومساوئ ـ فأذكر من محاسنه وأُعرض عمّا سوىٰ ذلك »(٢).

ورویٰ الديلمي في **إرشاد القلوب** حادثة أُخرىٰ مشابهة ـ هي المحاولة الثانية لأصحاب عقبة تبوك ـ وقعت عقب بيعة غدير خمّ وتنصيب الرسول صلى الله عليه وآله الإمام عليّ عليه السلام خليفة من بعده ؛ إذ اجتمعوا « ودار الكلام فيما بينهم وأعادوا الخطاب ، وأجالوا الرأي فاتّفقوا علىٰ أن ينفروا بالنبيّ صلى الله عليه وآله ناقته علىٰ عقبة الهريش ، وقد كانوا صنعوا مثل ذلك في غزوة تبوك ، فصرف الله الشرّ عن نبيّه صلى الله عليه وآله ..

فاجتمعوا في أمر رسول الله من القتل والاغتيال وٱستقاء السمّ علىٰ غير وجه ، وقد اجتمع أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله من الطلقاء من قريش والمنافقين من الأنصار ، ومَن كان في قلبه الارتداد من العرب في المدينة ، فتعاقدوا وتحالفوا علىٰ أن ينفروا به ناقته ، وكانوا أربعة عشر رجلاً ، وكان من عزم رسول الله أن يقيم عليّاً عليه السلام وينصبه للناس بالمدينة إذا قدم ، فسار رسول الله ... » ، وذكر واقعة غدير خمّ ..

وقال : « قال حذيفة : ودعاني رسول الله ودعا عمّار بن ياسر وأمره أن يسوقها وأنا أقودها حتّىٰ إذا صرنا في رأس العقبة ثار القوم من ورائنا

---

(١) حلية الأولياء ١ / ٢٧٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٦٨ .

ودحرجوا الدباب بين قوائم الناقة فذعرت وكادت أن تنفر برسول الله...»، ثمّ ذكر تفاصيل الحدث قريب ممّا جرىٰ في عقبة تبوك..

«قال حذيفة: فقلت ـ أي لرسول الله ﷺ ـ: ومَن هؤلاء المنافقون يا رسول الله! أمن المهاجرين أم الأنصار؟ فسمّاهم لي رجلاً رجلاً حتّىٰ فرغ منهم، وقد كان فيهم أُناس أكره أن يكونوا منهم فأمسكت عن ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: يا حذيفة! كأنّك شاكّ في بعض مَن سمّيت لك؟! ارفع رأسك إليهم. فرفعت طرفي إلىٰ القوم وهم وقوف علىٰ الثنية، فبرقت برقة فأضاءت جميع ما حولنا وثبتت البرقة حتّىٰ خلتها شمساً طالعة، فنظرت والله إلىٰ القوم فعرفتهم رجلاً رجلاً، وإذا هم كما قال رسول الله، وعدد القوم أربعة عشر رجلاً، تسعة من قريش وخمسة من سائر الناس...»(١).

وقد ذكرنا في حلقات سابقة ما رواه مسلم في **صحيحه** عن قيس بن عبّاد: «قال: قلت لعمّار: أرأيتم صنيعكم هذا فيما كان من أمر عليّ، أرأياً رأيتموه أو شيئاً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟!

فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلىٰ الناس كافّة، ولكن حذيفة أخبرني عن النبيّ ﷺ أنّه قال: في أصحابي اثنا عشر منافقاً، منهم ثمانية لا يدخلون الجنّة حتّىٰ يلج الجمل في سمّ الخياط»(٢).

ومن الواضح أنّ حكاية عمّار عن حذيفة حديث النبيّ ﷺ عن الاثني عشر منافقاً ـ عدد أصحاب العقبة الّذين نفروا دابّة رسول الله ﷺ ـ في ذلك الوقت، تعريض بأنّ بعض الصحابة كانوا من جملة الاثني عشر،

---

(١) راجع تفاصيل الحادثة والأسماء في: إرشاد القلوب: ٣٣٠ ـ ٣٣٢.

(٢) صحيح مسلم ٤/٢١٤٣ ح ٩، كتاب صفات المنافقين.

لا سيّما وأنّ عمّار وحذيفة هما اللّذان كانا مع الرسول ﷺ حينها، وأنّ تعبيره ﷺ كان: «في أصحابي»، الذي يعطي اختصاصهم القريب بالصحبة له ﷺ.

وروىٰ مسلم في **صحيحه** أيضاً في كتاب صفات المنافقين روايات أُخرىٰ فيهم نقلناها في الحلقات المتقدّمة، فلتلحظ.

وروىٰ ابن عساكر في **تاريخ دمشق** بسنده عن زيد بن وهب الجهني، يحدّث عن حذيفة: «قال: مرّ بي عمر بن الخطّاب وأنا جالس في المسجد فقال: يا حذيفة! إنّ فلاناً قد مات فاشهده. قال: ثمّ مضىٰ حتّىٰ إذا كاد أن يخرج من المسجد التفت إليّ فرآني وأنا جالس فعرف، فرجع إليّ فقال: يا حذيفة! أنشدك الله أمن القوم أنا؟ قال: قلت: اللّهمّ لا، ولن أُبرّئ أحداً بعدك، قال: فرأيت عيني عمر جاءتا»[1].

وروىٰ هذه الرواية ابن العديم في **بغية الطلب في تاريخ حلب** بسنده[2].

وجواب حذيفة في هذه الرواية يتضمّن التعريض الشديد، كما هو طافح من ألفاظه؛ إذ ما معنىٰ: «ولن أُبرّئ أحداً بعدك»؟! فإنّ أيّ فرد من الناس إذا لم يكن من المنافقة أصحاب العقبة فلا معنىٰ لامتناع حذيفة من الجواب..

والتعبير بـ: «لن أبرّئ أحداً بعدك» يعطي: لن أُبرئ أحداً من الجماعة الخاصّة التي هي أصحاب العقبة؛ فالتعبير «أُبرّئ» أي: أُثبت له البراءة مع كونه متورّطاً في عملية الاغتيال المدبّر في العقبة؛ ولذلك قال

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢/٢٧٦.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/٢١٦٧.

بعد ذلك: «فرأيت عيني عمر جاءتا» أي: وقع في دهشة وهلع شديد، وذلك لكون جواب حذيفة صريح بالتخلّص الذكي؛ وهو لا يعني تبرئة صافية عن شوب التعريض بالنفي.

مضافاً إلىٰ أنّ الرجل الميت الذي كنّىٰ عنه حذيفة بـ: «فلان» لا بُدّ أن يكون من رجالات الدولة البارزين؛ حتّىٰ سبّب حصول التساؤل لدىٰ عمر عن حاله عند حذيفة، وعن مدىٰ معرفة حذيفة بجميع أصحاب العقبة، وإلّا فكيف لا يعرف ـ و﴿ **الإنسان علىٰ نفسه بصيرة** ﴾[1] ـ أنّه كان منهم أم لم يكن؟!!

فلا بُدّ وأن يكون مصبّ السؤال هو عن مدىٰ معرفة حذيفة بتمام المجموعة.

ومثل هذا التساؤل قد يوحي ويقضي بتورّط السائل؛ لأنّ البريء لا يحصل لديه الشكّ في كونه من مجموعة العقبة..

والسبب في الشكّ بمعرفة حذيفة بالمجموعة هو أنّ وقت تنفيذ العملية في العقبة كان ليلاً مظلماً، وكانت الجماعة ملثّمة، وعندما تصدّىٰ لهم حذيفة وعمّار ورجعوا واختفوا في الناس ظنّوا وحسبوا أنّ حذيفة وعمّار لم يعرفوهم، لا سيّما وأنّ النبيّ ﷺ نبيّ الرحمة لم يفصح ولم يشهّر بهم بأمر من الله تعالىٰ، كما جاء في كتب حديث الفريقين وكتب السير، قال تعالىٰ: ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس والشجرةَ الملعونةَ في القرآن** ﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون * ولقد فتنّا الّذين من قبلهم**

---

(١) سورة القيامة ٧٥ : ١٤.

(٢) سورة الإسراء ١٧ : ٦٠.

فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾[١].

وروىٰ ابن عساكر عن النزّال بن سبرة الهلالي: «قال: وقفنا من عليّ ابن أبي طالب ذات يوم طيب نفس ومراح فقلنا: يا أمير المؤمنين! حدّثنا عن أصحابك ـ إلىٰ أن قال: ـ فحدّثنا عن حذيفة، قال: فذاك امرؤ علم المعضلات والمفصّلات، وعلم أسماء المنافقين، إن تسألوه عنها تجدوه بها عالماً»[٢]..

وقد تكرّر تسمية علم أسماء المنافقين بعلم المعضلات في الأحاديث الواردة في حذيفة، وذلك إشارة إلىٰ خطورة الأسماء المندرجة في تلك القائمة بحيث أنّ ذلك معضل يصعب إفشاؤه علناً أمام عامّة الناس.

وروىٰ في **بغية الطلب في تاريخ حلب** بسنده عن النمري: «وكان عمر بن الخطّاب يسأله عن المنافقين، وهو معروف في الصحابة بصاحب سرّ رسول الله، وكان عمر ينظر إليه عند موت من مات منهم فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر»[٣].

وقال: «وقتل صفوان وسعيد ابنا حذيفة بصفّين، وكانا قد بايعا عليّاً بوصية أبيهما بذلك إياهما»[٤].

وروىٰ الذهبي بسنده، وغيره، عن بلال بن يحيىٰ: «إنّ حذيفة أُتي وهو ثقيل بالموت فقيل له: قتل عثمان فما تأمرنا؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أبو اليقظان علىٰ الفطرة، ثلاث مرّات، لن يدعها

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩: ٢ ـ ٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٢٧٥.

(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/ ٢١٥٩.

(٤) بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/ ٢١٦٠.

حتّىٰ يموت أو يلبسه الهرم»[١]. والذيل لم يسلم من تصرّف بعض الرواة.

وروي عن حذيفة بأسانيد مختلفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليّ خير البشر فمن أبىٰ فقد كفر»[٢].

هذا، والمتصفّح لترجمة حذيفة بن اليمان في كتب السير والتراجم، ولرواياته في كتب الحديث يستشرف أنّ ولاءه وهواه مع عليّ عليه السلام وأصحابه كعمّار بن ياسر، وقد آخىٰ النبيّ ﷺ بينه وبين عمّار، وأنّه كان يتحفّظ في تعامله مع أصحاب السقيفة، وقد مرّ لوم عثمان بن عفّان له علىٰ كلام تحدّث به فلمّا أحضره أنكر حذيفة ذلك، كعادته في التحفّظ، كما مرّ ذلك في كلامه المروي عنه.

وروىٰ البخاري في **التاريخ الكبير** عن قيس بن رافع، أنّه: «سمع حذيفة قال: كيف لا يضيع أمر أُمّة محمّد صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم إذا ملك أمرهم من لا يزن عند الله جناح بعوضة»[٣].

وروىٰ ابن عدي بسنده عن حذيفة، عن النبيّ ﷺ، قال: «يكون لأصحابي بعدي زلّة فيغفر الله لهم بسابقتهم معي، يعمل قوم بها بعدهم يكبّهم الله في النار علىٰ مناخرهم»[٤].

والحديث قد اشتمل علىٰ معنىً متدافع، وهو إنّ الزلّة تُغفر لجماعة

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٤١٧. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/١ رقم ١٨٨، وذكره الهيثمي في المجمع ٩/٢٥٩؛ وقال: ورواه الطبراني والبزّار باختصار، ورجالهما ثقات.

(٢) الكامل ـ لابن عدي ـ ٤/١٤٨، الضعفاء الكبير ـ للعقيلي ـ ٣/١١١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢/٣٧٢.

(٣) التاريخ الكبير ٧/١٤٩.

(٤) الكامل ـ لابن عدي ـ ٤/١٤٨.

وتُدخل النار جماعة أُخرىٰ، والظاهر أنّ الجملة المتوسّطة ـ وهي الغفران بسبب الصحبة السابقة ـ زيادة من يد الوضع، كما فـي مـقولة: «المـغفرة للصحابي وإن بلغ عمله الطالح ما بلغ»، والتي تعرّضنا لزيفها في الحلقات السابقة بدلالة آيات «الأنفال» في واقعة بدر وآيات «آل عمران» في واقعة أُحـد..

والحديث وإن اشتمل علىٰ هذه الزيادة، وعلىٰ هذا المعنىٰ المتدافع، إلّا أنّ أصله متطابق مع الأحاديث المستفيضة الواردة وجـملة مـن الآيـات الدالّة علىٰ الإحداث والتبديل.

ولنعم ما قال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «إنّ العرب كرهت أمر محمّـد صلى الله عليه وآله، وحسدته علىٰ ما آتاه الله من فضله، وآستطالت أيامه حتّىٰ قذفت زوجته، ونفرت به ناقته مع عظيم إحسانه إليها، وجسيم مننه عندها، وأجمعت مذ كان حيّاً علىٰ صرف الأمر عن بيته بعد موته، ولولا أنّ قريشاً جعلت اسمه ذريعة إلىٰ الرياسة، وسلّماً إلىٰ العزّ والإمرة لَما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً»[1].



---

(١) شرح نهج البلاغة ـ لابن أبي الحديد ـ ٢٠ / ٢٩٨.

المظاهرة بالمكيدة

* **الثانية :**

أمّا الواقعة الخطيرة الثانية التي وقعت من بعض خواصّ الصحابة، فهي المظاهرة والمؤازرة على الرسول الأمين ﷺ، والتي أشار إليها القرآن الكريم في سورة التحريم بالخصوص، وكذلك في بعض آيات من سورة محمّد ﷺ، وآية من سورة البقرة..

قال تعالىٰ في سورة التحريم: ﴿ **وإذ أسرّ النبيّ إلىٰ بعض أزواجه حديثاً فلمّا نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعضٍ فلمّا نبّأها به قالت مَن أنبأك هذا قال نبّأنيَ العليم الخبير * إن تتوبا إلىٰ الله فقد صغتْ قلوبُكُما وإن تظاهرا عليه فإنّ اللهَ هو مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيرٌ * عسىٰ ربُّهُ إن طلّقكُنّ أن يُبدِلَهُ أزاوجاً خيراً منكنّ مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّباتٍ وأبكاراً** ﴾.

إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ **يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين وآغلظ عليهم ومأواهم جهنّمُ وبئس المصيرُ * ضرب الله مثلاً للّذين كفروا آمرأتَ نوح وآمرأتَ لوطٍ كانتا تحت عبدينِ من عبادنا صالحيْنِ فخانتاهماً فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النارَ مع الداخلينَ** ﴾[1].

---

(١) سورة التحريم ٦٦ : ٣ ـ ١٠ .

والقراءة المبتدأة للسورة، والتدبّر للوهلة الأُولىٰ في سياق آياتها وأُسلوب خطابها يوقف الناظر علىٰ أنّ هناك حديثاً أسرّه النبيّ ﷺ إلىٰ بعض أزواجه فقامت بإفشاء سرّ النبيّ ﷺ إلىٰ زوجة أُخرىٰ، أو بالإضافة إلىٰ جماعة أُخرىٰ..

واستعقب هذا الحديث مأرباً لزوجتي النبيّ ﷺ، والقيام بتدبير مناهض له، ومكيدة واحتيالاً في غاية الخطورة علىٰ وجود النبيّ ﷺ، ممّا استدعىٰ نفيراً إلٰهياً عامّاً، وتعبئة شاملة لجنود الرحمٰن، وأوجب تحذيراً وتهديداً معلناً من قبله تعالىٰ لأصحاب المؤامرة.

ولا يعقل في الحكمة العقلية، فضلاً عن الحكمة الإلٰهية، أن يكون كلّ هذا الاستعراض للقوّة الإلٰهية في قبال خلاف في الأُمور الزوجية حدث بينه ﷺ وبين زوجتيه، بل لا محالة أنّ الحدث وإن ابتدأ بذلك إلّا أنّه انتهىٰ إلىٰ المواطأة الدهياء علىٰ النبيّ ﷺ.

ومن المنطقي اتّصال هذه المواطأة بأصحاب مصلحة في إجرائها، وأنّهم علىٰ مكمن إعداد وتهيّئ لتنفيذها، فهي علىٰ اتّصال محتمل بقوّة مع الحادثة الخطيرة الأُولىٰ الواقعة في عقبة تبوك.

وقد توصّلنا ثمّة إلىٰ تجميع العديد من خيوط المجموعة التي قامت بارتكاب محاولة الاغتيال، والملفت للنظر أنّ تلك المجموعة علىٰ اتّصال وثيق بزوجتي النبيّ ﷺ، اللتين نزلت السورة فيهما، وكشفت هول ما عزمتا عليه تواطئاً علىٰ النبيّ ﷺ، هذا هو المتراءىٰ البدوي من ألفاظ السورة.

ولنستعرض أقوال المفسّرين، والروايات الواردة من الفريقين في ذيل السورة، ثمّ نرجع إلىٰ متن السورة ونمعن النظر في معانيها مرّة أُخرىٰ؛

لتتعرّف علىٰ ملابسات الحدث بصورة أوضح وأشمل..

قال في **الدرّ المنثور**: «أخرج ابن سعد، وعبد بن حميد، والبخاري، وآبن المنذر، وآبن مردويه، عن عائشة: إنّ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم فلتقل: إنّي أجد منك ريح المغافير، أكلت مغافير؟

فدخل علىٰ إحداهما فقالت ذلك له، فقال: لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود. فنزلت: ﴿ **يا أيّها النبيّ لم تحرّمُ ما أحلّ الله لك** ﴾ إلىٰ: ﴿ **إن تتوبا إلىٰ الله** ﴾ لعائشة وحفصة»[1].

وقال أيضاً: «وأخرج النسائي، والحاكم وصحّحه، وآبن مردويه، عن أنس: إنّ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم كانت له أَمَة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتّىٰ جعلها علىٰ نفسه حراماً، فانزل الله هذه الآية...

وأخرج الترمذي، والطبراني، بسند حسن صحيح، عن ابن عبّاس، قال: نزلت: ﴿ **يا أيّها النبيّ لم تحرّمُ** ﴾.. الآية، في سريّته.

وأخرج ابن جرير، وآبن المنذر، عن ابن عبّاس (رض)، قال: قلت لعمر بن الخطّاب (رض): مَن المرأتان اللتان تظاهرتا؟! قال: عائشة وحفصة.

وكان بدء الحديث في شأن مارية أُمّ إبراهيم القبطية، أصابها النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم في بيت حفصة في يومها، فوجدت حفصة،

---

(١) الدرّ المنثور ٦ / ٢٣٩، سورة التحريم.

فقالت : يا نبيّ الله ! لقد جئت شيئاً ما جئته إلىٰ أحد من أزواجك ، في يومي وفي داري وعلىٰ فراشي ؟

فقال : ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها . قالت : بلىٰ .

فحرّمها ، وقال : لا تذكري ذلك لأحد . فذكرته لعائشة (رض) ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : ﴿ **يا أيّها النبيّ لم تحرّمُ ما أحلّ الله لك** ﴾ ، الآيات كلّها ، فبلغنا أنّ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم كفّر عن يمينه وأصاب جاريته »[١] .

وقال : «وأخرج ابن سعد ، وابن مردويه ، عن ابن عبّاس (رض) ، قال : كانت عائشة وحفصة متحابّتين ، فذهبت حفصة إلىٰ بيت أبيها تحدّث عنده ، فأرسل النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم إلىٰ جاريته . . .» .

ثمّ ذكر بقية القصّة ، وفيها : «فأسرّت إليها ـ أي حفصة لعائشة ـ: أن أبشري إنّ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم قد حرّم عليه فتاته ، فلمّا أخبرت بسرّ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم أظهر الله النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم عليه ، فأنزل الله : ﴿ **يا أيّها** . . . ﴾ . . .»[٢] .

وقال : «وأخرج ابن مردويه ، عن أنس : أنّ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم أنزل أُمّ إبراهيم منزل أبي أيوب ، قالت : عائشة (رض) : فدخل النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم بيتها يوماً فوجد خلوة ، فأصابها فحملت بإبراهيم . قالت عائشة : فلمّا استبان حملها فزعت من ذلك ، فمكث رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم حتّىٰ ولدت ، فلم يكن لأُمّه

(١) الدرّ المنثور ٦ / ٢٣٩ .

(٢) الدرّ المنثور ٦ / ٢٣٩ .

لبن فاشترىٰ له ضائنة يغذّي منها الصبي ، فصلح عليه جسمه وحسن لحمه وصفا لونه ، فجاء به يوماً يحمله علىٰ عنقه فقال : يا عائشة ! كيف تـري الشبه ؟ !

فقلت : أنا غَيْرَىٰ ما أدري شبهاً . فقال : ولا باللحم ؟ !

فقلت : لعمري لَمن تغذّىٰ بألبان الضان ليحسن لحمه .

قال : فجزعت عائشة (رض) وحفصة مـن ذلك ، فـعاتبته حـفصة ، فحرّمها ، وأسرّ إليها سرّاً فأفشته إلىٰ عائشة (رض) ، فنزلت آية التحريم ، فاعتق رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم رقبة »[1] .

ويتبيّن من هذه الرواية الأخيرة التي أوردها السيوطي أنّ السرّ الذي أفشـته حفصـة لعائشة ليس هو تحريم مارية علىٰ نفسه ﷺ ، بل هو أمر آخـر . .

كما يتبيّن من الروايات السابقة التي أوردها أنّ هناك تحالفاً شديداً بين حفصـة وعائشة ، وأنّهما كانتا تغاران بشدّة مـن مـارية ومـن ولادتـها إبراهيم ابناً للنبيّ ﷺ ، وأنّهما كانتا تمانعان من الشبه له به ﷺ ، وهـذه بصمات لحديث الإفك .

والعمـدة : أنّ الرواية الأخيرة دالّة علىٰ أنّ السرّ وراء التحريم الذي تحلّل منه ﷺ هو أمر ما ، وأنّ تسـميته فـي الآيـة والروايـة بـ : «السـرّ» يقتضي خطورة المعلومة التي ذكرها النبيّ ﷺ لحفصـة ، وأنّ هذه المعلومة لا ريب في ارتباطها الوثيق مع التظاهر الخفي المدبّر من ضـدّه ﷺ .

ثمّ إنّ السيوطي روىٰ روايات عديدة عن ابن مردويه ، وابن عساكر ،

---

(١) الدرّ المنثور ٦ / ٢٤٠ .

والطبراني، وابن المنذر، وعبد الرزّاق، والبخاري، وغيرهم، عن ابن عبّاس، وعائشة، وغيرهما: أنّ السرّ الذي أسرّه النبيّ إلىٰ حفصة هو في أمر الخلافة من بعده ﷺ، وأنّ الذي سيلي الأمر بعده أبويهما، إلّا أنّ ألفاظ الروايات مختلفة..

ففي بعضها: «قال: أسرّ إلىٰ عائشة في أمر الخلافة بعده، فحدّثت به حفصة».

وفي بعضها: «إنّ إمارة أبي بكر وعمر لفي الكتاب: ﴿**وإذ أسرّ النبيّ إلىٰ بعض أزواجه حديثاً**﴾، قال لحفصة: أبوك وأبو عائشة واليان الناس بعدي، فإيّاك أن تخبري أحداً».

وفي بعضها: «أنّه ﷺ قال لحفصة: لا تخبري عائشة حتّىٰ أُبشّرك بشارة، فإنّ أباك يلي الأمر بعد أبي بكر إذا أنا متّ. فذهبت حفصة فأخبرت عائشة، فقالت عائشة للنبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم: ﴿**من أنبأك هذا**﴾؟ قال: ﴿**نبّأنيَ العليم الخبير**﴾»[1].

والغريب في صياغات هذه الأحاديث أنّها تعبّر عن هذا السرّ بأنّه: «بشارة»، أو أنّه: «عهد من الباري تعالىٰ»، وأنّه: «من فضائل الصديق والفاروق»؛ فإذا كان جوّ المحيط ومناخ هذه المعلومة أنّها «بشارة» و«عهد إلٰهي» و«فضيلة عظمىٰ» فلمَ تتظاهرا وتتآزرا في تدبير أمرٍ خفيّ خطير علىٰ النبيّ ﷺ، إلىٰ درجة تستدعي النفير الإلٰهي، والتعبئة الشديدة المحال، والإرباك الأمني؟!!

من البيّن الشاهر أنّ المناخ الذي تصوّره السورة هو جوٌّ ملبّدٌ بظلمة

---

(١) الدرّ المنثور ٦/ ٢٤١.

المجابـهة ، والمواجـهة ، والاسـتعداد ، وإثم قلوبهما وٱستدعائه التـوبة إلىٰ الله تعالىٰ . .

وقد روىٰ في **الدرّ المنثور** عن مجاهد ، قال : كنّا نرىٰ أنّ **﴿ صغت قلوبكما ﴾** شيء هيّن ، حتّىٰ سمعناه بقراءة عبـد الله : **﴿ إن تـتوبا إلىٰ الله فقد صغت قلوبكما ﴾** .

وفي التمثيل والتعريض في ذيل السورة بامرأتي نوح ولوط ، وأنّهما مثلاً للّذين كفروا ، قال الرازي في **تفسيره** : «وفي ضمن هـذين التـمثيلين تعريض بأُمّي المؤمنين ، وهما : حفصة وعائشة ، لِما فرط منهما ، وتحذير لهما علىٰ أغلظ وجه وأشـدّه ؛ لِما في التمثيل من ذكر الكفر»[1] . .

وإنّ الخيانة التي ارتكبتها امـرأتـي نـوح ولوط كـانت فـي الديـن ، وعداوتهما للنبيّيْن العظيميْن كانت في رسالتيهما الإلٰهيّتين ، فكيف يكـون كلّ هذا المسار الذي ترسمه الآية هـو عـن بشـارة خـلافة والدي عـائشة وحفصة ؟ !

بل لو كان الحـال حـال بشارة لاقتضـىٰ طبـع الحـال تـعاونهما مـع النبيّ صلى الله عليه وآله ؛ لِما جبلت عليه الطباع من الميل إلىٰ نفع الرحم ، ولو كان الحال حال عهد إلٰهي بخلافة أبي بكر وعمر لاقتضىٰ انشداد الابـنتين إلىٰ ذلك ، مديحاً منه تعالىٰ وعطفاً ربّانياً علىٰ ما قد أتـيتاه ؛ لأنّـه ذوبـان فـي الإرادة الإلٰهية ومسارعة في الغاية الدينية .

وكيف يكون ما فعلتاه مضادّة لدين النبيّ صلى الله عليه وآله علىٰ حذو مضادّة امرأة نوح وٱمرأة لوط ، لو كان خبر خلافة أبي بكر وعمر عهد معهود من رضا

---

(١) التفسير الكبير ٣٠ / ٤٩ .

الربّ المعبود ؟!

ثمّ كيف يتلائم كون خلافتهما عهداً في الكتاب ويصرّ النبيّ ﷺ على إخفائه وعدم تبليغه للناس، ويكون إفشاؤه من ابنتيهما مضادّة لله ولرسوله وخيانة في الدين ؟!

ولمَ لا ينزل الكتاب بذلك، كما نزلت في عليّ عليه السلام عشرات الآيات، كقوله تعالى: **﴿ إنّما وليّكم اللهُ ورسولُه والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتولّ اللهَ ورسولَه والّذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون ﴾**[1]..

وقوله تعالى: **﴿ يا أيّها الرسولُ بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس إنّ الله لا يهدي القومَ الكافرينَ ﴾**[2]، الذي نزل في غدير خمّ.

نعم، كون الخبر وصول أبويهما إلى سدّة الحكم هو ظاهر اتّفاق روايات الفريقين ـ كما ستأتي بقيّتها ـ لكن هل أنّه بشارة وعهد أم أنّه نذارة وتغلّب ونزاع مع الحقّ وأهله ؟! فهذا ما اختلفت فيه الروايات..

وسياق السورة صدراً وذيلاً يتنافى مع الأوّل ويتوافق مع الثاني؛ وهو ما سيتبين من مواصلة البحث في بقية فقرات السورة.

روى في **الدرّ المنثور**، عن الطبراني في **الأوسط**، وابن مردويه: «**﴿ فلمّا نبّأت به ﴾**: يعني عائشة، **﴿ وأظهره الله عليه ﴾**: أي بالقرآن، **﴿ عرّف بعضه ﴾**: عرّف حفصة ما أظهر من أمر مارية، **﴿ وأعرض عن بعض ﴾**: عمّا أخبرت به من أمر أبي بكر وعمر، فلم يبده، **﴿ فلمّا نبّأها**

---

(١) سورة المائدة ٥: ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) سورة المائدة ٥: ٦٧.

به﴾ إلىٰ قوله: **﴿الخبير﴾**، ثمّ أقبل عليهما يعاتبهما فقال: **﴿إن تتوبا إلىٰ الله﴾**».. الحديث[1].

وفي هذا الحديث إلفاتة حسّاسة، هي: إنّ النبيّ ﷺ لم ينبئ حفصة أو عائشة عمّا فعلتاه من إفشاء الخبر المرتبط بأمر أبي بكر وعمر وما اتّصل من أُمـور أُخرىٰ بذلك الأمر، ممّا عدّه القرآن الكريم تظاهر وتواطؤ علىٰ النبيّ ﷺ ودين الله تعالىٰ، وممّا له صلة أمنية خطيرة بالنبيّ ﷺ؛ الذي استدعىٰ هذا النفير والتعبئة الإلٰهية الشاملة..

فهذه قصاصة وثائقية بالغة المؤدّىٰ تقتضي أنّ التـدبير الخـفي الذي قامتا به هو ممّا يتّصل بأمر أبي بكر وعمر من بعده ﷺ.

والغريب ما في جملة من تفاسير أهل سُـنّة الجماعة ورواياتهم من تصوير هذه التظاهرة التي قامتا بها علىٰ النبيّ ﷺ أنّها شأن دارج في الحياة الزوجية، وٱستدعىٰ كلّ هذا الصخب والاهتمام منه تعالىٰ والإنذار الشديد اللحن..

فقد روىٰ السيوطي عن عبـد بن حميد، ومسلم، وٱبن مردويه، عن ابن عبـاس: «قال: حدّثني عمر بن الخطّاب، قال:... فقلت: يا رسول الله! ما يشقّ عليك من شأن النساء، فإن كـنت طـلّقتهنّ فـإنّ الله تـعالىٰ مـعك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلّما تكلّمت وأحمد الله بكلام إلّا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقوله. ونزلت هذه الآية: **﴿عسىٰ ربُّهُ إن طلّقكُنّ أن يُبدِلَهُ أزاوجاً خيراً منكنّ﴾ ﴿وإن تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكة بعد**

---

(١) الدرّ المنثور ٦/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

ذلك ظهيرٌ﴾ ، وكانت عائشة (رض) بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم».. الحديث[1].

وآثار الوضع لائحة بيّنة على هذا الحديث؛ إذ يتضمّن المتناقضات، فإنّ المنازعة الزوجية الاعتيادية إذا استلزمت هذه النصرة المهيبة فتكون أشبه بالهزل البارد منها بالحدث الجدّي الخطير، وحاشاه تعالى عن الباطل..

كما تضمّن أنّ تظاهرهما هو على بقية أزواج النبيّ ﷺ، وهو مخالف لصريح القرآن الكريم من أنّ المجابهة في تدبيرهما الخفي كانت قبال النبيّ ﷺ..

كما تضمّن أنّ «صالح المؤمنين» هو: أبو بكر وعمر، فكيف يكونا في طرف النبيّ ﷺ في هذه الحادثة الواقعة، والحال أنّ ابنتيهما بشّرتاهما بأمرهما بعد النبيّ ﷺ، وأنّه عهد معهود مرضي من ربّ العزّة؟!!

وكيف يكونا في الطرف المقابل لابنتيهما ولم تقوما بإفشاء السرّ إلّا بما هو بشارة لهما؟!

وبطبيعة الحال إنّ مثل هذا السرّ لم تكن حفصة وعائشة لتخبر إحداهما الأُخرى به دون أن تطلعا أبويهما عليه؛ كما هو مقتضى جبلّة الطبع، فإنّهما إذا كانتا متحابّتين فإنّ تحابّهما مع أبويهما أشدّ، وإذا كان هذا الخبر بشارةً لهما فإنّ استبشارهما سيكون بسبب النفع العائد لوالديهما، فكيف لا تخبرانهما بذلك؟!

وما الذي بنى عليه الأربعة وأطلق القرآن عليه: «تظاهرٌ منهما» على

(١) الدرّ المنثور ٦/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

النبيّ صلى الله عليه وآله ؟!

والأظرف ذكر هذه النبوءة لعمر: «قلّما تكلّمت وأحمد الله بكلام إلّا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقوله...».. وإن كانت الموارد التي نزل الوحي فيها مطابقاً لكلامه جميعها تحتاج إلىٰ بحث مبسوط؛ كي يتبيّن النسيج المحبوك لهذه الموضوعات.

وروىٰ ابن كثير في **تفسيره**، عن مجاهد: إنّ «صالح المؤمنين» هو الإمام عليّ عليه السلام، ورواه أيضاً بطريق آخر[1].

وروىٰ في **الدرّ المنثور** روايات متعدّدة في «صالح المؤمنين»: فتارة أنّه: أبو بكر وعمر، وأُخرىٰ: عمر، وثالثة: قال: «وأخرج ابن عساكر عن مقاتل بن سليمان (رض) في قوله: ﴿**وصالح المؤمنين**﴾، قال: أبو بكر وعمر وعليّ (رض)»، ورابعة: أنّه: الأنبياء عليهم السلام، وخامسة: قال: «وأخرج ابن أبي حاتم... قال: قالَ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم في قوله: ﴿**وصالح المؤمنين**﴾، قال: هو عليّ بن أبي طالب..

وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس: سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم يقول: ﴿**وصالح المؤمنين**﴾، قال: عليّ بن أبي طالب..

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿**وصالح المؤمنين**﴾، قال: هو عليّ بن أبي طالب»[2].

وقال القرطبي ـ بعدما نقل الأقوال في «صالح المؤمنين» أنّه: أبو بكر أو عمر ـ: «وقيل: هو عليّ؛ عن أسماء بنت عميس، قالت: سمعت

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٥.

(٢) الدرّ المنثور ٦/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

رسـول الله ﷺ يقول: ﴿وصالح المؤمنين﴾: عليّ بن أبي طالب»[١].

وروىٰ مثل ذلك الثعلبي في **تفسيره**[٢].

وحكـىٰ ابـن الجـوزي فـي **زاد المسير** أنـه: «عـليّ عليه السلام، حكـاه الماوردي؛ قاله الفرّاء»[٣]..

وفي كون «صالح المؤمنين» علياً عليه السلام بالغ المعنىٰ؛ فإنّ أبا بكر وعمر ـ كما مرّ ـ هما من الطرف الآخر في الحادثة، لأنّهما ممّن أُفشي لهما الخبر الذي نجم عنه التظاهر والتواطؤ علىٰ النبيّ ﷺ..

ففي الآية مقابلة بين تلك المجموعة المتواطئة علىٰ ديـن الله ونـبيّه وبين معسكر الدين والتوحيد بقيادة النبيّ ﷺ، وأنّ «صالح المؤمنين» وليّه وحاميه بعد الله تعالىٰ وجبرئيل، وهي لا تخلو مـن دلالة عـلىٰ التـخالف والتقابل بين الولايتين، بين ولاية أبي بكر وعمر ـ التي كانت السرّ الذي أُفشي وتسبّب منه حصول المظاهرة والمواطئة الأمـنية عـلىٰ النـبيّ ﷺ ـ وبين ولاية «صالح المؤمنين» المنشعبة ولايته من ولاية الله ورسوله.

قال الزمخشري في ذيل السورة: «**﴿ضرب الله مثلاً للّذين كـفروا آمرأتَ نوحٍ وآمـرأتَ لوطٍ كـانتا تـحت عـبدينِ مـن عـبادنا صـالحيْنِ فخانتاهما فَلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النارَ مع الداخلينَ﴾**: مثّل الله عزّ وجلّ حال الكفّار ـ في أنّهم يعاقبون علىٰ كفرهم وعـداوتـهم للمؤمنين معاقبة مثلهم، من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر؛ لأنّ عداوتهم لهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ١٩٢.

(٢) تفسير الثعلبي ٩ / ٣٤٨.

(٣) زاد المسير ـ لابن الجوزي ـ ٨ / ٥٢.

وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبتّ الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتّصل به الكافر نبيّاً من أنبياء الله ـ بحال امرأة نوح وآمرأة لوط، لمّا نافقتا وخانتا الرسولين لم يغنِ الرسولان عنهما بحقّ ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناءً ما من عذاب الله، ﴿ **وقيل** ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿ **ادخلا النار مع** ﴾ سائر ﴿ **الداخلين** ﴾ الّذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء...

ـ إلىٰ أن قال: ـ وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأُمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة، وما فرط منهما من التظاهر علىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم بما كرهه، وتحذير لهما علىٰ أغلظ وجه وأشدّه؛ لِما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه في التغليظ قوله تعالىٰ: ﴿ **ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين** ﴾، وإشارة إلىٰ أنّ من حقّهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ـ أي: آسية ومريم ـ وأن لا تتّكلا علىٰ أنّهما زوجا رسول الله؛ فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلّا مع كونهما مخلصتين.

والتعريض بحفصة أرجح؛ لأنّ امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة علىٰ رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كلّ باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدقّ عن تفطّن العالم، ويزلّ عن تبصّره...

ـ إلىٰ أن قال: ـ فإن قلت: ما كانت خيانتهما؟ قلت: نفاقهما وإبطانهما الكفر، وتظاهرهما علىٰ الرسولين؛ فامرأة نوح قالت لقومه: إنّه مجنون، وآمرأة لوط دلّت علىٰ ضيافته، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور؛ لأنّه سمج في الطباع، نقيصة عند كلّ أحد، بخلاف الكفر، فإنّ الكفّار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمّونه حقّاً، وعن ابن عبّاس (رض):

ما بغت امرأة نبيّ قط»[١].

وقد ذكر الفخر الرازي هذا التساؤل بعينه، وقرّر أنّ الخيانة هي: النفاق وإخفاء الكفر، والتظاهر على الرسولين.

وروى السيوطي في **الدرّ**، قال: «وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج (رض) في قوله: ﴿ **فخانتاهما** ﴾، قال: كانتا كافرتين مخالفتين، ولا ينبغي لامرأة نبيّ أن تفجر»[٢].

ولا يخفى على الناظر في ذيل السورة مقدار شدّة اللحن من التمثيل بزوجتي النبيّين، ممّا يتّحد مع الممثّل له والمعرّض به، وكون جهة التمثيل والتعريض هي: العداوة الدينية والنفاق وإبطان الكفر، ومن ثمّ التظاهر على الرسولين؛ فأين يجد الباحث هذه الصفات في الحادثة الواقعة في أوّل السورة؟!

هل هي في مجرّد الغيرة الزوجية ؟!

أم أنّها في السرّ المفشى من أمر أبي بكر وعمر بعد النبيّ ﷺ وما استعقبه من التدبير المبطن على النبيّ ﷺ ؟!

فما هي ملابسات الحادثة التي انطبقت عليها الخيانة الدينية العظمى ؟!

كما لا يخفى أنّ ذيل السورة قد اشتمل أيضاً على مقابلة بين معسكر النفاق والكفر المبطن، وبين معسكر الصلاح والاصطفاء..

روى السيوطي في **الدرّ** ـ في ذيل السورة ـ قال: «وأخرج أحمد، والطبراني، والحاكم وصحّحه، عن ابن عبّاس (رض)، قال: قال

---

(١) الكشّاف ٤/ ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) الدرّ المنثور ٦/ ٢٤٥.

رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم: أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، مع ما قصّ الله علينا من خبرهما في القرآن، ﴿قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة﴾[1]»[2].

وروىٰ الزمخشري في **الكشّاف**: «وعن النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد»[3].

وروىٰ القرطبي في **تفسيره**، قال: وروي من طرق صحيحة أنّه عليه السلام قال:... وذكر الحديث، ثمّ ذكر طريقاً آخر بألفاظ أُخرىٰ، وثالث بغيرها[4].

وقال: «وروىٰ قتادة، عن أنس، عن رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله]

---

(١) سورة التحريم ٦٦: ١١.

(٢) الدرّ المنثور ٦/٢٤٦.

(٣) الكشّاف ٤/٥٧٣؛ وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في **الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشّاف**: أخرجه الثعلبي من طريق عمرو بن مرزوق، عن شعبة، عن عمرو بن مرّة، سمع مرّة عن أبي موسىٰ بهذا.

وأخرجه أبو نعيم في **الحلية** في ترجمة عمرو بن مرّة من هذا الوجه؛ قال: حدّثنا سليمان بن أحمد، حدّثنا يوسف القاضي، حدّثنا عمرو بن مرزوق بهذا.

وهو في البخاري من رواية مرّة عن أبي موسىٰ دون ذكر خديجة وفاطمة رضي الله عنهما!!!

وفي ابن حبّان والحاكم من حديث ابن عبّاس (رض) رفعه: «أفضل نساء العالمين أربع:...»، فذكره.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/٨٣، ومثله في تفسير ابن كثير ١/٣٧٠، و ٤/٤٢٠ - ٤٢١.

وسلّم، قال: حسبك من نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم»[١].

وروىٰ عبد الرزّاق الصنعاني بسنده عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وآله مثله[٢]..

ورواه الطبري في **تفسيره** عن أنس أيضاً، وعن أبي موسىٰ الأشعري[٣].

وبذلك تتبلور صورة المواجهة وأطرافها بشكل أوضح نساءً ورجالاً.

وقال القرطبي في ذيل السورة: «﴿**فخانتاهما**﴾: قال عكرمة والضحّاك: بالكفر، وقال سليمان بن رقية، عن ابن عبّاس: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنّه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، وعنه: ما بغت امرأة نبيّ قط. وهذا إجماع من المفسّرين..

فيما ذكر القشيري: إنّما كانت خيانتاهما في الدين وكانتا مشركتين. وقيل: كانتا منافقتين، وقيل: خيانتهما النميمة؛ إذ أوحىٰ الله إليهما شيئاً أفشتاه إلىٰ المشركين؛ قاله الضحّاك...».

وقال: «قال يحيىٰ بن سلام: قوله: ﴿**ضرب الله مثلاً للّذين كفروا**﴾: مثلٌ ضربه الله يحذّر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا علىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم، ثمّ ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم بنت عمران؛ ترغيباً في التمسّك بالطاعة والثبات علىٰ الدين»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٠٤.

(٢) تفسير القرآن ـ للصنعاني ـ ١ / ١٢١.

(٣) جامع البيان ٣ / ٣٥٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٠٢، وروىٰ ذلك ابن الجوزي في زاد المسير ٨ / ٥٦.

وقال الشوكاني في قوله تعالىٰ: ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾: «وآخرج ابن جرير، وآبن مـردويه، عـن ابـن عـبّاس فـي قـوله: ﴿ **فـقد صـغت قلوبكما** ﴾، قال: زاغت وأثمت»[١].

وقال: «وأخرج البزّار والطبراني ـ قال السيوطي: بسند صحيح ـ عن ابن عبّـاس، قال: قلت لعمر بن الخطّاب: مَن المرأتان اللـتان تـظاهرتا؟ قال: عائشة وحفصة»[٢]..

وصغو القلب: ميله إلىٰ الإثم، وزيغه عن سبيل الاستقامة، وعدوله عن الصواب إلىٰ ما يوجب الإثم[٣].

وحـكىٰ الطبرسـي عـن مقاتل ـ في ذيل السـورة ـ أنّـه قال: «يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نـوح وآمـرأة لوط فـي المعصية، وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم»[٤].

وروىٰ الطبري عن الضحّاك في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ **فخانتاهما** ﴾، قال: «في الدين فخانتاهما»، وقال: «وقوله: ﴿ **فلم يغنيا عنهما مـن الله شيئاً** ﴾، يقول: فلم يغنِ نوح ولوط عن امرأتيهما من الله ـ لمّا عاقبهما علىٰ خيانتهما أزواجهما ـ شيئاً، ولم ينفعهما أن كان أزواجهما أنبياء»، وروىٰ مثل ذلك عن قتادة[٥].

وحكىٰ ابن الجوزي في **زاد المسير** عن ابن السائب تفسير الخـيانة بالنفاق، وقال في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ضرب الله مثلاً للّذين كفروا امرأت**

---

(١) فتح القدير ـ للشوكاني ـ ٥/ ٢٥٣.

(٢) فتح القدير ٥/ ٢٥١، وفي صحيح البخاري ٦/ ١٩٥ ـ ١٩٧.

(٣) مجمع البيان ـ للطبرسي ـ المجلّد ٥/ ٣١٦.

(٤) مجمع البيان ـ المجلّد ٥/ ٣١٩.

(٥) جامع البيان ٢٨/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

نوح﴾ : «قال المفسّرون منهم: مقال هذا المثل يتضمّن تخويف عائشة وحفصة أنّهما إن عصيا ربّهما لم يغنِ رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم عنهما شيئاً»(١).

وقال في قوله تعالىٰ: **﴿وإن تظاهرا﴾** : «وقرأ ابن مسعود، وأبو عبد الرحمٰن، ومجاهد، والأعمش: تظاهرا، بتخفيف الظاء؛ أي: تعاونا علىٰ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم بالإيذاء، **﴿فإنّ الله هو مولاه﴾**، أي: وليّه في العون والنصرة، **﴿وجبريل﴾** وليّه **﴿وصالح المؤمنين﴾**»(٢).

وحكىٰ أيضاً عن الزجّاج في قوله تعالىٰ: **﴿صغت قلوبكما﴾** : «عدلت وزاغت عن الحقّ»(٣).

وقال ابن القيّم في **الأمثال في القرآن**، في ذيل السورة: «فاشتملت هذه الآيات علىٰ ثلاثة أمثال: مثل للكافر ومثلين للمؤمنين: فتضمّن مثل الكفّار أنّ الكافر يعاتب علىٰ كفره وعداوته لله تعالىٰ ورسوله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من أسباب الاتّصال؛ فإنّ الأسباب كلّها تنقطع يوم القيامة إلّا ما كان منها متّصلاً بالله وحده علىٰ أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة والنكاح مع عدم الإيمان لنفعت الصلة التي كانت بين نوح ولوط عليهما الصلاة والسلام وآمرأتيهما **﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل لهما ادخلا النار مع**

---

(١) زاد المسير ـ لابن الجوزي ـ ٨/ ٥٥.
(٢) زاد المسير ٨/ ٥٢.
(٣) زاد المسير ٨/ ٥٢.

الداخلين﴾ . .

ـ إلىٰ أن قال : ـ فذكر ثلاثة أصناف للنساء : المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزبة التي لا وصلة بينها وبين أحد ، فالأُولى لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية لا تضرّها وصلتها وسببها ، والثالثة لا يضرّها عدم الصلة شيئاً .

ثمّ في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة ؛ فإنّها سيقت في ذكر أزواج النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم والتحذير من تظاهرهنّ عليه ، وأنّهن إن لم يطعنَ الله ورسوله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتّصالهن برسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتّصالهما بهما ، ولهذا ضرب لهما في هذه السورة مثل اتّصال النكاح دون القرابة . .

قال يحيىٰ بن سلام : ضرب الله المثل الأوّل يحذّر عائشة وحفصة ، ثمّ ضرب لهما المثل الثاني يحرّضهما علىٰ التمسّك بالطاعة»(١) .

وقال : «في التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ـ أي عائشة ـ ولحفصة ممّا اعتمدتاه في حقّ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ، فتضمّنت هذه الأمثال التحذير لهنّ والتخويف والتحريض لهنّ علىٰ الطاعة والتوحيد . . . وأسرار التنزيل فوق هذا وأجلّ منه ، ولا سيّما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلّا العالمون»(٢) .

وقال ابن كثير في ذيل السورة : «ثمّ قال تعالىٰ : **﴿ضرب الله مثلاً**

---

(١) الأمثال في القرآن ـ لابن قيّم الجوزية ـ : ٥٤ ـ ٥٧ .

(٢) الأمثال في القرآن : ٥٨ .

للّذين كفروا﴾ ، أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، إنّ ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم» . .

ثمّ ذكر المثل فقال: «**﴿امرأت نوح وآمرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾** ، أي: نبيّيْن رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً ، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشدّ العشرة والاختلاط ، **﴿فخانتاهما﴾** أي: في الإيمان ، لم توافقاهما على الإيمان ولا صدّقتاهما في الرسالة ، فلم يجدِ ذلك كلّه شيئاً ، ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال: **﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾** أي: لكفرهما ، وقيل للمرأتين: **﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾** ، وليس المراد بقوله: **﴿فخانتاهما﴾** في فاحشة بل في الدين»[1] .

وقال الشوكاني ـ بعدما حكى قول يحيى بن سلام ، المتقدّم في حكاية القرطبي ـ: «وما أحسن مَن قال: فإنّ ذكر امرأتي النبيّيْن بعد ذكر قصّتهما ـ أي عائشة وحفصة ـ ومظاهرتهما على رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم يرشد أتمّ إرشاد ويلوّح أبلغ تلويح إلى أنّ المراد تخويفهما مع سائر أُمّهات المؤمنين ، وبيان أنّهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله ، فإنّ ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً»[2] ، ثمّ ذكر حديث أنّ أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة ، وفاطمة ، ومريم ، وآسية .

وحكى في **مجمع البيان** عن مقاتل ، في ذيل السورة: يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٩ .

(٢) فتح القدير ـ للشوكاني ـ ٥/ ٢٥٦ .

المعصية[١].

وغير ذلك من كلمات المفسّرين التي توضّح شدّة لحن الخطاب القرآني في هذه السورة الموجّه لحفصة وعائشة، وأنّ غائلة تظاهرهما هي خيانة دينية، ونفاق معادي خطير، ومكيدة عظيمة، استدعت هذا التصعيد الشامل في النفير والتعبئة الإلٰهية في صدر السورة، والتعريض بأقصىٰ الحدّة في ذيل السورة..

ثمّ إنّ لفظ ﴿ظهير﴾ بمعنىٰ العون والحماية يعطي أنّ المكيدة متّصلة بمسألة تتعلّق بالحياة الأمنية لوجود النبيّ صلى الله عليه وآله، وبضميمة كون سبب المكيدة هي أمر الخلافة بعده صلى الله عليه وآله، وأمر أبي بكر وعمر الذي أفشته حفصة أو عائشة إلىٰ الأُخرىٰ ـ كما مرّ ـ ومن ثمّ إلىٰ أبويهما ـ كما تقدّمت الإشارة إلىٰ ذلك ـ.

وبلحاظ كون الحماية الإلٰهية المستنفرة بالغة القوّة يقتضي أنّ المكيدة لم يكن المتورّط فيها هاتين المرأتين بمفردهما بمجرّد حولهما وقوّتهما، بل كان ذلك علىٰ اتّصال وارتباط بأطراف القضية، ومَن يعنيه شأن الحدث، ومَن له علاقة ماسّة بالخبر المفشىٰ؛ والذي قد تقدّم أنّ صدر السورة يعطي كون الخبر والحديث يحمل في طيّاته إنذاراً وتحذيراً، لا بشارةً واستهلالاً، وإلّا لَما اقتضت طبيعة الخبر تولّد المكيدة الخطيرة والتسبّب لذلك..

ولعظم الخطب في هذه الحادثة نرىٰ الآيات الأُخرىٰ المتوسّطة في هذه السورة، قد حملت الشدّة نفسها في الخطاب والتعريض، ولم يحاول

---

(١) مجمع البيان ـ المجلّد ٥/ ٣١٩.

المفسّرون من أهل سُنّة الجماعة الإلفات إليه ، وتغاضوا عن مدلوله ، وهي قوله تعالىٰ : **﴿ عسىٰ ربّه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكاراً ﴾** ، فإنّ ذكر هذه الصفات تعريض بفقدها فيهما . .

قيل : المراد بـ **﴿ مسلمات ﴾** : مطيعات ومنقادات لأمر الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وآله ، وقيل : مخلصات .

والمراد بـ **﴿ مؤمنات ﴾** : أي : المعتقدات بحقيقة الإيمان ؛ والتعريض بهذا الوصف يماثل التعريض بما في ذيل السورة : **﴿ فخانتاهما ﴾** بمعنىٰ نافقتاهما وحاددتاهما في الدين .

وبـ **﴿ قانتات ﴾** : المطيعات الخاضعات المتذلّلات لأمر الله تعالىٰ ورسوله ؛ إذ القنوت هو لزوم الطاعة مع الخضوع ، وقد ذكر هذا في ذيل السورة في توصيف مريم بنت عمران ، وهو تأكيد للتعريض بالصفة المقابلة فيهما .

وبـ **﴿ تائبات ﴾** : نادمات ، وهو تعريض بعنادهما وإصرارهما .

وبـ **﴿ عابدات ﴾** : الطاعة في العبادة ، وهو التعريض بطغيان الطرف المقابل .

وبـ **﴿ سائحات ﴾** : قيل : الصيام ، وقيل : الهجرة ؛ وعلىٰ الثاني يكون التعريض بهجرة جماعة النفاق والعداء لله تعالىٰ ولرسوله صلى الله عليه وآله .

وبـ **﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾** : فقد أكثر المفسّرون من الروايات في ذيلها أنّه صلى الله عليه وآله وعد بالزواج من آسية وهي الثيّب ، ومريم وهي البكر في الآخرة ، وكذلك رووا أنّه صلى الله عليه وآله أوصىٰ خديجة عليها السلام عند موتها بالتسليم علىٰ أظآرها آسية ومريم وكلثم ، فأجابت : بالرفاه والبنين ، وفي ذلك تعريض بأنّهما

ليستا زوجتاه في الآخرة.

والحال نفسه في الآيات اللاحقة؛ إذ التهديد بالنار المتوقّدة والملائكة الغلاظ الشداد، ثمّ قوله تعالىٰ: **﴿يوم لا يخزي الله النبيَّ والّذين آمنوا معه نورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيْمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا﴾**[1] ترغيب في الانتهاء عن الكيد والمواطأة علىٰ الدين والنبيّ صلى الله عليه وآله..

قال الشوكاني في ذيل الآية: «وأخرج الحاكم والبيهقي في البعث، عن ابن عبّاس في قوله تعالىٰ: ... الآية، قال: ليس أحد من الموحّدين إلّا يعطىٰ نوراً يوم القيامة، فأمّا المنافق فيطفأ نوره، والمؤمن مشفق ممّا رأىٰ من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: **﴿ربّنا أتمم لنا نورنا﴾**»[2].

وفي **الدرّ المنثور** عن مجاهد: «قال: قول المؤمنين حين يطفأ نور المنافقين»[3].

وأعظم بها من سورة قد اشتملت علىٰ العديد من الدلالات والتلويحات؛ تعريضاً بأطراف الحادثة، وبالسُنن الإلٰهية في مثل هذا النمط من الفتن، التي تحاك كيداً من الوسط الداخلي في المسلمين..

وقد أفصح بذلك الزمخشري في ما مرّ من مقاله: «... وأسرار التنزيل ورموزه في كلّ باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدقّ عن تفطّن العالم ويزلّ عن تبصّره».

ومثله قال الرازي: «وأمّا ضرب المثل بامرأة نوح المسمّاة بواعلة، وآمرأة لوط المسمّاة بواهلة، فمشتمل علىٰ فوائد متعدّدة لا يعرفها بتمامها

---

(١) سورة التحريم ٦٦: ٨.

(٢) فتح القدير ٥/ ٢٥٥.

(٣) الدرّ المنثور ٦/ ٢٤٥.

إلّا الله تعالىٰ..

ـ إلىٰ أن قال: ـ ومنها التنبيه علىٰ أنّ التضرّع بالصدق في حضرة الله تعالىٰ وسيلة إلىٰ الخلاص من العقاب»[1].

وكذلك مقولة ابن القيّم التي تقدّمت، قال ـ بعد أن ذكر التعريض بهما وتحذيرهما وتخويفهما ـ: «وأسرار التنزيل فوق هذا وأجلّ منه، ولا سيّما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلّا العالمون».

وها قد حان أن ننقل أسرار التنزيل ولطائفه ورموزه، وأسرار الأمثال في هذه السورة عن أئمّة الهدىٰ من آل محمّد صلوات الله عليهم..

فقد روىٰ علي بن إبراهيم القمّي في **تفسيره**، بسند صحيح عن الصادق عليه‌السلام في ذيل الآية الأُولىٰ في سبب نزولها: كان سبب نزولها ـ وذكر قصّة حلفه صلى‌الله‌عليه‌وآله أن لا يطأ مارية، ثمّ إخباره صلى‌الله‌عليه‌وآله حفصة باستيلاء أبيها علىٰ الأمر من بعد استيلاء أبي بكر عليه بعده صلى‌الله‌عليه‌وآله، وقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله لها: «فإن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، وأنّها قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: الله أخبرني ـ فأخبرت حفصة عائشة من يومها بذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلىٰ عمر فقال له: إنّ عائشة أخبرتني عن حفصة كذا، ولا أثق بقولها، فسل أنت حفصة.

فجاء عمر إلىٰ حفصة فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة؟

فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً.

فقال لها عمر: إن كان هذا حقّاً؟ فأخبرينا حتّىٰ نتقدّم فيه.

فقالت: نعم، قد قال ذلك رسول الله.

---

(١) التفسير الكبير ٣ / ٥١.

فاجتمع أربعة على أن يسمّوا رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزل جبرئيل بهذه السورة: ﴿**يا أيّها النبيّ... تحلّةَ أيْمانكم**﴾، يعني قد أباح الله لك أن تكفّر عن يمينك، ﴿**والله مولاكم... فلمّا نبأت به**﴾ أي أخبرت به، ﴿**وأظهره الله عليه**﴾ يعني: أظهر الله نبيّه على ما أخبرت به وما همّوا به من قتله، ﴿**عرّف بعضه**﴾ أي: أخبرها وقال: «ولمَ أخبرت بما أخبرتك» به؟[1].

صالح المؤمنين وأطراف المواجهة:

روى محمّد بن العبّاس، بسنده عن الصادق عليه السلام: «قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عرّف أصحابه أمير المؤمنين عليه السلام مرّتين، وذلك أنّه قال لهم: أتدرون من وليّكم من بعدي؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنّ الله تبارك وتعالى قد قال: ﴿**فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين**﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام، وهو وليّكم بعدي..

والمرّة الثانية يوم غدير خمّ، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه»[2].

وقد تقدّم أنّ مقتضى الحادثة وتنازع الأطراف فيها يقتضِ هذا التوزيع في طرفي المواجهة، وقد مرّ جملة من روايات أهل سُنّة الجماعة في كون «صالح المؤمنين» هو عليّ عليه السلام..

ولا يخفى سرّ التعبير بالمفرد المضاف إلى الجمع؛ إذ أنّه يختلف عمّا لو كان: «صالح من المؤمنين»، أو: «صالحو المؤمنين»، فإنّه يقتضي

---

(١) تفسير القمّي ٢ / ٣٦٠.
(٢) تأويل الآيات ٢ / ٦٦٩ ح ٣.

التساوي في الصلاح والإيمان ، فإفراده من بين مجموع المؤمنين وإدراجه في سلك انتظام جبرئيل الروح الأمين والملائكة قاضٍ بعلوّ درجته .

وروىٰ في **الدرّ المنثور** ، قال : «وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، بسند ضعيف عن ابن عبّاس ، عن النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ، قال : السبّق ثلاثة : فالسابق إلىٰ موسىٰ يوشع بن نون ، والسابق إلىٰ عيسىٰ صاحب يس ، والسابق إلىٰ محمّد صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم عليّ بن أبي طالب .

وأخرج ابن عساكر من طريق صدقة القرشي ، عن رجل ، قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم : أبو بكر الصديق خير أهل الأرض إلّا أن يكون نبيّ ، وإلّا مؤمن آل ياسين ، وإلّا مؤمن آل فرعون . أي أنّه دون الثلاثة .

وأخرج ابن عدي ، وابن عساكر : ثلاثة ما كفروا بالله قط : مؤمن آل ياسين ، وعليّ بن أبي طالب ، وآسية امرأة فرعون .

وأخرج البخاري في **تاريخه** عن ابن عبّاس ، قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم : الصدّيقون ثلاثة : حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجّار صاحب آل ياسين ، وعليّ بن أبي طالب .

وأخرج داود ، وأبو نعيم ، وابن عساكر ، والديلمي ، عن ابن أبي ليلىٰ ، قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم : الصديقون ثلاثة : حبيب النجّار مؤمن آل ياسين ، الذي قال : ﴿ **يا قوم اتّبعوا المرسلين** ﴾[1] ، وحزقيل مؤمن آل فرعون ، الذي قال : ﴿ **أتقتلون رجلاً**

---

(١) سورة يس ٣٦ : ٢٠ .

أن يقول ربّي الله ﴾[١]، وعليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم»[٢].

ورواه الحاكم الحسكاني في **شواهد التنزيل** بعدّة طرق[٣].

ورواه أحمد في فضائل عليّ عليه السلام من **فضائل الصحابة**[٤].

ورویٰ ابن كثير في **تفسيره**: «قال ابن أبي نجيح: عن مجاهد، عن ابن عبّـاس: **﴿ والسابقون السابقون ﴾**[٥]، قال: يوشع بن نـون سـبق إلىٰ موسىٰ، ومؤمن آل يس سبق إلىٰ عيسىٰ، وعليّ بن أبي طـالب سـبق إلىٰ محمّـد رسول الله صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم»[٦].

ورویٰ مثله السيوطي في **الدرّ المنثور**، قال: «وأخرج ابن أبي حاتم، وآبن مردويه، عن ابن عبّـاس:...» وذكر مثله..

وقال: «وأخرج ابن مردويه عن ابن عبّـاس في قوله: **﴿ والسابقون السابقون ﴾**، قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار الذي ذكر في يس، وعليّ بن أبي طالب، وكلّ رجل منهم سـبق أُمّـته، وعـليّ

---

(١) سورة غافر ٤٠ : ٢٨.

(٢) الدرّ المنثور ٥ / ٢٦٢.

(٣) شواهد التنزيل ٢ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٤) فضائل الصحابة ٢ / ٦٢٨ و ٦٥٦..

ورواه ابن المغازلي في مناقبه: ٢٤٥، والروض النضير ٥ / ٣٦٨ عن ابن النجّار، وأبي نعيم في **المعرفة**، والسلفي في المشيخة البـغداديـة الورقـة ٩ ب و ١٠ ب، والدارقطني في عنوان «خربيل» من كتاب المؤتلف والمختلف ٢ / ٧٧٠.

ورواه السيوطي في الجامع الصـغير ٢ / ٥٠ ورمـز له بـالحسن، وبـطريق آخـر ضعيف، ورواه أيضاً المناوي في فيض القدير ٤ / ٢٣٨؛ وقال: ورواه ابن مردويه والديلمي.

(٥) سورة الواقعة ٥٦ : ١٠.

(٦) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٠٤.

أفضلهم سبقاً»[١].

وهـذه الروايات[٢] من طرقهم قاضـية بأنّ: «صالح المؤمنين» هو عليّ عليه‌السلام وهو صدّيق هذه الأُمّة الأكبر، وفاروقها الأعظم بين الحقّ والباطل، ويقتضيه ما روي مستفيضاً عند الفريقين أنّه: «قسيم الجنّة والنار».

كما أنّ الأشخاص المعنيين بالخبر المفشىٰ تقتضي السورة والآيات بتقابلهم وتباينهم مع موقع الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله والدين وصالح المؤمنين، وأنّ «صالح المؤمنين» مولىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ووليّه يلي أمره في الدين، ومن ثمّ كانت هذه الآيات في السورة معلنةً لولاية «صالح المؤمنين»، وأنّه وليّهم بعـد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله في قبال موقع الطرف الآخر صاحب المكيدة والتدبير علىٰ الدين والرسول الأمين صلى‌الله‌عليه‌وآله.

الملحمة القرآنية والإسرار النبوي:

الحديث الذي أسرّ به النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله إلىٰ حفصة ـ كما تشير إليه سورة التحريم ـ قد سبق وأن أنبأ به القرآن الكريم في سورة البقرة وفي سورة محمّـد صلى‌الله‌عليه‌وآله، والأُولىٰ من أوائل السور المدينة نزولاً، والثانية متقدّمة نزولاً

---

(١) الدرّ المنثور ٦ / ١٥٤.

(٢) وممّن روىٰ أنّ «صالح المؤمنين» هو عليّ عليه‌السلام: الآلوسي في روح المعاني ٢٨ / ١٣٥، وآبن كثير في تفسيره ٤ / ٣٨٩، والسيوطي في الدرّ المنثور ٦ / ٢٤٤، والشوكاني في فتح القدير ٥ / ٢٤٦، وآبن بطريق في العمدة عن **تفسير الثعلبي**: ١٥٢، والگنجي الشافعي في كفاية الطالب: ٥٣، والقرطبي في جامع الأحكام ١٨ / ١٨٩، والأندلسي في البحر المحيط ٨ / ٢٩١، وآبن الجوزي في التذكرة: ٢٦٧، وآبن همام في حبيب السير ٢ / ١٢، والحسكاني الحنفي في شواهد التنزيل ٢ / ٢٥٩، وذكر محمّد بن العبّاس في تأويل الآيات ٢ / ٦٩٨ اثنين وخمسين حديثاً من طرق الخاصّة والعامّة.

علىٰ سورة التحريم أيضاً..

ففي الأُولىٰ: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهِدُ اللهَ علىٰ ما في قلبه وهو ألدُّ الخصامِ * وإذا تولّىٰ سعىٰ في الأرض ليُفسدَ فيها ويُهلكَ الحرثَ والنسلَ واللهُ لا يحبّ الفسادَ * وإذا قيل له اتّقِ اللهَ أخذتْهُ العزّةُ بالإثمِ فحسْبُهُ جهنّمُ ولبئس المِهادُ * ومن الناس مَن يشري نفسَهُ ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ واللهُ رؤوفٌ بالعبادِ﴾**[1].

الملفت للانتباه أنّ في هذه الآيات جرىٰ التقابل بين طرفين وموقعين في مجرىٰ الأحداث في مسار الأُمّة، وها هنا الطرف الثاني الذي تتعرّض له الآيات بالمديح والثناء، وبيان أنّه المؤهّل لولاية الأمر من قبله تعالىٰ؛ بقرينة تقريع الآيات للطرف الأوّل، الذي تتوقّع استيلاءه علىٰ مقاليد الأُمور، وتذكر له العديد من الصفات، مثل: حلاوة المقال مع عداوة القلب، وخصامه الكثير ولجاجه، وقساوته عند تولّيه الأُمور بتغريب النتاج المدني البشري، والإبادة للطبيعة البشرية.

وها هنا الآيات لم تصف النسل البشري بصفة خاصّة، ممّا يعطي أنّ التقريع للإبادة موردها الطبيعة البشرية من حيث هي محترمة كخلق لله تعالىٰ، بغضّ النظر عن الحرمة من جهة الإيمان أو الإسلام، وهذا مؤشّر علىٰ موارد وقوع هذه الصفة المُتنبأ بها في الآيات، وقد مرّت الإشارة إلىٰ هذا البحث في حلقات سابقة.

والحاصل إنّ الطرف الثاني الذي تمدحه الآيات هو في مقابل الطرف

---

(١) سورة البقرة ٢: ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

الأوّل المذموم لتولّي الأمر..

والممدوح ها هنا كما هو معروف من الروايات ولدىٰ المفسّرين هو عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ؛ إذ فدّىٰ نفسه للنبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله في ليلة المبيت علىٰ فراشه.

وفي السورة الثانية قال تعالىٰ: ﴿ **فإذا أُنزلت سورةٌ محكمةٌ وذُكرَ فيها القتالُ رأيت الّذين في قلوبهم مرضٌ ينظرونَ إليك نظر المغشيِّ عليه من الموت فأوْلىٰ لهم * طاعةٌ وقولٌ معروفٌ فإذا عزمَ الأمرُ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسَيْتمْ إن تولّيْتم أن تُفسدوا في الأرض وتُقطّعوا أرحامكمْ * أُولٰئك الّذين لعنهمُ اللهُ وأصمّهمْ وأعمىٰ أبصارهمْ** ﴾[1].

هذه الآيات تشير إلىٰ وقوع استيلاء علىٰ مقاليد الأُمور من قبل فئة من المسلمين، وهم: ﴿ **الّذين في قلوبهم مرض** ﴾، وهذا العنوان قد أشار القرآن الكريم إلىٰ وجوده بين صفوف المسلمين منذ بداية نشأة الإسلام، كما في سورة «المدّثر»، رابع سورة نزلت علىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله في مكّة في أوائل البعثة..

وهذا التقارن بين سورة المدّثر وسورة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله دالّ علىٰ أنّ هدف هذه الفئة من الدخول في الإسلام منذ أوائل عهده هو الوصول إلىٰ مسند القدرة وزمام الأمور بعد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله، كما هو طمعٌ وهدفٌ أُعلن علىٰ لسان كثير من القبائل التي كان النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله يدعوها للدخول في الإسلام؛ فقد كانت مشارطتهم للدخول في الدين استخلافهم علىٰ زمام الأُمور بعد

---

(١) سورة محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله ٤٧: ٢٠ - ٢٣.

النبيّ ﷺ ، وكان النبيّ ﷺ يرفض هذا الشرط ، ويـجيب بأنّ ذلك ليس له ، بل لله عزّ وجلّ ربّ العالمين .

ومع انضمام سورة التحريم إلىٰ السـور السـابقة يـتّضح جـليّاً مـفاد الإشارة في السور القرآنية ، وتتبيّن أوصاف مَن تُعرّض به الملحمة القرآنية .

وقد وقع نظير هذه الأنباء من الرسول ﷺ حول مجريات الاستيلاء علىٰ السلطة بعده . .

فقد روىٰ البخاري ، عن عمر بن يحيىٰ بن سعيد بن عمرو بن سعيد : «قال : أخبرني جـدّي ، قـال : كـنت جـالساً مـع أبـي هـريرة فـي مسـجد النبيّ ﷺ بالمدينة ومعنا مروان ، قال أبو هريرة : سمعت الصادق المصدّق يقول : هلكة أُمّتي علىٰ يدي غلمة من قريش ، فقال مروان : لعنة الله عليهم غلمة . فقال أبو هريرة : لو شئت أن أقول بني فلان بني فلان لفعلت . .

فكنت أخـرج مع جـدّي إلىٰ بني مروان حين مـلكوا بـالشام ، فـإذا رآهـم غلماناً أحـداثاً قال لنا : عسـىٰ هؤلاء أن يكونوا مـنهم . قـلنا : أنت أعلم»[1] .

قال ابن حجر في شرحه : «قال ابن بطّال : جاء المراد بالهلاك مبيّناً في حديث آخر لأبي هريرة أخرجه علي بن معبد ، وابن أبي شيبة من وجه آخر عن أبي هريرة ، رفعه : (أعوذ بالله من إمارة الصبيان . قالوا وما إمارة الصبيان ؟ قال : إن أطعتموهم هلكتم ـ أي فـي ديـنكم ـ وإن عـصيتموهم أهلكوكم ، إن في دنياكم بإزهاق النفس ، أو بإذهاب المال ، أو بهما) . .

وفي رواية ابن أبي شيبة : (إنّ أبا هـريرة كـان يـمشي فـي السـوق

(١) صحيح البخاري : كتاب الفتن ب ٣ ـ فتح الباري ١٣ / ٩ .

ويقول: اللّهمّ لا تدركني سنة ستّين ولا إمارة الصبيان)، وفي هذا إشارة إلىٰ أنّ أوّل الأُغيلمة كان في سنة ستّين، وهو كذلك؛ فإنّ يزيد بن معاوية استُخلف فيها.

- إلىٰ أن قال: - تنبيه: يتعجّب من لعن مروان الظلمة المذكورين مع أنّ الظاهر أنّهم من ولده، فكأنّ الله تعالىٰ أجرىٰ ذلك علىٰ لسانه ليكون أشدّ في الحجّة عليهم لعلّهم يتّعظون.

وقد وردت أحاديث في لعن الحكم والد مروان وما ولد، أخرجها الطبراني وغيره، غالبها فيه مقال، وبعضها جيّد»[١].

وكذا ما رواه البخاري في الباب الثاني من كتاب الفتن - وعنونه: باب قول النبيّ ﷺ: «سترون بعدي أُموراً تنكرونها» -: «وقال عبد الله بن زيد، قال النبيّ ﷺ: اصبروا حتّىٰ تلقوني علىٰ الحوض»!!

ثمّ روىٰ البخاري أحاديث في الباب تدعو إلىٰ السكوت عن سلاطين الجور والإطاعة لهم، وهي أشبه بنصوص السلطة من النصوص النبوية..

قال تعالىٰ: ﴿ **والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهم أولياء بعضٍ يأمرونَ بالمعروف وينْهَوْنَ عن المنكر** ﴾[٢]..

وقال تعالىٰ: ﴿ **المنافقونَ والمنافقاتُ بعضهم من بعضٍ يأمرونَ بالمنكر وينهوْنَ عن المعروف** ﴾[٣]..

وقال تعالىٰ: ﴿ **ولا ترْكنوا إلىٰ الّذين ظلموا فتمَسّكُمُ النارُ** ﴾[٤].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٠ - ١١.

(٢) سورة التوبة (البراءة) ٩: ٧١.

(٣) سورة التوبة (البراءة) ٩: ٦٧.

(٤) سورة هود ١١: ١١٣.

وبمثل هذه الملحمة القرآنية والإسرار النبوي ما رواه البخاري أيضاً في كتاب الفتن : الباب الأوّل والرابع من اقتراب الفتن بعده صلى الله عليه وآله ، وإحداث أصحابه بعده صلى الله عليه وآله . .

وكلّ ذلك خارج مخرج التحذير والإنذار . . ﴿ **حكمةٌ بالغةٌ فما تُغنِ النُذُرُ** ﴾[1] .

❀ ❀ ❀

---

(١) سورة القمر ٥٤ : ٥ .

آفاق الوحـدة الإسلامية

وممّـا يتّصـل بالخلاف في عدالة الصحابـة أمـران رئيسـيّان ، الأوّل : ما هو مصير الوحدة الإسلامية مع الخلاف في عـدالتـهم ، الثـاني : محطّة الفـتوحات الإسـلامية الـتي وقـعت عـلىٰ يـد الخـلفاء الثـلاثة هـي عـمدة مستمسكات القائلين بعدالتهم ومكانتهم في الدين . فلا بُدّ من تناول البحث لكلا الأمرين . .

الأوّل ـ آفاق الوحـدة :

إنّ كثيراً من الضلالات ناشئة من العمىٰ في البـصيرة ، قـال تـعالىٰ : **﴿ فإنّها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي فـي الصـدور ﴾**(١) وقال : **﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها ﴾**(٢) . .

والعمىٰ في البصيرة ينشأ من أسباب مختلفة ، تارة من ضحالة فـي العلم والفقه ، وأُخرىٰ من اتّباع الهوىٰ والمصالح الدنيوية القصيرة المدىٰ ، وإذا اجتمع السببان فالطامّة الدهياء بين العمىٰ والازدواجية .

قال تـعالىٰ : **﴿ وآعتصموا بحبل الله جـميعاً ولا تـفرّقوا وآذكـروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قـلوبكم فأصـبحتم بـنعمته إخواناً وكنتم علىٰ شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلّكم تهتدون * ولتكن منكم أُمّةٌ يـدعون إلىٰ الخـير ويأمـرون**

---

(١) سورة الحجّ ٢٢ : ٤٦ .

(٢) سورة الأنعام ٦ : ١٠٤ .

بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر وأُولئك هم المفلحون﴾[1]..

هذه الآية الكريمة كما تعيّن مدار وحدة المسلمين فهي تنبّأ بملحمة خطيرة، هي: أنّ الوحدة الإسلامية لم ولن تتمّ ولا تتحقّق في هذه الأُمّة وتنال تلك السعادة في ظلّ الأُلفة الأخوية إلّا بالاعتصام بـ: «حبل الله»، أي التمسّك بحبل الله، فيكون هذا الحبل عاصماً عن الفرقة، وعن السقوط في الهاوية، وعن الضياع في المتاهات؛ فما هو «حبل الله»، وما هو سرّ التعبير بـ: «الحبل»؟!

لـ«حبل الله» ـ كما لكلّ حبل ـ طرفان، طرف تستمسك به الأُمّة، وطرف آخر عند الله تعالىٰ، أي أنّ هذا الحبل شيء رابط بين البشرية والغيب، وسبب متّصل بين الأرض والسماء، فلا بُدّ أن يكون قطب الوحدة ومركز الاتّحاد سبب موصل مطّلع علىٰ الغيب؛ وهذا يعطي أنّ سفينة الوحدة والاتّحاد يجب أن ترسو علىٰ ما هو حقّ وحقيقة، لا التوافق علىٰ الهوىٰ والهوس.

وسياق الآية الثانية المتّصلة يصرّح بأنّ الوحدة يجب أن تكون علىٰ الخير والمعروف والاجتناب عن المنكر، بحسب الواقع والحقيقة، فلو حصلت وحدة علىٰ المنكر وٱجتناب المعروف، لكانت هذه فُرقة في منطق القرآن الكريم؛ لأنّ الناس افترقوا وٱبتعدوا عن الحقّ..

وهذا يدلّ علىٰ أنّ الحقّ والمعروف له وجود وحقيقة في نفس الأمر، اتّفقت كلمة الأُمّة عليه أم لم تتّفق، وليس الحقّ ناتجاً ومتولّداً من اتّفاق الأُمّة كي يقال: «كلّ ما اتّفقت الأُمّة عليه فهو حقّ، وكلّ ما لم تتّفق عليه فهو باطل»..

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٠٣ ـ ١٠٤.

ومن ثمّ كان الحسن والقبح في الأفعال، والصفات، والاعتقادات ذاتي، تكويني، عقلي، حقيقي؛ إذ ليس حسن الشيء بسبب رأي الأكثرية أو توافق الكلّ على مدحه، ولا قبح الشيء بسبب رأي الأكثرية أو توافق الكلّ على ذمّه، بل الحسن والمدح والثناء ذاتي؛ للكمال، والقبح والذمّ والهجاء ذاتي؛ للنقص، ومن ذلك يعلم أنّ الثابت الديني ليس وليد الوفاق بل هو مرهون بالأدلّة والبراهين.

فإذا كان الحقّ ثابت في نفسه فيجب إقامة الوحدة على أساسه، لا أن تقام الوحدة على أساس الباطل أو الحقّ الممزوج بالباطل، فنقيم الاتّحاد ولو على النهج السقيفي أو الأُموي أو العبّاسي، بل هذا اتّحاد على الغواية وتعاون على الإثم والعدوان، ومن ثمّ لم يبال سيّد الشهداء عليه السلام أن يشقّ عصا المسلمين المتآلفين على النهج اليزيدي، وقال: «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أُريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

فالاصلاح والنصيحة للمسلمين ليس بإقرارهم على ما هم عليه من الفساد والغواية، بل هو بأمرهم بالمعروف والحقيقة ونهيهم عن المنكر والباطل، ودعوتهم للتعاون على السير على نهج الحقّ والصراط المستقيم.

وخذ مثالاً لذلك: لو شاهدت مدمناً على المخدّرات وأردت أن تنصحه، فإنّ نصيحته ليست بمدحه على فعله وتحسينه له؛ فهو غشّ ودغل وآحتيال، بل نصيحته بتعليمه بسوء ما هو عليه وقبحه، وإرشاده إلى الطريق السوي..

وكما قام سيّد الشهداء بتفرقة الجماعة المتجمّعة على الباطل، قام جدّه النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بتفرقة المجتمع المكّي القرشي، الذي كان

متّحداً علىٰ عبادة الأوثان ، وأرشدهم بالأُسلوب التدريجي ، وبالحكمة والموعظة ، وبالتي هي أحسن ، والمداراة ، إلىٰ طريق الصواب والهداية ، ولم تكن مداراته بمعنىٰ ذوبانه في أرجاس الجاهلية ومداهنته لزيغهم وغيّهم ، نعم لا يكون العلاج إلّا تدريجياً وبتعقّل وتروّي وتؤدة.

ولك أن تعتبر بسيرة سيّد الشهداء عليه‌السلام ، فإنّه لمّا رأىٰ العالم الإسلامي ساكت علىٰ تولّي يزيد بن معاوية للأُمور وفاقاً سكوتياً أخذ في توعية الناس في المدينة المنوّرة ، ثمّ في مكّة عدّة أشهر ، يلتقي بوفود المسلمين في العمرة وموسم الحجّ ويخطب فيهم ، إلىٰ أن أثمرت جهوده عليه‌السلام وبانت في مخالفة أهل العراق للسلطة الأُموية ، فخالفوا وحدة الصفّ التي كانت في جانب يزيد ، وأخذ في توسيع القاعدة الشعبية المخالفة كي تصبح أكثرية ، ثمّ توجّه صوب العراق لإنجاز الإصلاح في الأُمّة ، فلمّا رأىٰ عودة أهل العراق عن مخالفة الصفّ اليزيدي وآتّحادهم مع الوفاق الأُموي ، لم يستسلم للوحدة علىٰ الباطل والغي حتّىٰ استشهد إحياءً لفريضة الإصلاح والأمر بالوحدة علىٰ المعروف والانتهاء عن المنكر.

فترىٰ أنّ سيّد الشهداء عليه‌السلام لم يقم وزناً للوحدة والاتّحاد علىٰ الخطأ والباطل ، وأشاد بالوحدة علىٰ طريق الحقّ والهداية ، وهذا هو معنىٰ أنّ الحسن والقبح للأشياء ذاتياً واقعياً ، وليس اعتبارياً خاضعاً لرأي الأكثرية والمجموع وتوافقهم.

روىٰ الصدوق في **معاني الأخبار** عن ابن حميد رفعه ، قال : «جاء رجل إلىٰ أمير المؤمنين عليه‌السلام فقال : أخبرني عن السُنّة والبدعة ، وعن الجماعة وعن الفُرقة ؟

فقال أمير المؤمنين عليه‌السلام : السُنّة : ما سنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ،

والبدعة: ما أُحدث من بعده، والجماعة: أهل الحقّ وإن كانوا قليلاً، والفُرقة: أهل الباطل وإن كانوا كثيراً»[١].

وروىٰ النعماني بسنده في كتاب **الغَيْبة** عن ابن نباتة، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه‌السلام علىٰ منبر الكوفة يقول: «أيّها الناس! أنا أنف الهدىٰ وعيناه، أيّها الناس! لا تستوحشوا في طريق الهدىٰ لقلّة من يسلكه، إنّ الناس اجتمعوا علىٰ مائدة قليل شبعها كثير جوعها»[٢].

وفي رواية هشام المعروفة عن موسىٰ بن جعفر عليه‌السلام: «يا هشام! ثمّ ذمّ الله الكثرة فقال: **﴿وإن تُطعْ أكثر مَن في الأرض يُضلّوكَ عن سبيل الله﴾**[٣]، وقال: **﴿ولئن سألتَهم مَن خلق السماواتِ والأرضَ ليقولُنّ اللهُ قل الحمد لله بل أكثَرُهُم لا يعلمون﴾**[٤]، وقال: **﴿ولئن سألتَهم مَن نزّلَ من السماء ماءً فأحْيا به الأرضَ من بعدِ موتِها ليقولُنّ اللهُ قل الحمد لله بل أكثَرُهُم لا يعقلون﴾**[٥]..

يا هشام! ثمّ مدح القلّة فقال: **﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾**[٦]، وقال: **﴿وقليلٌ ما هم﴾**[٧]، وقال: **﴿وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعونَ يكتُمُ إيمانَهُ أتقتلونَ رجلاً أن يقولَ ربّيَ الله﴾**[٨]، وقال: **﴿ومَن آمنَ**

---

(١) معاني الأخبار: ١٥٤ ـ ١٥٥ ح ٣، بحار الأنوار ٢/٢٦٦ ح ٢٣.

(٢) انظر: الغيبة ـ للشيخ النعماني ـ: ١٧٠، الإرشاد ـ للشيخ المفيد ـ ١/٢٧٦، بحار الأنوار ٢/٢٦٦ ح ٢٧، نهج البلاغة ـ لمحمّد عبده ـ ٢/ ٢٠٧ رقم ١٩٦.

(٣) سورة الأنعام ٦: ١١٦.

(٤) سورة لقمان ٣١: ٢٥.

(٥) سورة العنكبوت ٢٩: ٦٣.

(٦) سورة سبأ ٣٤: ١٣.

(٧) سورة ص ٣٨: ٢٤.

(٨) سورة غافر ٤٠: ٢٨.

وما آمنَ معهُ إلّا قليل﴾[١]، وقال: **﴿ولكـنّ أكـثرَهُم لا يـعلمون﴾**[٢]، وقال: **﴿وأكثَرُهُم لا يعقلون﴾**[٣]، وقال: **﴿أكثَرَهُم لا يشكرون﴾**[٤]».. الحديث[٥].

ولا يخفىٰ أنّ الروايات في صدد بيان ضوابط وموازين البصيرة الحقّة وتمييزها عن الباطل، لا في مقام ترك المسؤولية تـجاه الأكـثرية والقـيام بواجب هدايتهم وإرشادهم، والعناية بأُمورهم بـالإصلاح وتـقويم العـوج وإزالة الفساد، بل هي في مقام بيان أنّ الاعتداد بشأن موازين منطق التفكير التي هي موازين العلم والعـقل والفـطرة والسُّـنّة غـير المـحرّفة لا يكـون بالمنطق الأكثري بل بالقيم والمبادئ التي تتضمّن هذه الموازين.

روىٰ في مستطرفات **السرائر** بسنده عن أبي الحسـن مـوسىٰ عليه السلام، قال: «قال لي: أبلغ خيراً وقل خيراً ولا تكوننّ إمّعَة. قلت: وما الإمّعة؟ قال: لا تقل أنا مع الناس وأنا كواحد من الناس؛ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أيّها الناس! إنّما هما نجدان: نجد الخير، ونجد الشرّ، فلا يكن نـجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير»[٦]..

والإمّعة: الذي لا رأي له، فهو يتابع كلّ أحد علىٰ رأيه، والذي يقول لكلّ أحد: أنا معك، أنا مع الناس.

---

(١) سورة هود ١١: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام ٦: ٣٧؛ وتكرّرت هذه الآية في سور عديدة أُخرىٰ.
(٣) سورة المائدة ٥: ١٠٣.
(٤) سورة يونس ١٠: ٦٠، سورة النمل ٢٧: ٧٣.
(٥) الكافي ١/١٢ ضمن ح ١٢.
(٦) مستطرفات السرائر (ضـمن **السرائـر**) ٣/٥٩٥، الاخـتصاص: ٣٤٣، الأمـالي ـ للشيخ المفيد ـ: ٢١٠ ح ٤٧، بحار الأنوار ٢١/٦٢.

وروىٰ الصدوق بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال لرجل من أصحابه :«لا تكون إمّعة ، تقول : أنا مع الناس ، وأنا كواحد من الناس»[١].

وهذه الأحاديث أيضاً في مقام تخطئة التأثّر من رأي الأكثرية بسبب الأكثرية ، والحثّ علىٰ التمسّك بما هو مقتضىٰ البديهة الفطرية والضرورة الدينية ، وهناك توصيات عديدة في القرآن والسُنّة علىٰ طريقة التفكير والاعتقاد كمنهج منطقي ديني لا يسع المقام ذكرها.

ثمّ إنّ آية الاعتصام بحبل الله تعالىٰ تتضمّن نبوءة بملحمة قرآنية مهمّة ، وهي : أنّ وحدة الأُمّة الإسلامية لا ولن تتمّ إلّا بالتمسّك جميعاً بحبل الله ، فلا تأمل هذه الأُمّة يوماً ما في الخلاص من ذلّ الفُرقة والتشتّت والضعف أمام الأعداء بدون التمسّك بحبل الله ..

والرغبة في الوحدة بأن تكون علىٰ محور الاعتصام بحبل الله كي لا يقعوا في الفُرقة ؛ فحبل الله هو العاصم من الفُرقة ، وبدونه سوف تكون الرغبة في الوحدة حلماً وشعاراً أجوف ومجرّد تشدّق باللسان.

وحبل الله الذي يدعو إليه القرآن الكريم هو : الثقلان ؛ لأنّه حبل طرف منه عند الناس وطرف آخر عند الله ، وهذا القرآن الكريم قد تضمّنت عدّة سور قرآنية منه التشديد علىٰ أنّ للقرآن قريناً وملازماً لا يفترق عنه ، هو ثلّة مطهّرة من هذه الأُمّة ، لديها علم الكتاب ؛ فقد قال تعالىٰ في سورة الواقعة : **﴿ فلا أُقسمُ بمواقع النجوم * وإنّه لقسمٌ لو تعلمون عظيمٌ * إنّه لقرآنٌ كريمٌ * في كتابٍ مكنونٍ * لا يمسُّهُ إلّا المطهّرونَ * تنزيلٌ من ربّ العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مُدْهِنون * وتجعلون رزقَكم أنّكم**

(١) معاني الأخبار : ٢٢٦ ح ١ ، بحار الأنوار ٢ / ٢٦ .

تُكذّبون﴾[١].

فذكر تعالىٰ أنّ للقرآن وجوداً علوياً غيبياً غير ما تنزّل منه، لا يصل إلىٰ حقيقته وحقائق ذلك الوجود غير المطهّرين ـ بصيغة الجمع ـ من هذه الأُمّة، وهم الموصوفون بالطهارة في قوله تعالىٰ: ﴿**إنّما يريد الله لِيُذْهِبَ عنكمُ الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطهّرَكم تطهيراً**﴾[٢].

وكذلك قال تعالىٰ: ﴿**ويومَ نبعثُ في كلّ أُمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسِهم وجئنا بكَ شهيداً علىٰ هؤلاء ونزّلنا علينا الكتابَ تبياناً لكلّ شيءٍ وهدىً ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين**﴾[٣]..

وقد اعترف الفخر الرازي ـ وإن لم تكن أهمّية لاعترافه فأهمّية القرآن ذاتية ـ أنّ الآية دالّة علىٰ وجود شخص في زمن لا يزل ولا يخطأ يكون شاهداً علىٰ أُمّة كلّ قرن[٤]، وإلّا فكيف يكون شاهداً وهو مشهود عليه بالذنب أو الضلالة؛ كما تبيّن الآية من سورة العنكبوت: ﴿**بل هوَ** ـ أي الكتاب أو القرآن ـ **آياتٌ بيناتٌ في صدور الّذين أُوتوا العلمَ وما يجحدَ بآياتنا إلّا الظالمون**﴾[٥] ومثله قوله تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿**قل كفىٰ بالله شهيداً بيني وبينَكم ومَن عندَهُ علمُ الكتاب**﴾[٦] وغيرها من آيات الثقلين وأنّهما مقترنان معاً لا يفترقان.

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٧٥ ـ ٨٢.
(٢) سورة الأحزاب ٣٣ : ٣٣.
(٣) سورة النحل ١٦ : ٨٩.
(٤) انظر: التفسير الكبير ـ ذيل الآية ٨٩ من سورة النحل.
(٥) سورة العنكبوت ٢٩ : ٤٩.
(٦) سورة الرعد ١٣ : ٤٣.

والحاصل أنّ آية الاعتصام تنبّأ بملحمة مهمّة، وهي: أنّ ضعف وذلّ هذه الأُمّة لفرقتها لا يزول بغير الاعتصام بحبل الله، وهما الثقلان: الكتاب والعترة، وبذلك تتحقّق الوحدة..

وقد أشارت الصدّيقة الزهراء عليها السلام بنت المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ هذه الملحمة القرآنية في خطبتها: «فجعل الإيمان تطهيراً لكم من الشرك... وطاعتنا نظاماً للملّة وإمامتنا أماناً من الفرقة»[1].

والمرتضىٰ عليه السلام وصيّ المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته القاصعة ـ وهي من أعظم خطبه صلوات الله عليه؛ إذ يصف فيها ولاية أهل البيت عليهم السلام أنّها توحيد لله تعالىٰ في الطاعة ـ يقول: «فانظروا إلىٰ مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً؛ فعقد بملّته طاعتهم، وجمع علىٰ دعوته أُلْفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها...

وتعطفت الأُمور عليهم في ذرىٰ ملك ثابت، فهم حكّام علىٰ العالمين وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأُمور علىٰ من يملكها عليهم، ويمضون الأحكام في من كان يمضيها فيهم...

ألا وإنّكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية، فإنّ الله سبحانه قد امتنّ علىٰ جماعة هذه الأُمّة في ما عقد بينهم من حبل هذه الأُلفة التي ينتقلون في ظلّها، ويأوون إلىٰ كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة؛ لأنّها أرجح من كلّ ثمن، وأجلّ من كلّ خطر.

وٱعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً، وبعد الموالاة أحزاباً، ما تتعلّقون من الإسلام إلّا باسمه، ولا تعرفون من الإيمان إلّا رسمه،

---

(١) الاحتجاج ـ للطبرسي ـ ١/ ٢٥٨ ضمن ح ٤٩، كشف الغُمّة ـ للأربلي ـ ١/ ٤٨٣.

تقولون: النار ولا العار! كأنّكم تريدون أن تكفئوا الإسلام علىٰ وجهه انتهاكاً لحريمه، ونقضاً لميثاقه الذي وضعه الله لكم، حرماً في أرضه، وأمناً بين خلقه، وإنّكم إن لجأتم إلىٰ غيره حاربكم أهل الكفر، ثمّ لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا مهاجرون ولا أنصار ينصرونكم إلّا المقارعة بالسيف حتّىٰ يحكم الله بينكم»[1].

فقوله عليه السلام: «فعقد بملّته طاعتهم، وجمع علىٰ دعوته أُلفتهم... قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتم حصن الله المضروب عليكم...» إنّ منّة الله علىٰ جماعة ووحدة الأُمّة هو بتوسّط ذلك الحبل، حبل الطاعة، وهو حبل الأُلفة، وإنّ في مقابل الموالاة الأحزاب، أيّ التفرّق والفُرقة؛ فلا نصرة لهم من الله تعالىٰ وملائكته والمؤمنين، كما أنّه عليه السلام أخبر الأُمّة بملحمة مستقبلية، هي الملحمة القرآنية في آية الاعتصام، أنّهم سيتفرّقون ويضعفون أمام الكفر وتكالب الأعداء وكثرة الحروب حتّىٰ يقدّر الله تعالىٰ النهاية، ولعلّه إشارة إلىٰ عصر الظهور..

ولا يخفىٰ الاقتباس في تعبيره عليه السلام بالحبل وإنّه الطاعة؛ إذ تضمّن الإشارة إلىٰ آية الاعتصام من الفرقة بحبل الله، وأنّه طاعتهم وولايتهم.

فلا يأمل ولا يحلم المسلمون بتحقّق الأُلفة والوحدة والقدرة لهم علىٰ أعدائهم من دون التمسّك بحبل الله، المتمثّل بولاية وطاعة أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ إنشاد الوحدة من دون ذلك ممتنع.

وهذا الإخبار من القرآن ومن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام إخبار إعجازٍ وتحدٍّ للمسلمين؛ يعضد ذلك العقل والمشاهدة العيانية الاستقرائية لأوضاع المسلمين..

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٩٢ ـ القاصعة.

أمّا العقل : فإنّ المسلمين إن لم يرجعوا في عقائدهم، ومن ثمّ في أحكامهم وقوانينهم إلىٰ مصدر واحد، فكيف يتمّ لهم الاتّفاق في نظامهم السياسي والاجتماعي والمذهبي ؟!

وأمّا المشاهدة العيانية الاستقرائية : فهي حاصلة بأنّ مذاهب العامّة لا تكاد تنحصر في عدد معيّن، وحصرها في أربعة ما هو إلّا من فعل الخلافة العبّاسية في القرن الرابع الهجري، وإلّا فمذاهب فقهائهم كثيرة كاثرة، وهي لا تزال في تشعّب مذهبي ـ أي في أُصول القواعد ـ وفقهي وٱعتقادي، ولم يبقَ من الأربعة إلّا العدد فقط، فهناك ـ الآن ـ مذاهب الوهّابيّة والظاهرية والأباظية والتكفير والهجرة، وهلمّ جرّاً ؛ فكيف يرجىٰ خلاص الأُمّة وهم يتّبعون مذاهب فقهية وٱعتقادية هي في الأصل من وضع الأمويّين والعبّاسيّين، أي فقه السلاطين وٱعتقاداتهم ؟!

ففقهاؤهم قاطبة ـ إلّا ما شذّ وندر ـ يحرّمون الخروج علىٰ سلطان الجَوْر، بلغ ما بلغ غيّه وفساده وجوره، ما لم يكن كفراً بواحاً، وإن كان وصوله إلىٰ السلطة بالتغلّب والقهر والسيف ؛ فهل ترىٰ للأُمّة الإسلامية من خلاص ونصرة علىٰ عدوّها والحال أنّ علىٰ رقاب ورؤوس المسلمين حكّاماً خونة ؟!

قال المزّي : «وقال أبو العبّاس ابن عقدة ـ وذكر المزّي السند إلىٰ حسن بن زياد، يقول ـ : سمعت أبا حنيفة وسأله : من أفقه من رأيت ؟ فقال : ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمّد . .

لمّا أقدمه المنصور الحيرة بعث إليّ فقال : يا أبا حنيفة ! إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمّد، فهيّئ له من مسائلك الصعاب . قال : فهيأت له أربعين مسألة .

ثمّ بـعث إليّ أبـو جـعفر فأتيته بـالحيرة، فـدخـلت عـليه وجـعفر جالس عن يمينه، فلمّا بصرت بهما دخلني لجعفر من الهيبة ما لم يدخل لأبي جعفر. فسلّمت، وأذن لي، فجلست.

ثمّ التفت إلىٰ جعفر فقال: يا ابا عبـد الله! تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة. ثمّ أتبعها: قد أتانا[1].

ثمّ قال: يا أبا حنيفة! هات من مسائلك نسأل أبا عبـد الله.

وابتدأت أسأله، وكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا ونحن نقول كذا وكذا، فربّما تابعنا، وربّما تابع أهل المدينة، وربّما خالفنا جميعا، حتّىٰ أتيت علىٰ أربـعين مسألة ما أخرم منها مسألة.

ثمّ قال أبو حنيفة: أليس قد روينا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»[2].

فها أنّك ترىٰ أنّ أبا حنيفة يستخدمه الخليفة العبّاسي آلة طيّعة ليقابل تنامي نفوذ الإمـام الصـادق عليه‌السلام فـي المسـلمين، ومـثله الحـال فـي بـقية فقهائهم..

قال الحافظ ابن عبـد البرّ: «إنّ محمّـد بن سعد قال: سمعت مالك ابن أنس يقول: لمّا حجّ أبو جعفر المنصور دعاني، فدخلت عليه فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: إنّي عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعت (يعني **الموطّأ**) فتنسخ نسخاً ثمّ أبعث إلىٰ كلّ مصر مـن أمـصار المسـلمين مـنها

---

(١) الظاهر أنّ المراد: تتلمذ عندنا، كما ذكر ذلك المزّي أيضا في **تهذيب الكمال**: أنّ أبا حنيفة تتلمذ عنده عليه‌السلام.

(٢) تهذيب الكمال ٥ / ٧٩.

نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدّوها إلىٰ غيرها ! فإنّي رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم»[١] .

وقد ذكر هذه الحادثة ابن قتيبة الدينوري ، وذكر دخول أكثر فقهاء العامّة علىٰ المنصور ، كسفيان الثوري ، وآبن آبي ذؤيب ، وآبن سمعان ، وأنّ المنصور خطب فيهم ثمّ قسّم عليهم أموالاً ، وأنّ بعضهم أخذها ، ومنهم مالك ، وأنّ المهدي العبّاسي أمر لمالك بأربعة آلاف دينار مكافأة علىٰ كتابه **الموطّأ** ، ولابنه بألف دينار ، وأنّ هارون بالغ في الحفاوة به أيضاً[٢] .

فبدون ولاية وطاعة المعصوم لا سبيل للنجاة من الفُرقة ؛ إذ الأهواء المتّبعة مدعاة للفُرقة ، والجهل والجهالات المتفشّية هي الأُخرىٰ موجبة لاختلاف القول والرأي ، وبالتالي اختلاف الكلمة . .

وتوحيد الكلمة الذي هو مظهر التوحيد الإلٰهي لا يتحقّق إلّا بإمامة أهل البيت عليهم السلام ؛ وذلك لأنّ توحيد الله تعالىٰ علىٰ مقامات ومواطن ، فمنه توحيد الذات والصفات والأفعال ، والتوحيد في العبادة بالإخلاص ، والتوحيد في التشريع وهو النبوّة ، والتوحيد في الغاية وهي المعاد ، والتوحيد في الطاعة والولاية وهي الإمامة ؛ إذ أنّ الأئمّة المعصومين هم أوعية مشيئة وإرادة الله تعالىٰ ، فقيادتهم هي حاكمية لمشيئة الله تعالىٰ وإرادته .

ولن يستكمل التوحيد حتّىٰ يعمّ قوله تعالىٰ : ﴿ **إن الحُكمُ إلّا لله** ﴾[٣] كلّ المواطن ، وإلّا فعزل الباري عن مسرح الحياة البشرية وقصر التوحيد

---

(١) كتاب الانتقاء : ٤١ .

(٢) انظر : الإمامة والسياسة : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ .

(٣) سورة الأنعام ٦ : ٥٧ ، سورة يوسف ١٢ : ٤٠ و ٦٧ .

على الذات والصفات ـ كما يصنع العلمانيون ـ ليس إلّا توحيد أجوف صوري، كما أنّ التوحيد في التشريع ـ النبوّة ـ دون التوحيد في التطبيق هو الآخر توحيد نظري بدون تطبيق، كما قال الإمام عليّ عليه السلام: «احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»، أي ثمرة النبوّة وهي الولاية لأهل البيت عليهم السلام، فولايتهم وإمامتهم نهاية معاقل التوحيد وزبدة مواطنه، وهو الامتحان الذي فشل فيه إبليس الرجيم؛ إذ لم يكفر بتوحيد الذات ولا الصفات بحسب الظاهر ولا بالمعاد، بل كفر بولاية آدم وخلافته، أي بالتوحيد في مقام الطاعة والولاية، فنجم عن ذلك كفره وحبط عمله، وإلىٰ ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة الطويلة، وسنشير إلىٰ مقطعين منها..

الأوّل: «الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرماً علىٰ غيره، واصطفاهما لجلاله، وجعل اللعنة علىٰ مَن نازعه فيهما من عباده..

ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين؛ فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب: ﴿**إنّي خالقٌ بشراً من طين * فإذا سوّيْتُهُ ونفخْتُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجدَ الملائكةُ كلّهم أجمعونَ * إلّا إبليس**﴾[1] اعترضته الحمية فافتخر علىٰ آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله، فعدوّ الله إمام المتعصّبين، وسلف المتكبّرين، الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التعزّز، وخلع قناع التذلّل.

---

(١) سورة ص ٣٨: ٧١ ـ ٧٤.

ألا ترون كيف صغّره الله بتكبيره، ووضعه بترفّعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدّ له في الآخرة سعيراً، فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس؛ إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد ـ وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة لا يدرىٰ أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة ـ عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم علىٰ الله بمثل معصيته...».

الثاني: «فاحذروا عباد الله! أن يعديكم بدائه، وأن يستفزّكم بندائه... ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الإرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحمية، وفخر الجاهلية... ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم! الّذين تكبّروا عن حسبهم، وترفّعوا فوق نسبهم، وألقَوْا الهجينة علىٰ ربّهم ـ أي قبحوا فعل ربّهم ـ وجاحدوا الله علىٰ ما صنع بهم؛ مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنّهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف عنزاء الجاهلية، فاتقوا الله... ولا تطيعوا الأدعياء الّذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحّتكم مرضهم، وأدخلتم في حقّكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، وأحلاس العقوق، اتّخذهم إبليس مطايا ضلال وجنداً بهم يصول علىٰ الناس، وتراجمة ينطق علىٰ ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمىٰ نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده»..

ثمّ بيّن عليه السلام في آخر الخطبة خصائصه الموجبة لوصايته بعد النبوّة.

فبيّن عليه السلام أنّ الخضوع لآدم وطاعته وولايته بأمر من الله تعالىٰ هي تواضع لله، ونفي للكبر، أي نفي المخلوق استقلاليّته أمام استقلالية الذات الأزلية؛ فولاية خليفة الله توحيد لله تعالىٰ في آخر المعاقل التي يطرد منها

الكفر ويقام فيها التوحيد، وذلك المعقل هو ذات الإنسان نفسه، فهدم كبر الأنانية وإقامة فقر العبد لله بتولّي الإمام المنصوب من قبل الله، إقامة للتوحيد في صقع الذات الإنسانية، وإن إبليس قد فشل في هذا الامتحان للتوحيد، فلم تنفعه دعواه التوحيد في سائر المقامات، هذا في المقطع الأوّل.

وأمّا المقطع الثاني فهو عليه السلام يبيّن فيه أنّ مَن تقحّموا الخلافة من قبله قد ردّوا على الله تعالى أمره، وقبّحوا نصبه تعالى وجعله علياً عليه السلام خليفةً ووصيّاً؛ فنهجوا نهج إبليس في الاستكبار، وأنّهم قواعد أساس العصبية ودعائم أركان الفتنة، وهذا الحكم منه عليه السلام أشدّ ممّا ورد في الخطبة الشقشقية وأصرح في بيان حالهم..

ثمّ إنّه عليه السلام بيّن أنّ الإفساد في الأرض هو لكون الناس أحزاباً متفرّقين غير مجتمعين على وحدة الطاعة والولاية لخليفة الله في الأرض، وهذا التفرّق عن الطاعة والولاية يعني مناصبة العداء لله تعالى، وبالتالي فلا يقبل تعالى على البشر بالبركات والنعم، مضافاً إلى تأدية الخلاف إلى الخراب بدل الإعمار؛ لتخالف الهوى والمصلحة، فتصبح البشرية في حرمان من البركات الإلهية المقدّرة لها.

وتتّضح جليّاً الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: **﴿إنّ هذه أُمّتكم أمّةً واحدةً وأنا ربّكم فاعبدونِ﴾**[1]؛ فلازم كونها أُمّة واحدة توحيدية بتمام التوحيد هو الربوبية لله وحده من دون وجود طاغوت استكباري على أوامره تعالى، وإلّا فالأُمّة الإسلامية ستكون أُمماً كثيرة، كلّ مجموعة تتّبع هوىً ما،

---

(١) سورة الأنبياء ٢١ : ٩٢.

وطاغوتاً ما ؛ إذ الأُمّة في اللغة والاشتقاق من : أمّ يؤمّ ، أي : قصد واتّبع ، فإذا كانت المقاصد والمناهج الأصلية مختلفة فسيكون المجموع أُمماً لا أُمّة واحدة .

والإشارة إلىٰ ذلك أيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ **قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلىٰ كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم ألّا نعبدَ إلّا اللهَ ولا نشركَ بهِ شيئاً ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ فإنْ تولّوا فقولوا آشهدوا بأنّا مسلمون** ﴾[1] . .

فإن توحّد الربوبية لله تعالىٰ يقضي بتوحيد المنهاج والشريعة والطاعة والولاية ، نعم من أبجديات فقه أهل البيت عليهم السلام أنّ أهل الكتاب في ظلّ الحكم الشرعي لهم حقّ التعايش السلمي بضريبة الجزية ، بدلاً عن ضريبة الزكاة والخمس الموضوعة علىٰ المسلمين ، وأنّ من خصوصيات عقيدة الإمامة أنّ الحاكم الأوّل في النظام الاجتماعي السياسي هو الله تعالىٰ ، سواء في السلطة التنفيذية أو القضائية أو التشريعية ، وسواء علىٰ الصعيد السياسي أو العسكري أو المالي أو التقنيني ، وهذه الحقيقة تتحقّق لكون الإمام وعاء مشيئة الله وإرادته ، كما هو الحال في حكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، التي يستعرض سيرتها القرآن الكريم في السور المدنية . .

فإنّ المشاهد في الآيات أنّه عند المنعطفات الحادّة الصعبة سياسياً ، أو عسكرياً من الحرب أو السلم ، أو قضائياً أو مالياً يكون التدبير الجزئي والحكم صادر منه تعالىٰ ، فالحاكم السياسي الأوّل في حكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الله تعالىٰ ، وحاكميّته تعالىٰ لا تقتصر علىٰ التشريعات

(١) سورة آل عمران ٣ : ٦٤ .

الكلية فحسب، كما هو المزعوم في معتقد المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ، وكما هو الحال في الديانة المسيحية واليهودية: ﴿ **وقالت اليـهودُ يـدُ الله مغلولةٌ غُلّتْ أيديهِم ولُعنوا بما قالوا بل يداهُ مبسوطتانِ يُنفقُ كيفَ يشاء** ﴾[1]، بل تشمل جميع نواحي الحياة..

ولن تجد ـ إذا فتّشت ـ عقيدة تتبنّىٰ حاكمية الله تعالىٰ السياسية والعسكرية و... وباقي نواحي الحياة فضلاً عن حاكميّته في مجال التشريع غير عقيدة الإمامة الإلٰهية؛ وهذا معنىٰ أنّ الإمامة والولاية باب من أبواب التوحيد ومن أبواب ربوبية الله تعالىٰ وحده في النظام الاجتماعي السياسي.

النبيّ هارون عليه السلام ونموذج الوحدة:

وقوله تعالىٰ حكاية عن هارون بعد عبادة بني إسرائيل العجل: ﴿ **قال يا بنَ أُمَّ لا تأخذْ بلحيتي ولا برأسي إنّي خشِيتُ أن تقولَ فرّقْتَ بين بني إسرائيلَ ولم ترقُبْ قَوْلي** ﴾[2]..

ملحمة قرآنية يسطرها لنا القرآن الكريم تبياناً لموقف هارون وصيّ موسىٰ عليه السلام بعدما ضلّ كثير من بني إسرائيل عن الهدىٰ إلىٰ عبادة العجل واتّباع السامري..

ففي الوقت الذي راعىٰ فيه هارون وحدة بني إسرائيل وحافظ عليها، إلّا أنّه لم يتّبع ضلال أكثرية بني إسرائيل والسامري في عبادة العجل لتحقيق الوحدة، بل قال لهم: ﴿ **يا قومِ إنّما فُتِنتُم به وإنّ ربَّكُمُ الرحمٰنُ فاتّبِعوني**

---

(١) سورة المائدة ٥ : ٦٤.

(٢) سورة طه ٢٠ : ٩٤.

وأطيعوا أمْري ﴾[(١)] ؛ فقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

وكان الأُسلوب الذي اتّخذه لا بنحو يؤدّي إلىٰ فُرقة بني إسرائيل ولا بنحو ذوبانه هو في الانحراف وترك طريق الإصلاح، لا سيّما وأنّه لم تكن لديه القدرة علىٰ الالتجاء إلىٰ القوّة في الإصلاح، كما قال: ﴿ **ابنَ أُمَّ إنّ القومَ آسْتضْعَفوني وكادوا يقْتُلونَني ﴾**[(٢)] وهو يدلّ علىٰ مدىٰ رفض هارون عليه السلام للانحراف الحاصل لدىٰ بني إسرائيل ومقاومته السلمية الثابتة لهم بلا مهادنة حتّىٰ كادوا أن يقتلوه.

والذي قام به هارون عليه السلام هو الذي أوصاه به موسىٰ عليه السلام: ﴿ **وقال موسىٰ لأخيه هارونَ آخْلُفْني في قَوْمي وأصْلِحْ ولا تتّبعْ سبيلَ المفسدين ﴾**[(٣)]، فأمره بالإصلاح ونهاه عن اتّباع سبيل المفسدين، ومن ثمّ لمّا رجع موسىٰ إلىٰ قومه وقال: ﴿ **يا هارونُ ما مَنعكَ إذ رأيْتَهم ضلّوا * ألّا تتّبِعنِ أفَعَصَيْتَ أمْري * قال يَبْنَؤُمَّ... ﴾**[(٤)].

وكانت مساءلة موسىٰ عليه السلام عن عدم اتّباع هارون عليه السلام له، أي عن عدم مفارقة هارون لبني إسرائيل ولحوقه بموسىٰ كي يحلّ عليهم العذاب، أو عن عدم مقاتلته لتيّار الانحراف والضلال في بني إسرائيل، فأجابه بتحرّيه طريق الإصلاح من الاهتمام بمصير بني إسرائيل، وإرشادهم إلىٰ الصواب، ونهيهم عن الضلال، ومقاطعته وتبرّيه عن سبيل المفسدين، ورضىٰ موسىٰ عليه السلام بفعله.

---

(١) سورة طه ٢٠ : ٩٠.

(٢) سورة الأعراف ٧ : ١٥٠.

(٣) سورة الأعراف ٧ : ١٤٢.

(٤) سورة طه ٢٠ : ٩٢ ـ ٩٤.

وفي الحقيقة إنّ مساءلة النبيّ موسىٰ عليه السلام لوصيّه النبيّ هارون عليه السلام عن دوره في هذا الحدث الداهية الفظيع ، وكذلك أخذه برأسه ولحيته ، ليس لإدانة أخيه ووصيّه ، أو شكّه في استقامته ، بل هي لإجل بيان مدىٰ فظاعة الانحراف والضلال الذي ارتكب ، كما قال موسىٰ : ﴿ **بئسما خَلَفْتُموني من بعدي** ﴾[1] ، ﴿ **قال فإنّا قد فتنّا قوْمكَ من بعدِكَ وأضَلّهُمُ السامِريُّ** ﴾[2] ، وكذلك لدفع تهمة تخاذل هارون عن الحقّ . .

وهي أيضاً نظير مساءلة الله تعالىٰ للنبيّ عيسىٰ يوم المعاد : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسىٰ آبنَ مريمَ أأنت قلت للناس اتّخذوني وأُمّيَ إلٰهينِ من دون الله قال سبحانك ما يكونُ لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحقٍّ إن كنتُ قلْتُهُ فقد علِمْتَهُ تعلمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسك إنّك أنت علّامُ الغُيوب * ما قلتُ لهم إلّا ما أمَرْتَني به أن آعْبُدوا اللهَ ربّي وربَّكم** ﴾[3] ؛ إذ هي لبيان العظيمة التي ارتكبها النصارىٰ من الشرك ، لا لإجل عتاب النبيّ عيسىٰ عليه السلام ؛ كيف وهو تعالىٰ عالم ببراءة ساحته عن انحراف النصارىٰ ؟ !

وكذلك لكون مساءلة ومحاسبة النبيّ عيسىٰ عليه السلام تدلّ علىٰ عظم الخطب في الحدث ، الذي يستدعي مساءلة كلّ أطراف الحدث عنه ، حتّىٰ مثل النبيّ ؛ ولتبرئة عيسىٰ عليه السلام عن ضلال النصارىٰ ، وهذا الأُسلوب من فنون الكلام والبيان ، فكذلك الحال في مساءلة النبيّ موسىٰ عليه السلام لوصيّه هارون عليه السلام . .

---

(١) سورة الأعراف ٧ : ١٥٠ .

(٢) سورة طٰه ٢٠ : ٨٥ .

(٣) سورة المائدة ٥ : ١١٦ ـ ١١٧ .

وكذلك في مساءلة الصدّيقة الزهراء لوصيّ المصطفىٰ ﷺ : «اشتملت مشيمة الجنين ، وقعدت حجرة الظنين ، نقضت قادمة الأجدل ، فخانك ريش الأعزل ؟ !»[1] ؛ فهي لم تكن ـ كما يوهمه عمىٰ البصيرة ـ جزعاً منها عليها السلام أو عتاباً لأمير المؤمنين ، وإنّما هي عليها السلام في صدد بيان انحراف القوم وشدّة ضلال ما ارتكبوه ، ولكي يتبيّن أنّ عليّاً عليه السلام لم يكن سكوته عن مقاتلتهم تخاذلاً منه أو جبناً أو نكصاً عن الحقّ ، بل لأنّ صدامه المسلّح معهم يوجب تزلزل عقيدة الناس بالدين ، والنزاع علىٰ السلطة في نظر وذهنية عامّة الناس من أكبر أمثلة التنازع علىٰ الدنيا وأعظمها ، وبالتالي سيسري شكّهم في دواعي الوصيّ عليه السلام إلىٰ دواعي ابن عمّه النبيّ ﷺ بأنّ كلّ ما جرىٰ هو تغالب علىٰ الملك ، كما قال ذلك يزيد بن معاوية :

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل[2]

وقول أبي سفيان عند فتح مكّة للعبّاس : «إنّ مُلْك ابن اخيك لعظيم» فأجابه العبّاس : «إنّها النبوّة»[3] .

فالناس ليس لديهم الوعي والبصيرة الكافية في كون خطورة هذا الانحراف هو شبيه الانحراف الذي حصل في الديانة اليهودية والمسيحية ، وليس هو محض مسند القدرة في النظام الاجتماعي السياسي .

ثمّ إنّ من سيرة هارون عليه السلام تستخلص العبر ؛ إذ المحافظة علىٰ وحدة بني إسرائيل أوجبت عدم المصادمة المسلّحة بين فريقي الحقّ والباطل ، لكن الوحدة لم توجب ذوبان فريق الحقّ في فريق الباطل ، ولا تركهم

---

(١) الأمالي ـ للشيخ الطوسي ـ : ٦٨٣ ح ١٤٥٥ ، المناقب ـ لابن شهرآشوب ـ ٢ / ٥٠ .
(٢) تذكرة الخواصّ : ٢٣٥ ، البداية والنهاية ٨ / ١٥٤ ، الإتحاف بحبّ الأشراف : ٥٧ .
(٣) الطبقات الكبرىٰ ـ لابن سعد ـ ٢ / ١٣٥ ، المعجم الكبير ـ للطبراني ـ ٧ / ٧٦ .

للنصيحة والوعظ بأُسلوب المداراة، والوحدة التكتيكية لم توجب إيقاف الإصلاح والأمر بالحقّ والنهي عن الباطل بأُسلوب الحكمة وطريق الموعظة الحسنة، فضلا عن التنكر والريب في ثوابت الحقّ، ولا استحسان الباطل وموادّته، ولا كراهة الحقّ والازدراء به.

الوحدة وعناوين مختلطة:

ثمّ إنّه في بحث الوحدة هناك محور آخر يثار دائماً ويحصل الخلط المتعمّد فيه..

عناوين: السبّ، اللعن، التولّي، التبرّي، المداراة، الموادّة، الاحترام، التعظيم، الخلق الحسن، المحبّة، الأدب، تحرّي وكشف الحقيقة في الأحداث التاريخية للمسلمين، الطعن علىٰ الآخرين، وغيرها من العناوين التي تتداول، هي موضوعات وأفعال مختلفة، لكن يتوسّل بمفردات ألفاظ بعضها لإرادة بعضها الآخر تمويهاً، ولكلّ منها حكم شرعي وعقلي وأخلاقي يختلف عن الآخر، فترىٰ بعضهم يدافع ـ بذريعة قبح السبّ ـ حتّىٰ عمّن انحرف عن منهاج النبيّ ﷺ، ويتولّاه، ويعظّمه، ويتواده عند ذكره، ويجعل منه قدوة تحتذىٰ.

فاللازم تحرير معاني هذه العناوين، ثمّ بيان أحكامها:

أمّا السبّ فهو ـ لغة ـ: الشتم وذكر الشخص بعار ونقيصة، وهو ـ عرفاً ـ: ذكر الشخص بالألفاظ المستقبحة والشنيعة والمستهجنة والقذرة.

وأمّا اللعن فهو: الطرد عن الرحمة؛ وقد سمّىٰ الله تعالىٰ ابليس بذلك لأنّه أبلس من رحمة الله، أي يئس وطرد من رحمته.

وأمّا التبرّي فهو: النفرة، والقطيعة، والتباعد، والتجافي.

وأمّا المداراة فهي: المجاملة، وإظهار حسن العشرة واللين، ونحو ذلك علىٰ صعيد التعامل. ونحوه الخلق الحسن في العريكة والمعشر. وكذلك الأدب في المعاملة والمخالطة.

وأمّا المحبّة فهي: ميل قلبي وانعطاف نفساني تجاه المحبوب، والموادّة: بروز المحبّة أو اشتدادها.

والاحترام والتعظيم: إبداء حرمة وعظمة الشيء ـ أو الشخص ـ ووضعه في مكانة ومنزلة مرموقة.

أمّا كشف الحقائق فإنّه ضروري لتكوين رؤية واقعية صادقة، ولاستخلاص العبر والمنهاج وإلّا كانت البصيرة زائفة، وفي هذا المجال لا معنىٰ لطمس ورقة من الحقيقة بذريعة تحاشي الطعن علىٰ الآخرين.

أمّا الطعن علىٰ الآخرين: فهو إمّا أن يكون كاذباً غير مطابق للواقع، أو مطابقاً إلّا أنّه غير هادف وناشئ عن دواعي متدنّية.

إذا اتّضحت مفاهيم جملة من العناوين المتداولة في البحث فاللازم بيان حكم كلّ منها..

الوحدة والتولّي والتبرّي:

أمّا فريضة التبرّي من أهل الباطل والضلال من ذوي العناد فيدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّونَ من حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أُولئك كتب في قلوبِهِمُ الإيمانَ وأيّدهم بروح منه﴾**[1]..

وقوله تعالىٰ: **﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم**

---

(١) سورة المجادلة ٥٨: ٢٢.

أولياءَ تُلْقونَ إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءَكم من الحقّ يُخرِجون الرسولَ وإيّاكم أن تؤمنوا بالله ربِّكم إن كنتم خرجْتم جهاداً في سبيلي وآبتغاءَ مرضاتي تُسِرّونَ إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخْفَيْتم وما أعْلَنْتم ومن يفعلْهُ منكم فقد ضلّ سواءَ السبيل ﴾[١]..

وقوله تعالىٰ: **﴿ قد كانت لكم أُسْوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآءُ منكم وممّا تعبُدونَ من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينَكُمُ العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتّىٰ تؤمنوا بالله وحْدَهُ... لقد كان لكم فيهم أُسْوةٌ حسنةٌ لمَن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ ومَن يتولَّ فإنّ اللهَ هوَ الغنيُّ الحميد ﴾**[٢]..

وفي هذه الآيات يلاحظ الحثّ علىٰ إبراز وإظهار البراءة القلبية والنفسية علىٰ مستوىٰ العلاقة الخارجية، نعم في الآية اللاحقة: **﴿ لا ينهاكم اللهُ عن الّذين لم يقاتِلوكم في الدين ولم يُخرِجوكم من ديارهم أن تبرّوهم وتُقْسِطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾**[٣]، وهذا ليس تفصيل في المودّة بل في تجويز البرّ والمعاملة الحسنة مع غير المعادين منهم، وإلّا فالموادّة لا استثناء فيها، بخلاف المعادين منهم فاللازم إظهار الشدّة معهم: **﴿ أشدّاءُ علىٰ الكفّار ﴾**[٤].

وقال تعالىٰ: **﴿ ما كان للنبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولي قربىٰ من بعد ما تبيّن لهم أنّهم أصحابُ الجحيم ﴿**

---

(١) سورة الممتحنة ٦٠: ١.

(٢) سورة الممتحنه ٦٠: ٤ ـ ٦.

(٣) سورة الممتحنة ٦٠: ٨.

(٤) سورة الفتح ٤٨: ٢٩.

وما كان استغفارُ ابراهيمَ لأبيه إلّا عن موعِدَةٍ وعدَها أيّاهُ فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه إنّ إبراهيمَ لأوّاهٌ حليمٌ ﴾[١]..

وقال تعالىٰ: **﴿ أمْ حسِبْتُم أن تُترَكوا ولمّا يعلمِ اللهُ الّذين جاهدوا منكم ولم يتّخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبيرٌ بما تعملون ﴾**[٢]، والولجة ـ بالتحريك ـ هي المكان الذي يستتر فيه المار عن المطر وغيره، والولوج هو دخول شيء في شيء باستتار الأوّل في الثاني، فالوليجة هي: الجماعة التي يحتمي بها الشخص وينضمّ إليها ويتحالف معها.

ولا يخفىٰ تعدّد ألسن البراءة والتبرّي: الأوّل: تحريم الموادّة، والثاني: تحريم وليجة غير المؤمنين مطلقاً، والثالث: وجوب التبرّي من الأعداء في الدين، والرابع: حرمة الاستغفار لهم وهو نحو من طلب الرحمة الإلٰهية لهم.

وقال تعالىٰ: **﴿ ومن الناس مَن يتّخذُ من دون الله أنداداً يحبّونَهم كحبّ الله والّذين آمنوا أشدُّ حبّاً لله ولو يرىٰ الّذين ظلموا إذ يرَوْنَ العذابَ أنّ القوّةَ لله جميعاً وأنّ اللهَ شديدُ العذابِ * إذ تبرّأ الّذين اتُّبِعوا من الّذين اتّبَعوا ورأوُا العذابَ وتقطّعتْ بهمُ الأسبابُ * وقال الّذين اتّبَعوا لو أنّ لنا كرّةً فنتبرّأ منهم كما تبرّؤوا منّا كذلك يُريهمُ اللهُ أعمالَهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾**[٣]..

ويلاحظ في هذه الآيات تقنين المحبّة ـ التولّي والبراءة ـ بتحريم

---

(١) سورة التوبة (البراءة) ٩: ١١٤.
(٢) سورة التوبة (البراءة) ٩: ١٦.
(٣) سورة البقرة ٢: ١٦٥ ـ ١٦٧.

محبّة الأنداد، والندّ: كلّ من يدعىٰ لغير طاعة الله تعالىٰ، كما جاء في الروايات، ويطابق المعنىٰ اللغوي بقرينة السياق، وأنّ التبرّي من أهل العصيان والطغيان فريضة، وأنّ هذا العصيان في التولّي والتبرّي يوجب الخلود في النار؛ وفي ذلك تعظيم لفريضة التولّي والتبرّي، وأنّها بمثابة الأُصول الاعتقادية الموجبة للنجاة مع الطاعة، وللخلود في النار مع المعصية.

وهذا لسان خامس في هذه الفريضة؛ قال تعالىٰ: ﴿ **فلمّا فصل طالوتُ بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنَهَرٍ فمَن شرِبَ منه فليس منّي ومَن لم يطْعَمْهُ فإنّه منّي إلّا مَن آغترفَ غُرْفَةً بيده فشرِبوا منه إلّا قليلاً منهم** ﴾[1]، وكان طالوت إماماً لبني إسرائيل وجعل متابعته وعدمها مرتبطة بالتولّي والتبرّي..

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ** ﴾[2]؛ إذ جعلت المودّة التي هي عماد التولّي لأهل البيت في مصاف أُصول الدين بمقتضىٰ تعادل الأجر مع العمل في ماهية المؤاجرة والمعاوضة، والعمل هو تبليغ الدين، وهذه الآية جعلت مدار التولّي في الدين والإسلام والإيمان هو موالاة أهل النبيّ ﷺ؛ وهو ممّا يقتضي عصمتهم.

وقال تعالىٰ: ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهودَ والنصارىٰ أولياءَ بعضهم أولياءُ بعضٍ ومَن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القومَ الظالمين * فترىٰ الّذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم يقولون**

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٢٤٩.

(٢) سورة الشورىٰ ٤٢ : ٢٣.

نخشىٰ أن تصيبنا دائرةٌ فعسىٰ اللهُ أن يأتـيَ بـالفتح أو أمـرٍ مـن عـنده فيُصْبِحوا علىٰ ما أسرّوا في أنـفسهم نـادمين * ويـقولُ الّـذين آمـنوا أهؤلاء الّذين أقسموا بالله جَهْدَ أيْمانِهم إنّهم لمعكم حبِطَتْ أعـمالُهم فأصْبحوا خاسرين * يا أيُّها الّذين آمنوا مـن يـرتدّ مـنكم عـن ديـنه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويُحبّونَهُ أذلّةٍ علىٰ المؤمنين أعـزّةٍ عـلىٰ الكافرين... إنّما وليُّكُـمُ اللهُ ورسـولُهُ والّـذين آمـنوا الّـذين يـقيمون الصلوةَ ويؤْتون الزكاةَ وهم راكعون * ومَن يتولّ اللهَ ورسولَهُ والّـذين آمنوا فإنّ حزبَ الله هُمُ الغالبون * يا أيُّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الّذين آتّخذوا دينَكم هُزُواً ولَعِباً من الّذين أُوتوا الكتاب من قبلكم والكـفّارَ أولياءَ وآتّقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين ﴾[1]..

وهذه الآيات كآية مودّة القربىٰ حاصرة للتولّي في الدين بالله والرسول والأئمّة أوصياء النبيّ ﷺ، وقد اتّفق الفريقان علىٰ نزولها في عليّ عليه السلام وتصدّقه وهو راكع في الصلاة، كما تدلّ هذه الآيات علىٰ كون التولّي لأئمّة الهدىٰ من أهل البيت والتبرّيّ من الأعداء هو من أُصول الإيمان..

وتدلّ علىٰ أنّ فئة **﴿ الّذين في قلوبهم مرض ﴾** ـ وهي الفئة التـي نشأت في صفوف المسلمين في أوائل البعثة النبوية في مكّة، كما تشير إلىٰ ذلك سورة المدّثر، رابع سورة نزلت علىٰ النبيّ ﷺ ـ تتولّىٰ أهل الكتاب والكفّار لخوفهم من انقلاب الكفّة لصالحهم علىٰ المسلمين..

كما أنّ الآية تدلّ علىٰ أنّ النصرة لهذا الدين ووليّه منحصرة بعليّ عليه السلام وولده عليهم السلام بتولّيهم، وأنّهم حزب الله الغالبون، وأنّ من يرتدّ عن الديـن بترك فريضة التولّي لهم عليهم السلام والتبرّي من الكفّار وبقية أعدائهم فسوف يأتي

---

(١) سورة المائدة ٥: ٥١ ـ ٥٧.

الله بقوم يقومون بفريضة التولّي والتبرّي .

وقـد روىٰ العامّة بطرق مستفيضة حديثاً بمضمون الآيـة نـفسه عـن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ الإسلام لا يزال عزيزاً ما مضىٰ فيهم اثنا عشـر خليفة ، كلّهم من قريش»[١] .

وفي روايـة مسلم: «لا يزال أمـر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشـر رجـلاً... كلّهم من قريش»[٢] ، وفي لفظ آخر في صحيح مسلم: «لا يزال هذا الدين عزيزاً متبعاً إلىٰ اثني عشر خليفة ، كلّهم من قريش»[٣] .

وفي رواية أبي داود السجستاني: «لا يزال هذا الديـن قـائماً حتّىٰ يكون عليكم اثنا عشر خليفة... كلّهم من قريش»[٤] ..

وفي أُخرىٰ: «لا يزال هذا الدين عزيزاً إلىٰ اثني عشر خليفة ، قال: فكبّر الناس وضجّوا... كلّهم من قريش»[٥] .

وفي بعضها: «لا يزال أمـر أُمّـتي صـالحاً حتّىٰ يـمضي اثـنا عشـر خليفة... كـلّهم مـن قـريش» ؛ رواه الطـبراني فـي **الأوسـط**[٦] و**الكـبير** ، والبزّار[٧] ، ورجال الطبراني رجال الصحيح ..

---

(١) جامع الأُصول ٤ / ٤٤٠ .

(٢) صحيح مسلم ٣ / ١٤٥٢ ح ٦ .

(٣) صحيح مسلم ٣ / ١٤٥٣ ، ح ٩ .

(٤) سُنن أبي داود ٤ / ١٠٦ ح ٤٢٧٩ .

(٥) سُنن أبي داود ٤ / ١٠٦ ح ٤٢٨٠ ، مفتاح المسند عن المسند ٥ / ٨٦، ٨٧، ١٠٧، و ٧ / ٣٩٩ ، و ٥ / ٣٣ ـ طبعة مصر القديمة ، وقد ذكر لها اثنا عشر سنداً ؛ نقلاً عن شرح إحقاق الحقّ ـ للسيّد المرعشي ـ ٢ / ٣٥٤ ، ولاحظ : ١٣ / ٤٦ فإنّه نقل مصادر أُخرىٰ عن **فتح الباري** و **إرشاد الساري** .

(٦) المعجم الأوسـط ٦ / ٢٨٤ ح ٦٢١١ .

(٧) المعجم الكبير ٢٢ / ١٢٠ ح ٣٠٨ ؛ ومسند البزّار ج ٥ ح ١٥٨٤ نقلاً عنه .

وفي الكبير: «لا يزال الإسلام ظاهراً حتّىٰ يكون اثنا عشر أميراً أو خليفة، كلّهم من قريش»[١].

وفي لفظ آخر: «لا يزال أمر هذه الأُمّة هادياً علىٰ من ناواها حتّىٰ يكون عليكم اثني عشر أميراً... كلّهم من قريش»[٢].

وفي رواية أُخرىٰ: «لا يزال أمر هذه الأُمّة ظاهراً...»[٣].

وفي لفظ آخر: «لا يضرّ هذا الدين من ناواه حتّىٰ يقوم اثني عشر خليفة، كلّهم من قريش»[٤].

وفي لفظ: «لا تزال أُمّتي علىٰ الحقّ ظاهرين حتّىٰ يكون عليهم اثني عشر أميراً، كلّهم من قريش»[٥].

وفي لفظ: «لا تبرحون بخير ما قام عليكم اثني عشر أميراً... كلّهم من قريش»[٦].

وفي لفظ: «لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيعاً، ينصرون علىٰ من ناواهم عليه إلىٰ اثني عشر...».. وفي لفظ: «لن يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً علىٰ من ناوأه، لا يضرّه من فارقه أو خالفه حتّىٰ يملك اثنا عشر، كلّهم من قريش»[٧].

وفي بعضها: «كلّهم من بني هاشم»[٨].

---

(١) المعجم الكبير ٢/٢٠٦ ح ١٨٤١.
(٢) المعجم الكبير ٢/١٩٧ ح ١٨٠٠.
(٣) المعجم الكبير ٢/١٩٦ ح ١٧٩٧.
(٤) المعجم الكبير ٢/٢٠٨ ح ١٨٥٢.
(٥) المعجم الكبير ٢/٢٥٣ ح ٢٠٦١.
(٦) المعجم الكبير ٢/٢٥٣ ح ٢٠٦٠.
(٧) المعجم الكبير ٢/١٩٦ ح ١٧٩٥ وح ١٧٩٦.
(٨) ينابيع المودّة ـ للقندوزي ـ ٢/٣١٥ ح ٩٠٨ و٣/٢٩٠ ح ٤.

وفي لفظ: «لا يزال الدين قائماً حتّىٰ تقوم الساعة أو يكون عليكم اثني عشر خليفة، كلّهم من قريش»(١).

وفي لفظ: «لا يزال هذا الأمر صالحاً...»(٢).

و: «لا يزال هذه الأُمّة مستقيماً أمرها، ظاهرة علىٰ عدوّها، حتّىٰ يمضي منهم اثني عشر خليفة، كلّهم من قريش»(٣).

و: «لا يزال هذا الدين قائماً...»(٤)..

ولاحظ بقية الألفاظ في إحقاق الحقّ(٥).

فتبيّن من آيات سورة المائدة والأحاديث النبوية أنّ عزّة الدين والإسلام وقوامه بالأئمّة من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما أنّ صلاح أمر الأُمّة الإسلامية ومضيّه وآستقامته هو بالاثني عشر عليهم السلام، وأنّ هدي أمر الأُمّة بيدهم عليهم السلام..

كما أن غلبة الأُمّة علىٰ أعدائها وعزّها وبقاءها علىٰ الحقّ هو ببركة الذي يقوم به أئمّة أهل البيت عليهم السلام، سواء الدور البارز علىٰ السطح أو الدور الخفي الذي يتّخذ أشكالاً وصوراً مختلفة، وسواء العلمي أو الاجتماعي أو السياسي أو الأمني أو العسكري أو الاقتصادي أو الأخلاقي المعنوي أو باقي المجالات الأُخرىٰ..

وسيأتي أنّ بهم عليهم السلام حصل انتشار الإسلام وبأعدائهم حصل توقّف انتشاره، وبهم عليهم السلام تفتّقت بنية الاعتقادات والمعارف الحقّة وبأعدائهم

(١) المعجم الكبير ٢/١٩٩ ح ١٨٠٩.
(٢) المعجم الأوسط ٤/٣٦٦ ح ٣٩٣٨.
(٣) المعجم الكبير ٢/٢٥٣ ح ٢٠٥٩، المعجم الأوسط ٦/٣٤٥ ح ٦٣٨٢.
(٤) المعجم الكبير ٢/١٩٩ ح ١٨٠٨، و٢٠٧ ح ١٨٤٩.
(٥) إحقاق الحقّ ١٣/١١ ـ ٤٩.

تولّد الزيغ والضلال، وبهم عليهم السلام شيّد للدين منهاجه الأخلاقي والقانوني وبأعدائهم دبّت الأهواء والميول وحصلت الفوضىٰ، وذلك بيّن واضح لمَن أمعن قراءة التاريخ الاجتماعي طوال الأربعة عشر قرناً.

ومن الآيات الدالّة علىٰ التولّي والتبرّي قوله تعالىٰ: ﴿ **ترىٰ كثيراً منهم يتولّون الّذين كفروا لبئسَ ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخِطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيِّ وما أُنزِلَ إليه ما اتّخذوهم أولياءَ ولكنّ كثيراً منهم فاسقون * لتجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للّذين آمنوا اليهودَ والّذين أشركوا ولتجِدنّ أقْرَبَهم مودّةً للّذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارىٰ ذلك بأنّ منهم قسّيسينَ ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون** ﴾[1]..

وهذه الآيات تقابل بين المودّة والعداوة، والمودّة مقرّرة بين المؤمنين والعداوة مع الأعداء، والولاء مع أهل الحقّ والقطيعة مع أهل الباطل، وقد تكون الوظيفة حيثية أو نسبية بقدر ما عند الطرف الآخر من اتّباع للحقّ أو اتّباع للباطل.

ومثل هذه الآيات طائفة أُخرىٰ دالّة علىٰ اتّخاذ العداوة مع الأعداء:

قوله تعالىٰ: ﴿ **مَن كان عدوّاً لله وملائكته ورسلِهِ وجبريلَ وميكالَ فإنّ اللهَ عدوٌّ للكافرين** ﴾[2].

وقال تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم: ﴿ **قال أفراءيْتُم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنّهم عدوٌّ لي إلّا ربَّ العالمين** ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة ٥ : ٨٠ ـ ٨٢.

(٢) سورة البقرة ٢ : ٩٨.

(٣) سورة الشعراء ٢٦ : ٧٥ ـ ٧٧.

وقال تعالىٰ: ﴿ **وإذا رأيْتَهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبون كلّ صيحةٍ عليْهِم همُ العدوُّ فاحْذَرْهُم قاتَلَهم اللهُ أنّىٰ يُؤْفَكون** ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ **إنّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتّخِذوهُ عدوّاً إنّما يدعو حزبَهُ ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾[2].

وقد مرّ قوله تعالىٰ: ﴿ **قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّىٰ تؤمنوا بالله وحدَه** ﴾..

هذا مضاف إلىٰ آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قوله تعالىٰ: ﴿ **ولتكن منكم أُمّةٌ يدعون إلىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر** ﴾[3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ **المؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر** ﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿ **لُعِنَ الّذين كفروا من بني إسرائيلَ علىٰ لسان داودَ وعيسىٰ آبنِ مريمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه** ﴾[5]..

ولا ريب في أنّ النهي عن منكر تبرّي منه، والواجب في النهي عن

---

(١) سورة المنافقون ٦٣ : ٤ .

(٢) سورة فاطر ٣٥ : ٦ .

(٣) سورة آل عمران ٣ : ١٠٤ .

(٤) سورة التوبة (براءة) ٩ : ٧١ .

(٥) سورة المائدة ٥ : ٧٨ ـ ٧٩ .

المنكر أن يكون بنكرانه في القلب أوّلاً وبالسعي في إزالته ثانياً، كما أنّ الواجب في الأمر بالمعروف برضاه وحبّه في القلب أوّلاً وبالسعي لإقامته ثانياً، ومن أحبّ عمل قوم أُشرك معهم؛ قال ﷺ: «مَن شهد أمراً فكرهه كان كمَن غاب عنه، ومَن غاب عن أمر فرضيه كان كمَن شهده»[1].

فالتولّي للمعروف بالقلب والعمل فريضة ركنية، والتبرّي من المنكر بالقلب والعمل فريضة ركنية، ومن أعظم المعروف معرفة الحقّ، ومن أعظم المنكر جحود الحقّ والإقرار بالباطل؛ فظهر أنّ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائم على التولّي والتبرّي..

ولا يخفى أنّ لتولّي المعروف والحقّ والأمر به، وللتبرّي من الباطل والمنكر والنهي عنه، درجات وأساليب ومقامات مشروحة في محالّها، فليس النهي عن المنكر والتبرّي من الباطل يعني أُسلوب الحدّة والشدّة بل قد يكون اللين والموعظة الحسنة أنفع وأنجع في إزالة الباطل والمنكر، إلّا أنّ الخلط والتشويش يقع بين كيفية أُسلوب اللين وبين استحسان المنكر واستنكار المعروف، أو بين المداراة وبين الرضا بالباطل، وكذلك بين مقام التعامل مع الطوائف الأُخرى وبين مقام الحقيقة الدينية الواقعية وفي ما هو داخل الطائفة.

وبعبارة أدقّ: الخلط في الموازنة بين المحافظة على حقائق الدين وبين تجنّب الفرقة في زمن الهدنة.

وقد مرّ موقف هارون عليه السلام من ضلال بني إسرائيل وتبرّيه من زيغهم في حين عدم تفريطه بوحدتهم وأنّ ردعه عن منكرهم اقتصر فيه على ذلك لعدم قدرته على ما هو أشدّ درجة..

---

(١) وسائل الشيعة: أبواب الأمر والنهي ب ٢ ح ٥.

كذلك مرّ موقف سيّد الشهداء عليه‌السلام من الانحراف في حين كان عليه‌السلام يجعل مصير الأمّة والمسلمين من مسؤوليّته..

وكذلك موقف سيّد الوصيّين في حروب الجمل وصفّين والنهروان؛ فهو لم يعر أهمّية لما اقترح عليه جملة ممّن زعم الحرص على وحدة المسلمين من عدم قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، إذ أنّه عليه‌السلام - برواية الفريقين - مأمور من النبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يقاتل الفئات الثلاث، وأنّه يقاتل على التأويل في الشريعة والقرآن كما قاتل صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم على تنزيله، وأنّ القتال الثاني عين القتال الأوّل في الأهمّية والضرورة لبناء صرح الدين..

بل نشاهد عليّاً عليه‌السلام لم يقبل البيعة لنفسه - بعد قتل عمر - عندما اشتُرط فيها الأخذ بسُنّة الشيخين، كما أنّه لم يشارك في حروبهم رغم أنّ بسيفه فتح الله على نبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وبه قام الإسلام في ربوعه أُمّة وملّة ودولة.

كذلك موقف الصدّيقة البتول التي شهد القرآن بطهارتها وعصمتها، ثالثة أصحاب الكساء، التي احتجّ الله تعالى بشهادتها لصدق النبوّة على أهل الكتاب في واقعة المباهلة، وروى الفريقان أنّها سيّدة نساء أهل الجنّة؛ إذ قامت بالمعارضة الشديدة حتّى استنهضت الأنصار للانقلاب على حكم السقيفة، مع أنّ الأوضاع بعد وفاة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كانت مضطربة حسب زعم أهل السقيفة، وقد أعلن عليّ عليه‌السلام بطلان مشروعية الحكم بامتناعه عن بيعتهم، كما روى ذلك البخاري.

وفي قتل عثمان لم يمانع عليه‌السلام وقوعه، وإنّما كان ينكر على الثوّار هذا الأُسلوب من جهة أنّه يعطي الذريعة لمعاوية وبني أُمية وغيرهم لزعم مظلومية عثمان، بخلاف حصره ومطالبته بخلع نفسه وتسليم مَن سبّب

الفتنة ممّن كان في جهته، فإنّ ذلك كان قد ارتضاه عليه السلام، وهو مفاد الوساطة التي قام عليه السلام بها في المرّة الأُولىٰ، إلّا أنّ عثمان اتّهمه بأنّه السبب في كلّ ذلك فاعتزل عليه السلام.

وقد منع السيّد المرتضىٰ في **الشافي**[١] والشيخ في **تلخيصه**[٢] ثبوت إرسال أمير المؤمنين الحسن عليه السلام للذبّ عن عثمان من طرقنا؛ ولو سلّم فليس للذبّ عنه بل للوساطة درءاً عن تشعّب الفوضىٰ..

وإلىٰ ذلك يشير ما رواه الشريف المرتضىٰ[٣] عن الواقدي، عن الحكم بن الصلت، عن محمّد بن عمّار بن ياسر، عن أبيه، قال: «رأيت عليّاً علىٰ منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قتل عثمان وهو يقول: ما أحببت قتله ولا كرهته، ولا أمرت به ولا نهيت عنه».

وروىٰ البلاذري عنه عليه السلام أنّه قال: «والله الذي لا إلٰه إلّا هو ما قتلته ولا مالأت علىٰ قتله ولا سائني»[٤].

وروي بطرق كثيرة عنه عليه السلام أنّه قال: «من يسائلي عن دم عثمان فإنّ الله قتله وأنا معه»[٥]، وفُسّر بأنّ حكم الله هو قتله وأنّه عليه السلام راض بحكم الله تعالىٰ.

وفي خطبه له جواباً لاعتراض الأشعث بن قيس قال عليه السلام: «ولو أنّ عثمان لمّا قال له الناس: اخلعها ونكفّ عنك، خلعها، لم يقتلوه، ولكنّه

---

(١) الشافي ٤/ ٢٤٢.
(٢) تلخيص الشافي ٣/ ١٠٠.
(٣) الشافي ٤/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨؛ ورواه البلاذري في الأنساب ٥/ ١٠١.
(٤) الأنساب ٥/ ٩٨.
(٥) الغدير ـ للأميني ـ: / ٦٩ ـ ٧٧ ـ ٣١٥ ـ ٣٧٥، والشافي ٤/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

قال: لا أخلعها، فقالوا: فإنّا قاتلوك، فكفّ يده عنهم حتّىٰ قتلوه، ولعمري لخلعه إيّاها كان خيراً له؛ لأنّه أخذها بغير حقّ، ولم يكن له فيها نصيب، وآدّعىٰ ما ليس له، وتناول حقّ غيره..

ويلك يا ابن قيس! إنّ عثمان لا يعدوا أن يكون أحد رجلين: إمّا أن دعا الناس إلىٰ نصرته فلم ينصرونه، وإمّا أن يكون القوم دعوه إلىٰ أن ينصروه فنهاهم عن نصرته؛ فلم يكن يحلّ له أن ينهىٰ المسلمين عن أن ينصروا إماماً هادياً مهتدياً، لم يحدث حدثاً ولم يؤوِ محدثاً، وبئس ما صنع حين نهاهم، وبئس ما صنعوا حين أطاعوه، فإمّا أن يكونوا لم يروه أهلاً لنصرته؛ لجَوْره وحكمه بخلاف الكتاب والسُنّة...»[1].

وهكذا مواقف حواريّيه عليه السلام تجاه عثمان، مثل أبي ذرّ وما جرىٰ بينهما، وموقف عمّار مع عثمان، بل إنّ مصادر القوم تنسب تدبير خلع عثمان في الدرجة الأُولىٰ إلىٰ عمّار ومحمّد بن أبي بكر.

وغير ذلك من مواقفهم عليهم السلام ومواقف أصحابهم ـ رضي الله عنهم ـ التي قد يُتخيّل أنّ فيها مصادمة مع الوحدة، ولم يجدوا في الوحدة معنىً يطغىٰ علىٰ الأمر بالحقّ والمعروف والنهي عن الباطل والمنكر، أي علىٰ تولّي الحقّ والتبرّي من الباطل.

معنىٰ وقوام الوحدة:

ويشير عليه السلام إلىٰ الوحدة المعنية التي هي محلّ أهمّية في قوله عليه السلام: «وأيم الله لولا مخافة الفُرقة من المسلمين أن يعودوا إلىٰ الكفر ويعود

---

(١) كتاب سليم بن قيس الكوفي ٢/٦٦٦ ضمن ح ١٢، بحار الأنوار ٢٩/٤٦٩ ضمن ح ٥٥، ولها مصادر كثيرة أُخرىٰ؛ لاحظ: هامش هذه الخطبة في **بحار الأنوار**.

[يبور] الدين لكنّا قد غيّرنا ذلك ما استطعنا»[١]، فهو عليه السلام يفسّر الفُرقة بمعنىٰ اختلاف المسلمين عن الدين باختيار جملة منهم الخروج عن الإسلام واْعتناق الكفر أو ديانة أُخرىٰ..

وبيانه عليه السلام هذا يفسّر قول هارون عليه السلام: **﴿إنّي خشِيتُ أن تقولَ فرّقْتَ بين بني إسرائيلَ ولم ترقُبْ قَوْلي﴾**[٢]، أنّه بمعنىٰ تفرّق بني إسرائيل عن دين النبيّ موسىٰ عليه السلام لو اصطدم هارون معهم بالسلاح أو قاطعهم بمفارقتهم والخروج عنهم، وهذا يوجب شدّة تعصّبهم واْرتدادهم عن دين موسىٰ عليه السلام؛ إذ أنّ عبادتهم للعجل بتسويل السامري كانت بخداعه أنّ ذلك من شرع موسىٰ عليه السلام: **﴿فأخرجَ لهم عجلاً جسداً له خُوارٌ فقالوا هذا إلٰهُكم وإلٰه موسىٰ فنسي﴾**[٣].

أمّا السبّ، فقد تقدّم افتراقه عن اللعن؛ إذ هو الفحش من القول القذر الذي يمارسه حثالىٰ وأسافل الناس، قال تعالىٰ: **﴿ولا تسُبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسُبّوا اللهَ عدْواً بغير علم﴾**[٤]، وهو يفترق عن ذكر حقائق الأُمور والأحداث الواقعة في تاريخ المسلمين، فالسبّ لا يرتبط بها، وخلط العناوين مثار مغالطة..

قال عليّ عليه السلام ـ وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفّين ـ: «إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم

---

(١) الأمالي ـ للشيخ المفيد ـ: ١٥٤ ـ ١٥٦ ح ٦.
(٢) سورة طٰه ٢٠ : ٩٤.
(٣) سورة طٰه ٢٠ : ٨٨.
(٤) سورة الأنعام ٦ : ١٠٨.

مكان سبّكم : اللّهمّ احقنْ دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وآهدهم من ضلالتهم ، حتّىٰ يعرف الحقّ مَن جهله ، ويرعوي عن الغي مَن لهج به »[1].

فتراه عليه‌السلام في الوقت الذي ينهىٰ عن السبّ ، يحثّ علىٰ وصف أعمالهم وذكر حالهم ، أي استعراض حقائق الأُمور وما عليه أهل الباطل من رداءة العمل ورذيلة الحال ، وبيّن عليه‌السلام الغاية من ذلك : « حتّىٰ يعرف الحقّ مَن جهله » أي : ليتبيّن طريق الحقّ وأهله وطريق الباطل وأهله ، وتفيق الأجيال من رقدتها وسباتها ، وتبصر الحقّ والهدىٰ ، ولا يصيبها العمىٰ والهذيان ، « ويرعوي عن الغي والعدوان مَن لهج به » أي : ينقطع المسلمون السالكون طريق الغي والعدوان ، ولئلّا يُدعوْن إلىٰ ذلك الطريق الضال ..

قال ابن أبي الحديد ـ في ذيل الخطبة في **شرح النهج** ـ : « الذي كرهه عليه‌السلام منهم أنّهم كانوا يشتمون أهل الشام ، ولم يكن يكره منهم لعنهم إيّاهم »[2].

كما أنّه عليه‌السلام يبيّن قواعد وضوابط الوحدة الإسلامية ، بقوله عليه‌السلام : « اللّهمّ احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وآهدهم من ضلالتهم ، حتّىٰ يعرف الحقّ ... » ؛ فالقاعدة الأُولىٰ هي : حقن الدماء وسيادة الأمن بين طوائف المسلمين ..

---

(١) نهج البلاغة : خطبة ٢٠٦ ؛ ومن الأمانة عند بعضهم أن يورد هذه الخطبة مقتطعاً منها ما يروق له ، وينقلها بهذه الصورة : « إنّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين ، ولكنّكم لو قلتم مكان سبّكم إيّاهم : اللّهمّ احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وآهدهم من ضلالتهم ... كان أصوب في القول » . فحذف الوسط والذيل وأخّر جملة : [كان أصوب في القول] . « هفت آسمان » ، عدد ١٢ ـ ١٣ ص ٢١٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٢١ / ١١ .

والقاعدة الثانية : إنّ إصلاح ذات البين بين طوائف المسلمين يجب أن يكون على مسير الهداية والحقيقة والابتعاد عن الضلال ، ولغاية معرفة الحقّ ورجوع صاحب الغي عن غيّه ورجوع صاحب العدوان عن اعتدائه وصاحب الدعوة الضالّة عن ترويجه للضلال .

وكلامه عليه السلام طبق هدى الآية : ﴿ **وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تَبْغي حتّى تفيءَ إلى أمر الله فإنْ فاءَتْ فأصلحوا بينهما بالعدل وأقْسِطوا إنّ الله يُحبُّ المقسطين** ﴾[1] .

فقد دلّت الآية على أنّ إصلاح ذات البين ورفع اختلاف المسلمين ووحدتهم يجب أن يرسو على العدل والقسط والحقّ والهدى ، لا على الظلم وإغماط الحقّ ، وأنّ الإصلاح والوحدة يجب أن تكون على أساس الفيء والرجوع إلى أمر الله تعالى ، لا إلى الأهواء والميول والضلالات .

ثمّ إنّ في الآية الناهية عن سبّ الّذين يدعون من دون الله نكتة ظريفة ، وهي : أنّ علّة النهي هي تمادي أهل الضلال في ضلالهم وغيّهم وابتعادهم عن سبيل الله ، ولم يعلل النهي بترك مباغضة المؤمنين لأهل الضلال والتبرّي من غيّهم ، ولو على مستوى القلب أو على مستوى السلوك الداخلي في ما بين المؤمنين ، كما أنّ مورد آية النهي عن السبّ هو صعيد التعامل مع أهل الضلال ، وصعيد دعوتهم للهداية .

وحيث اتّضح الفرق بين السبّ واللعن موضوعاً ، فالمناسب الإشارة إلى حكم اللعن للظالمين والمعتدين ، فإنّه خُلق إلٰهي ، استعرضه القرآن

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ٩ .

الكريم في ما يزيد على الثلاثين مورداً في السور القرآنية[١]، وكذلك هو خُلق الأنبياء، كما في قوله تعالىٰ في آية المباهلة: **﴿ ثمّ نبتهل فنجعل لعنتَ الله علىٰ الكاذبين ﴾**[٢]، وقوله تعالىٰ: **﴿ لُعنَ الّذين كفروا من بني إسرائيل علىٰ لسان داود وعيسىٰ ٱبن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾**[٣]..

بل في قوله تعالىٰ: **﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدىٰ من بعد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أُولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾**[٤] دعوة وندب إلىٰ التبرّي من الكاتمين لحقائق الدين والشرائع ولهداية السماء بتوسّط اللعن هذا، فضلاً عن عشرات الموارد التي لعن فيها سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم أشخاصاً بأسمائهم، مثل لعنه أصحاب العقبة وأبي سفيان في سبعة مواطن[٥]، ولعن رسول الله قاتل الحسين عليه السلام، كما رواه الفريقان[٦]..

وقد قال: سعد التفتازاني في **شرح العقائد النسفية**: «وإنّما اختلفوا

---

(١) سورة البقرة ٢ : ٨٩، سورة النساء ٤ : ٤٦ و٤٧ و٩٣ و١١٨، سورة المائدة ٥ : ١٣ و ٦٠، سورة الأحزاب ٣٣ : ٦٤، وغيرها؛ فلاحظ مادّة «ل ع ن» في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) سورة آل عمران ٣ : ٦١.

(٣) سورة المائدة ٥ : ٧٨.

(٤) سورة البقرة ٢ : ١٥٩.

(٥) الخصال : ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ح ١٠٥.

(٦) تاريخ بغداد ٣ / ٢٩٠، أُسد الغابة ٢ / ٢٢؛ ولاحظ ما رواه في الدرّ المنثور ٤ / ١٩١ من الروايات في ذيل الآية: **﴿ والشجرة الملعونة ﴾**، وما رواه الخوارزمي في مقتل الحسين ١ / ١٧٦، وٱبن عساكر في تاريخ دمشق ٤ / ٣٣٩، وٱبن حجر في لسان الميزان ٥ / ٣٧٧، والسيوطي في ذيل اللآلئ : ٧٦.

في يزيد بن معاوية ؛ حتّىٰ ذكر في **الخلاصة** وغيرها : أنّه لا ينبغي اللعن عليه ولا علىٰ الحجّاج ؛ لأنّ النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم نهىٰ عن لعن المصلّين ومَن كان من أهل القبلة ، وما نقل عن لعن النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم لبعض من أهل القبلة فلِما أنّه يعلم من أحوال الناس ما لا يعلمه غيره .

وبعضهم أطلق اللعن عليه لِما أنّه كفر حين أمر بقتل الحسين رضي الله عنه ، وآتّفقوا علىٰ جواز اللعن علىٰ مَن قتله ، وأمر به ، وأجازه ، ورضي به .

والحقّ أنّ رضا يزيد بقتل الحسين رضي الله عنه ، وآستبشاره بذلك ، وإهانته أهل بيت النبيّ صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم ، ممّا تواتر معناه ، وإن كان تفاصيله آحاداً ، فنحن لا نتوقّف في شأنه بل في إيمانه ، لعنة الله عليه وعلىٰ أنصاره وأعوانه»[1] .

ولا يخفىٰ أنّ المناط والضابطة التي ذكرها التفتازاني تنطبق علىٰ كثير ممّن عادىٰ أهل بيت النبوّة .

وقال الغزّالي : «الصفات المقتضية للّعن ثلاثة : الكفر والبدعة والفسق»[2] .

وقد ألّف أبو الفرج ابن الجوزي كتاباً في لعن يزيد سمّاه : **الردّ علىٰ المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد** ، ونسب فيه اللعن إلىٰ العلماء الورعين[3] .

---

(١) شرح العقائد النسفية ـ بتحقيق محمّد عدنان درويش ـ : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .
(٢) إحياء علوم الدين ٣/١٠٦ .
(٣) الردّ علىٰ المتعصّب العنيد : ١٣ .

كما حكىٰ القاضي أبو يعلىٰ الفرّاء في كتاب **المعتمد** عن أحمد بن حنبل ـ وكذا الشبراوي[١] في **الإتحاف** ـ أنّه جوّز لعن يـزيد[٢]، وآستدلّ بقوله تعالىٰ: ﴿ **فهل عسيْتُم إن تولّيْتُم** ﴾[٣].

وحكىٰ الدمـيري[٤] ذلك عن أبي حنيفة ومالك وأحمد.

ومثله ابن كثير[٥]، والطبري[٦]، والآلوسي[٧].

وحكي كذلك عن الحنفية[٨].

وقد وقع أهل السُـنّة في حيص بيص من لعن النبيّ جماعة بأسمائهم، فأخذوا في توجيه ذلك بما يضحك الثكلىٰ[٩] مع أنّهم رووا عنه ﷺ أنّه كان يلعنهم في صلاته ويقنت عليهم[١٠].

وروىٰ الحاكم عن عائشة أنّه قال ﷺ: «ستّة لعنتهم، لعـنهم الله وكـلّ نـبيّ مـجاب: الزائـد فـي كـتاب الله، والمكـذّب بـقدر الله تـعالىٰ، والمـتسلّط بـالجبروت؛ فـيُعزّ بـذلك مَـن أذلّ الله ويُـذلّ مَـن أعـزّ الله، والمســتحلّ لحــرم الله، والمسـتحلّ مـن عـترتي مـا حـرّم الله، والتـارك

---

(١) الإتحاف بحبّ الأشراف: ٦٤.
(٢) الردّ علىٰ المتعصّب العنيد: ١٦ ـ ١٧.
(٣) سورة محمّـد ﷺ ٤٧: ٢٢.
(٤) حياة الحيوان ٢/١٧٥.
(٥) البداية والنهاية ٨/١٥٤ و١٦٣ و١٧٩.
(٦) تاريخ الطبري ٤/٥٣٧.
(٧) روح المعاني ٢٦/٧٣.
(٨) الدرّ المنتقىٰ ١/٦٩٢، فيض القدير ١/٢٠٥؛ ولاحظ الكثير من المصادر الأُخرىٰ في نشرة «تراثنا» العدد ٥٠ ـ ٥١، لسنة ١٤١٨ هـ، ص ١٩١ ـ ٢٥٣.
(٩) لاحظ: الانتصار ـ للعاملي ـ ٣/١١٠ ـ ١١٢.
(١٠) صحيح البخاري ٥/٣٥ باب: ليس لك من الأمر شيء.

لسُنّتي»[١].

وقال المحقّق الكركي في **نفحات اللاهوت**: «لا ريب أنّ اللعن هو الطرد والإبعاد من الرحمة، وإنزال العقوبة بالمكلّف، وكلّ فعل أو قول اقتضىٰ نزول العقوبة بالمكلّف من فسق أو كفر فهو مقتضي لجواز اللعن»[٢].

نعم هذا حكم اللعن للظالمين والمعتدين في نفسه أو في الوسط الداخلي، وأمّا أُسلوب دعوة الآخرين وإرشادهم فلا ريب أن يُتحرّىٰ فيه ما لا يثير عصبية الطرف الآخر، كما ينبغي الالتفات إلىٰ فلسفة اللعن في نفسه أو في الوسط الداخلي؛ إذ أنّه مصداق لطبيعة التولّي والتبرّي، التي مرّ أنّها فريضة قرآنية اعتقادية، كما أنّه مصداق لطبيعة إنكار المنكر ـ ولو بالقلب واللسان ـ وكراهة الباطل، وبالتالي فإنّه أُسلوب تربوي للنفوس يقيمها علىٰ الحقّ ويبعدها عن استحسان الباطل، فإنّه من أكبر الأدواء في المجتمعات استنكار الحقّ وآستحسان الباطل والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وقال عليه السلام في خطبة له: «وإنّي لعالِم بما يُصلحكم ويُقيم أودكم ولكنّي لا أرىٰ إصلاحكم بإفساد نفسي»[٣]..

وهذا أصل بالغ الأهمّية لطريقة إصلاح الآخرين: أن لا تكون علىٰ حساب فساد المصلح نفسه؛ فقد يداري المصلح الطرف الآخر لدرجة يضيّع فيها علىٰ نفسه وطائفته موقف الثبات علىٰ الحقّ، ويؤدّي إلىٰ ذوبانه

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ـ للحاكم ـ ١/٩١ ح ١٠٢.
(٢) نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت: ٤٤ ـ ٤٥.
(٣) نهج البلاغة: خطبة ٦٩.

في الباطل والانحراف باسم المداراة للإصلاح، وبادّعاء أنّ الإصلاح قد يستلزم تخلّي الطائفة المحقّة عن بعض مبادئها وضرورياتها لتربية الطائفة نفسها.

إنّ لمعرفة الأهمّية البالغة للأمر بالمعروف والحقّ والنهي عن المنكر والباطل دور كبير في ثبات هوية المجتمع الديني، ونظامه الاجتماعي، وحصانته أمام الغزو الثقافي والعقائدي الأجنبي الدخيل، الموجب للتحلّل الخلقي ولعدم التزام أفراد المجتمع تجاه مقدّسات الملّة والأُمّة والمسؤوليات الملقاة علىٰ عاتقهم..

الوحدة وشعائر المذهب:

وهذه الوظيفة التي تؤدّيها فريضة التولّي والتبرّي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ من إيجاد الغيرة الدينية وحسّ المسؤولية الاجتماعية الدينية ـ تتأدّىٰ بآليات عديدة، عمدتها الشعائر الدينية، ومن هنا يُتفطّن لأهمّية الشعائر وعدم التفريط بها، ولا سيّما الشعائر الإيمانية المذهبية؛ فإنّ التفريط بها يوجب التفريط بكيان المذهب وذوبانه أمام هوية المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ، القائمة علىٰ فقه واعتقادات السلاطين، المصنوعة من سياسات السلطات الحاكمة، كالجبرية، والقدرية، والمجسّمة، واجتهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالظنّ وإلقاء الشيطان في أُمنيّته، وأنّ يد الله ـ والعياذ بالله ـ مقطوعة عن الأرض، ومشروعية ولاية الحاكم المتغلّب بالقوّة، وإطلاق الاجتهاد بالرأي، والتأوّل، والقياس، والاستحسان، وغيرها من الأُصول، ويؤكّد علماء الاجتماع كذلك علىٰ أهمّية الشعائر ـ الطقوس ـ الدينية وفلسفتها.

ونظير الخلط السابق بين العناوين، الخلط في الموازنة بين إقامة الشعائر الإيمانية وبين عنوان التقية، مع أنّ موضوع التقية «الخوفية» حيث لا سلطة قائمة للمؤمنين، وكونهم أقلّية قليلة ونحو ذلك، أو الخلط بين التقية «المداراتية» وبين إقامة المعرفة الحقّة في نفوس أبناء الطائفة؛ فإنّ التقية إنّما شُرّعت لحفظ الحقّ وأهله لا لطمسهما في المجتمع.

الوحدة وطوائف الشيعة:

وإنّ التساؤل الجادّ المطروح في مشروع سياسة الوحدة هو عن الاهتمام ببقيّة طوائف ومذاهب الشيعة غير الإمامية ـ كالإسماعيلية والزيدية ومذهب العلويّين ـ نظير الاهتمام بالطوائف السُنّية، مع أنّ الملاحظ قلّة العناية بهم، بل اللازم أولوية الاهتمام بهم لعدّة أسباب:

الأوّل: إنّ تحالفهم السياسي مع الطائفة مضمون؛ نظراً لقرب أُصولهم الاعتقادية لنا.

الثاني: قوّة وأقربيّة احتمال هدايتهم بالمقارنة مع الطوائف السُنّية.

الثالث: كبر حجمهم العددي والخطورة الاستراتيجية لأماكن تواجدهم.

فالعلويّون ـ مثلاً ـ يصل تعدادهم في جنوب تركيا إلى ١٣ مليون نسمة حسب الإحصائيات الرسمية، ولكن بعض التقارير المحلية تصل بعددهم إلى ٢٢ مليون نسمة، فضلاً عن تواجدهم في سوريا ولبنان وشمال العراق.

ومثلهم الإسماعيلية، فهم منتشرون في لبنان وسوريا والعراق وأفغانستان وپاكستان والهند واليمن، وفي جنوب السعودية يشكّلون

الأكثرية في المحافظات الجنوبية، والغريب أنّه في مؤتمرات الوحدة لم توجّه إلىٰ الآن ـ حسب ما قيل ـ أي دعوة لعلماء الإسماعيلية في سوريا أو في المناطق الأُخرىٰ، والظاهر أنّ الحال كذلك بالنسبة إلىٰ العلويّين؛ إذ لم توجّه لهم دعوة.

وأمّا الزيدية فهم الأكثرية في اليمن.

وكذلك الحال بالنسبة إلىٰ الأشراف السادة من نسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإنّ انتشارهم في الأصقاع كوثر كاثر، ولهم نقابات في أكثر البلدان، وهم علىٰ محبّة وولاء قلبي لأئمّة أهل البيت عليهم السلام أشدّ من غيرهم..

ففي بلاد المغرب العربي والجزائر وتونس ما يقرب من ٥ ملايين حسني، فضلا عن مصر وليبيا، وكذلك في المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة وأندونسيا.

والحاصل قلّما يخلو بلد من البلدان الإسلامية من هذا النسل الطيّب، وهم أوْلىٰ بإقامة الجسور معهم من أتباع بني أُمية ومروان، بل إنّ صوفية السُنّة وفرقهم أوْلىٰ بإقامة العلاقة معهم من بقية طوائف السُنّة؛ إذ أنّ غالبيّتهم يعتقدون باطناً بإمامة الاثني عشر عليهم السلام، ولذلك تتخوّف الطوائف السُنّية الظاهرية الرسمية منهم.

والحاصل: إنّ سياسة الوحدة لم تبن علىٰ بصيرة منهجية، آخذة في عين الاعتبار درجات وأقسام الطوائف الإسلامية الموجودة، وإرساء منهج يستند علىٰ أولويات مدروسة.

وكم فرق بين مَن يُبطن المحبّة لك وبين مَن يُبطن العداوة والبغضاء؛ قال تعالىٰ: ﴿ **يا أيُّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم لا يأْلونكم خبالاً ودّوا ما عنتّم قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورهم**

أكبرُ قد بيّنّا لكم الآياتِ إنْ كنتم تعقلون * ها أنتم أُولاءِ تحبّونهم ولا يحبّونكم وتؤمنون بالكتاب كلّه . . .﴾(١)..

وقال تعالىٰ: **﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يَرْقُبوا فيكم إلّاً ولا ذمّةً يُرضونكم بأفواههم وتأبىٰ قلوبهم . . .﴾**(٢).

ولا يخفىٰ أنّ الآيات المزبورة ليست في صدد تخشين العلاقة الخُلقية مع الآخرين المتّصفين بذلك كي يُتوهّم معارضتها بنظير قوله تعالىٰ: **﴿وقولوا للناس حسناً﴾**(٣)، وقوله تعالىٰ: **﴿ادفَعْ بالتي هيَ أحسنُ السيئةَ﴾**(٤)، بل هي في صدد بيان سياسة الانفتاح وبناء العلاقات الأساسية المعتمدة لبناء خطوات المستقبل من التحالفات في المجالات المختلفة.

الوحدة وحديث الفرقة الناجية:

إنّ الحديث المتواتر بين الفريقين عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أُمّتي ستفترق بعدي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية وآثنتان وسبعون في النار»(٥) يلزم الباحث المسلم الطالب للنجاة الأُخروية الفحص عن خصوص تلك الفرقة الناجية، والتمسّك بها دون بقية فرق المسلمين؛ لأنّ مؤدّىٰ الحديث النبوي أنّ الاختلاف الواقع ليس في دائرة الظنون والاجتهاد المشروع، بل هو في دائرة الأُصول والأركان من الأُمور القطعية واليقينية، أي ممّا قام الدليل القطعي واليقيني عليها، وإن لم تكن ضرورية في زمن أو

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) سورة التوبة ٩: ٨.
(٣) سورة البقرة ٢: ٨٣.
(٤) سورة المؤمنون ٢٣: ٩٦.
(٥) بحار الأنوار ٢٨/ ٢ ـ ٣٦.

أزمان معيّنة نتيجة التشويش أو التعتيم الذي تقوم به الفرق الأُخرىٰ.

والحديث ـ مضافاً إلىٰ كونه ملحمة نبوية ـ يحدّد معالم الوحدة التي يجب أن تقيمها الأُمّة الإسلامية بأن تكون علىٰ منهاج الحقّ والهدىٰ الذي تسير عليه الفرقة الناجية، وإنّ الأُمّة وإن اشتركت في الإقرار بالشهادتين والانتماء إلىٰ الملّة الواحدة إلّا أنّ ذلك لا يعدو الأحكام بحسب ظاهر الإسلام في النشأة الدنيوية، إلّا أنّها مفترقة بحسب واقع الإسلام والإيمان الذي به النجاة الأُخروية؛ فهناك ديانة بحسب إقرار اللسان تترتّب عليها أحكام المواطنة في النظام الاجتماعي السياسي، وهناك ديانة بحسب القلب والأعمال تترتّب عليها أحكام الآخرة من النجاة من النار وإعطاء الثواب.

وهذه الأُمور المستفادة من الحديث الشريف المتواتر إنّما هي بلحاظ الإنسان البالغ العاقل المكلّف، الذي قد اجتمعت فيه شرائط التكليف، أمّا الصبي والمجنون والجاهل القاصر أو المعتوه أو الأبله وحديث العهد بالإسلام ونحوهم ممّن لم تقم عليه الحجّة وتتمّ شرائط التكليف لديه، فهم معذورون، وعاقبة المعذور ـ كما سيأتي ـ موقوفة علىٰ المشيئة الإلٰهية الأُخروية، التي فُسّرت في الروايات بإقامة امتحان إلٰهي له يوم القيامة إن أطاع فيه نجا وإن عصىٰ هلك.

وقد أُطلق علىٰ أفراد المعذور في الكتاب والسُنّة عدّة تسميات، كـ: **﴿المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾**[1]، و **﴿مُرْجَوْن لأمر الله﴾**[2]، و **﴿أصحاب**

---

(١) سورة النساء ٤ : ٩٨.

(٢) سورة التوبة ٩ : ١٠٦.

الأعــراف﴾[1]، والّــذين ﴿**خـلطوا عـملاً صـالحاً وآخـر سيئاً**﴾[2]، و﴿**المؤلّفةِ قلوبُهم**﴾[3]، وأُطلق عليهم أيضاً: «الضلّال»، بمعنىٰ: الضالّ «القاصر»؛ إذ هذا أحد معانيه، وإلّا فهو يطلق علىٰ «المقصّر» المخلّد في النار أيضاً..

لذلك لا مفرّ لهذا الإنسان ـ المكلّف المختار ـ ولا مخلص ولا نجاة له إلّا بالفحص عن الفرقة الناجية من فرق المسلمين، وليس له أن يتعامىٰ عن عمد ويسلك طريق الضلال والغواية ويرجو مع ذلك النجاة، كما أنّ البحث الجادّ بين فرق المسلمين في إطار الوحدة لا بُدّ أن يُتحرّىٰ فيه ـ بمقتضىٰ الحديث الشريف والتوصية النبوية ـ عن الحقّ الذي تسلكه الفرقة الناجية لكـي تـتّبعها بـقيّة الفـرق، فـإنّ مـنهاج الهـدىٰ لا يـرسم بـضلال القـاصر المستضعف.

ولكي تتمّ الفائدة من هذا الحديث المتواتر ـ حديث الفرقة الناجية ـ الذي أقرّت بمضمونه جلّ فرق المسلمين، نذكر بعض النقاط التالية:

الأُولىٰ:

إنّ الكلام في النجاة في الحديث الشريف هـو بـحسب الاسـتحقاق والامتثال، لا بحسب الشفاعة والشفقة الإلٰهية والرحمة الواسعة، أي بحسب ما يلزمه حكم العقل باتّباع الأدلّة والبراهين الشرعية والعقلية الأولية، فـإنّ العقل يـوجب التـجنّب عـن التـعرّض للسـخط الإلـهي واحـتمال العـقوبة

---

(١) سورة الأعراف ٧: ٤٨.

(٢) سورة التوبة ٩: ١٠٢.

(٣) سورة التوبة ٩: ٦٠.

الأُخروية، وإن لم يكن بين استحقاق العقوبة ووقوعها تلازم؛ لاحتمال الشفاعة ونحوها، فإنّ التعرّض لمثل العقوبة الأُخروية التي أشفقت منها السماوات والأرض يعدّ من الإلقاء في الهلكة، هذا فضلاً عن الأصناف الأُخرىٰ لحكم العقل من وجوب شكر المنعم وقبح التمرّد والطغيان علىٰ المولىٰ، وغيرها من أنماط حكم العقل والفطرة.

الثانية:

إنّ المقصود من النجاة في الحديث الشريف هو النجاة من الدخول في النار ومن ذوق حريق العذاب، لا في النجاة من الخلود فيها ومن دوام العذاب؛ فإنّ آراء المتكلّمين تكاد تتّفق أنّ الخلود للجاحدين وأهل العناد، سواء كان الجحود في توحيد الذات أو الصفات، أو في التشريع والرسالة، أو في الولاية والإمامة، أو في الغاية والمعاد، ونحوها من أُصول الاعتقاد..

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ مفاد الحديث في دخول الجنّة عند الحساب والميزان، لا في دخول الجنّة بعد أحقاب من العذاب في النار.

الثالثة:

إنّ معذورية أفراد المعذور ـ كما يأتي ـ لا يعني تنجّز نجاته بل هي مرهونة بالمشيئة الإلٰهية، والتي فُسّرت في عدّة من الأخبار بالامتحان، كما لا يعني أنّ مسار هؤلاء هو طريق هدىٰ بل مفروض العذرية تخبّط المعذور في الضلال والغواية، فلا تلازم بين العذرية والأمان ولا بينها وبين ضمان النجاة، ولا بينها وبين اتّخاذ خطأ وضلال المعذور منهاجاً يتبجّح به. وسيأتي أنّ في الروايات ما يدلّ علىٰ أنّه يبيّن الحقّ لأفراد المعذور في امتحان يوم القيامة.

الرابعة :

إنّ هناك جملة من الآيات والأحاديث النبوية المستفيضة والمتواترة الأُخرىٰ الدالّة علىٰ مفاد حديث الفرقة الناجية نفسه، لكن بألفاظ مختلفة ودلالات متعدّدة التزامية ومطابقية..

منها: «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[(١)]؛ وفي بعض الطرق: «وليس في عنقه بيعه لإمام زمانه»[(٢)]، ونحو ذلك.

ومنها: «مثل أهل بيتي كسفينة نوح، مَن ركبها نجا ومَن تركها هلك»[(٣)].

ومنها: ذيل حديث الثقلين؛ ومفهومه: «ما إن تمسّكتم بهما فلن تضلّوا أبداً».

وغيرها من الأحاديث النبوية الواردة في عليّ عليه السلام وأهل بيته.

الخامسة :

قد وردت جملة من الروايات المستفيضة في امتحان أقسام المعذور يوم القيامة، منها: صحيحة هشام؛ عن أبي عبد الله عليه السلام : سُئل عمّن مات في الفترة ـ أي في زمان انقطاع الرسل وغياب الحجّة ـ وعمّن لم يدرك

---

(١) دعائم الإسلام ١/ ٢٧، قرب الإسناد: ٣٥١ ضمن ح ١٢٦٠، المحاسن ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ ح ٤٧٤ وح ٤٧٦.

(٢) صحيح مسلم ٣/١٤٧٨ ح ١٨٥١، المعجم الكبير ١٩/ ٣٣٤ ح ٧٦٩، سُنن البيهقي ٨/١٥٦.

(٣) المناقب ـ للكوفي ـ ١/٢٩٦ ح ٢٢٠ و٢/١٤٦ ح ٦٢٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢/ ٢٧ ح ١٠، المسترشد ـ لابن جرير الطبري ـ: ٢٦٠ ذيل ح ٧٣ و ٥٧٨ ح ٢٥٠، مسند البزّار ٩/٣٤٣ ح ٣٩٠٠.

الحنث ـ أي البلوغ ـ والمعتوه، فقال: «يحتجّ الله عليهم يرفع لهم ناراً فيقول لهم: ادخلوها، فمَن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن أبىٰ قال: ها أنتم قد أمرتكم فعصيتموني»[1].

وفي صحيحة أُخرىٰ قال عليه‌السلام: «ثلاثة يحتجّ عليهم: الأبكم، والطفل، ومن مات في الفترة، فيرفع لهم نار فيقال لهم: ادخلوها، فمَن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومَن أبىٰ قال تبارك وتعالىٰ: هذا قد أمرتكم فعصيتموني»[2].

وفي بعض الروايات: «إنّ أولاد المشركين خدم أهل الجنّة»[3].

ومنها: صحيح زرارة؛ قال: سألت أبا جعفر عليه‌السلام: هل سئل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن الأطفال؟ فقال: «قد سئل فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين»..

ثمّ قال: «يا زرارة! هل تدري ما قوله الله أعلم بما كانوا عاملين؟!» قلت: لا. قال: «لله عزّ وجلّ فيهم المشيئة؛ إنّه إذا كان يوم القيامة أُتي بالأطفال، والشيخ الكبير الذي قد أدرك السن [النبيّ] ولم يعقل من الكبر والخرف، والذي مات في الفترة بين النبيّين، والمجنون، والأبله الذي لا يعقل، فكلّ واحد يحتجّ علىٰ الله عزّ وجلّ، فيبعث الله تعالىٰ إليهم ملكاً من الملائكة ويؤجّج ناراً فيقول: إنّ ربّكم يأمركم أن تثبوا فيها. فمَن وثب فيها كانت عليه برداً وسلاماً، ومَن عصاه سبق إلىٰ النار»[4].

---

(١) الكافي ٣/٢٤٩ ح ٦، بحار الأنوار ٥/٢٩٢ ح ١٤.
(٢) الكافي ٣/٢٤٩ ح ٧، بحار الأنوار ٥/٢٩٣ ح ١٥.
(٣) المعجم الكبير ٧/٢٩٥ ح ٦٩٩٣، حلية الأولياء ٦/٣٠٨، بحار الأنوار ٥/٢٩١ ح ٥.
(٤) الكافي ٣/٢٤٨ ح ١، معاني الأخبار: ٤٠٧ ح ٨٦، بحار الأنوار ٥/٢٩٠ ح ٣.

وهناك جملة عديدة من الروايات، فلاحظها في محالّها[1]، كما أنّ هناك جملة أُخرىٰ من الروايات دالّة علىٰ دخول أطفال المشركين مع آبائهم في النار، لكنّها محمولة علىٰ عصيانهم في الامتحان.

وفي رواية لزرارة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام ـ وأنا أكلّمه في المستضعفين ـ: «أين ﴿**أصحاب الأعراف**﴾؟! أين المرجون لأمر الله؟! أين الّذين ﴿**خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**﴾؟! أين ﴿**المؤلّفة قلوبهم**﴾؟! أين أهل تبيان الله؟! أين ﴿**المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً**﴾؟! ﴿**فأُولئك عسىٰ الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً**﴾[2]»[3]..

وتعبيره عليه السلام عن أفراد المعذورين بـ: «أهل تبيان الله» لعلّ المراد به أنّه يبيّن تعالىٰ لهم الهدىٰ من الضلال في الامتحان المقام لهم عند الحساب.

السادسة:

هناك جملة أُخرىٰ من الروايات يظهر منها دخول أفراد المعذور إلىٰ الجنّة، ولكنّها محمولة ومقيّدة بامتحانهم وطاعتهم فيه، ومن ثمّ نجاتهم، كما تقدّم حمل جملة من الروايات الواردة في دخول أطفال المشركين النار علىٰ عصيانهم في الامتحان؛ بمقتضىٰ العديد من الروايات المستفيضة المفصّلة المقيّدة لدخول الجنّة أو النار بالامتحان عند الحساب..

---

(١) الكافي ٣/٢٤٨ ـ ٢٤٩ ح ١ ـ ح ٧، بحار الأنوار ٥/٢٨٨ ـ ٢٩٧ ح ١ ـ ح ٢٢.
(٢) سورة النساء ٤: ٩٩.
(٣) تفسير العيّاشي ١/٢٦٩ ح ٢٤٦، بحار الأنوار ٧٢/١٦٤ ح ٢٣.

منها: صحيح زرارة؛ قال: دخلت أنا وحمران ـ أو: أنا وبكير ـ علىٰ أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: إنّا نمدّ المطمار؟ قال: «وما المطمار؟!» قلت: التّتر، فمَن وافقنا من علوي أو غيره تولّيناه، ومَن خالفنا من علوي أو غيره برئنا منه..

فقال: «يا زرارة! قول الله أصدق من قولك؛ فأين الّذين قال الله عزّ وجلّ: **﴿إلّا المستضعفينَ من الرجال والنساء...﴾**؟! أين المرجون لأمر الله؟! أين الّذين **﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾**؟! أين **﴿أصحاب الأعراف﴾**؟! أين **﴿المؤلّفة قلوبهم﴾**...».

وزاد فيه جميل، عن زرارة: فلمّا كثر بيني وبينه الكلام قال: «يا زرارة! حقّاً علىٰ الله أن [لا] يدخل الضّلال الجنّة»[1]؛ بناءً علىٰ نسخة بدون «لا» النافية..

وفي رواية العيّاشي: «يا زرارة! حقّاً علىٰ الله أن يدخلك الجنّة»[2].

وصدر الرواية قد روي بطرق متعدّدة، وموردها في الأصل أنّه عليه السلام سأل زرارة: «متأهّل أنت؟!»، فقال: لا. ثمّ ذكر زرارة أنّه لا يستحلّ نكاح هؤلاء فذكر عليه السلام أنّ المستضعفين لا زالوا علىٰ الولاء، لا ولاء الإيمان بل ولاء ظاهر الإسلام من المناكحة وحلّية ذبيحتهم و... ففي رواية لحمران عنه عليه السلام: «هم من أهل الولاية... أما إنّها ليست بولاية في الدين ولكنّها الولاية في المناكحة والموارثة والمخالطة، وهم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفّار، وهم المرجون لأمر الله عزّ وجلّ»[3].

---

(١) الكافي ٢/٢٨٢ ح ٣، كتاب الإيمان والكفر: باب أصناف الناس.
(٢) تفسير العيّاشي ٢/٩٣ ح ٧٤، بحار الأنوار ٧٢: ١٦٤ ـ ١٦٥ ح ٢٦.
(٣) تفسير العيّاشي ١/٢٦٩ ح ٢٤٩، معاني الأخبار: ٢٠٢ ح ٨، بحار الأنوار ٧٢/

والحاصل أنّ هذه الرواية ومثيلاتها محمولة على النجاة ـ ومقيّدة لها ـ بالطاعة عند الامتحان في الحساب مع تبيان الحقّ لهم وآختيارهم له ؛ لما مرّ من روايات مستفيضة دالّة على ذلك مضافاً إلى كون مثل هذه الروايات متعرّضة إلى أحكام الحياة الاجتماعية مع هؤلاء..

ومثل هذا التقييد في صحيح ضريس الكناسي : عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قلت له : جعلت فداك ، ما حال الموحّدين المقرّين بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من المسلمين المذنبين ، الّذين يموتون وليس لهم إمام ولا يعرفون ولايتكم ؟

فقال : «أمّا هؤلاء فإنّهم في حفرهم لا يخرجون منها ، فمَن كان له عمل صالح ولم يظهر منه عداوة فإنّه يخدّ له خدّاً إلى الجنّة التي خلقها الله بالمغرب ـ أي البرزخية لا الأُخروية ـ فيدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة حتّى يلقى الله فيحاسبه بحسناته وسيئاته ، فإمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار ، فهؤلاء الموقوفون لأمر الله»..

قال عليه السلام : «وكذلك يفعل بالمستضعفين ، والبله ، والأطفال ، وأولاد المسلمين الّذين لم يبلغوا الحلم».. الحديث[1].

وذيل الرواية صريح في كون حالهم موقوفاً على المشيئة الإلٰهية ، التي قد فسرت في روايات عديدة بالامتحان ، وحاشا لعدله تعالى أن يدخِل النار بغير موجب.

ومثلها رواية الأعمش ، عن الصادق عليه السلام : «أصحاب الحدود فسّاق ،

= ١٦٠ ح ١٣ .

(١) الكافي ٣/٢٤٧ ضمن ح ١ ، تفسير القمّي ٢/٢٦٠ ، بحار الأنوار ٦/٢٨٦ ح ٧ و ٢٩٠ ضمن ح ١٤ و ٧٢/١٥٨ ح ٣ .

لا مؤمنون ولا كافرون، ولا يخلدون في النار ويخرجون منها يوما ما، والشفاعة لهم جائزة، وللمستضعفين إذا ارتضىٰ الله دينهم»[١].

وذيل هذه الرواية دالّ علىٰ التمييز بين «أصحاب الحدود» وبين «المستضعفين» في كون «المستضعفين» لا تجوز لهم الشفاعة حتّىٰ يرتضي الله تعالىٰ دينهم، أي حتّىٰ يدينوا بالعقائد الحقّة فحينئذ يكونوا علىٰ حدّ فسّاق المؤمنين من صلاح العقيدة لكنّهم أساؤوا العمل؛ فهي تدلّ علىٰ إقامة الامتحان للمستضعفين، وأنّه بالدرجة الأُولىٰ في تبيان العقائد والإيمان الحقّ، كما مرّ في بعض الروايات أنّهم من: «أهل تبيان الله».

ومن جملة هذا النمط من الروايات: رواية الصباح بن سيابة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ الرجل ليحبّكم وما يدري ما تقولون فيدخله الله الجنّة، وإنّ الرجل ليبغضكم وما يدري ما تقولون فيدخله النار»[٢]..

وهذه الرواية تبيّن مدىٰ أهمّية تولّي أولياء الله، والهلاك في ترك ولايتهم، وإنّ التولّي والتبرّي منشأه من الأُصول الاعتقادية.

وفي بعض الروايات التقييد بمَن أحبّ الشيعة لحبّهم سيّدة نساء العالمين الزهراء فاطمة عليها السلام[٣].

وفي بعض الروايات الأُخرىٰ أنّ ذلك بعد شفاعة المؤمنين في مَن أحبّهم[٤].

---

(١) الخصال: ٦٠٨ ضمن ح ٩، عيون الأخبار ٢/ ١٢٥ ضمن ح ١، بحار الأنوار ٨/ ٤٠ ح ٢٢ و ٧٢/ ١٥٩ ح ٦.

(٢) معاني الأخبار: ٣٩٢ ح ٤٠، بحار الأنوار ٧٢/ ١٥٩ ح ٧.

(٣) تفسير فرات الكوفي: ٢٩٨ ح ٤٠٣، بحار الأنوار ٨/ ٥٢ ضمن ح ٥٩.

(٤) تفسير القمّي ٢/ ٢٠٢، الخصال: ٤٠٨ ح ٦، ثواب الأعمال: ٢٠٦ ح ١، بحار الأنوار ٨/ ٣٨ ح ١٦ و ٣٩/ ١٩ و ٤١/ ٢٦.

وعلىٰ أي تقدير؛ ﴿ **ولا يشفعونَ إلّا لمَن ارتـضىٰ** ﴾[١]، كما فـي الآية الكريمة، ورضاه بارتضاء دينه، كما مرّ في رواية الأعـمش، وفُسّـر بذلك في روايات الشفاعة، فيدلّ علىٰ أنّ الامتحان الذي يقام للمستضعفين ونحوهم من أفراد الضلّال القاصرين هو في الديانة وآعتناق الإيمان الحقّ.

أمّا كون الشفاعة موردها مَن ارتضىٰ دينه فيدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿ **إنّ الله لا يغفرُ أن يشْرَكَ به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمَن يشاءُ ومَن يُشرِكْ بالله فقد آفترىٰ إثماً عظيماً** ﴾[٢]..

وفي آية أُخرىٰ: ﴿ **إنّ الله ... ومَن يُشرك بالله فـقد ضـلّ ضـلالاً بعيداً** ﴾[٣]، وهو شامل للكفر؛ لأنّه ضرب من الشرك.

وقد أُطلق الكفر علىٰ جحود ولاية خليفة الله في أرضـه، كـما فـي إبليس لعنه الله، فـيعمّ ولايـة عـليّ عليه السلام وولده عليهم السلام، كـما وردت بـذلك روايات عـديدة فـي ذيـل الآيـتين فـي تـفسيري **البـرهان** و**نـور الثـقلين**، فلاحظها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ **لا يملكونَ الشفاعةَ إلّا مَن اتّـخذَ عـند الرحـمٰن عهداً** ﴾[٤]..

وقوله تعالىٰ: ﴿ **يومئذٍ لا تنفعُ الشـفاعةُ إلّا مَـن أذِنَ له الرحـمٰن ورضيَ له قولاً** ﴾[٥]، أي: معتقده.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿ **وإنّي لغفّار لمَن تاب وآمن وعمِل صالحاً ثمّ**

---

(١) سورة الأنبياء ٢١ : ٢٨.

(٢) سورة النساء ٤ : ٤٨.

(٣) سورة النساء ٤ : ١١٦.

(٤) سورة مريم ١٩ : ٨٧.

(٥) سورة طه ٢٠ : ١٠٩.

اهتدىٰ﴾[1]، فالآية قيّدت المغفرة بـالهدايـة إضـافةً إلىٰ الإيـمان والعـمل الصالح.

فالهداية هي للـولاية؛ كـما عـرّفت فـي آيـات عـديدة أنّ الهـدايـة الصراطية للإيصال إلىٰ المطلوب هي الولاية والإمامة، كما في: **﴿إنّما أنت منذرٌ ولكلّ قومٍ هادٍ﴾**[2]، و: **﴿جعلناهم أئمّةً يهْدون بأمْـرنا وأوحـينا إليهم فِعْلَ الخيرات﴾**[3]، و: **﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الّذين أنعمت عليهم...﴾**، و: **﴿أفمَن يهدي إلىٰ الحقّ أحقُّ أن يُـتّبَعَ أمَّـن لا يَهِدّي إلّا أن يُهْدىٰ فما لكم كيف تحكمون﴾**[4].

وقد وردت روايات مستفيضة في ذيل الآية في بيان ذلك براهـيناً، فلاحظ **تفسير البرهان**[5] **ونور الثقلين**[6]؛ فمقتضىٰ الآيـة كـون الامـتحان والتبيان لأهل الأعذار من الضلّال مستعقب لهدايتهم بالطاعة.

ويدلّ عليه رواية الحسين بن خالد، عن الرضا، عن أبيه، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قـال: «قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَـن لم يـؤمن بحوضي فلا أورده الله حـوضي، ومـن لم يـؤمن بشـفاعتي فـلا أنـاله الله شـفاعتي»، ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما شـفاعتي لأهل الكبائر مـن أُمّـتي، فأمّـا المحسنون فما عليهم من سبيل»..

قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يا بن رسـول الله! فـما

---

(١) سورة طه ٢٠ : ٨٢.

(٢) سورة الرعد ١٣ : ٧.

(٣) سورة الأنبياء ٢١ : ٧٣.

(٤) سورة يونس ١٠ : ٣٥.

(٥) تفسير البرهان ٣/ ٢٨ ـ ٣٠ ح ٤٨٨٥ ـ ح ٤٨٩٤.

(٦) تفسير نور الثقلين ٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٤ ح ٥٧ ـ ح ٦٣.

معنىٰ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **ولا يشفعون إلّا لمَن ارتضىٰ** ﴾[(١)] ؟ قال: «لا يشفعون إلّا لمَن ارتضىٰ الله دينه»[(٢)].

وعمدة الباب ما في صحيحة ابن أبي عمير؛ قال: سمعت موسىٰ بن جعفر عليه السلام يقول: «لا يخلد الله في النار إلّا أهل الكفر والجحود، وأهل الضلال والشرك، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يسأل عن الصغائر»، ـ ثمّ ذكر عليه السلام أنّ الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين ـ...

قال ابن أبي عمير: فقلت له: يا بن رسول الله! فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالىٰ يقول: ﴿ **ولا يشفعون إلّا لمَن ارتضىٰ وهم من خشيته مشفقون** ﴾، ومَن يركب الكبائر لا يكون مرتضىً؟!

فقال: «يا أبا أحمد! ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: كفىٰ بالندم توبةً. وقال: مَن سرّته حسنة وساءته سيّئة فهو مؤمن؛ فمَن لم يندم علىٰ ذنب يرتكبه فليس بمؤمن، ولم تجب له الشفاعة، وكان ظالماً، والله تعالىٰ يقول: ﴿ **ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاعُ** ﴾[(٣)]».

فقلت له: يا بن رسول الله! وكيف لا يكون مؤمناً مَن لم يندم علىٰ ذنب يرتكبه؟!

فقال: «يا أبا أحمد! ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنّه سيعاقب عليها إلّا ندم علىٰ ما ارتكب، ومتىٰ ندم كان تائباً

---

(١) سورة الأنبياء ٢١: ٢٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١/١٣٦ ح ٣٥، الأمالي ـ للشيخ الصدوق ـ: ٥٦ ح ١١، بحار الأنوار ٨/١٩ ح ٥ و ٣٤ ح ٤.

(٣) سورة غافر ٤٠: ١٨.

مستحقّاً للشفاعـة، ومتىٰ لم يندم عليها كان مصـرّاً، والمصـرّ لا يُغفر له؛ لأنّه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم، وقـد قـال النبيّ ﷺ: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار..

وأمّا قول الله: ﴿ولا يشفعون إلّا لمَن ارتضىٰ﴾، فإنّهم لا يشفعون إلّا لمَن ارتضىٰ الله دينه، والدين الإقرار بالجزاء علىٰ الحسنات والسيّئات، ومَن ارتضىٰ الله دينه ندم علىٰ ما يرتكبه من الذنوب؛ لمعرفته بعاقبته في القيامة»[1]، فإنّه استدلال عقلي لتقييد الشفاعة بمَن ارتضىٰ الله دينه وهـو المؤمن، وأنّ الضالّ القاصر لا تناله الشفاعة إلّا بعد التبيان والامتحان وتعرّفه علىٰ حقائق الإيمان فينخرط في زمرة المؤمنين.

ونظير الروايات المتقدّمة: ما رواه الصدوق بسنده عن أبي عبـد الله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام، قال: «إنّ للـجنّة ثـمانية أبـواب... وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلّا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت»[2]..

فإنّ غاية دلالتها: علىٰ عدم خلودهم في النار، ولا تنافي ما دلّ علىٰ امتحانهم وتوقّف دخولهم الجنّة علىٰ إطاعتهم بالإيمان، كما لا تنافي ما دلّ علىٰ دخولهم النار حقبة لتطهيرهم ثمّ دخـولهم الجـنّة؛ فـهناك فـرق بـين الخلود في النار وبين الدخول فيها ولو لحقبة منقطعة الأمد، وكذلك بـين الدخول في الجنّة ابتداءً وبين الدخول فيها لاحقاً، فحساب الأكثرية والأقلية من الناجـين يختلف بحسب المقامين، وقـد ورد عنهم عليهم السلام: «النـاجون

---

(١) التوحيد: ٤٠٧ ح ٦، بحار الأنوار ٨/٣٥١ ح ١.
(٢) الخصال: ٤٠٧ ح ٦، بحار الأنوار ٨/٣٩ ح ١٩.

من النار قليل ؛ لغلبة الهوىٰ والضلال»[١]، والرواية ناظرة للنجاة من النار لا النجاة من الخلود فيها ، وقد تقدّم في حديث الكاظم عليه‌السلام أنّ طوائف المخلّدين أربع وما عداهم لا يخلد .

السابعة :

قد دلّت الآيات والروايات المتواترة علىٰ أنّ قبول الأعمال مشروط ، وصحّتها كذلك مشروطة بعدّة شرائط ، لا يثاب العامل علىٰ عمله إلّا بها ، وإلّا يكون مردوداً بالنسبة إلىٰ الثواب الأُخروي ، لا سيّما مثل الدخول في الجنّة ، بل الأدلّة دالّة علىٰ أنّ صحّة الاعتقادات مشروطة بالولاية ، نظير قوله تعالىٰ المتقدّم : **﴿ وإنّي لغفّار لمَن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدىٰ ﴾** ، فقد قيّد الإيمان والعمل الصالح بالهداية ؛ فإنّ المغفرة ـ وهي النجاة من العقوبة ـ إذا كانت مقيّدة فكيف بالمثوبة ؟ !

وقوله تعالىٰ : **﴿ إنّما يتقبّلُ اللهُ من المتّقين ﴾**[٢]، والغاية في تعبير الآية : أنّه قد قيّد القبول ليس بوصف العمل بالتقوىٰ بل بوصف العامل بذلك ، والصفة لا تصدق إلّا مع تحقّقها في مجمل الأعمال وأركانها ، وهي العقائد الحقّة .

وكذا قوله تعالىٰ : **﴿ أبىٰ وآستكبر وكان من الكافرين ﴾**[٣]، فجعل تعالىٰ أعمال إبليس كلّها هباءً منثوراً باستكباره علىٰ وليّ الله وعدم إطاعته

---

(١) غرر الحكم ـ للآمدي ـ ١/٨٥ ح ١٧٤٩، مستدرك الوسائل ١٢/١١٣ ضمن ح ١٣ .

(٢) سورة المائدة ٥ : ٢٧ .

(٣) سورة البقرة ٢ : ٣٤ .

لخليفة الله بتولّيه، بل الملاحظ في واقعة إبليس ـ التي يستعرضها القرآن الكريم في سبع سور ـ أنّ كفره لم يكن شركاً بالذات الإلٰهية ولا بالصفات ولا بالمعاد ولا بالنبوّة، بل هو جحود لإمامة وخلافة آدم عليه السلام، فلم يقبل الله تعالىٰ اعتقاد إبليس، كما لم يقبل أعماله، وأطلق عليه الكفر بدل التوحيد..

والسرّ في ذلك أنّ ذروة التوحيد وسنامه ومفتاحه وبابه هو التوحيد في الولاية؛ فإنّ اليهود قائلون بالتوحيد في الذات والمعاد وهو توحيد الغاية، وبالتوحيد في التشريع وهو النبوّة، إلّا أنّهم كافرون بالتوحيد في الولاية؛ إذ قالوا: **﴿يد الله مغلولةٌ غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان﴾**[1]، فإنّهم حجبوا الذات الإلٰهية عن التصرّف في النظام البشري، وقالوا بأنّ البشر مختارين في نظامهم الاجتماعي السياسي، وأنّ الحاكمية السياسية ليست لله تعالىٰ..

وإنّك وإن أجهدت وأتعبت نفسك فلن تجد ديناً ومذهباً يعتقد بحاكمية الله تعالىٰ السياسية والتنفيذية كحاكميته تعالىٰ في التشريع والقانون، كما كان حال حكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته السياسية، التي يستعرضها القرآن الكريم؛ فإنّ الحاكم السياسي الأوّل في حكومته صلى الله عليه وآله وسلم كان هو الباري تعالىٰ في المهمّات والمنعطفات في التدبير السياسي والعسكري والقضائي، وقد اختفت حاكمية الله تعالىٰ هذه في عهد الخلفاء الثلاثة ثمّ عاودت الظهور في عهد الأمير عليه السلام، فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام محالّ مشيئة الله تعالىٰ وإراداته، فتصرّفاتهم منوطة بإرادته المتنزّلة عليهم.

---

(١) سورة المائدة ٥ : ٦٤.

فهذه الحاكمية التوحيدية لا تجد لها أثراً في مذاهب المسلمين، فضلاً عن الأديان الأُخرىٰ المحرّفة، سوىٰ مذهب أهل البيت عليهم السلام، فمن ثمّ كانت الإمامة والولاية هي مظهر ومجلىٰ التوحيد في الولاية، وكان الاعتقاد بها هو كمال التوحيد وذروته وسنامه؛ إذ أنّ تجميد التوحيد في الذات أو في الصفات أو في التشريع أو في المعاد ـ إنّ إليه الرجعىٰ والمنتهىٰ ـ تعطيل له، ولا تظهر ثمرته إلّا بظهوره في الولاية والحاكمية في مسيرة البشر.

ويمكن ملاحظة اشتراط الولاية في صحّة الاعتقاد، فضلاً عن الأعمال، في جلّ الآيات الواردة في ولاية أهل البيت عليهم السلام، وكذلك في كثير من الروايات..

*** أمّا الآيات:**

فنظير قوله تعالىٰ: ﴿ **يا أيّها الرسولُ بلّغْ ما أُنْزِلَ إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالتَهُ واللهُ يعصِمك من الناس إنّ الله لا يهدي القومَ الكافرين** ﴾[1]..

فإنّه تعالىٰ قد نفىٰ تبليغ الرسالة ـ من الأساس ـ مع عدم إبلاغ ولاية عليّ عليه السلام للناس، وهو يقتضي عدم الاعتداد بتوحيد الناس للذات الإلٰهية وبإقرارهم بالمعاد والنبوّة من دون ولاية عليّ عليه السلام، أي أنّ التوحيد في جميع أبوابه وأركانه وحدة واحدة: توحيد الذات، وتوحيد الغاية والخلوص، وتوحيد التشريع، وتوحيد الولاية.

---

(١) سورة المائدة ٥: ٦٧.

ولازم الكفر والإشراك في مقام من مقامات التوحيد هو الكفر والإشراك الخفي المبطّن في بقية المقامات، وذيل الآية صريح في ترتّب الكفر علىٰ ذلك في مقابل الإيمان، لا ما يقابل ظاهر الإسلام؛ إذ الظاهر مترتّب علىٰ الإقرار بالشهادتين لساناً.

ونظير قوله تعالىٰ: ﴿ **اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضِيتُ لكم الإسلامَ ديناً** ﴾[1]..

فإنّ الإكمال يستعمل في تحوّل الشيء في الأطوار النوعية من نوع إلىٰ نوع، والإتمام يستعمل في انضمام الأجزاء الخارجية بعضها إلىٰ بعض، ففي التعبير عناية فائقة في كون الدين لم يكتمل طوره النوعي التام إلّا بالولاية، وأمّا النعمة الدنيوية فلا تتمّ أجزاءها إلّا بها أيضاً، وإن كان للأجزاء قوام مستقلّ، كمَن امتنع عن المحرّمات والفواحش فإنّه يتنعّم بالوقاية من مفاسدها الدنيوية، وهذا ممّا يبيّن الاختلاف الماهوي بين الإسلام في ظاهر اللسان وبين الإيمان في مكنون القلب ومقام العمل وهو الإسلام بوجوده الحقيقي.

ثمّ إنّ في الآية تقييد رضا الربّ بكون الإسلام ديناً بالولاية، فالإسلام من توحيد الذات والتشريع (النبوّة) والمعاد وتوحيد الغاية معلّق رضا الربّ به بشرطية الولاية، فضلاً عن العمل بفرائض الفروع.

ونظير ذلك: ما في سورة الحمد (الفاتحة)..

فالمصلّي عندما يقرّ لربّه في النصف الأوّل من السورة بالتوحيد في الذات ﴿ **الحمد لله ربّ العالمين** ﴾، والصفات ﴿ **الرحمٰن الرحيم** ﴾، وفي

---

(١) سورة المائدة ٥: ٣.

الغاية والمعاد ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ ، وفي التشريع ﴿ **إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** ﴾ في جميع الأُمور في الحياة الفردية والاجتماعية ؛ فإنّه يعود في النصف الثاني من السورة ليطلب الهداية إلىٰ الصراط المستقيم ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ .

فإنّ كلّ ما تقدّم من إقراره وتسليمه بالعقائد الحقّة لم يكفه حتّىٰ يثمر ذلك في طيّه صراط التوحيد المستقيم ، وهو صراط ثلّة في هذه الأُمّة ومجموعة موصوفة بثلاث صفات : ﴿ **صراط الّذين أنعمت عليهم** ﴾ أي منعم عليهم بنعمة خاصّة لهم دون سائر الأُمّة وهي نعمة الاصطفاء والاجتباء ، كما في الاستعمال القرآني لاصطفاء الأنبياء والأوصياء .

وفي هذه الأُمّة قد أنعم الباري تعالىٰ علىٰ أهل البيت عليهم‌السلام قربىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالتطهير الخاص بهم ، وأنّهم الّذين يمسّون ويصلون إلىٰ الوجود الغيبي العلوي للقرآن في الكتاب المكنون في اللوح المحفوظ .

والصفة الثانية : ﴿ **غير المغضوب عليهم** ﴾ ، وهي العصمة العملية ، فلا يغضبون ربّهم قطّ .

والصفة الثالثة : ﴿ **ولا الضالّين** ﴾ ، وهي العصمة العلمية . .

فجعل الولاية لهؤلاء ثمرة لإقرار المصلّي بالتوحيد في المواطن الأربعة في النصف الأوّل من السورة .

ونظير ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربىٰ** ﴾ . .

فإنّه جعل مودّة وآتّباع وتولّي قربىٰ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عدل كلّ الرسالة المتضمّنة لتوحيد الذات والصفات والتشريع والغاية لبيان أنّ توحيد الولاية هو ثمرة التوحيد في سائر المقامات ، وهو الذروة والسنام ، وقد أشار إلىٰ

ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّهم: «أخذوا بالشجرة وضيّعوا الثمرة»[١].

وكذلك سائر الآيات الواردة في ولايتهم عليهم السلام تبيّن هذه الحقيقة الدينية..

* وأمّا الروايات:

فقد روىٰ الفريقان مستفيضاً عنه صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «لو أنّ عبداً عبد بين الركن والمقام ألف عام ثمّ ألف عام ولم يحبّنا أهل البيت أكبّه الله علىٰ منخريه في النار»[٢].

وأخرج الطبراني في **الأوسط**، أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الزموا مودّتنا أهل البيت، فإنّه من لقىٰ الله عزّ وجلّ وهو يودّنا دخل الجنّة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلّا بمعرفة حقّنا»[٣].

وفي كثير من طرق العامّة: «وكان مبغضاً لعليّ بن أبي طالب وأهل البيت [أو: آل محمّد] أكبّه...»[٤].

نعم، في غالب الطرق الوارد فيها: «مبغضاً» جعل الجزاء دخول

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة القاصعة.

(٢) شرح إحقاق الحقّ ٩/٤٩١.

(٣) المعجم الأوسط ٣/٢٦ ح ٢٢٥١؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٧٢، وابن حجر في **الصواعق**، والنبهاني في الشرف المؤبّد: ٩٦، والحضرمي في رشفة الصادي: ٤٣.

(٤) لاحظ: شرح إحقاق الحقّ ٩/٤٩٢ ـ ٤٩٤، و١٥/٥٧٩، و١٨/٤٤٨، و٢٠/٢٩٠ ـ ٣١٥، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/١٤٩، الغدير ٢/٣٠١، و٩/٢٦٨..
وأخرجه الطبراني والسيوطي والثعلبي والنبهاني، وابن حجر في الصواعق: ١٧٢. وغيرهم.

النار، وفي الطرق الوارد فيها: «عدم محبّتهم»، أو: «عدم معرفتهم»، أو: «عدم ولايتهم» جعل الجزاء عدم قبول عمله وصيرورته هباءً منثوراً.

وهكذا في طرقنا؛ ففي صحيح محمّد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «كلّ مَن دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحيّر، والله شانئ لأعماله... وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق..

واعلم يا محمّد! إنّ أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا، فأعمالهم التي يعملونها ﴿**كرمادٍ اشتدّت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ لا يقدِرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد**﴾[1]»[2].

وفي رواية عبد الحميد بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، قال: «والله لو أنّ إبليس سجد لله بعد المعصية والتكبّر عمر الدنيا ما نفعه ذلك، ولا قبله الله عزّ وجلّ؛ ما لم يسجد لآدم كما أمره الله عزّ وجلّ أن يسجد له، وكذلك هذه الأُمّة العاصية، المفتونة بعد نبيّها صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد تركهم الإمام الذي نصّبه نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم لهم، فلن يقبل الله لهم عملاً، ولن يرفع لهم حسنة، حتّى يأتوا الله من حيث أمرهم، ويتولّوا الإمام الذي أُمروا بولايته، ويدخلوا من الباب الذي فتحه الله ورسوله لهم»..

وفي رواية ميسر: «ثمّ لقي الله بغير ولايتنا لكان حقيقاً على الله عزّ وجلّ أن يكبّه على منخريه في نار جهنّم»[3].

---

(١) سورة إبراهيم ١٤ : ١٨ .
(٢) الكافي ١/١٤٠ ح ٨، الوسائل ١/١١٨ ح ٢٩٧ .
(٣) عقاب الأعمال : ٢٥٠ ذيل ح ١٦، الوسائل ١/١٢٣ ذيل ح ٣١٢ .

وفي رواية أُخرىٰ : «ولم يعرف حقّنا وحرمتنا أهل البيت لم يقبل الله منه شيئاً أبداً»[١] ، ومثلها رواية المفضّل[٢] .

وفي صحيح آخر لمحمّد بن مسلم ، عن أحدهما عليه‌السلام ، قال : قلت : إنّا لنرىٰ الرجل له عبادة وآجتهاد وخشوع ولا يقول بالحقّ ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ !

فقال : «يا أبا محمّد ! إنّما مثل أهل البيت مثل أهل بيت كانوا في بني إسرائيل ، كان لا يجتهد أحد منهم أربعين ليلة إلّا دعا فأُجيب ، وإنّ رجلاً منهم اجتهد أربعين ليلة ثمّ دعا فلم يستجب له ، فأتىٰ عيسىٰ بن مريم عليه‌السلام يشكو إليه ما هو فيه ويسأله الدعاء ، قال : فتطهّر عيسىٰ وصلّىٰ ثمّ دعا الله عزّ وجلّ ، فأوحىٰ الله عزّ وجلّ إليه : يا عيسىٰ بن مريم ! إنّ عبدي أتاني من غير الباب الذي أُوتىٰ منه ، إنّه دعاني وفي قلبه شكّ منك ، فلو دعاني حتّىٰ ينقطع عنقه وتنتثر أنامله ما استجبت له . قال : فالتفت إليه عيسىٰ عليه‌السلام فقال : تدعو ربّك وأنت في شكّ من نبيّه ؟ ! فقال : يا روح الله وكلمته ! قد كان والله ما قلت ، فادع الله لي أن يذهب به عنّي . قال : فدعا له عيسىٰ عليه‌السلام فتاب الله عليه وقبل منه وصار في حدّ أهل البيت»[٣] .

وقد جعل تعالىٰ مودّة ذوي القربىٰ سبيلاً إليه فقال : **﴿ ما أسألكم عليه من أجرٍ إلّا مَن شاء أن يتّخذَ إلىٰ ربّه سبيلاً ﴾**[٤] ، وقد قال تعالىٰ : **﴿ وآبتغوا إليه الوسيلةَ ﴾**[٥] ، فلم يكن التعبير : «فابتغوه» بل : «ابتغوا

---

(١) علل الشرايع : ٢٥٠ ح ٧ ، الوسائل ١ / ١٢٣ ذيل ح ٣١٠ .
(٢) عقاب الأعمال : ٢٤٤ ذيل ح ٣ ، الوسائل ١ / ١٢٤ ح ٣١٤ .
(٣) الكافي ٢ / ٢٩٤ ح ٩ .
(٤) سورة الفرقان ٢٥ : ٥٧ .
(٥) سورة المائدة ٥ : ٣٥ .

الوسيلة إليه»، وقال تعالىٰ: ﴿ولله الأسماءُ الحُسْنىٰ فادْعوهُ بها﴾[1]، فجعل الأسماء أبواباً لدعوته، والاسم آية للمسمّىٰ وليس عينه.

الثامنة:

في تحديد معنىٰ المستضعف وذوي العذر من الضلّال القصّر؛ فقد وردت عدّة آيات في تحديده:

في قوله تعالىٰ: **﴿إلّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأُولئك عسىٰ اللهُ أن يعفوَ عنهم وكان الله عفوّاً غفوراً﴾**[2]، فالآية تعدّد عدم قدرتهم علىٰ الوسيلة، وعدم دركهم السبيل إلىٰ الحقّ.

وقوله تعالىٰ: **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسىٰ الله أن يتوبَ عليهم إنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾**[3].

وقوله تعالىٰ: **﴿وآخرونَ مُرْجوْنَ لأمْر الله إمّا يُعذّبُهم وإمّا يتوبُ عليهم واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾**[4]..

فالآية الأُولىٰ من البراءة تحدّده بالاعتراف بالذنوب، وهذا نوع ونمط من التوبة والإيمان بالحقّ والإعراض عن الضلال.

ووردت أيضاً روايات عديدة في تحديده:

في رواية ابن الطيّار عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن المستضعف، فقال: «هو الذي لا يستطيع حيلة الكفر فيكفر، ولا يهتدي

(١) سورة الأعراف ٧: ١٨٠.

(٢) سورة النساء ٤: ٩٨ ـ ٩٩.

(٣) سورة التوبة (براءة) ٩: ١٠٢.

(٤) سورة التوبة (براءة) ٩: ١٠٦.

سبيلاً إلىٰ الإيمان فيؤمن، لا يستطيع أن يؤمن ولا يستطيع أن يكفر، فهم الصبيان، ومَن كان من الرجال والنساء علىٰ مثل عقول الصبيان، ومن رُفع عنه القلم»(١).

وروىٰ أيضاً، قال: قال أبو عبـد الله عليه السلام: «المرجون لأمر الله قـوم كانوا مشركين قتلوا حمزة وجعفر وأشباههما من المؤمنين ثمّ دخلوا بعده في الإسلام، فـوحّدوا الله وتـركوا الشـرك، ولم يـعرفوا الإيـمان بـقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنّة، ولم يكونوا علىٰ جحودهم فتجب لهم النار، فهم علىٰ تلك الحالة مرجون لأمر الله إمّا يـعذّبهم وإمّـا يـتوب عليهم»(٢)..

وظاهر الرواية الثانية أنّ «المُرجأ» هو الذي أسلم ولم يؤمن، نـظير قوله تعالىٰ: **﴿ قالت الأعرابُ آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبِكم ﴾**(٣).

وروىٰ الحلبي عن أبي عبـد الله عليه السلام، قال: «الناس علىٰ ستّ فرق: مستضعف، ومؤلّف، ومرجىٰ، ومعترف بذنبه، وناصب، ومؤمن»(٤).

وروىٰ عـبـد الغـفّار الجازي عـن أبـي عـبـد الله عليه السلام، قـال: «إنّ المستضعفين ضروب يخالف بعضهم بعضاً، ومَن لم يكن من أهل القبلة ناصباً فهو مستضعف»(٥)..

وهذه الرواية تبيّن أنّ القصور علىٰ درجات عديدة، شـدّة وضعفاً،

---

(١) تفسير القمّي ١/١٤٩، بحار الأنوار ٧٢/١٥٧ ح ١.
(٢) تفسير القمّي ١/٣٠٤ ـ ٣٠٥، بحار الأنوار ٧٢/١٥٧.
(٣) سورة الحجرات ٤٩: ١٤.
(٤) الخصال: ٣٣٣ ح ٣٤، بحار الأنوار ٧٢/١٥٨ ح ٤.
(٥) معاني الأخبار: ٢٠٠ ح ١، بحار الأنوار ٧٢/١٥٩ ح ٨.

وهو هكذا عقلاً، والضابطة فيه: أن لا يكون ناصباً، وهي تشير إلىٰ اشتراط انتفاء درجات نصب العداء التي قد فسّرت في روايات عديدة بأنّ منها: معاداة الشيعة لكونهم أتباع أهل البيت عليهم السلام، ومنها: تولّي أصحاب السقيفة والائتمام بهم، ومنها: بغض أهل البيت قلباً وإن لم يكن لساناً، ومنها: إنكار وجحد فضائل أهل البيت عليهم السلام، وستأتي الروايات في ذلك.

وفي رواية سفيان بن السمط، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في المستضعفين؟ فقال لي شبهاً بالمفزّع: «وتركتم أحداً يكون مستضعفاً؟! وأين المستضعفون؟! فو الله لقد مشىٰ بأمركم هذا العواتق إلىٰ العواتق في خدورهنّ، وتحدّث به السقايات بطرق المدينة»[1].

وروىٰ عمرو بن إسحاق، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام: ما حدّ المستضعف الذي ذكره الله عزّ وجلّ؟ قال: «مَن لا يحسن سورة من القرآن وقد خلقه الله عزّ وجلّ خلقة ما ينبغي له أن لا يحسن»[2]؛ والحدّ في هذه الرواية من هو متخلّف عقلياً.

وفي رواية حمران، قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**إلّا المستضعفين**﴾؟ قال: «هم أهل الولاية»، قلت: وأي ولاية؟! فقال: «أما إنّها ليست بولاية في الدين ولكنّها الولاية في المناكحة والموارثة والمخالطة، وهم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفّار، وهم المرجون لأمر الله عزّ وجلّ»[3].

وروىٰ سليمان بن خالد، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول

---

(١) معاني الأخبار: ٢٠١ ح ٦، بحار الأنوار ٧٢/ ١٦٠ ح ١١.
(٢) معاني الأخبار: ٢٠٢ ح ٧، بحار الأنوار ٧٢/ ١٦٠ ح ١٢.
(٣) مرّت تخريجات الحديث في ص ١٠٦.

الله عزّ وجلّ: ﴿**إلّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان**﴾.. الآية؟ قال: «يا سليمان! في هؤلاء المستضعفين مَن هو أثخن رقبة منك، المستضعفون قوم يصومون ويصلّون، تعفّ بطونهم وفروجهم، لا يرون أنّ الحقّ في غيرنا [غيرها] آخذين بأغصان الشجرة، ﴿**فأُولئك عسىٰ الله أن يعفوَ عنهم**﴾؛ إذ كانوا آخذين بالأغصان وإن لم يعرفوا أُولئك، فإن عفىٰ عنهم فبرحمته، وإن عذّبهم فبضلالتهم عمّا عرّفهم»[1]..

وعلىٰ نسخة: «غيرها»؛ يكون المعنىٰ: لا يرون أنّ الحقّ في غير الأعمال الصالحة، كالصوم والصلاة والعفّة، ولا يعرفون حقائق الإيمان والولاية، فعسىٰ أن يعفو الله تعالىٰ عنهم بأخذهم بتلك الأعمال وبعد امتحانهم ـ كما تقدّم في مستفيض الروايات ـ وإن لم يعرفوا أُولئك أصحاب السقيفة بالباطل، فإن عفىٰ عنهم بعد الامتحان فبرحمته، وإن عذّبهم فبضلالتهم عن حقيقة الإيمان التي عرّفها لهم، ومَن هو أثخن رقبة منك، أي الساذج البله..

وعلىٰ نسخة: «غيرنا»؛ أي: لا يرون أنّ الحقّ في غيرنا، ولكنّهم لم يعرفوا أصحاب السقيفة بالباطل، فلديهم تولّي ولكن ليس لديهم تبرّي.

وفي موثّق سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن المستضعفين؟ فقال: «البلهاء في خدرها والخادم تقول لها: صلِّ فتصلّي لا تدري إلّا ما قلت لها، والجليب المجلوب، وهو الخادم الذي لا يدري إلّا ما قلت له، والكبير الفاني، والصبي الصغير، هؤلاء المستضعفين، فأمّا رجل شديد العنق، جدل خصم، يتولّىٰ الشراء والبيع، لا تستطيع أن تغبنه

---

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٢٧٠ ح ٢٥٠، معاني الأخبار: ٢٠٢ ح ٩، بحار الأنوار ٧٢/ ١٦١ ح ١٤.

في شيء تقول: هذا مستضعف؟! لا ولا كرامة»[١].

وروىٰ الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مَن عرف الاختلاف فليس بمستضعف»[٢]، وفي رواية أبي بصير: «مَن عرف اختلاف الناس...»[٣].

وفي رواية سليم بن قيس في جواب أمير المؤمنين عليه السلام للأشعث بن قيس؛ قال الأشعث ـ رأس الفتنة ـ: والله لئن كان الأمر كما تقول لقد هلكت الأُمّة غيرك وغير شيعتك؟!

قال: «فإنّ الحقّ والله معي يا ابن قيس كما أقول، وما هلك من الأُمّة إلّا الناصبين والمكابرين والجاحدين والمعاندين، فأمّا من تمسّك بالتوحيد والإقرار بمحمّد والإسلام، ولم يخرج من الملّة، ولم يظاهر علينا الظلمة ولم ينصب لنا العداوة، وشكّ في الخلافة ولم يعرف أهلها وولاتها، ولم يعرف لنا ولاية ولم ينصب لنا عداوة، فإنّ ذلك مسلم مستضعف يرجىٰ له رحمة الله ويُتخوّف عليه ذنوبه»[٤]..

فذكر عليه السلام للمستضعف تسعة قيود لفظاً قد ترجع خمسة منها إلىٰ أن لا يتوالىٰ أعداء أهل البيت، والغاصبين للخلافة، ويكون شاكّاً، ولا يظاهر عليهم النصّاب.

وروىٰ في **مستطرفات السرائر** مسائل محمّد بن علىٰ بن عيسىٰ مكاتبة لمولانا أبي الحسن الهادي عليه السلام، قال: كتبت إليه أسأله عن الناصب،

---

(١) تفسير العيّاشي ١/٢٧٠ ح ٢٥١، معاني الأخبار: ٢٠٣ ح ١٠، بحار الأنوار ٧٢/١٦١ ح ١٥.
(٢) معاني الأخبار: ٢٠٠ ح ٢، بحار الأنوار ٧٢/١٦٢ ح ١٧.
(٣) معاني الأخبار: ٢٠١ ح ٣، بحار الأنوار ٧٢/١٦٢ ح ١٨.
(٤) كتاب سليم بن قيس الكوفي ٢/٦٧٠ ضمن ح ١٢، بحار الأنوار ٧٢/١٧٠ ح ٣٦.

هل أحتاج في امتحانه إلىٰ أكثر من تقديمه الجبت والطاغوت واعتقاده بإمامتهما ؟! فرجع الجواب : «مَن كان علىٰ هذا فهو ناصب»[١] .

وروىٰ في **العلل** ، بسنده إلىٰ عبد الله بن سنان ، عن الصادق عليه السلام ، قال : «ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت ؛ لأنّك لا تجد رجلاً يقول : أنا أبغض محمّداً وآل محمّد ، ولكنّ الناصب مَن نصب لكم وهو يعلم أنّكم تتولّونا وأنّكم من شيعتنا»[٢] .

وروىٰ المعلّىٰ بن الخنيس ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : «ليس الناصب مَن نصب لنا أهل البيت ، لأنّك لا تجد أحداً يقول : أنا أبغض محمّداً وآل محمّد ، ولكنّ الناصب مَن نصب لكم وهو يعلم أنّكم تتولّونا وتتبرؤون من أعدائنا»[٣] .

وروي في **الأمالي** عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : «من سرّه أن يعلم أمحبّ لنا أم مبغض ؟! فليمتحن قلبه ، فإن كان يحبّ وليّاً لنا فليس بمبغض لنا ، وإن كان يبغض وليّاً لنا فليس بمحبّ لنا»[٤] .

وروي في **تفسير العسكري** عن السجّاد ـ عليهما السلام ـ قال : «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ما من عبد ولا أمَة زال عن ولايتنا ، وخالف طريقتنا ، وسمّىٰ غيرنا بأسمائنا وأسماء خيار أهلنا ، الذي اختاره الله للقيام بدينه ودنياه ، ولقّبه بألقابنا ، وهو كذلك يلقّبه معتقداً ، لا يحمله علىٰ ذلك تقيّة خوف ، ولا تدبير مصلحة دين ، إلّا بعثه الله يوم القيامة ومَن كان قد اتّخذه

---

(١) مستطرفات السرائر ٣ / ٥٨٣ .
(٢) علل الشرائع : ٦٠١ ح ٦٠ ، طبعة النجف الأشرف .
(٣) معاني الأخبار : ٣٦٥ ح ١ .
(٤) الأمالي ـ للشيخ المفيد ـ : ٣٣٤ ح ٤ ، الأمالي ـ للشيخ الطوسي ـ : ١١٣ ح ١٧٢ ، بحار الأنوار ٢٧ / ٥٣ ح ٦ .

من دون الله وليّاً وحشر إليه الشياطين الّذين كانوا يغوونه فقال له: يا عبدي! أربّاً معي هؤلاء كنت تعبد؟! وإيّاهم كنت تطلب؟! فمنهم فاطلب ثواب ما كنت تعمل، لك معهم عقاب إجرامك»(١).

فيتحصّل أنّ الناصب علىٰ أقسام والمستضعف علىٰ درجات، كلّها خارجة عن التقصير، ولا يندرج فيه الموالي لأئمّة الضلال، ومن ثمّ روي عنهم عليهم السلام: «الناجون من النار قليل؛ لغلبة الهوىٰ والضلال»(٢)، ومفاده: في النجاة من النار، لا النجاة من الخلود، وبينهما بون كما مرّ.

التاسعة:

إنّ شرطية النجاة بالولاية لا تعني التواكل في العمل، وإنّما تعني أهمّية الولاية وأهمّية هذا المقام التوحيدي، فإنّ روح العمل وقوامه بالنيّة؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما الأعمال بالنيّات»(٣)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نيّة المؤمن خير من عمله»(٤).

وقد روىٰ العسكري عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال لبعض أصحابه ذات يوم: يا أبا عبد الله! أحبّ في الله وأبغض في الله، ووالِ في الله وعادِ في الله؛ فإنّه لا تنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتّىٰ يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادّون وعليها

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٥٧٩ ح ٣٤١.

(٢) مرّت تخريجات الحديث في ص ١١٢.

(٣) دعائم الإسلام ١/١٥٦، الهداية ـ للشيخ الصدوق ـ: ٦٢، الأمالي ـ للشيخ الطوسي ـ: ٦١٨ ضمن ح ١٢٧٤.

(٤) الكافي ٢/٦٩ ح ٢، علل الشرائع: ٥٢٤ ح ١.

يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً»[١].

فكما أنّ أهمّية الولاية لا تعني التفريط في العمل والتهاون فيه، فكذلك صلاح العمل في صورته وقالبه لا يعني التفريط بالولاية والإيمان، إذ أنّ الولاية لهم عليهم‌السلام هي توحيد الولاية له تعالىٰ وإخلاص له في التولّي.

ومن ثمّ أكّدت عدّة آيات وروايات علىٰ خواء العمل بدونها، وإنّه هباءً منثوراً؛ قال تعالىٰ: ﴿ **مثلُ الّذين كفروا بربّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدّتْ به الريحُ في يومٍ عاصفٍ لا يقدرون ممّا كسبوا علىٰ شيءٍ ذلك هو الضلالُ البعيد** ﴾[٢]..

وقال: ﴿ **وقدِمْنا إلىٰ ما عمِلوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾[٣]..

وقال: ﴿ **والّذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتّىٰ إذا جاءَهُ لم يجِدْهُ شيئاً** ﴾[٤]..

وقال: ﴿ **يحْسَبونَ أنّهم يُحْسِنون صُنْعاً** ﴾[٥]..

وقال: ﴿ **ويحْسَبونَ أنّهم علىٰ شيءٍ ألا إنّهم هم الكاذبون** ﴾[٦].

العاشرة:

إنّ مفاد الحديث النبوي المعروف بين الفريقين بـ: «حديث الفرقة

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه‌السلام: ٤٩ ضمن ح ٢٢، عيون أخبار الرضا عليه‌السلام ١/٢٩١ ح ٤١، علل الشرائع: ١٤٠ ح ١، الأمالي ـ للشيخ الصدوق ـ: ٦١ ح ٢١، معاني الأخبار: ٣٧ ضمن ح ٩ و ٣٩٩ ح ٥٨، بحار الأنوار ٢٧/٥٤ ح ٨.

(٢) سورة إبراهيم ١٤: ١٨.

(٣) سورة الفرقان ٢٥: ٢٣.

(٤) سورة النور ٢٤: ٣٩.

(٥) سورة الكهف ١٨: ١٠٤.

(٦) سورة المجادلة ٥٨: ١٨.

الناجية» هو الدعوة لتمييزها ومعرفتها كي تُتّبع، والنهي عن اتّباع غيرها، وعن التوقّف والتبلبل والحيرة والاضطراب..

روىٰ الشيخ المفيد بسنده عن سلمان رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تفترق أُمّتي ثلاث فرق: فرقة علىٰ الحقّ لا ينقص الباطل منه شيئاً، يحبّونني ويحبّون أهل بيتي، مثلهم كمثل الذهب الجيّد كلّما أدخلته النار فأوقدت عليه لم يزده إلّا جودة، وفرقة علىٰ الباطل لا ينقص الحقّ منه شيئاً، يبغضونني ويبغضون أهل بيتي، مثلهم مثل الحديد كلّما أدخلته النار فأوقدت عليه لم يزده إلّا شرّاً، وفرقة مدهدهة، علىٰ ملّة السامري، لا يقولون: لا مساس، لكنّهم يقولون: لا قتال، إمامهم عبد الله بن قيس الأشعري»[1]..

ويشير صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ اضطراب الفرقة الثالثة، وأنّ شعارهم: «لا قتال»، أي: لا فيصلة بين الحقّ عن الباطل، ويمزجون المذاهب والمسارات، مدهدهة البصيرة[2].

وروي ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام، إلاّ أنّه وصف الفرقة المذبذبة بأنّها شرّ الفرق؛ فقال: «إنّ هذه الأُمّة تفترق علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، فرقة واحدة منها في الجنّة وأثنتان وسبعون في النار، وشرّها فأبغضها إلىٰ الله وأبعدها منه السامرة، الّذين يقولون: «لا قتال» وكذبوا، وقد أمر الله عزّ وجلّ بقتال هؤلاء الباغين في كتابه وسُنّة نبيّه، وكذلك المارقة»[3].

---

(١) الأمالي ـ للشيخ المفيد ـ: ٢٩ ح ٣.
(٢) مناقب عليّ بن أبي طالب ـ لابن مردويه ـ: ١٢٤ ح ١٥٧، بحار الأنوار ٢٨ / ٩ - ١٠ ح ١٢ و ١٦.
(٣) كتاب سليم بن قيس الكوفي ٢ / ٦٦٣ ضمن ح ١٢.

وروىٰ في **كشف الغُمّة** أنّ عليّ بن الحسين عليه‌السلام قال: «قد انتحلت طوائف من هذه الأُمّة ـ بعد مفارقتها أئمّة الدين والشجرة النبوية ـ إخلاص الديانة وأخذوا أنفسهم في ضحائل الرهبانية و... حتّىٰ إذا طال عليهم الأمد وبعدت عليهم الشقّة وآمتحنوا بمحن الصادقين رجعوا علىٰ أعقابهم ناكصين...

وذهب آخرون إلىٰ التقصير في أمرنا، وآحتجّوا بمتشابه القرآن، فتأوّلوا بآرائهم، وآتّهموا مأثور الخبر ممّا استحسنوا، يقتحمون في أغمار الشبهات ودياجير الظلمات بغير قبس نور من الكتاب، ولا أثرة علم من مظانّ العلم، بتحذير مثبطين زعموا أنّهم علىٰ الرشد من غيّهم..

وإلىٰ مَن يفزع خلف هذه الأُمّة، وقد درست أعلام الملّة، ودانت الأُمّة بالفرقة والاختلاف يكفّر بعضهم بعضاً، والله تعالىٰ يقول: **﴿ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا وآختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات﴾**[1]؟! فمَن الموثوق به علىٰ إبلاغ الحجّة وتأويل الحكمة، إلّا أهل الكتاب وأبناء أئمّة الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ؟!...»[2].

الحادية عشرة:

إنّ جملة من أتباع الشيخين قد ذهبوا إلىٰ وجود النصّ من النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليهما..

قال التفتازاني: المبحث الرابع: الجمهور علىٰ انّه (صلّىٰ الله عليه [وآله] وسلّم) لم ينصّ علىٰ إمام، وقيل: نصّ علىٰ أبي بكر (رض) نصّاً

---

(١) سورة آل عمران ٣: ١٠٥.

(٢) كشف الغمّة ٢/٩٨ ـ ٩٩، بحار الأنوار ٢٧/١٩٣ ح ٥٢.

خفيّاً، وقيل: جليّاً.

وقالت الشيعة: على عليّ (كرّم الله وجهه) خفيّاً، والإمامية منهم: جليّاً أيضاً[١]. انتهى.

وقال في شرح كلامه السابق: ذهب جمهور أصحابنا والمعتزلة والخوارج إلى أنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم لم ينصّ على إمام بعده، وقيل: نصّ على أبي بكر؛ فقال الحسن البصري: نصّاً خفيّاً، وهو تقديمه إيّاه في الصلاة، وقال بعض أصحاب الحديث: نصّاً جليّاً[٢].

ثمّ إنّ التفتازاني يناقض نفسه؛ فمع إنكاره للقول بالنصّ يستدلّ على إمامة أبي بكر بالنصّ!!

قال: المبحث الخامس: الإمام بعد رسول الله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم أبو بكر، وقالت الشيعة: عليّ.

لنا إجماع أهل الحلّ والعقد... وقد يتمسّك بقوله تعالى: ﴿**قل للمخلّفين من الأعراب...**﴾[٣].. الآية، فالداعي المفترض الطاعة أبو بكر عند المفسّرين!! وعمر عند البعض!! وفيه المطلوب، وبقوله صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: اقتدوا باللّذين من بعدي: أبي بكر وعمر... ثمّ قال: يأبى الله والمسلمون إلّا أبا بكر... وبأنّ النبيّ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم استخلفه في الصلاة ولم يعزله... وهذه ظنّيات ربّما تفيد باجتماعها القطع، مع أنّ المسألة فرعية يكفي فيها الظنّ[٤].

---

(١) شرح المقاصد ٥/٢٥٨.

(٢) شرح المقاصد ٥/٢٥٩.

(٣) سورة الفتح ٤٨: ١٦.

(٤) شرح المقاصد ٥/٢٦٣ ـ ٢٦٤.

وآستدل في موضع آخر بعدّة نصوص رووها في فضائل أبي بكـر وعمر[١].

ثمّ إنّ التفتازاني ـ ككثير من متكلّمي ومحدّثي أهل سُـنّة الجماعة ـ عقد بحثاً آخر مستقلاً في ذيل الإمامة، وهو البحث عن الأفضلية في هذه الأُمّة لمَن ؟ ! وترتيبها وأدلّتها..

قال: المبحث السادس: الأفضلية عندنا بترتيب الخلافة، مـع تـردّد فيما بين عثمان وعليّ (رضي الله عنه)، وعند الشيعة وجـمهور المـعتزلة الأفضل عليّ. لنا أجمالاً[٢].

وكذلك لاحظ الأيجي في **المواقف**، والشريف الجرجاني في **شرحها** في المرصد الرابع، فإنّهما مع نفيهما للنصّ قالا في جواب النصوص علىٰ إمامة عليّ عليه السلام: «هذه النـصوص مـعارضة بـالنصوص الدالّـة عـلىٰ إمـامة أبي بكر، وهي من وجوه: الأوّل: قوله تعالىٰ: ...»، ثمّ استدلّ بعدّة آيات قرآنية ونصوص روائية[٣].

كما أنّه في المقصد الخامس من المرصد الرابع عـقد البـحث فـي الأفضلية.

هــذا، والإمــعان فــي كـلماتهم فـي عـدالة الصـحابة وفـضائلهم، وبالخصوص أصحاب السقيفة، وبالأخصّ الشيخين، يدلّ بـوضوح عـلىٰ أنّهم يستدلّون بها بنحوٍ يوازي الاستدلال بالعصمة وآمتناع ارتكاب الباطل، إلّا أنّهم يغلّفوها بعبارات وعناوين عائمة غائمة تغطية للمعنىٰ المستدلّ به

---

(١) فلاحظ: شرح المقاصد ٥/٢٩٢ ـ ٢٩٤.

(٢) شرح المقاصد ٥/٢٩٠.

(٣) شرح المواقف ٨/٣٦٣.

بألفاظ أُخرىٰ كي تتم المغالطة وتنطوي، وهذا النمط من الاستدلال من أوسع أنواع صناعة المغالطة مضافاً إلىٰ اضطراب حدود المعاني بتوسّط هذا النمط من الاستدلال، كما أنّهم إذا ضاق بهم الخناق في الاستدلال والجواب عن دلائل إمامة عليّ عليه السلام تراهم يتأمّلون في كون عصمة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مطلقة..

لاحظ مثلاً: ما ذكر الأيجي في **المواقف** عن الاستدلال بـ: «فاطمة بضعة منّي»[1]. وهذه هي عاقبة الأمر، وقد رووا: إنّ عمر محدَّث هذه الأُمّة!! و: لو كان نبيّاً بعدي لكان عمر!!!

الثانية عشرة:

هناك طوائف عديدة من الروايات بألفاظ مختلفة تنهىٰ عن الذوبان في المخالفين والتسيّب في مخالطتهم، وتأمر بالتحفّظ في كيفية التعايش معهم، وهذه الطوائف متوافقة مع الطوائف الأُخرىٰ الآمرة بالمداراة لهم والتعامل معهم بالحسن والتجمّل؛ لأنّ الأُولىٰ تحدّد هذا التعامل بكونه سطحيّاً لا في العمق، والثانية إنّما تحثّ علىٰ حسن التعامل علىٰ صعيد السطح..

منها: صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه أتاه قوم من أهل خراسان من ما وراء النهر فقال لهم: «تصافحون أهل بلادكم وتناكحونهم، أما إنّهم إذا صافحتموهم انقطعت عروة من عرىٰ الإسلام وإذا ناكحتموهم انتهك الحجاب فيما بينكم وبين الله عزّ وجلّ»[2].

---

(١) المواقف ٣/٦٠٧ ـ ٦١٠.

(٢) الكافي ٥/٣٥٢ ح ١٧.

وفي موثّق زرارة عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : كانت تحته امرأة من ثقيف وله منها ابن يقال له : إبراهيم ، فدخلت عليها مولاة لثقيف فقالت لها : من زوجك هذا ؟ قالت : محمّد بن علي . قالت : فإنّ لذلك أصحاباً بالكوفة قوم يشتمون السلف ويقولون . قال : فخلّى سبيلها ، فرأيته بعد ذلك قد استبان عليه وتضعضع من جسمه شيء .. الحديث[١] .

وفي صحيح عبد الله بن سنان ، عن أبي عبد الله عليه السلام ـ في حديث ـ : «ولا يتزوج المستضعف المؤمنة»[٢] .

وفي موثّق زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : تزوّجوا في الشكّاك ولا تزوّجوهم ؛ فإنّ المرأة تأخذ أدب زوجها ويقهرها على دينه»[٣] ؛ ورواها الصدوق بطريق صحيح[٤] .

وهذه الروايات في مورد النكاح وإن اختلفت أقوال الفقهاء في المنع أو الكراهة أو التفصيل ، إلّا أنّ مفادها إجمالاً يسوس باتّجاه التحفّظ عن الذوبان فيهم ، وإبقاء عازل في ضمن نظام التعايش معهم .

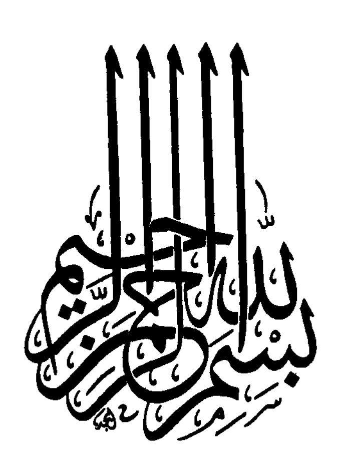
❀ ❀ ❀

---

(١) الكافي ٥/٣٥١ ح ١٣ .
(٢) الكافي ٥/٣٥١ ح ٨ .
(٣) الكافي ٥/٣٥١ ح ٥ .
(٤) من لا يحضره الفقيه ٣/٤٠٨ ح ٤٤٢٦ .

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الموالاة والبراءة	٧٩
عدم موالاة بعض البدريين	٩١
حال المسلمين في أحد	٩٥
الوجه التاريخي	١٢١
موقف الصديقة فاطمة عليها السلام تجاه الصحبة والصحابة	١٦٤
موقف الامام علي عليه السلام تجا ه الصحبة والصحابة	١٧٧
موازين التعديل والجرح في الصحابي	٢١١
المعيار القرآني والنبوي لفريضة المودة	٢١٣
في ترك القوم فريضة المودة وتبديلها بسنّة النصب والعداوة	٢٢٩
واقعتان خطيرتان في الصحبة	٢٥٣
متابعة قصاصات واقعة العقبة	٢٧٩
المظاهرة بالمكيدة	٢٩١
آفاق الوحدة الإسلامية	٣٤٤


بسم الله الرحمن الرحيم